التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة الفتح وسورة الحجرات وسورة ق

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت

أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر (مصر)

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الرابع والثلاثون

الدرر السنية

www.dorar.net

الدرر السنية

www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الفتح وسورة الحجرات وسورة ق)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية
التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الرابع والثلاثون - سورة الفتح وسورة الحجرات وسورة ق/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ
٥٤٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ٩-٠٠-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن- تفسير أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٣/٢٩٢٠

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٢٩٢٠
ردمك: ٩-٠٠-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدرر السنية
www.dorar.net
المملكة العربية السعودية
٠١٣٨٦٨٠١٢٣ ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ nashr@dorar.net
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الفتح وسورة الحجرات و سورة ق)

إعْدَادُ

القِسمِ العِلميِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشَّيخ عَلَوي بن عَبد القَادِر السَّقَّاف

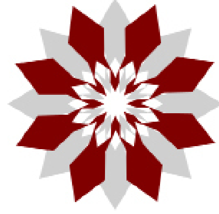
المجلد الرابع والثلاثون

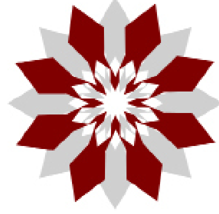
الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

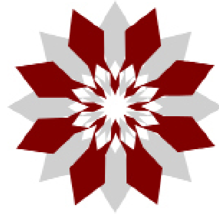
بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الفَتْحِ







سُورةُ الفَتْحِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (الفتح)[١]، وممَّا يدُلُّ على ذلك:

١- عن عبْدِ اللهِ بنِ مُغَفَّلٍ رَضِي اللهُ عنه، قال: ((قرَأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -عامَ الفَتحِ في مَسيرٍ له- سُورةَ الفَتحِ على راحِلَتِه، فرَجَّعَ في قِراءَتِه[٢]))[٣].

٢- عن سَهلِ بنِ حُنَيفٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أيُّها النَّاسُ اتَّهِموا أنفُسَكم؛ فإنَّا كُنَّا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ الحُدَيبيَةِ، ولوْ نَرى قِتالًا لقاتَلْنا ...)) إلى أنْ قال: ((فنَزَلَتْ سُورةُ الفَتحِ، فقَرَأَها رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على عُمَرَ إلى آخِرِها))[٤].

فَضائلُ السُّورةِ وخَصائصُها:

عن أَسْلَمَ العَدويِّ مَولَى عمرَ[٥]: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَسيرُ في بعضِ أسْفارِه، وعُمَرُ بنُ الخَطَّابِ يَسيرُ معه لَيْلًا، فسَأله عُمَرُ بنُ الخطَّابِ عن شَيءٍ، فلَمْ يُجِبْه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ سَأله فلَمْ يُجِبْه، ثمَّ سَأله

---

(١) وسُمِّيَتْ سورةَ الفتحِ؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٢).

(٢) التَّرجيعُ: تَرديدُ الصَّوتِ في الحَلْقِ، والجَهرُ بالقَولِ مُكَرَّرًا بعْدَ خَفائه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٤) و(١٣/ ٥١٥). ويُنظر أيضًا: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٠٢).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٤٢٨١)، ومسلمٌ (٧٩٤) واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاريُّ (٣١٨٢) واللفظ له، ومسلمٌ (١٧٨٥).

(٥) قال ابن حجر: (هذا السِّياقُ صورتُه الإرسالُ؛ لأنَّ أسلم لم يُدرِكْ زمانَ هذه القصَّةِ، لكنَّه محمولٌ على أنَّه سمِعه مِن عمرَ بدليلِ قولِه في أثنائِه: قال عمرُ: فحرَّكتُ بَعيري... إلخ). ((فتح الباري)) (٨/ ٥٨٣).

فلَمْ يُجِبْه، وقال عُمَرُ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ[١] يا عُمرُ! نَزَرْتَ رسولَ اللهِ[٢] صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ثَلاثَ مرَّاتٍ، كلُّ ذلك لا يُجيبُكَ! قال عُمرُ: فحرَّكْتُ بَعيري، ثمَّ تقدَّمْتُ أمامَ المسلمينَ، وخَشيتُ أنْ يَنزِلَ فيَّ قُرآنٌ، فما نَشِبْتُ[٣] أنْ سَمِعتُ صارخًا يَصرُخُ بي، قال: فقلْتُ: لقدْ خَشيتُ أنْ يَكونَ نزَلَ فيَّ قرآنٌ! وجِئتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فسَلَّمْتُ عليه، فقال: لقدْ أُنزِلَتْ علَيَّ اللَّيلةَ سُورةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إليَّ ممَّا طلَعَتْ عليه الشَّمْسُ[٤]، ثمَّ قرَأَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾))[٥].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الفتْحِ مَدَنيَّةٌ[٦]، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٧].

---

(١) الثَّكَل والثُّكْل: فِقدانُ المرأةِ ولَدَها. وقدْ دعا عُمَرُ على نفْسِه بسَببِ ما وقَع منه مِن الإلحاح. ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ لمْ يُرِدِ الدُّعاءَ على نفْسِه حقيقةً، وإنَّما هي مِن الألفاظِ الَّتي تُقالُ عندَ الغضبِ مِن غيرِ قَصدِ معناها. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٣).

(٢) نَزَرتُ رسولَ اللهِ: أي: ألحَحْتُ عليه في المسألةِ. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (٣/ ١٧٣٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٩٤).

(٣) فما نشِبْتُ: أي: لم أتعلَّقْ بشَيءٍ غيرَ ما ذكرْتُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٣).

(٤) أي: لِما فيها من البِشارةِ بالمغفرةِ والفتْحِ المبينِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٣).

(٥) أخرجه البخاريُّ (٤١٧٧) و(٤٨٣٣) و(٥٠١٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٠).

قال ابنُ كثير: (نزَلَتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ لَمَّا رجَعَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِنَ الحُدَيْبِيَةِ في ذي القَعدةِ مِن سَنةِ سِتٍّ مِنَ الهِجرةِ، حينَ صَدَّهُ المشركونَ عن الوُصولِ إلى المسجدِ الحرام لِيَقْضيَ عُمْرتَه فيه، وحالُوا بيْنَه وبيْن ذلك، ثمَّ مالُوا إلى المصالَحةِ والمُهادَنةِ، وأنْ يَرجِعَ عامَه هذا، ثمَّ يأتيَ مِن قابِلٍ، فأجابَهُم إلى ذلك على تَكَرُّهٍ من جماعةٍ مِنَ الصَّحابةِ؛ منهم عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضيَ اللهُ عنه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٥).

(٧) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوْزي، والقُرطبيُّ، والفيروزابادي، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) =

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

١- تَبشيرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابِه بألْوانٍ مِنَ البِشاراتِ[(١)].

٢- التَّعريفُ بالمُنافِقينَ والكافِرينَ، وبَيانُ حَقيقتِهم[(٢)].

٣- بيانُ كثيرٍ مِن مَظاهِرِ فضْلِ اللهِ ورَحمتِه بعِبادِه المؤمِنينَ[(٣)].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- بِشارةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالفَتحِ المُبينِ، ووَعْدُه بالمغفرةِ وإتمامِ النِّعمةِ عليه، وهِدايتِه ونَصْرِه.

٢- وَعْدُ المؤمِنينَ، ووَعيدُ الكافِرينَ والمُنافِقينَ.

٣- بيانُ وَظيفةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَوجيهُ المؤمِنينَ إلى واجِبِهم بعدَ تَبليغِهمُ الرِّسالةَ.

٤- الثَّناءُ على الَّذينَ بايَعوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووَعْدُهم بالنَّصرِ في الدُّنيا، والأجرِ العظيمِ في الآخِرةِ.

٥- ذِكْرُ بَيعةِ الحُدَيْبِيَةِ، وبيانُ أحوالِ المُنافِقينَ المُتخَلِّفينَ عنها، وصِفاتِهمُ السَّيِّئةِ، وما حصَلَ مِن مَنْعِهم مِنَ المشارَكةِ في غَزوةِ خَيْبَرَ، وإنبائِهم بأنَّهم سيُدْعَوْنَ

= للفيروزابادي (١/ ٤٣٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٤٩٢).

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٢)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إلى جِهادٍ آخَرَ.

٦- بَيانُ الَّذينَ يُباحُ لهمُ التَّخلُّفُ عن الجِهادِ مِن أصحابِ الأعذارِ.

٧- الحديثُ عن بَيعةِ الرِّضوانِ، والتَّنويهُ بشَأنِ مَن حضَرَها، وتَبشيرُ اللهِ بما أعَدَّ لهم مِنَ مَغانمَ كَثيرةٍ وفُتوحٍ.

٨- بَيانُ الأسبابِ الَّتي دعتِ الكُفَّارَ إلى صَدِّ المؤمنينَ عن البَيتِ الحَرامِ.

٩- تَصديقُ رُؤْيا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بدُخولِه وأصحابِه المَسجِدَ الحرامَ آمِنينَ.

١٠- بيانُ مَنزِلةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابِه، وصِفاتِهمُ الحسَنةِ في التَّوراةِ والإنجيلِ، وما أعَدَّه اللهُ لِلَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ مِنَ المَغفرةِ والأجرِ العظيمِ.



الآيات (١-٣)

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالَى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائِلًا له: إنَّا فتَحْنا لك -يا محمَّدُ- بصُلحِ الحُدَيبيَةِ فتحًا بَيِّنًا ظاهِرًا.

ثمَّ يَذكُرُ سُبحانَه مَظاهرَ فضْلِه على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيقولُ: لنَغفِرَ لك جَميعَ ذُنوبِك، ولِنُتِمَّ نِعمَتَنا عليك في الدُّنيا والآخِرة، ونَهْديَك إلى طَريقٍ مُستقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه، ونَنصُرَك على أعدائِك نَصرًا قويًّا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١)﴾.

أي: إنَّا فتَحْنا لك -يا محمَّدُ- بصُلحِ الحُدَيبيَةِ فتحًا بَيِّنًا ظاهِرًا، وحَكَمْنا وقَضَينا لك به قَضاءً مُحكَمًا عَظيمًا يَحصُلُ بسَبَبِه الخَيرُ الجَزيلُ، ويَظهَرُ به الحَقُّ المُبِينُ[(١)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٦، ٢٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

قال الزَّجَّاج: (أكثَرُ ما جاء في التَّفسيرِ أنَّه فَتحُ الحُدَيبيَةِ، وكان في فَتحِ الحُدَيبيَةِ آيةٌ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٩)، ونسَب البغَويُّ وابنُ الجوزي للأكثرينَ أنَّه صُلح الحديبيةِ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٥).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بالفَتحِ هنا: صُلحُ الحُدَيبيَةِ: الفرَّاءُ، وابنُ جَرير، والواحديُّ، وابنُ كثير، والبقاعيُّ، والسعديُّ، والشِّنقيطيُّ، ونسَبه إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء =

عن عبْدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، في قِصَّةِ الحُدَيبيَةِ قال: ((... كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا نزَل عليه الوَحيُ اشتَدَّ ذلك عليه، وعرَفْنا ذاك فيه، فتنَحَّى مُنتَبِذًا[1] خَلْفَنا، فجَعَل يُغَطِّي رأسَه بثَوبِه، ويَشتَدُّ ذلك عليه، حتَّى عرَفْنا

= (٣/ ٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٣).

قال الواحديُّ: (يعني: صُلحَ الحُدَيبيَةِ، كان فَتحًا بغيرِ قِتالٍ. قال الفَرَّاء: الفَتحُ قد يكونُ صُلحًا، ومعنى الفَتحِ في اللُّغةِ: فتَحُ المُنغَلِقِ، والصُّلحُ الذي حصَل معَ المُشرِكينَ بالحُدَيبيَةِ كان مَسدودًا مُتعَذِّرًا حتى فتَحَه اللهُ؛ قال جابرٌ: ما كُنَّا نَعُدُّ فَتحَ مكَّةَ إلَّا يومَ الحُدَيبيَةِ! وقال الزُّهْري: لم يكُنْ فَتحٌ أعظَمَ مِن صُلحِ الحُدَيبيَةِ؛ وذلك أنَّ المُشرِكينَ اختَلَطوا بالمُسلِمينَ، فسَمِعوا كلامَهم، فتمَكَّنَ الإسلامُ في قُلوبِهم، وأسلَمَ في ثلاثِ سِنينَ خَلقٌ كَثيرٌ). ((الوسيط)) (٤/ ١٣٣). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٦٤).

وعن أنسٍ رَضِيَ الله عنه قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: (الحُدَيبيَة). رواه البخاري (٤٨٣٤). وممَّن قال بنحْو هذا القولِ من السَّلف أيضًا: جابرٌ، والبَراء، ومجاهد، والضحَّاك، والشَّعبي، والزهري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٣).

وقيل: المرادُ بهذا الفَتحِ: فَتحُ مَكَّةَ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: الجَصَّاصُ، والزمخشريُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ الرَّازي، واختاره أبو حيَّان. يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصَّاص (٣/ ٥٢٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣١-٣٣٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٢).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: أنسٌ في رِوايةٍ عنه، وعائشةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٧).

وقال ابنُ عاشور: (قال جَمعٌ مِن المُفَسِّرينَ: المرادُ بالفَتحِ هنا فَتحُ مَكَّةَ، وإنَّ مَحمَلَه على الوَعدِ بالفَتحِ. والمعنى: سنَفتَحُ، وإنَّما جِيءَ في الأخبارِ بلَفظِ الماضي لتَحقُّقِه وتيَقُّنِه... وممَّا يَندرِجُ في هذا التَّفسيرِ أن يكونَ المرادُ بالفَتحِ صُلحَ الحُدَيبيَةِ تَشبيهًا له بفَتحِ مَكَّةَ؛ لأنَّه تَوطِئةٌ له). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٤).

(١) مُنتبِذًا: أي: منفرِدًا، يقال: انْتَبَذَ فلانٌ، أي: انتحَى ناحيةً. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري

أنَّه قد أُنزِلَ عليه، فأتانا فأخبَرَنا أنَّه قدْ أُنزِل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾))[١].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نزَلَت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ إلى قَولِه: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١ - ٥] مَرْجِعَه مِنَ الحُدَيبيَةِ، وهم يُخالِطُهم الحُزنُ والكآبةُ، وقدْ نَحَر الهَدْيَ بالحُدَيبيَةِ، فقال: لقدْ أُنزِلتْ علَيَّ آيةٌ هي أحَبُّ إليَّ مِن الدُّنيا جميعًا!))[٢].

وعن سَهلِ بنِ حُنَيفٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أيُّها النَّاسُ اتَّهِموا أنفُسَكم؛ فإنَّا كُنَّا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ الحُدَيبيَةِ، ولو نَرى قِتالًا لقاتَلْنا، فجاء عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ فقال: يا رَسولَ اللهِ، ألَسْنا على الحَقِّ وهمْ على الباطِلِ؟! فقال: بلَى! فقال: ألَيْس قَتْلانا في الجنَّةِ وقَتْلاهم في النَّارِ؟! قال: بلى! قال: فعَلامَ نُعطي الدَّنِيَّةَ[٣] في دِينِنا؟! أنَرجِعُ ولَمَّا يَحكُمِ اللهُ بيْنَنا وبيْنَهم؟! فقال: يا ابنَ الخَطَّابِ، إنِّي رَسولُ اللهِ، ولنْ يُضَيِّعَني اللهُ أبدًا! فانطلَقَ عُمَرُ إلى أبي بَكرٍ فقال له مِثلَ ما قال للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: إنَّه رَسولُ اللهِ، ولنْ يُضَيِّعَه اللهُ أبدًا! فنَزَلت سورةُ الفَتحِ، فقَرَأَها رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على عُمَرَ إلى

(١٤/ ٣١٧)، ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٥٧١).

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٧) مختصرًا، والنَّسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٧٧٥٣) باختلافٍ يسيرٍ، وأحمدُ (٤٤٢١) واللَّفظُ له.

قال البَزَّار في ((البحر الزخار)) (٥/ ٣٩٧): (محفوظٌ). ووَثَّق رجالَ إسنادِه البُوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٢/ ٢٣٦)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٦/ ١٩٤)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٤٢١). وصَحَّح الحديثَ مُختصَرًا الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٤٧).

(٢) رواه مسلمٌ (١٧٨٦).

(٣) الدَّنِيَّةُ: الحالةُ الخسيسةُ، والخصلةُ الناقصةُ، ويعني به: الصُّلحَ على ما شرَطوا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٣٧)، ((المفهم)) للقرطبي (٣/ ٦٤٠)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٤١).

آخِرِها. فقال عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، أوَفَتحٌ هو؟! قال: نعمْ))[١].

وعن أسلَمَ مَولى عُمَرَ: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَسيرُ في بَعضِ أسفارِه، وعُمَرُ بنُ الخَطَّابِ يَسيرُ معه ليلًا، فسَأله عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ عن شَيءٍ فلم يُجِبْه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ سَأله فلم يُجِبْه، ثمَّ سَأله فلم يُجِبْه، فقال عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: ثَكِلَتْ أمُّ عُمَرَا! نزَرْتَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، كُلَّ ذلك لا يُجيبُك! قال عُمَرُ: فحَرَّكتُ بَعيري ثمَّ تقَدَّمتُ أمامَ النَّاسِ، وخَشيتُ أنْ يُنزَلَ فِيَّ قُرآنٌ، فما نَشِبتُ أنْ سَمِعتُ صارخًا يَصرُخُ بي، فقُلْتُ: لقدْ خَشيتُ أنْ يكونَ نزَلَ فِيَّ قُرآنٌ! فجِئتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فسَلَّمتُ عليه، فقال: لقدْ أُنزِلتْ علَيَّ اللَّيلةَ سُورةٌ لَهِيَ أحَبُّ إليَّ مِمَّا طَلَعَت عليه الشَّمسُ، ثمَّ قرَأ: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾))[٢].

وعن البَراءِ بن عازِبٍ رَضِيَ الله عنهما قال: ((تَعُدُّونَ أنتُم الفَتحَ فَتحَ مَكَّةَ، وقدْ كان فَتحُ مَكَّةَ فَتحًا، ونحْن نَعُدُّ الفَتحَ بَيعةَ الرِّضوانِ يومَ الحُدَيبِيَةِ؛ كُنَّا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أربَعَ عَشْرةَ مِائةً، والحُدَيبِيَةُ بِئرٌ، فنَزَحْناها فلمْ نَترُكْ فيها قَطْرةً! فبلَغَ ذلك النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأتاها فجلَسَ على شَفيرِها[٣]، ثمَّ دعا بإناءٍ من ماءٍ فتوَضَّأ، ثمَّ مَضمَضَ ودَعا، ثمَّ صَبَّه فيها، فترَكْناها غيرَ بَعيدٍ، ثمَّ إنَّها أصدَرَتْنا[٤] ما شِئْنا نحن ورِكابَنا!))[٥].

﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا

(١) رواه البخاريُّ (٣١٨٢) واللفظ له، ومسلمٌ (١٧٨٥).

(٢) رواه البخاري (٤٨٣٣).

(٣) شَفيرِها: أي: حرفِها. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٦/ ٣٤٦).

(٤) أصدَرَتْنا: أي: أرجَعتْنا وقدْ رَوِينا. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلَّاني (٦/ ٣٤٦).

(٥) رواه البخاريُّ (٤١٥٠).

مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قبلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى رتَّب على هذا الفَتحِ عِدَّةَ أُمورٍ، فقال[1]:

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

أي: إنَّا فتَحْنا لك -يا مُحمَّدُ- فَتحًا مُبينًا؛ كي نَغفِرَ لك جَميعَ ذُنوبِك[2].

كما قال تعالَى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢، ٣].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٦).

قال الماوَرديُّ: (﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾... فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحَدُها: ما تقَدَّمَ قَبلَ الفَتحِ، وما تأخَّرَ بعْدَ الفَتحِ.

الثَّاني: ما تَقدَّمَ قَبلَ النُّبوَّةِ، وما تأخَّرَ بعدَ النُّبوَّةِ.

الثَّالثُ: ما وقَعَ وما لم يقَعْ، على طريقِ الوَعدِ بأنَّه مَغفورٌ إذا كان.

ويحتَمِلُ رابعًا: ما تَقدَّمَ قَبلَ نُزولِ هذه الآيةِ، وما تأخَّرَ بَعدَها). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣١٠).

وممَّن ذهَب إلى القَولِ الأوَّلِ: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٧).

وممَّن ذهَب إلى القَولِ الثَّاني: مُقاتِلُ بن سُلَيمان، والسمعانيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السلفِ: عامرٌ الشَّعبي، وأبو جعفر الباقرُ؛ قالا: ما تقدَّم في الجاهليَّة وما تأخَّر في الإسلام. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥١٢).

قال الشَّوكاني: (﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ اللَّامُ مُتعلِّقةٌ بـ ﴿فَتَحْنَا﴾، وهي لامُ العِلَّةِ. قال ابنُ الأنباريِّ: سألْتُ أبا العبَّاسِ -يعني المبرِّدَ- عن اللَّامِ في قولِه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾، فقال: هي لامُ كيْ، مَعناها: إنَّا فتَحْنا لك فتْحًا مُبينًا لكيْ يَجتمِعَ لكَ مع المغفرةِ تَمامُ النِّعمةِ في الفتْحِ، فلمَّا انضمَّ إلى المغفرةِ شَيءٌ حادثٌ واقعٌ، حسُنَ معْنى «كيْ»، وغلِطَ مَن قال: ليْس الفتحُ سَببَ المغفرةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣).

صلَّى قام حتَّى تَفطَّرَ رِجلاه! قالتْ عائِشةُ: يا رَسولَ اللهِ، أتصنَعُ هذا وقدْ غُفِرَ لك ما تقَدَّمَ مِن ذَنبِك وما تأخَّرَ؟! فقال: يا عائِشةُ، أفلا أكونُ عَبدًا شَكورًا؟!))(١).

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾.

أي: وليُكْمِلَ اللهُ سُبحانَه نِعمَتَه عليك -يا محمَّدُ- في الدُّنيا والآخِرةِ(٢).

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) واللفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٨).

قيل: قَولُه تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ يعني: إتمامَها بإظهارِه على عَدُوِّه، ورَفْعِ ذِكْرِه في الدُّنيا، وغُفرانِ ذُنوبِه في الآخِرةِ، ورِضاه عنك. وممَّن قال بهذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن عطية، وأبو حيَّان، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي(١١/ ٦٩٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٨٤).

وقيل: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بالنبُوَّةِ والحِكمةِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القَولِ: الواحدي، والبغوي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٣).

وقيل: بالنُّبوةِ وإظهارِ الدِّينِ والفتْحِ والنَّصرِ والتَّمكينِ، وممَّن اختار هذا القولَ في الجُملةِ السَّمرقنديُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٣). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٦).

قال أبو السُّعود: (﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإعلاءِ الدِّينِ، وضمِّ المُلْكِ إلى النُّبوَّة، وغَيرِهما مِمَّا أفاضَه عليه مِنَ النِّعَمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّة). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٤).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي: في الدُّنيا والآخرة). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨).

قال الرازي: (قَولُه تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ يحتَمِلُ وُجوهًا:

أحدُها: هو أنَّ التَّكاليفَ عندَ الفتحِ تَمَّت حيثُ وَجَب الحَجُّ، وهو آخِرُ التَّكاليفِ، والتَّكاليفُ نِعَمٌ.

ثانيها: يُتِمَّ نِعمَتَه عليك بإخلاءِ الأرضِ لك عن مُعانديك؛ فإنَّ يومَ الفَتحِ لم يَبْقَ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عَدُوٌّ ذو اعتبارٍ؛ فإنَّ بَعضَهم كانوا أُهلِكوا يومَ بَدرٍ، والباقون آمَنوا واستأمَنوا يومَ الفَتْحِ.
=

كما قال تعالَى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾.

أي: ولِيُرشِدَك اللهُ إلى طَريقٍ مُستقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه، بما يَشرَعُ لك مِنَ الإسلامِ المُوصِلِ إلى رِضوانِ اللهِ وجَنَّتِه(١).

كما قال تعالَى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ

= ثالثُها: ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ في الدُّنيا، باستِجابةِ دُعائِك في طَلَبِ الفَتحِ، وفي الآخِرةِ، بقَبولِ شَفاعتِك في الذُّنوبِ ولو كانت في غايةِ القُبحِ. ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٦). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٨).

وقال ابنُ عاشور: (وإتمامُ النِّعمةِ: إعطاءُ ما لم يَكُنْ أعطاه إيَّاه مِن أنواعِ النِّعْمةِ، مِثلُ إسلامِ قُرَيشٍ، وخَلاصِ بلادِ الحِجازِ كُلِّها للدُّخولِ تحتَ حُكمِه، وخُضوعِ مَن عانَدَه وحارَبَه، وهذا يَنظُرُ إلى قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: ٣]؛ فذلك ما وُعِدَ به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذه الآيةِ، وحَصَل بعْدَ سِنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (هذه الهِدايةُ الخاصَّةُ التي أعطاه إيَّاها بعْدَ فَتحِ الحُدَيبيَةِ أخَصُّ مِمَّا تقَدَّمَ؛ فإنَّ السَّالِكَ إلى اللهِ لا يَزالُ يَتقَرَّبُ إليه بشَيءٍ بعْدَ شَيءٍ، ويَزيدُه اللهُ هدًى بعْدَ هُدًى). ((الجواب الصحيح)) (٣/ ١٨١).

وقال ابنُ عاشور: (معنى: ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾: يَزيدَك هَدْيًا لم يُسْبَقْ، وذلك بالتَّوسيعِ في بيانِ الشَّريعةِ، والتَّعريفِ بما لم يَسبِقْ تَعريفُه به منها؛ فالهِدايةُ إلى الصِّراطِ المُستقيمِ ثابتةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن وَقتِ بَعثتِه، ولكِنَّها تَزدادُ بزِيادةِ بيانِ الشَّريعةِ، وبسَعةِ بلادِ الإسلامِ، وكَثرةِ المُسلِمينَ؛ مِمَّا يَدْعو إلى سُلوكِ طرائِقَ كَثيرةٍ في إرشادِهم وسياستِهم، وحمايةِ أوطانِهم، ودَفْعِ أعدائِهم؛ فهذه الهِدايةُ مُتجَمِّعةٌ من الثَّباتِ على ما سَبَق هَدْيُه إليه، ومِنَ الهِدايةِ إلى ما لم يُسبَقْ إليه، وكُلُّ ذلك مِنَ الهِدايةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٨).

وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾.

أي: ولِيَنصُرَكَ اللهُ على أعدائِك نَصرًا قَويًّا قاهِرًا تامًّا مَنيعًا، بلا ذُلٍّ ولا ضَعفٍ[1].

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((نُصِرْتُ بالرُّعبِ[2] على العَدُوِّ))[3].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- الإنسانُ خُلِق ظَلومًا جَهولًا، فالأصْلُ فيه عدَمُ العِلمِ ومَيْلُه إلى ما يَهواهُ مِن الشَّرِّ، فيَحتاجُ دائمًا إلى عِلمٍ مُفصَّلٍ يَزولُ به جَهْلُه، وعَدْلٍ في مَحبَّتِه وبُغضِه، ورِضاهُ وغضَبِه، وفِعلِه وتَرْكِه، وإعطائِه ومَنعِه، وكلُّ ما يَقولُه ويَعمَلُه يَحتاجُ فيه إلى عَدْلٍ يُنافي ظُلْمَه، فإنْ لم يَمُنَّ اللهُ عليه بالعِلمِ المفصَّلِ والعدْلِ المفصَّلِ، كان فيه مِن الجهْلِ والظُّلمِ ما يَخرُجُ به عن الصِّراطِ المستقيمِ، وقدْ قال اللهُ تعالَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

قال ابنُ عاشور: (النَّصرُ العَزيزُ: غَيرُ نَصرِ الفَتحِ المذكورِ؛ لأنَّه جُعِلَ عِلَّةَ الفَتحِ، فهو ما كان مِن فَتحِ مكَّةَ، وما عَقِبَه مِن دُخولِ قبائِلِ العَرَبِ في الإسلامِ بدونِ قِتالٍ، وبَعْثِهم الوُفودَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيَتلَقَّوا أحكامَ الإسلامِ، ويُعلِموا أقوامَهم إذا رَجَعوا إليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٨).

(٢) نُصِرتُ بالرُّعبِ: يعني: الخوفَ الَّذي وضَعَه اللهُ تعالَى منه في القلوبِ؛ فإنَّه نصَره به، فكفاهُ كثيرًا مِن القِتالِ. يُنظر: ((الإفصاح عن معاني الصحاح)) لابن هُبَيْرةَ (٦/ ١١٣).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٩٧٧)، ومسلمٌ (٥٢٣) واللفظ له.

لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعْدَ صُلح الحُدَيبِيَةِ وبَيعةِ الرِّضوانِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾، فأخبَرَ أنَّه فَعَل هذا؛ لِيَهديَه صِراطًا مُستَقيمًا، فإذا كان هذا حالَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فكيْف بحالِ غَيرِه[1]؟!

٢- قال تعالَى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ جَمَع سُبحانَه لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيْنَ الهُدَى والنَّصرِ؛ لأنَّ هذينِ الأصلَينِ بهما كَمالُ السَّعادةِ والفَلاحِ؛ فإنَّ الهدَى هو العِلمُ باللهِ تعالَى ودِينِه، والعَمَلُ بمَرضاتِه وطاعتِه، فهو العِلمُ النَّافِعُ والعَمَلُ الصَّالحُ، والنَّصرُ: هو القُدرةُ التَّامَّةُ على تَنفيذِ دِينِه بالحُجَّةِ والبَيانِ، والسَّيفِ والسِّنانِ؛ فهو النَّصرُ بالحُجَّةِ واليَدِ؛ قَهرُ قُلوبِ المخالِفينَ له بالحُجَّةِ، وقَهرُ أبدانِهم باليَدِ، وهو سُبحانَه كثيرًا ما يَجمَعُ بيْنَ هذينِ الأصلَينِ؛ إذْ بهما تَمامُ الدَّعوةِ، وظُهورُ دِينِه على الدِّينِ كُلِّه؛ كقَولِه تعالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣][2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ تأمَّلْ ما جمَع اللهُ سُبحانَه لِرَسولِه في آيةِ الفَتحِ مِن أنواعِ العَطايا، وذلك خَمسةُ أشياءَ؛ أحَدُها: الفَتحُ المُبينُ. والثَّاني: مَغفِرةُ ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِه وما تأخَّرَ. والثَّالِثُ: هِدايتُه الصِّراطَ المُستقيمَ. والرَّابعُ: إتمامُ نِعمتِه عليه. والخامِسُ: إعطاءُ النَّصرِ العَزيزِ[3].

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٢/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ لَفظُ الماضي في قَولِه: ﴿فَتَحۡنَا﴾ يَدُلُّ على أنَّ ذلك الفَتحَ قدْ مضَى؛ فدَعْوى أنَّه فَتْحُ مَكَّةَ -ولم يقَعْ إلَّا بعْدَ ذلك بقُربِ سَنَتينِ- خِلافُ الظَّاهِرِ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا * لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾، فيه سُؤالٌ: ما وجْهُ الارتباطِ بيْنَ هذه العِلَّةِ ومَعلولِها؛ لأنَّ فَتْحَ اللهِ لِنبيِّه لا يَظهَرُ كَوْنُه عِلَّةً لِغُفرانِه له؟

الجوابُ عنه مِن وُجوهٍ؛ منها:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ اللهَ جعَلَ هذه المَغفِرةَ جَزاءً لنَبيِّه على إتمامِ أعمالِه التي أُرسِلَ لأجْلِها مِنَ التَّبليغِ والجِهادِ، والنَّصَبِ والرَّغبةِ إلى اللهِ، فلمَّا كان الفَتحُ حاصِلًا بسَعْيِه وتَسَبُّبِه بتَيسيرِ اللهِ له ذلك، جَعَلَ اللهُ جَزاءَه غُفرانَ ذُنوبِه بِعِظَمِ أثَرِ ذلك الفَتحِ؛ بإزاحةِ الشِّركِ، وعُلُوِّ كَلِمةِ اللهِ تعالَى، وتَكميلِ النُّفوسِ وتَزكيتِها بالإيمانِ وصالحِ الأعمالِ؛ حتى ينتَشِرَ الخيرُ بانتشارِ الدِّينِ، ويَصيرَ الصَّلاحُ خُلُقًا للنَّاسِ يَقتَدي فيه بَعضُهم ببَعضٍ[٢].

الوجهُ الثَّاني: أنَّ المَعنى: فَتْحُ اللهِ لِنَبيِّه يدُلُّ بدَلالةِ الالتِزامِ على شُكرِ النَّبيِّ لنِعمةِ الفتحِ، فيَغفِرُ اللهُ له ما تقدَّمَ وما تأخَّرَ بسَبَبِ شُكرِه بأنواعِ العِبادةِ على تلك النِّعمةِ، فكأنَّ شُكرَ النَّبيِّ لازِمٌ لنِعمةِ الفتحِ، والغُفرانَ مُرَتَّبٌ على ذلك اللَّازِمِ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ قَولَه: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا﴾ يُفهَمُ منه بدَلالةِ الالتِزامِ: الجِهادُ في سبيلِ اللهِ؛ لأنَّه السَّبَبُ الأعظَمُ في الفتحِ، والجِهادُ سَبَبٌ لِغُفرانِ الذُّنوبِ؛ فيَكونُ المَعنى: لِيَغفِرَ لك اللهُ بسبَبِ جِهادِك المَفهومِ مِن ذِكرِ الفتحِ[٣].

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٦، ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص:٢١٧-٢١٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن =

الوجهُ الرَّابعُ: ليْس الفتحُ كان لِيَغفِرَ له، بل لِيَنصُرَه نَصرًا عزيزًا، ولكنَّه لَمَّا عَدَّ عليه هذه النِّعمةَ، وصَلَه بما هو أعظَمُ النِّعَم(١).

الوجهُ الخامسُ: أنَّ المُرادَ منه التَّعريفُ، تقديرُه: إنَّا فَتَحْنا لك؛ لِيُعرَفَ أنَّك مَغفورٌ لك، مَعصومٌ؛ فإنَّ النَّاسَ كانوا عَلِموا بعْدَ عامِ الفيلِ أنَّ مكَّةَ لا يأخُذُها عدُوُّ اللهِ المَسخوطُ عليه، وإنَّما يَدخُلُها ويَأخُذُها حَبيبُ اللهِ المغفورُ له(٢).

الوجهُ السَّادسُ: أنَّ المُرادَ هنا: أنَّ اللهَ فتَحَ لك؛ لِكَيْ يَجعَلَ ذلك أَمارةً وعلامةً لِغُفرانِه لك، فكأنَّها لامُ صَيرورةٍ(٣).

الوجهُ السَّابعُ: جُعِلَتْ مَغفرةُ اللهِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِلَّةً للفتحِ؛ لأنَّها مِن جُملةِ ما أراد اللهُ حُصولَه بسَببِ الفتحِ، وليْستْ لامُ التَّعليلِ مُقتَضيةً حَصْرَ الغَرَضِ مِنَ الفِعلِ المُعَلَّلِ في تلك العِلَّةِ؛ فإنَّ كثيرًا مِنَ الأشياءِ تَكونُ لها أسبابٌ كثيرةٌ، فيُذْكَرُ بعضُها ممَّا يَقتَضيهِ المَقامُ، وإذْ قدْ كان الفتحُ لكَرامةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ربِّه تعالَى، كان مِن عِلَّتِه أنْ يَغفِرَ اللهُ لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَغفِرةً عامَّةً؛ إتمامًا للكرامةِ، فهذه مَغفِرةٌ خاصَّةٌ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، هي غيرُ المغفرةِ الحاصِلةِ للمُجاهِدينَ بسَببِ الجهادِ والفتحِ(٤). وقيل غيرُ ذلك(٥).

٤- قولُه تعالَى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هذا مِن خَصائصِه صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه التي لا يُشارِكُه فيها غيْرُه. وليْس في حَديثٍ صَحيحٍ

= جرير)) (٢١/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٥-٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٦).

في ثَوابِ الأعمالِ لغَيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (غُفِرَ له ما تَقدَّمَ مِن ذنْبِه وما تأخَّرَ). وهذا فيه تَشريفٌ عَظيمٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه في جَميعِ أُمورِه على الطَّاعةِ والبِرِّ والاستقامةِ التي لم يَنَلْها بشَرٌ سِواه؛ لا مِن الأوَّلينَ ولا مِن الآخِرين، وهو أكمَلُ البشَرِ على الإطلاقِ، وسيِّدُهم في الدُّنيا والآخِرةِ[1].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ أنَّ هِدايةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعدَ النُّبوَّةِ إلى الصِّراطِ المُستقيمِ: لا يكونُ إلَّا زِيادةً في إيمانِه، وهو ردٌّ على المُرجِئةِ المُنكِرينَ زِيادةَ الإيمانِ ونُقصانَه[2].

٦- القَولُ بأنَّ الأنبياءَ لا ذُنوبَ لهم مُطلقًا هو قَولٌ يُخالِفُ الكِتابَ والسُّنَّةَ؛ فإنَّ اللهَ تعالَى قال في كتابِه لأشرَفِ الرُّسُلِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا * لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾، وقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾[3] [محمد: ١٩].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٠٨).

وقولُ أكثرِ علماءِ الإسلامِ وأكثرِ أهلِ التَّفسيرِ والحديثِ والفقهاءِ، وقولُ أكثرِ أهلِ الكلامِ: أنَّ الأنبياءَ معصومونَ عن الكبائرِ، وتقعُ منهم بعضُ الصغائرِ معَ العصمةِ من الإقرارِ عليها، ومسارعتِهم إلى التَّوبةِ منها، التي يَرفعُهم الله بها إلى أعظمَ ممَّا كانوا عليه، ولم يُنقَلْ عن السَّلفِ والأئمَّةِ والصحابةِ والتَّابعينَ وتابعيهم إلَّا ما يُوافِقُ هذا القولَ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣١٩) و(١٥/ ٥١)، ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (١/ ٢٠٨)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٥٨).

- افتِتاحُ الكلامِ بحرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ) ناشئٌ على ما أحلَّ بالمُسلِمينَ مِن الكآبةِ على أنْ أُجِيبَ المُشرِكون إلى سُؤالِهم الهُدْنةَ؛ فالتَّأكيدُ مَصْروفٌ للسَّامعينَ على طَريقةِ التَّعريضِ، وأمَّا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقدْ كان واثقًا بذلك(١).

- والفتحُ: إزالةُ غلْقِ البابِ أو الخِزانةِ، ويُطلَقُ على النَّصرِ، وعلى دُخولِ الغازي بِلادَ عَدُوِّه؛ لأنَّ أرضَ كلِّ قومٍ وبِلادَهم مَوانعُ عنها؛ فاقتحامُ الغازي إيَّاها بعْدَ الحربِ يُشبِهُ إزالةَ الغَلقِ عن البَيتِ أو الخِزانةِ؛ ولذلك كثُرَ إطلاقُ الفتْحِ على النَّصرِ المقترِنِ بدُخولِ أرضِ المغلوبِ أو بَلدِه، ولم يُطلَقْ على انتصارٍ كانتْ نِهايتُه غَنيمةً وأسْرًا دونَ اقتحامِ أرضٍ؛ فيُقال: فتْحُ خَيْبرَ، وفتْحُ مَكَّةَ، ولا يُقالُ: فتْحُ بدْرٍ، وفتْحُ أُحُدٍ. ولمُراعاةِ هذا المعنى قال جمْعٌ مِن المُفسِّرين: المُرادُ بالفتْحِ هنا فتْحُ مكَّةَ؛ وإنَّ مَحْمَلَه على الوَعدِ بالفتْحِ، والمعنى: سَنفتَحُ، وإنَّما جِيءَ في الأخبارِ بلَفظِ الماضي؛ لِتَحقُّقِه وتَيقُّنِه، شُبِّهَ الزَّمنُ المُستقبَلُ بالزَّمنِ الماضي، فاسْتُعمِلَت له الصِّيغةُ المَوضوعةُ لِلمُضِيِّ. أو يُقالُ: استُعمِلَ ﴿فَتَحْنَا﴾ بمَعنى: قدَّرنا لك الفتْحَ، ويكونُ هذا الاستِعمالُ مِن مُصطلَحاتِ القُرآنِ؛ لأنَّه كَلامُ مَن له التَّصرُّفُ في الأشياءِ، لا يَحجُزُه عن التَّصرُّفِ فيها مانعٌ، وقدْ جرَى على عادةِ إخبارِ اللهِ تعالَى؛ لأنَّه لا خِلافَ في إخبارِه، وذلك أيضًا كِنايةٌ عن عُلوِّ شَأْنِ المُخبِرِ جلَّ جَلالُه وعزَّ سُلطانُه. أو المُرادُ صُلْحُ الحُديبيةِ، وإطلاقُ اسمِ الفَتحِ عليه باعتِبارِ أنَّه آلَ إلى فتْحِ خَيبرَ وفتْحِ مكَّةَ، أو كان سَببًا فيهما؛ وعلى هذا فإطلاقُ مادَّةِ الفتْحِ على سَبَبِه ومآلِه لا في صُورةِ الفِعلِ، أي: التَّعبيرُ عن المُستقبَلِ بلَفظِ الماضي؛ لأنَّه بهذا الاعتبارِ قدْ وقَعَ فيما مَضَى؛ فيكونُ اسمُ الفتْحِ استُعمِلَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٣).

استِعمالَ المُشترَكِ في مَعنيَيْه، وصِيغةُ الماضي استُعْمِلَت في مَعنيَيْها؛ فيَظهَرُ وَجْهُ الإعجازِ في إيثارِ هذا التَّركيبِ(١).

- وأضافَ عزَّ وجلَّ الفتْحَ إلى نفْسِه؛ إشعارًا بأنَّه مِن عِندِ اللهِ، لا بكَثْرةِ عَدَدٍ ولا عُدَدٍ، وأكَّدَه بالمصْدرِ، ووصْفُه بأنَّه مُبينٌ مُظهِرٌ لِما تَضمَّنَه مِن النَّصرِ والتَّأييد(٢).

- وحُذِف مَفعولُ ﴿فَتَحْنَا﴾؛ للقَصْدِ إلى نفْسِ الفِعلِ، والإيذانِ بأنَّ مَناطَ التَّبشيرِ نفْسُ الفتْحِ الصَّادرِ عنه سُبحانَه، لا خُصوصيَّةُ المَفتوحِ؛ فالمقصودُ الإعلامُ بجِنسِ الفتحِ لا بالمفتوحِ الخاصِّ(٣).

- وتَقديمُ المَجرورِ ﴿لَكَ﴾ قبْلَ المَفعولِ المُطلَقِ ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ -خلافًا لِلأصلِ في تَرتيبِ مُتعلَّقاتِ الفِعلِ-؛ لِقَصدِ الاهتِمامِ والاعتِناءِ بهذه العِلَّةِ(٤).

٢- قَولُه تعالَى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾

- قولُه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ بَدلُ اشتِمالٍ مِن ضَميرِ ﴿لَكَ﴾ [الفتح: ١]، والتَّقديرُ: إنَّا فتَحْنا فتْحًا مُبينًا لِأجْلِك؛ لِغُفرانِ اللهِ لك، وإتمامِ نِعمتِه عليك، وهِدايتِك صِراطًا مُستقيمًا، ونصْرِك نصْرًا عزيزًا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٣-١٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والالْتِفاتُ إلى اسمِ الذاتِ (الله) المُستتبِعِ لِجَميعِ الصِّفاتِ في قَولِه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾؛ لِلْإشعارِ بأنَّ كلَّ واحدٍ ممَّا انتظَمَ في سِلْكِ الغايةِ مِن أفعالِه تعالَى، صادِرٌ عنه تعالَى مِن حَيثيةٍ غَيرِ حَيثيةِ الآخَرِ، مُترتِّبةٍ على صِفةٍ مِن صِفاتِه تعالَى[١]. وإنَّما أُسنِدَ فِعلُ ﴿لِّيَغْفِرَ﴾ إلى اسمِ الجَلالةِ العَلَمِ، وكان مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أنْ يُسنَدَ إلى الضَّميرِ المُستتِرِ؛ قَصْدًا للتَّنويهِ بهذه المَغفرةِ؛ لأنَّ الاسمَ الظاهرَ أنفَذُ في السَّمعِ، وأجلَبُ للتَّنبيهِ؛ وذلك للاهتِمامِ بالمُسنَدِ وبمُتعلَّقِه؛ لأنَّ هذا الخبَرَ أُنُفٌ لم يكُنْ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِلْمٌ به؛ ولذلك لم يَبرُزِ الفاعلُ في ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ﴾؛ لأنَّ إنعامَ اللهِ عليه مَعلومٌ، وهِدايتَه مَعلومةٌ، وإنَّما أُخبِرَ بازْديادِهما[٢].

- وتَنوينُ ﴿صِرَٰطًا﴾ لِلتَّعظيمِ[٣].

- وانتَصَبَ ﴿صِرَٰطًا﴾ على أنَّه مَفعولٌ ثانٍ لـ(يَهْدي) بتَضمينِ معنى الإعطاءِ، أو بنَزْعِ الخافِضِ[٤].

- وإنَّما أُظهِرَ اسمُ الجَلالةِ في قَولِه: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ ولم يُكتَفَ بالضَّميرِ؛ اهتمامًا بهذا النَّصرِ، وتَشريعًا له بإسنادِه إلى الاسمِ الظَّاهِرِ؛ لِصَراحةِ الظَّاهِرِ، والصَّراحةُ أدْعى إلى السَّمعِ، والكلامُ مع الإظهارِ أعلَقُ بالذِّهنِ[٥]. وقيل: أُعِيدَ لَفظُ (الله) في ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ لَمَّا بعُدَ عمَّا عُطِفَ عليه؛ إذ في الجُملتَينِ قبْلَه ضَميرٌ يَعودُ على اللهِ، ولِيَكونَ المَبدأُ مُسنَدًا إلى الاسمِ الظاهرِ والمُنْتهى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٧، ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٨، ١٤٩).

كذلك. ولَمَّا كان الغُفرانُ، وإتمامُ النِّعمةِ، والهِدايةُ، والنَّصرُ؛ يَشترِكُ في إطلاقِها الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وغيرُه بقَولِه تعالَى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقَولِه: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢]، وكان الفتْحُ لم يَبْقَ لِأحدٍ إلَّا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -أسنَدَه تَعالى إلى نُونِ العَظَمةِ؛ تَفخيمًا لِشأْنِه، وأُسنِدَ تلك الأشياءُ الأربعةُ إلى الاسمِ الظَّاهرِ، واشتَرَكَت الخُمسةُ -الفتْحُ، والغُفرانُ، وإتمامُ النِّعمةِ، والهِدايةُ، والنَّصرُ- في الخِطابِ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تأْنيسًا له وتَعظيمًا لشأْنِه، ولم يأْتِ بالاسمِ الظَّاهرِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ في الإقبالِ على المُخاطَبِ ما لا يكونُ في الاسمِ الظاهرِ(١).

- قَولُه: ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾، أي: نصْرًا فيه عِزٌّ ومَنَعةٌ، أو قَويًّا مَنيعًا، على وَصْفِ المَصدرِ بوَصْفِ صاحبِه للمُبالَغةِ، أو عَزيزًا صاحبُه(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٨).

الآيات (٤-٧)

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿السَّكِينَةَ﴾: أي: السُّكونَ والطُّمَأنينةَ؛ مِنَ السُّكونِ الَّذي هو الوَقارُ، وزوالُ الرُّعبِ، وأصلُ (سكن): يدُلُّ على خِلافِ الاضطِرابِ(١).

﴿وَيُكَفِّرَ﴾: أي: يَستُرَ، ويَمحُوَ، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على سَترٍ وتَغطيةٍ(٢).

﴿دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾: أي: دائِرةُ الهَزيمةِ والشَّرِّ والعَذابِ، والدَّائِرةُ تكونُ في المكروهِ، وأصلُ (دور): يدُلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ، وأصلُ (سوء): القُبحُ(٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢، ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٠)، و(٣/ ١١٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٨).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ سُبحانَه وتعالَى عن جانبٍ مِن مَظاهِرِ فضْلِه على المؤمنينَ، فيقولُ: هو الَّذي أنزَلَ الطُّمَأْنينةَ في قُلوبِ المُؤمنينَ مِن أصحابِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -وذلك حينَ منَعَهم كُفَّارُ قُرَيشٍ مِن دُخولِ المَسجِدِ الحَرامِ عامَ الحُدَيبيَةِ-؛ لِيَزدادوا بذلك إيمانًا فَوقَ إيمانِهم.

ثمَّ يُبيِّن اللهُ تعالَى عَظيمَ مُلْكِه وقُدرتِه، فيقولُ: وللهِ جُنودُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ مِن الملائِكةِ والجِنِّ والإنسِ وغَيرِهم، وكان اللهُ عَليمًا حَكيمًا سُبحانَه.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالَى عاقبةَ المؤمنينَ وغيرِهم مِن المنافقينَ والمشركينَ، فيقولُ: لِيُدخِلَ اللهُ المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ ماكِثينَ فيها أبَدًا، ولِيَمحوَ عنهم ذُنوبَهم، وكان ذلك الوَعدُ فَوزًا عَظيمًا، ولِيُعَذِّبَ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ، والمُشرِكينَ والمُشرِكاتِ؛ في الدُّنيا، الَّذين يَظُنُّونَ أنَّ اللهَ لَنْ يَنصُرَ رَسولَه والمُؤمِنينَ، وأنَّه لن يُظهِرَ دِينَهَ وكَلِمتَه على الكُفرِ وأهلِه، عليهم دائِرةُ الشُّرورِ والمَساوِئِ والمصائِبِ تَدورُ عليهم، وتُحيطُ بهم في الدُّنيا، وغَضِبَ اللهُ عليهم، وأبعَدَهم مِن رَحمتِه، وهَيَّأَ لهم جهَنَّمَ يَدخُلونَها في الآخِرةِ، وساءَت جَهنَّمُ مَنزِلًا يَصيرونَ إليه يومَ القِيامةِ!

ثمَّ يقولُ تعالَى مؤكِّدًا على عَظيمِ مُلْكِه وقُدرتِه: وللهِ جُنودُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ مِنَ الملائِكةِ والجِنِّ والإنسِ وغَيرِهم، وكان اللهُ عَزيزًا لا يَغلِبُه أحَدٌ، حَكيمًا يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبْلَها:

أنَّه لَمَّا قال اللهُ تعالَى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح:٣]؛ بيَّن وجْهَ النَّصرِ[١]، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي أنزَلَ الطُّمَأْنينةَ في قُلوبِ المُؤمِنينَ مِن أصحابِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فسَكَنَت قُلوبُهم إلى الحَقِّ حينَ منَعَهم كُفَّارُ قُرَيشٍ مِن دُخولِ المَسجِدِ الحَرامِ عامَ الحُدَيبيَةِ؛ فلم تَضطَرِبْ نُفوسُهم[٢].

عن البَراءِ بن عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((بيْنَما رجُلٌ مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقرَأُ، وفَرَسٌ له مَربوطٌ في الدَّارِ، فجَعَل يَنفِرُ، فخَرَج الرَّجُلُ فنَظَر فلمْ يَرَ شَيئًا، وجعَلَ [أي: الفَرَسُ] يَنفِرُ، فلمَّا أصبَحَ ذَكَر ذلك للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: السَّكينةُ تَنزَّلَت بالقُرآنِ!))[٣].

﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

أي: أنزَلَ اللهُ السَّكينةَ في قُلوبِ المُؤمِنينَ؛ لِيَزدادوا بذلك إيمانًا فَوقَ إيمانِهم السَّابِقِ مِن قَبلِ صُلحِ الحُدَيبيَةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٥)، ((الإيمان)) لابن تيميَّة (ص: ١٨١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٧١)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٥٤-١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).
قال ابنُ تيمية: (السَّكينةُ طُمأنينةٌ في القلبِ غيرُ علمِ القلبِ وتصديقِه). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٢٩).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٨٣٩) واللفظ له، ومسلمٌ (٧٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وللهِ جُنودُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ مِن الملائكةِ والجِنِّ والإنسِ وغَيرِهم، يَنتَقِمُ بهم ممَّن يَشاءُ مِن أعدائِه(١).

كما قال تعالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالَى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِلمِ التَّامِّ؛ فلا يَخفَى عليه شَيءٌ، وبالحِكمةِ التَّامَّةِ؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به(٢).

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: لِيُدخِلَ اللهُ المُؤمنينَ والمُؤمِناتِ جَنَّاتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ غُرَفِها وأشجارِها، وهم ماكِثونَ فيها أبَدًا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٧-١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٠-١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥١).

قال السعديُّ: (ولكِنَّه تعالَى عليمٌ حَكيمٌ، فتَقتَضي حِكمتُه المداوَلةَ بيْنَ النَّاسِ في الأيَّامِ، وتأخيرَ نَصرِ المُؤمِنينَ إلى وَقتٍ آخَرَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٦-٢٤٧)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٦٩٤٠)، ((تفسير =

= القرطبي)) (١٦/ ٢٦٤)، ((تفسير القنوجي)) (١٣/ ٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٤-٣٩٥).

قال السَّمين الحلبيُّ: (قوله: ﴿لِّيُدْخِلَ﴾: في مُتعلَّقِ هذه اللَّامِ أربعةُ أوجهٍ:

أحدُها: مَحذوفٌ، تقديرُه: يَبْتَلي بتلك الجنودِ مَنْ شاء، فيَقبلُ الخيرَ مِمَّن أهَّله له، والشرَّ مِمَّن قَضى له به؛ ليُدْخِلَ ويُعَذِّبَ.

الثاني: أنها مُتعلِّقةٌ بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾.

الثالث: أنَّها مُتعلِّقةٌ بـ «يَنْصُرَكَ».

الرابع: أنها مُتعلِّقة بـ «يَزْدَادُوا»). ((الدر المصون)) (٩/ ٧١٠). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٩).

ممَّن اختار القولَ الأولَ: أبو حيَّان، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤).

وممَّن اختار القولَ الثانيَ -أي أنَّها مُتعَلِّقةٌ بقَولِه تعالى: ﴿فَتَحْنَا لَكَ﴾ أي: إنَّا فتَحْنا لك فَتحًا مُبينًا؛ لِيَغفِرَ اللهُ لك، ولِيُدخِلَ المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ جَنَّاتٍ-: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٧).

وممَّن اختار القولَ الرَّابعَ: أنها مُتعَلِّقةٌ بـ (يَزْدَادُوا) في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، أي: فبِسَبَبِ زيادةِ إيمانِهم نُدخِلُهم جَنَّاتٍ. ممَّن اختارَ هذا المعنى في الجُملةِ: القُرطبيُّ، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٤).

قال السَّمين الحلَبيُّ: (واسْتُشْكِل هذا: بأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾ عطفٌ عليه، وازديادُهم الإيمانَ ليس مُسَبَّبًا عن تعذيبِ اللهِ الكُفَّارَ. وأُجيبَ: بأنَّ اعتقادَهم أنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الكفَّارَ يَزيدُ في إيمانِهم لا مَحالةَ). ((الدر المصون)) (٩/ ٧١٠).

وقال الرازيُّ: (فإنْ قيل: فقولُه: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾ عطْفٌ على قولِه ﴿لِّيُدْخِلَ﴾، وازديادُ إيمانِهم [أي: المؤمنين] لا يَصلُحُ سَببًا لتَعذيبِهم [أي: المنافِقين والكافِرين]، نَقولُ: بلَى، وذلك مِن وَجهين:

أحدُهما: أنَّ التَّعذيبَ مَذكورٌ لكونِه مَقصودًا للمؤمنين، كأنَّه تعالَى يقولُ: بسَببِ ازديادِكم في الإيمانِ يُدخِلُكم في الآخرةِ جنَّاتٍ، ويُعذِّبُ بأيْديكم في الدُّنيا الكفَّارَ والمنافقينَ.

الثَّاني: تَقديرُه: ويُعَذِّبَ بسَببِ ما لكمْ مِن الازديادِ، يُقال: فعَلْتُه لأُجُرِّبَ به العدُوَّ والصَّديقَ، =

﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

أي: ولِيَمحوَ اللهُ عن المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ ذُنوبَهم، فلا يُؤاخِذَهم بها[1].

كما قال تعالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩].

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أي: ذلك الوَعدُ بإدخالِ المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ الجَنَّةَ، وتَكفيرِ سَيِّئاتِهم: فَوزٌ عَظيمٌ، فيَظفَرونَ بكُلِّ خَيرٍ، ويَنجُونَ مِن كُلِّ شَرٍّ[2].

كما قال تعالَى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦)﴾.

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾.

= أي: لأعْرِفَ بوُجودِه الصَّديقَ، وبعَدَمِه العدُوَّ، فكذلك لِيَزدادَ المؤمنُ إيمانًا فيُدخِلَه الجنَّةَ، ويَزدادَ الكافرُ كفرًا فيُعذِّبَه به.

ووجْهٌ آخَرُ ثالثٌ: وهو أنَّ سَبَبَ زيادةِ إيمانِ المؤمنينَ بكثْرةِ صَبْرِهم وثَباتِهم، فيَعيى المنافقُ والكافرُ معه ويَتعذَّبُ، وهو قريبٌ ممَّا ذكَرْنا). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٩).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (قَولُه تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ معناه: فازْدادوا وتلَقَّوا ذلك، فتمَكَّنَ بعْدَ ذلك قَولُه: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بتكَسُّبِهم القَبولَ لِما أنزَلَ اللهُ عليهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

أي: ولِيُعَذِّبَ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ، والمُشرِكينَ والمُشرِكاتِ؛ في الدُّنيا[١].

كما قال تعالَى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾.

مُناسبتُها لِما قبلَها:

لَمَّا أخبرَ بعَذابِهم؛ أتْبَعَه وَصْفَهم بما سَبَّبَ لهمْ ذلك، فقال تعالَى[٢]:

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾.

أي: الَّذين يَظُنُّونَ أنَّ اللهَ لنْ يَنصُرَ رَسولَه والمُؤمِنينَ على أعدائِهم، وأنَّه سيُسْلِمُهم للقَتلِ، وأنَّه لنْ يُظهِرَ دِينَه وكَلِمتَه على الكُفرِ وأهلِه؛ فيَنسُبونَ إلى اللهِ ما لا يَليقُ بحِكمتِه وقَضائِه[٣].

كما قال تعالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤).

قال البقاعيُّ: (قال تعالَى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ﴾ أي: المحيطِ بجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ مِن أنَّه لا يَفي بوَعدِه في أنَّه يَنصُرُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأتْباعَه المُؤمِنينَ، أو أنَّه لا يَبعَثُهم، أو أنَّه لا يُعَذِّبُهم لِمُخالفةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومُشاقَقةِ أتباعِه). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٨٩).

وقال سُبحانَه: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿السُّوءِ﴾ بضَمِّ السِّينِ، بمعنى: الهزيمةِ والشَّرِّ والبَلاءِ، أي: عليهم دائِرةُ الشَّرِّ والهَزيمةِ والبَلاءِ والضَّرَرِ[١].

٢- قِراءةُ: ﴿السَّوْءِ﴾ بفَتحِ السِّينِ، بمعنى: الرَّداءةِ والفَسادِ، أي: عليهم دائِرةُ الفَسادِ. وقيل: المعنى: عليهم الدَّائِرةُ التي تَسوءُهم سَوءًا. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ، كالضُّعْفِ والضَّعْفِ[٢].

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾.

أي: على المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ والمُشرِكينَ والمُشرِكاتِ، الَّذين يَظُنُّونَ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ: دائِرةُ العَذابِ والشُّرورِ والمَساوئِ والمصائِبِ، تَدورُ عليهم وتُحيطُ بهم في الدُّنيا[٣].

---

(١) قرَأ بها ابنُ كثير، وأبو عمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٨٣).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((الحُجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٦١)، ((الحُجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٠٦-٢٠٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٥٠٥).

(٢) قرَأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٨٣).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٤)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٦١)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٠٦-٢٠٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٥٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير ابن =

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: وغَضِبَ اللهُ على المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ والمُشرِكينَ والمُشرِكاتِ[(١)].

﴿وَلَعَنَهُمۡ﴾.

أي: وأبعَدَهم اللهُ وطرَدَهم مِن رَحمتِه[(٢)].

﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَ﴾.

أي: وهَيَّأَ لهم جهنَّمَ يَدخُلونَها في الآخِرةِ[(٣)].

﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾.

أي: وساءَت جَهنَّمُ مَنزِلًا يَصيرونَ إليه يومَ القِيامةِ[(٤)].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٧﴾.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ولله جُنودُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ مِنَ الملائِكةِ والجِنِّ والإنسِ وغَيرِهم، يَنتَقِمُ بهم ممَّن يَشاءُ مِن أعدائِه[(٥)].

= عطية)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير مكي)) (١١/ ٦٩٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير ابن =

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالَى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِزَّةِ الكامِلةِ؛ فهو القاهِرُ الغالِبُ لكُلِّ شَيءٍ، لا يَغلِبُه أحَدٌ، ولا يَمنَعُه مِمَّا أراده أحَدٌ، وهو المتَّصِفُ بالحِكمةِ التَّامَّةِ؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[١].

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ * كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ [الفتح: ٦]، وإنَّما كان هذا ظَنَّ السَّوءِ، وظَنَّ الجاهِليَّةِ المَنسوبَ إلى أهلِ الجهلِ، وظَنَّ غَيرِ الحقِّ؛ لأنَّه ظَنُّ غيرِ ما يَليقُ بأسمائِه الحُسنى، وصِفاتِه العُلْيا، وذاتِه المُبَرَّأةِ مِن كلِّ عَيبٍ وسُوءٍ، بخِلافِ ما يَليقُ بحِكمتِه وحَمدِه، وتَفرُّدِه بالرُّبوبيَّةِ والإلهيَّةِ، وما يَليقُ بوَعدِه الصَّادِقِ الَّذي لا يُخْلِفُه، وبكَلِمتِه الَّتي سبَقَتْ لِرُسلِه أنَّه يَنصُرُهم ولا يَخذُلُهم، ولِجُندِه بأنَّهم هُمُ الغالِبونَ، فمَن ظَنَّ بأنَّه لا يَنصُرُ رَسولَه، ولا يُتِمُّ أمْرَه، ولا يُؤيِّدُه ويُؤيِّدُ حِزبَه، ويُعْليهم ويُظْفِرُهم بأعدائِه، ويُظهِرُهم عليهم، وأنَّه لا يَنصُرُ دِينَه وكِتابَه، وأنَّه يُديلُ الشِّركَ على التَّوحيدِ، والباطِلَ على الحقِّ إدالَةً مُستقِرَّةً يَضْمَحِلُّ معها التَّوحيدُ والحقُّ اضْمِحْلالًا لا يَقومُ بعدَه أبدًا -فقدْ ظَنَّ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ، ونسَبَه إلى خِلافِ ما يَليقُ

= عطية)) (٥/ ١٢٧-١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

بكَمالِه وجَلالِه وصِفاتِه ونُعوته؛ فإنَّ حَمْدَه وعِزَّتَه وحِكمتَه وإلَهيَّتَه تأبَى ذلك، وتأبَى أنْ يَذِلَّ حِزبُه وجُندُه، وأنْ تَكونَ النُّصرةُ المُستقِرَّةُ والظَّفَرُ الدَّائمُ لأعدائِه المُشركينَ به، العادِلينَ به، فمَن ظَنَّ به ذلك فما عرَفه، ولا عرَفَ أسماءَه، ولا عرَف صِفاتِه وكمالَه. وكذلك مَن أنكَرَ أنْ يَكونَ ذلك بقَضائِه وقَدَرِه، فما عرَفه ولا عرَفَ رُبوبيَّتَه ومُلْكَه وعَظَمتَه. وكذلك مَن أنكَرَ أن يَكونَ قَدَّر ما قدَّرَه مِن ذلك وغَيرِه لحِكمةٍ بالِغةٍ وغايةٍ مَحمودةٍ يَستحِقُّ الحَمدَ عليها، وأنَّ ذلك إنَّما صدَرَ عن مَشيئةٍ مُجَرَّدةٍ عن حِكمةٍ وغايةٍ مَطلوبةٍ هي أحَبُّ إليه مِن فَوْتِها، وأنَّ تلك الأسبابَ المكروهةَ المُفْضيةَ إليها لا يَخرُجُ تَقديرُها عن الحِكمةِ لإفضائِها إلى ما يُحِبُّ، وإنْ كانتْ مَكروهةً له، فما قدَّرها سُدًى، ولا أنشأها عَبَثًا، ولا خَلَقها باطلًا، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]. وأكثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ باللهِ غَيْرَ الحقِّ ظَنَّ السَّوءِ فيما يَختَصُّ بهم، وفيما يَفعَلُه بغَيرِهم، ولا يَسلَمُ عن ذلك إلَّا مَن عرَفَ اللهَ، وعرَفَ أسماءَه وصِفاتِه، وعرَفَ مُوجَبَ حَمدِه وحِكمتِه، فمَنْ قَنَطَ مِن رَحمتِه، وأيِسَ مِن رَوحِه؛ فقدْ ظَنَّ به ظَنَّ السَّوءِ. وأكثَرُ الخَلقِ يَظُنُّونَ باللهِ غيرَ الحقِّ ظَنَّ السَّوءِ؛ فإنَّ غالِبَ بَني آدمَ يَعتقِدُ أنَّه مَبخوسُ الحقِّ، ناقِصُ الحظِّ، وأنَّه يَستحِقُّ فوقَ ما أعطاهُ اللهُ، ولسانُ حالِه يقولُ: ظَلَمَني ربِّي، ومَنَعَني ما أستحِقُّه! ونفْسُه تَشهَدُ عليه بذلك، وهو بِلسانِه يُنكِرُه، ولا يَتجاسَرُ على التَّصريحِ به، ومَن فتَّشَ نفْسَه وتَغلغَلَ في مَعرفةِ دَفائنِها وطَواياها، رأى ذلك فيها كامنًا كُمونَ النَّارِ في الزِّنادِ، فاقدَحْ زِنادَ مَن شِئتَ، يُنْبِئْكَ شَرَارُه عمَّا في زِنادِه، ولو فَتَّشْتَ مَن فتَّشْتَه لَرَأيتَ عِندَه تَعَتُّبًا على القَدَرِ، ومَلامةً له، واقتراحًا عليه خِلافَ ما جرَى به، وأنَّه كان يَنبغي أنْ يَكونَ كذا وكذا! فمُستقِلٌّ ومُستكثِرٌ، وفَتِّشْ نفْسَك: هل أنت سالمٌ مِن ذلك؟

فإنْ تَنْجُ منها تَنْــجُ مِن ذي عَظيمةٍ وإلَّا فإنِّـــي لا إِخالُـــكَ ناجِيَـــا[١]

فلْيَعتَنِ اللَّبيبُ النَّاصحُ لنفْسِه بهذا المَوضعِ، ولْيَتُبْ إلى اللهِ تعالَى، ولْيَستغفِرْهُ كلَّ وقتٍ مِن ظنِّه بربِّه ظَنَّ السَّوءِ، ولْيَظُنَّ السُّوءَ بنفْسِه الَّتي هي مأوَى كلِّ سُوءٍ، ومَنبَعُ كلِّ شرٍّ، المُرَكَّبةِ على الجهلِ والظُّلمِ؛ فهي أَوْلى بظَنِّ السَّوءِ مِن أحكَمِ الحاكِمينَ، وأعدَلِ العادِلينَ، وأرحَمِ الرَّاحمينَ، الغنيِّ الحميدِ، الَّذي له الغِنى التَّامُّ، والحمدُ التَّامُّ، والحِكمةُ التَّامَّةُ، المُنَزَّهُ عن كلِّ سُوءٍ في ذاتِه وصِفاتِه وأفعالِه وأسمائِه؛ فَذاتُه لها الكمالُ المُطْلَقُ مِن كلِّ وجهٍ، وصِفاتُه كذلك، وأفعالُه كذلك؛ كلُّها حِكمةٌ ومَصلحةٌ ورَحمةٌ وعدْلٌ، وأسماؤُه كلُّها حُسنى.

فــلا تَظْنُــنْ بِرَبِّــكَ ظَنَّ سَــوْءٍ فــإنَّ اللــهَ أَوْلــى بالجَميــلِ[٢]

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى تَسكينِ النُّفوسِ، وأنْ تكونَ مُسلِّمةً؛ لأنَّه يَنصُرُ متى شاء، وعلى أيِّ صُورةٍ شاء ممَّا لا يُدبِّرُه البشَرُ، ومِن جُندِه: السَّكينةُ التي أنْزَلَها في قُلوبِ أصحابِ محمَّدٍ، فثبَّتَ بَصائرَهم[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ذكَرَ اللهُ سُبحانَه السَّكينةَ في كِتابِه في سِتَّةِ مَواضِعَ:

الأوَّلُ: قَولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

---

(١) البيتُ مَنسوبٌ للأسودِ بنِ سَريعٍ رَضِي الله عنه. يُنظر: ((البيان والتبين)) للجاحظ (١/ ٢٩٣). ومَنسوبٌ للفرزدق. يُنظر: ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٣/ ٧٥). ومَنسوبٌ لِذِي الرُّمة. يُنظر: ((ديوان ذي الرمة شرح الباهلي)) (٣/ ١٩٢٤).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٠٥-٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٧).

الثَّاني: قَولُه تبارك وتعالَى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].

الثَّالِثُ: قَولُه تعالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠].

الرَّابعُ: قَولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

الخامِسُ: قَولُه تعالَى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

السَّادِسُ: قَولُه تعالَى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦].

وكان شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ -رَحِمَه اللهُ- إذا اشتَدَّت عليه الأُمورُ قَرَأ آياتِ السَّكينةِ، وقال في واقِعةٍ عَظيمةٍ جَرَتْ له في مَرَضِه، تَعجِزُ العُقولُ عن حَمْلِها؛ مِن مُحاربةِ أرواحٍ شَيطانيَّةٍ ظَهَرتْ له إذ ذاك في حالِ ضَعفِ القُوَّةِ -قال: (فلمَّا اشتَدَّ علَيَّ الأمرُ قُلتُ لِأقاربي ومَن حَولي: اقرَؤوا آياتِ السَّكينةِ، قال: ثمَّ أقلَعَ عنِّي ذلك الحالُ، وجَلستُ وما بي قَلَبَةٌ[1])[2].

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فكُلُّ مَن رَسَخ

(١) ما بي قَلَبَةٌ: أي: ما بي شَيءٌ، مأخوذٌ مِن القُلابِ: وهو داءٌ يَأخُذُ الإبِلَ في رُؤوسِها، فيَقلِبُها إلى فَوقٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٤/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٧٠-٤٧١).

قال ابنُ القيمِ: (وقد جرَّبتُ أنا أيضًا قِراءةَ هذه الآياتِ عندَ اضطِرابِ القَلبِ بما يَرِدُ عليه، فرأيتُ لها تأثيرًا عَظيمًا في سُكونِه وطُمَأنينتِه). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٤٧١).

في الإيمانِ له في هذه الآيةِ نَصيبٌ جَناه - أي: قطْفُه وثمرتُه- دانٍ[١].

٣- قال اللهُ تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال في حَقِّ الكافِرينَ: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦] بلَفظِ (القَذفِ) المُزعِجِ، أمَّا في حَقِّ المُؤمنينَ فبِلَفظِ الإنزالِ المُثبِّتِ؛ وذلك لأنَّ مَن عَلِمَ شَيئًا مِن قَبلُ وتذَكَّرَه، واستَدامَ تذَكُّرَه، فإذا وقَعَ لا يتغيَّرُ، ومَن كان غافِلًا عن شَيءٍ، فيَقَعُ دَفعةً؛ يَرجُفُ فُؤادُه؛ ألَا تَرى أنَّ مَن أُخبِرَ بوُقوعِ صَيحةٍ، وقِيلَ له: لا تَنزَعِجْ منها، فوقَعَت الصَّيحةُ؛ لا يَرجُفُ، ومَن لم يُخبَرْ به أو أُخبِرَ وغَفَلَ عنه يَرتَجِفُ إذا وقَعَت، فكذلك الكافِرُ؛ أتاهُ اللهُ مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، وقذَفَ في قَلْبِه؛ فارتجَفَ، والمؤمِنُ أتاهُ مِن حيثُ كان يَذكُرُه؛ فسَكَنَ[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ فيه أنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقُصُ، كما عليه أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ، وقدْ دَلَّ عليه الوَحيُ مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ[٣].

٥- السَّكينةُ هي طمأنينةُ القلبِ واستقرارُه، وأصلُها في القلبِ، ويظهَرُ أثرُها على الجوارحِ، وهي عامَّةٌ وخاصَّةٌ. فسَكينةُ الأنبياءِ صلواتُ اللَّه وسلامُه عليهم أخصُّ مراتبِها وأعلَى أقسامِها، كالسَّكينةِ التي حصَلت لإبراهيمَ الخليلِ حينَما أُلقِيَ في النَّارِ، وكذلك السَّكينةُ التي حصَلت لموسَى وقد غشِيَه فرعونُ وجنودُه مِن ورائِهم، والبحرُ أمامَهم، إلى غيرِ ذلك مِن المواقفِ التي حصَلت له فيها السَّكينةُ، وكذلك السَّكينةُ التي حصَلت لنبيِّنا صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، وقد أشرَف عليه وعلى صاحبِه عدوُّهما وهما في الغارِ، فلو نظَر أحدُهم تحتَ قدميه

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٤).

لرآهما، وكذلك السكينةُ التي نزَلت عليه في مواقفِه العظيمةِ، وأعداءُ اللَّه قد أحاطوا به كيومِ بدرٍ ويومِ حُنينٍ ويومِ الخندقِ وغيرِه، فهذه السكينةُ أمرٌ فوقَ عقولِ البشرِ، وهي مِن أعظمِ معجزاتِه عندَ أَربابِ البصائرِ، فإنَّ الكذبَ، -ولا سيَّما على اللَّه تعالى- أقلَقُ ما يكونُ وأخوفُ ما يكونُ وأشدُّه اضطرابًا في مثلِ هذه المواطنِ، فلو لم يكُنْ للرُّسلِ صلواتُ اللَّه وسلامُه عليهم مِن الآياتِ إلَّا هذه وحدَها لكفَتْهم.

وتكونُ السَّكينةُ لأتباعِ الرُّسلِ بحسبِ متابعتِهم، وهي سكينةُ الإيمانِ، وهي سكينةٌ تُسكنُ القلوبَ عن الرَّيبِ والشكِّ، ولهذا أنزَلها اللَّه تعالى على المؤمنينَ في أَصعبِ المواطنِ أحوجَ ما كانوا إليها ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤] فذكَر نعمتَه عليهم بالجنودِ الخارجةِ عنهم، والجنودِ الداخلةِ فيهم، وهي السكينةُ عندَ القلقِ والاضطرابِ الذي لم يَصبِرْ عليه مثلُ عمرَ بنِ الخطَّابِ رضِي اللَّه عنه، وذلك يومَ الحديبيةِ قال اللَّه سبحانه وتعالى يذكُرُ نعمتَه عليهم بإنزالِها أحوجَ ما كانوا إليها: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] لمَّا علِم اللَّه سبحانه وتعالى ما في قلوبِهم مِن القلقِ والاضطرابِ لمَّا منَعهم كفَّارُ قريشٍ مِن دخولِ بيتِ اللَّه، وحبَسوا الهديَ عن محلِّه، واشترَطوا عليهم تلك الشُّروطَ الجائرةَ الظالمةَ، فاضْطَربتْ قلوبُهم وقلقَتْ، ولم تُطِق الصَّبرَ، فعلِم تعالى ما فيها فثبَّتها بالسكينةِ رحمةً منه ورأفةً ولطفًا، وهو اللطيفُ الخبيرُ[1].

٦- قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ لمَّا

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٤/ ١٥٤).

أنزَلَ اللهُ تعالى السَّكينةَ في قلوبِهم مرجعَهم مِن الحُديبيةِ؛ ليزدادوا إيمانًا معَ إيمانِهم دلَّ على أنَّ الإيمانَ المزيدَ حالٌ للقلبِ وصفةٌ له وعملٌ مثلُ طمأنينتِه وسكونِه ويقينِه[1].

٧- قال اللهُ تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، قال: ﴿حَكِيمًا﴾ بعْدَ قولِه: ﴿عَلِيمًا﴾؛ إشارةً إلى أنَّه يَفعَلُ على وَفقِ العِلمِ؛ فإنَّ الحَكيمَ مَن يَعمَلُ شيئًا مُتقَنًا ويَعلَمُه، فإنَّ مَن يقَعُ منه صُنْعٌ عَجيبٌ اتِّفاقًا لا يُقالُ له: حكيمٌ، ومَن يَعلَمُ ويَعمَلُ على خِلافِ العلمِ لا يقالُ له: حكيمٌ[2].

٨- قولُ اللهِ تعالَى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ فيه سُؤالٌ: قال اللهُ تعالَى: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ بعْدَ ذِكرِ الإدخالِ، مع أنَّ تكفيرَ السَّيِّئاتِ قبْلَ الإدخالِ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: تَكفيرُ السَّيِّئاتِ والمَغفِرةُ وغَيرُهما: مِن تَوابِعِ كَونِ المُكَلَّفِ مِن أهلِ الجنَّةِ؛ فقُدِّمَ الإدخالُ في الذِّكْرِ، بمعنى: أنَّه مِن أهلِ الجنَّةِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ الواوَ لا تَقتَضي التَّرتيبَ[3]، والتَّرتيبُ المذكورُ هو تَرتيبٌ في الذِّكرِ لا تَرتيبٌ في الوقوعِ. وكان التَّبشيرُ بدُخولِ الجنةِ أهمَّ، فبُدِئَ به[4].

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّ المرادَ بإدْخالِهم الجنَّةَ إدخالٌ خاصٌّ، وهو إدْخالُهم مَنازِلَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٥)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٧).

المُجاهِدينَ، ولَيْس هو الإدخالَ الذي استَحَقُّوه بالإيمانِ وصالحِ الأعمالِ الأُخرى؛ ولذلك عَطَف عليه: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾[١].

الوجهُ الرَّابعُ: أنَّه قدَّمَ الإدخالَ على التَّكفيرِ مع أنَّ الأمرَ بالعكسِ؛ لِلمُسارَعةِ إلى بيانِ ما هو المَطلَبُ الأعْلى، والمَقصَدُ الأَسْنى[٢].

الوجْهُ الخامسُ: أنَّ المعنى: يُدخِلُهم الجنَّةَ ويُغطِّي سيِّئاتِهم ويَستُرُها عنهم، فلا تَمُرُّ لهم ببالٍ، ولا يَذكُرونها أصلًا؛ لئلَّا يَخجَلوا فيَتكدَّرَ صَفْوُ عَيشِهم[٣].

٩- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾، ثمَّ قال تعالَى: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ زِيادةً في الإفادةِ؛ لأنَّ مَن كان به بَلاءٌ فقدْ يكونُ مُبتلًى به على وَجهِ الامتِحانِ، فيَكونُ مُصابًا لكي يَصيرَ مُثابًا، وقدْ يكونُ مُصابًا على وَجهِ التَّعذيبِ؛ فقَولُه: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الَّذي حاق بهم على وَجهِ التَّعذيبِ، وقَولُه: ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ زِيادةُ إفادةٍ؛ لأنَّ المغضوبَ عليه قدْ يكونُ بحيثُ يَقنَعُ الغاضِبُ بالعَتْبِ والشَّتمِ أو الضَّربِ، ولا يُفضي غَضَبُه إلى إبْعادِ المغضوبِ عليه مِن جَنابِه، وطَردِه من بابِه، وقدْ يكونُ بحيثُ يُفضي إلى الطَّردِ والإبعادِ[٤].

١٠- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ لم يَجمَعْ على أحَدٍ مِنَ الوَعيدِ والعُقوبةِ ما جمَعَ على أهلِ الإشراكِ؛ فإنَّهم ظَنُّوا به ظَنَّ السَّوءِ، حتَّى أشرَكوا به، ولوْ أحسَنوا به الظَّنَّ لَوَحَّدوه حَقَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧١).

تَوحيدِه[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

- قَولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ بيانٌ لِمَا أفاضَ اللهُ عليهم مِن مَبادِئِ الفتْحِ مِن الثَّباتِ والطُّمأنينةِ، وفي التعبيرِ عن ذلِك بالإنزالِ إيماءٌ إلى عُلوِّ شأنِها[٢].

- وهذه الجُملةُ بَدلُ اشتِمالٍ مِن مَضمونِ جُملةِ ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٣]، وحصَلَ منها الانتِقالُ إلى ذِكرِ حظِّ المُسلمين مِن هذا الفتْحِ؛ فإنَّ المُؤمِنين هم جُنودُ اللهِ الَّذين قدْ نصَرَ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهِمْ، فكان في ذِكْرِ عِنايةِ اللهِ بإصلاحِ نُفوسِهم، وإذهابِ خَواطِرِ الشَّيطانِ عنهم، وإلْهامِهم إلى الحقِّ في ثَباتِ عَزْمِهم، وقُرارةِ إيمانِهم؛ تَكوينٌ لِأسبابِ نصْرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والفتْحِ المَوعودِ به؛ لِيَندَفِعوا حينَ يَستنفِرُهم إلى العدُوِّ بقُلوبٍ ثابتةٍ، ألَا تَرى أنَّ المُؤمِنين تَبلبَلَتْ نُفوسُهم مِن صُلْحِ الحُديبيةِ؛ إذ انصَرَفوا عَقِبَه عن دُخولِ مكَّةَ بعْدَ أنْ جاؤوا لِلعُمرةِ بعَددٍ عَديدٍ حسِبُوه لا يُغلَبُ، وأنَّهم إنْ أرادَهم العدوُّ بسُوءٍ، أو صَدَّهم عن قصْدِهم؛ قابَلوه فانْتَصروا عليه، وأنَّهم يَدخُلون مكَّةَ قسْرًا[٣].

- وفي قَولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ جُعِلَ

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٥)، ((تفسير الألوسي)) (٢٦/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٩).

ذلك الازديادُ كالعِلَّةِ لِإنزالِ السَّكينة في قُلوبِهم؛ لأنَّ اللهَ عَلِمَ أنَّ السَّكينةَ إذا حصَلَتْ في قُلوبِهم رسَخَ إيمانُهم، فعُومِلَ المَعلومُ حُصولُه مِن الفِعلِ مُعامَلةَ العِلَّةِ، وجُعِلَت قُوَّةُ الإيمانِ بمَنزلةِ إيمانٍ آخَرَ دخَلَ على الإيمانِ الأسبقِ؛ لأنَّ الواحدَ مِن أفرادِ الجِنسِ إذا انضَمَّ إلى أفرادٍ أُخَرَ، زادها قُوَّةً؛ فلذلك عُلِّقَ بالإيمانِ ظَرْفُ (مع) في قَولِه: ﴿مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾، فكان في ذلك الحادثِ خَيرٌ عَظيمٌ لهم، كما كان فيه خَيرٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ بأنْ كان سَببًا لِتَشريفِه بالمَغفرةِ العامَّةِ، ولإتمامِ النِّعمةِ عليه، ولِهدايتِه صِراطًا مُستقيمًا، ولِنَصرِه نصْرًا عزيزًا، فأعظِمْ به حَدَثًا أعقَبَ هذا الخيرَ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ولِأصحابِه[1]!

- قَولُه: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تَذْييلٌ لِلْكلامِ السَّابقِ؛ لأنَّه أفادَ أنْ لا عجَبَ في أنْ يَفتحَ اللهُ لك فتْحًا عَظيمًا، ويَنصُرَك على أقوامٍ كَثيرينَ أشِدَّاءَ نصْرًا صَحِبَه إنزالُ السَّكينةِ في قُلوبِ المُؤمِنين بعْدَ أنْ خامَرَهم الفشَلُ، وانكسارُ الخواطِرِ؛ فاللهُ مَن يَملِكُ جَميعَ وَسائلِ النَّصرِ، وله القُوَّةُ القاهرةُ في السَّمواتِ والأرضِ، وما هذا النَّصْرُ إلَّا بعضٌ ممَّا للهِ مِن القُوَّةِ والقَهْرِ. والواوُ اعتِراضيَّةٌ، وجُملةُ التَّذييلِ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ وبيْنَ مُتعلَّقِها، وهو ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [الفتح: ٥] الآيةَ[2].

- وفي تَعقيبِ جُملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ...﴾ بجُملةِ التَّذييلِ: إشارةٌ إلى أنَّ المُؤمِنين مِن جُنودِ اللهِ، وأنَّ إنزالَ السَّكينةِ في قُلوبِهم تَشديدٌ لِعَزائمِهم؛ فتَخْصيصُهم بالذِّكرِ قبْلَ هذا العُمومِ وبعْدَه تَنويهٌ بشَأْنِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُومِئُ إلى ذلك قَولُه بعْدُ: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ الآيةَ[1].

- وتَقديمُ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه في قَولِه: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لإفادةِ الحصْرِ، وهو حَصْرٌ ادِّعائيٌّ[2]؛ إذ لا اعتِدادَ بما يَجمَعُه المُلوكُ والفاتِحون مِن الجُنودِ لِغَلَبةِ العدُوِّ بالنِّسبةِ لِمَا للهِ مِن الغَلَبةِ لِأعدائِه والنَّصرِ لِأوليائِه[3].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تَذْييلٌ لِما قبْلَه مِن الفتْحِ والنَّصرِ وإنزالِ السَّكينةِ في قُلوبِ المُؤمِنين، والمَعْنى: أنَّه عَليمٌ بأسبابِ الفتْحِ والنَّصْرِ، وعَليمٌ بما تَطمئِنُّ به قُلوبُ المُؤمِنين بعْدَ البَلبَلةِ، وأنَّه حَكيمٌ يضَعُ مُقتضياتِ عِلْمِه في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥١).

(٢) الحَصرُ أو القَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أنْ يَختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِع، بألَّا يَتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصْرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وترَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مَبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتَنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ(إنَّما)، والقصرُ بتَقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٧- ١٧)، ((الإتقان)) للسيوطي (٢/ ١٣٤- ١٣٥)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٨٧ - ٩٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (١/ ٥٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥١).

مَواضِعِها المُناسِبةِ، وأوقاتِها المُلائمةِ[١].

- وأيضًا أثْبَتَ العِلمَ هنا إشارةً إلى أنَّه لا يَعْزُبُ عنه مِثْقالُ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ ولا في الأرضِ[٢].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

- قَولُه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ذِكْرُ المؤمناتِ مع المؤمنينَ هنا؛ لدَفْعِ توهُّمِ أنْ يكونَ الوعدُ بهذا الإدخالِ مُختَصًّا بالرِّجالِ؛ إذ كانتْ صِيغةُ الجمْعِ صِيغةَ المُذكَّرِ، مع ما قدْ يُؤكِّدُ هذا التَّوهُّمَ مِن وُقوعِه عِلَّةً أو عِلَّةَ عِلَّةٍ للفتْحِ وللنَّصرِ وللجُنودِ، وكلُّها مِن مُلابَساتِ الذُّكورِ، وإنَّما كان للمُؤمناتِ حظٌّ في ذلك؛ لأنَّهنَّ لا يَخلُونَ مِن مُشارَكةٍ في تلك الشَّدائدِ ممَّن يَقُمْنَ منهنَّ على المَرْضى والجَرحَى وسقْيِ الجيشِ وقتَ القِتالِ، ومِن صَبْرِ بَعضِهنَّ على الثُّكْلِ أو التَّأيُّمِ، ومِن صَبْرِهنَّ على غَيبةِ الأزواجِ والأبناءِ وذَوي القَرابةِ[٣]، وكذا في كلِّ مَوضعٍ يُوهِمُ الاختصاصَ يُصرَّحُ بذِكرِ النِّساءِ[٤].

- قَولُه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿فَوْزًا﴾، أي: فازوا عِندَ اللهِ، وتَقديمُه على مُتعلَّقِه؛ لِلاهتِمامِ[٥].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٢).

بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾

- قولُه: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ الحديثُ عن جُنودِ اللهِ في مَعرِضِ ذِكرِ نَصْرِ اللهِ، يَقْتَضي لا مَحالةَ فَريقًا مَهزومًا بتلك الجُنودِ، وهم العدُوُّ، فإذا كان النَّصرُ الذي قدَّره اللهُ مَعلولًا بما بشَّرَ به المُؤمنين؛ فلا جَرَمَ اقْتَضى أنَّه مَعلولٌ بما يَسوءُ العدُوَّ وحِزْبَه، فذكَرَ اللهُ مِن عِلَّةِ ذلك النَّصرِ أنَّه يُعذِّبُ بسَببِه المُنافِقينَ حِزبَ العدُوِّ، والمُشركينَ صَميمَ العدُوِّ؛ فكان قولُه: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ مَعطوفًا على ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾[1] [الفتح: ٥].

- وفي تَقديمِ المُنافِقينَ على المُشرِكين ما لا يَخفْى مِن الدَّلالةِ على أنَّهم أحقُّ منْهُم بالعَذابِ، وأنَّهم أشَدُّ منهم عَذابًا، ولِتَنْبيهِ المُسلِمينَ بأنَّ كُفْرَ المنافِقينَ خَفيٌّ، فرُبَّما غفَلَ المُسلِمون عن هذا الفريقِ أو نَسُوه[2].

ولأنَّه لَمَّا كان المُنافِقونَ أكثَرَ ضَررًا على المُسلِمينَ مِن المُشرِكينَ، بُدِئَ بذِكرِهم في التَّعذيبِ[3]. ولأنَّه لَمَّا كان مِن أعظَمِ الفَوزِ إقرارُ العَينِ بالانتِقامِ مِن العَدُوِّ، وكان العَدُوُّ المُكاتِمُ أشَدَّ مِن العَدُوِّ المجاهِرِ المُراغِمِ؛ قال تعالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ...﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨٩).

- وعُطِفَ ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ﴾ على ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾؛ لِدَفْعِ تَوهُّمِ أنْ يكونَ الوَعيدُ بهذا العَذابِ مُختصًّا بالرِّجالِ؛ لأنَّ نِساءَ المُنافِقين يُشارِكْنَهم في أسْرارِهم، ويَحُضُّون على ما يُبيِّتونَه مِن الكَيدِ، ويُهيِّئونَ لهم إيواءَ المُشرِكينَ إذا زارُوهم[1].

- وجُملةُ ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾ دُعاءٌ أو وَعيدٌ؛ ولذلك جاءتِ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ لِصُلوحيَّتِها لذلك، بخِلافِ جُملةِ ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ﴾؛ فإنَّها إخبارٌ عمَّا جَنَوه مِن سُوءِ فِعلِهم؛ فالتَّعبيرُ بالماضي منه أظهَرُ[2].

- قَولُه: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَ﴾ عطْفٌ لِمَا استَحقُّوه في الآخِرةِ على ما اسْتَوجَبوه في الدُّنيا، والواوُ وُضِعَتْ مَوضِعَ الفاءِ؛ إذ اللَّعنُ سَببٌ للإعدادِ، والغضَبُ سَببٌ له؛ لاستِقلالِ الكلِّ في الوَعيدِ بلا اعتبارِ السَّببيَّةِ[3].

٤- قَولُه تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ في الآيةِ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّكريرِ؛ فقدْ قال تعالَى أوَّلًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤] وقال ثانيًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ لأنَّه ذكَرَ قبْلَ الآيةِ الأُولى ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الفتح: ٤]، ولَمَّا كان فيهم مَن هو أهلٌ لِلرَّحمةِ، ومَن هو أهلٌ للعَذابِ؛ ناسَبَ أنْ يكونَ خاتمةُ الأُولى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ولَمَّا بالَغَ تعالَى في تَعذيبِ المُنافِقِ والكافِرِ وشِدَّتِه، ناسَبَ أنْ يكونَ خاتمةُ الثَّانيةِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ فالأُولى دلَّتْ على أنَّه المُدبِّرُ لأمْرِ المَخلوقاتِ بمُقْتضَى حِكمتِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٧).

والثَّانيةُ دلَّتْ على التَّهديدِ والوَعيدِ، وأنَّهم في قَبْضةِ المُنتقِمِ[1].

وقيل: كرَّر الإخبارَ بأنَّ له مُلكَ السَّمَواتِ والأرضِ وما فيهما مِن الجُنودِ؛ لِيَعلَمَ العِبادُ أنَّه تعالَى هو المعِزُّ المُذِلُّ، وأنَّه سيَنصُرُ جُنودَه المنسوبةَ إليه، كما قال تعالَى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[2] [الصافات: ١٧٣].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٩١).

الآيات (٨-١٠)

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ
وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ
فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا ١٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَنَذِيرًا﴾: أي: مُنذِرًا ومُحَذِّرًا ومُخَوِّفًا، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تخويفٍ[١].

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾: أي: تُعَظِّموه وتُقَوُّوه، وأصلُ التَّعزيرِ: النُّصرةُ مع التَّعظيمِ[٢].

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾: أي: تُسَوِّدوه وتُعَظِّموه؛ مِنَ التَّوقيرِ: وهو الاحتِرامُ والإجلالُ والإعظامُ، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقَلٍ في الشَّيءِ[٣].

﴿بُكْرَةً﴾: أي: أوَّلَ النَّهارِ، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدْئِه[٤].

﴿وَأَصِيلًا﴾: أي: آخِرَ النَّهارِ، وأصلُه: يدُلُّ على ما كان مِنَ النَّهارِ بعدَ العَشيِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

﴿نَّكَثَ﴾: أي: نَقَض، وأصلُ (نكث): يدُلُّ على نَقضِ شَيءٍ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا وظيفةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ المكلَّفَ بها، والحكمةَ مِن إرسالِه: إنَّا أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- شاهِدًا، ومُبَشِّرًا لِمَن أطاعك، ومُنذِرًا لِمَن عصاك، أرسَلْناه؛ لِتُؤمِنوا -أيُّها النَّاسُ- باللهِ ورَسولِه، ولِتُؤَيِّدوه وتَنصُروه، وتُعَظِّموه وتُجِلُّوه، ولِتُسَبِّحوا اللهَ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه.

ثمَّ يَمدَحُ الله سبحانَه الَّذينَ عاهَدوا الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم، ووَفَّوْا بعُهودِهم، فيقولُ: إنَّ الَّذين يُبايِعونَك -يا مُحمَّدُ- بالحُدَيبيَةِ على ألَّا يَفِرُّوا عندَ لِقاءِ الكُفَّارِ: إنَّما يُبايِعونَ اللهَ تعالى، يدُ اللهِ فَوقَ أيدي أولئك المُبايِعينَ.

ثمَّ يقولُ تَعالى مُحذِّرًا من نقضِ البيعةِ، ومُرغِّبًا في الوفاءِ بها: فمَنْ نَقَض بَيعَتَه فإنَّما يَضُرُّ نَفْسَه بذلك؛ لاستِحقاقِه العِقابَ، ومَن أَوفَى بما عاهَدَ اللهَ عليه في البَيعةِ فسيُؤتيه اللهُ ثَوابًا جَزيلًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨﴾.

أي: إنَّا أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- شاهِدًا[(٢)]، ومُبَشِّرًا بالخَيرِ والثَّوابِ لِمَن أطاعك،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٢، ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢).

(٢) قيل: المرادُ: شاهِدًا على أُمَّتِك يومَ القيامةِ. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، والسمعانيُّ، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٣٥). =

ومُنذِرًا بالشَّرِّ والعَذابِ لِمَن خالَفَك[1].

كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: ٩٧].

= وقال ابنُ جريرٍ، والقاسميُّ: المرادُ: شاهِدًا على أمَّتِك بما أجابوك فيما دَعَوْتَهم إليه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٨٦).

وقال الواحدي، والشوكاني: المرادُ: شاهِدًا على أمَّتِك بإبلاغِ الرِّسالةِ إليهم. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥١٦).

قال ابنُ عطيَّة: (شاهِدًا على النَّاسِ بأعمالِهم وأقوالِهم حينَ بَلَّغْتَ إليهم الشَّرعَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٢).

وقال ابنُ عاشور: (أرسَلْناك في حالِ أنَّك تَشهَدُ على الأُمَّةِ بالتَّبليغِ، بحيثُ لا يُعذَرُ المخالِفونَ عن شَريعتِك فيما خالَفوا فيه، وتَشهَدُ على الأُمَمِ، وهذه الشَّهادةُ حاصِلةٌ في الدُّنيا وفي يومِ القيامةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٥).

وقيل: المرادُ: شاهِدًا لله بالوَحدانيَّةِ، وأنَّه لا إلهَ غَيْرُه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٢).

وقال السعدي: (أي: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ أيُّها الرَّسولُ الكريمُ ﴿ شَٰهِدًا ﴾ لأمَّتِك بما فَعَلوه مِن خَيرٍ وشَرٍّ، وشاهِدًا على المقالاتِ والمسائِلِ؛ حَقِّها وباطِلِها، وشاهِدًا لله تعالى بالوَحدانيَّةِ والانفِرادِ بالكَمالِ مِن كُلِّ وَجهٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩، ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى حالَ الرِّسالةِ؛ ذكَر عِلَّتَها[1]، وبيَّنَ فائدةَ الإرسالِ على الوجهِ الَّذي ذكَره[2].

وأيضًا فإنَّ مِن تمامِ البِشارةِ والنِّذارةِ: بيانَ الأعمالِ والأخلاقِ الَّتي يُبَشِّرُ بها ويُنْذِرُ؛ فهو المبَيِّنُ للخَيرِ والشَّرِّ، والسَّعادةِ والشَّقاوةِ، والحقِّ مِنَ الباطِلِ؛ ولهذا رتَّبَ على ذلك قَولَه[3]:

﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: أرسَلْنا مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شاهِدًا ومُبَشِّرًا ونَذيرًا؛ لِتُؤمِنوا -أنتم أيُّها النَّاسُ- باللهِ ورَسولِه، وتَقومُوا بما يَستَلزِمُ ذلك مِن طاعتِهما في جميعِ الأُمورِ[4].

﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

قال الزَّجَّاج: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وخِطابٌ للنَّاسِ ولأُمَّتِه... وجائِزٌ أن يكونَ ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ خِطابًا للمُؤمِنينَ وللنَّبيِّ جميعًا؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد آمَنَ باللهِ وبآياتِه وكُتُبِه ورُسُلِه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢١).

وقيل: قَولُه تعالى: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ مُتعَلِّقٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: قُلْ. أي: قُلْ لهم: إنَّا أرسَلْناك لِتُؤمِنوا باللهِ ورَسولِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، وابنُ عطية. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٩).

أي: ولِتُؤَيِّدوه وتَنصُروه، وتُعَظِّموه وتُجِلُّوه[١].

﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٠-٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٦، ٢٦٧)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

قال ابن تيميَّة: (التَّعزيرُ: اسمٌ جامِعٌ لِنَصرِه وتأييدِه، ومَنْعِه مِن كُلِّ ما يُؤذيه. والتَّوقيرُ: اسمٌ جامِعٌ لكُلِّ ما فيه سَكينةٌ وطُمَأنينةٌ مِن الإجلالِ والإكرامِ، وأن يُعامَلَ مِنَ التَّشريفِ والتَّكريمِ والتَّعظيمِ بما يَصونُه عن كُلِّ ما يُخرِجُه عن حَدِّ الوَقارِ). ((الصارم المسلول)) (ص: ٤٢٢). ويُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٢/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٦).

وقال الماوَرْدي: (مِنهم مَن قال: إنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تُعَزِّروا اللهَ وتُوَقِّروه؛ لأنَّ قَولَه: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ راجعٌ إلى اللهِ، وكذلك ما تَقدَّمَه؛ فعلى هذا يكونُ تأويلُ قَولِه: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تُثبِتوا له صِحَّةَ الرُّبوبيَّةِ، وتَنفُوا عنه أن يكونَ له وَلَدٌ أو شَريكٌ. ومنهم مَن قال: المرادُ به رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ أن يُعَزِّروه ويُوَقِّروه؛ لأنَّه قد تقَدَّمَ ذِكرُه، فجاز أنْ يكونَ بَعضُ الكلامِ راجِعًا إلى اللهِ، وبَعضُه راجِعًا إلى رَسولِه. قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣١٣).

وقال ابن عطيَّة: (قال بعضُ المتأوِّلينَ: الضَّمائرُ في قولِه: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ هي كلُّها لله تعالى. وقال الجمهور: «تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ» هما للنَّبيِّ عليه السَّلامُ، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ هي لله). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٩).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ؛ أنَّ الضَّمائرَ الثَّلاثةَ ترجِعُ إلى الله عزَّ وجلَّ: الزمخشريُّ، والرازي، والنسفي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٨٦).

قال النسفي: (﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتُقَوُّوه بالنَّصر... والمرادُ بتعزيرِ الله: تعزيرُ دينِه ورسولِه). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٣٥).

وممَّن اختار أنَّ الضَّميرَينِ الأوَّلَين يَرجِعانِ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والثَّالثَ يَرجِعُ إلى اللهِ تعالى: القُشَيْريُّ، والكرماني، والبغوي، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٢١)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١١١٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

أي: ولِتُسَبِّحوا اللهَ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه(١).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٧)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٦).

قال السَّمعاني: (قَولُه: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ تنصَرِفُ إلى اللهِ قَولًا واحِدًا). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٩٤).

قال القرطبي: (وفي «تُسَبِّحُوهُ» وجْهانِ؛ أحدُهما: تسبيحُه بالتَّنزيهِ له سُبحانَه مِن كُلِّ قبيحٍ. والثَّاني: هو فِعلُ الصَّلاةِ الَّتي فيها التَّسبيحُ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٧).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تُنَزِّهوه عن السُّوءِ والنَّقائصِ: القُشَيريُّ، والجاوي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٢١)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تُصَلُّوا له -أي: لله-: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٣٧).

قال السَّمعاني: (والتَّسبيحُ بالبُكرةِ وهو صلاةُ الصُّبحِ، وبالأَصيلِ صلاةُ الظُّهرِ والعصرِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٩٤).

وقال النَّسَفي: (﴿بُكۡرَةٗ﴾ صلاةَ الفَجرِ ﴿وَأَصِيلًا﴾ الصَّلَواتِ الأربَعَ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٣٥).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَين: التَّنزيهِ والصَّلاةِ: الثعلبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

قال السعدي عن التَّسبيحِ وهو الحقُّ المختصُّ بالله في هذه الآيةِ: (هو التَّسبيحُ له والتَّقديسُ بصَلاةٍ أو غيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ أنَّه مُرسَلٌ؛ ذَكَر أنَّ مَن بايَعَه فقد بايَعَ اللهَ تعالى(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

أي: إنَّ أصحابَك -يا مُحمَّدُ- الَّذين يُبايِعونَك بالحُدَيبيَةِ على ألَّا يَفِرُّوا عندَ لِقاءِ الكُفَّارِ: إنَّما يُبايِعونَ اللهَ في حقيقةِ الأمرِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ قال المفسِّرونَ: يعني بَيعةَ الرِّضوانِ، وكانت بالحُدَيبيَةِ تحتَ الشَّجَرةِ، وكان المسلِمونَ يومَئذٍ ألْفًا وأربَعَمِئةِ رجُلٍ، بايَعوا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم على أن يُقاتِلوا ولا يَفِرُّوا). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٩٠).

وقال ابنُ الجوزي: (وعلى ماذا بايَعوه؟ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّهم بايَعوه على الموتِ، قاله عُبادةُ بنُ الصَّامتِ.

والثَّاني: على ألَّا يَفِرُّوا، قاله جابرُ بنُ عبدِ الله. ومعناهما مُتقارِبٌ؛ لأنَّه أراد: على ألَّا تَفِرُّوا ولو مُتُّم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لم يُرِدْ به: إنَّك أنت اللهُ! وإنَّما أراد: إنَّك أنت رسولُ الله، ومُبَلِّغُ أمرِه ونَهيِه، فمَنْ بايَعَك فقد بايَعَ اللهَ، كما أنَّ مَن أطاعك فقد أطاع اللهَ، ولم يُرِدْ بذلك أنَّ الرَّسولَ هو اللهُ، ولكنَّ الرَّسولَ أمَر بما أمَر اللهُ به، فمَنْ أطاعه فقد أطاع اللهَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٣٣٣).

وقال ابنُ عثيمين: (إنَّما جَعَل اللهُ تعالى مُبايَعةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُبايعةً له؛ لأنَّه رَسولُه، وقد بايَعَ الصَّحابةُ على الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تعالى، ومُبايَعةُ الرَّسولِ على الجِهادِ في سَبيلِ مَن أرسَلَه مُبايَعةٌ لِمَن أرسَلَه؛ لأنَّه رَسولُه المبلِّغُ عنه، كما أنَّ طاعةَ الرَّسولِ طاعةٌ لِمَن أرسَلَه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وفي إضافةِ مُبايَعتِهم =

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((قال لنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَومَ الحُدَيبيَةِ: أنتم خَيرُ أهلِ الأرضِ. وكُنَّا ألْفًا وأرْبَعَمِئةٍ))(١).

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾.

أي: يدُ اللهِ فَوقَ أيدي أولئك المُبايِعينَ مِن أصحابِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَقتَ بَيعتِه(٢).

= الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى اللهِ تعالى مِن تَشريفِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتأييدِه، وتوكيدِ هذه المُبايَعةِ وعِظَمِها، ورَفْعِ شَأنِ المُبايِعينَ: ما هو ظاهِرٌ لا يَخفى على أحَدٍ). ((القواعد المثلى)) (ص: ٧٤).

(١) رواه البخاريُّ (٤١٥٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٨٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٨٧)، ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٧٤، ٧٥).

قال ابن القيِّم: (لَمَّا كانوا يُبايِعونَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأيديهم، ويَضرِبُ بيَدِه على أيديهم، وكان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو السَّفيرَ بيْنَه وبَيْنَهم؛ كانت مُبايَعتُهم له مُبايَعةً لله تعالى، ولَمَّا كان سُبحانَه فَوقَ سَمَواتِه وعلى عَرشِه فَوقَ الخلائِقِ كُلِّهم، كانت يَدُه فَوقَ أيديهم، كما أنَّه سُبحانَه فَوقَهم). ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للمَوْصِلي (ص: ٤٠٦).

وقال ابنُ عثيمين: (يَدُ اللهِ تعالى فوقَ أيدي المُبايِعينَ؛ لأنَّ يَدَه مِن صِفاتِه، وهو سُبحانَه فَوقَهم على عَرشِه، فكانت يَدُه فَوقَ أيديهم، وهذا ظاهِرُ اللَّفظِ وحَقيقتُه، وهو لتوكيدِ كَونِ مُبايَعةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُبايَعةً لله عزَّ وجَلَّ، ولا يَلزَمُ منها أن تكونَ يدُ اللهِ جلَّ وعلا مُباشِرةً لأيديهم، ألَا تَرى أنَّه يُقالُ: السَّماءُ فَوقَنا، مع أنَّها مُبايِنةٌ لنا، بعيدةٌ عنا؟! فيَدُ اللهِ عزَّ وجَلَّ فوقَ أيدي المبايِعينَ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع مُبايَنتِه تعالى لِخَلْقِه، وعُلُوِّه عليهم. ولا يمكِنُ لأحدٍ أن يَفهَمَ أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ يدُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! ولا أن يَدَّعيَ أنَّ ذلك ظاهِرُ اللَّفظِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أضاف اليَدَ إلى نَفْسِه، ووَصَفَها بأنَّها فوقَ أيديهم، ويَدُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَ مُبايَعةِ الصَّحابةِ لم تكُنْ فوقَ أيديهم، بل كان يَبسُطُها إليهم، فيُمسِكُ بأيديهم كالمُصافِحِ لهم؛ فيَدُه مع أيديهم، لا فَوقَ أيديهم). ((القواعد المثلى)) (ص: ٧٤، ٧٥). ويُنظر: ((الإبانة عن أصول الديانة)) للأشعري (ص: ١٢٥-١٢٨)، ((شرح =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

أي: فمَن نَقَض بَيعَتَه فإنَّما يَضُرُّ نَفْسَه بذلك؛ لاستِحقاقِه العِقابَ، وحِرمانِ نَفْسِه مِن الثَّوابِ[1].

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أتَمَّ التَّرهيبَ؛ لأنَّه مَقامُه للحَثِّ على الوَفاءِ الَّذي به قيامُ الدِّينِ، على أبلَغِ وَجهٍ- أتبَعَه التَّرغيبَ؛ إتمامًا للحَثِّ، فقال تعالى[2]:

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: ومَن أَوفَى بما عاهَدَ اللهَ عليه في البَيعةِ؛ مِن الصَّبرِ عندَ قِتالِ الكُفَّارِ، ونُصرةِ الرَّسولِ: فسيُؤتيه اللهُ ثَوابًا جَزيلًا على وَفائِه، بوَعدٍ لا خُلْفَ فيه[3].

= الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ٢٦٤)، ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) لعَلَوي السَّقَّاف (ص: ٣٧٦-٣٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٠)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٧، ٢٩٨).=

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ذَكَر اللهُ في هذه الآيةِ الحَقَّ المُشتَرَكَ بيْنَ اللهِ وبيْنَ رَسولِه، وهو: الإيمانُ بهما، والمُختَصَّ بالرَّسولِ، وهو: التَّعزيرُ والتَّوقيرُ، والمُختَصَّ باللهِ، وهو: التَّسبيحُ له والتَّقديسُ بصَلاةٍ أو غَيرِها[1]. على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أنَّ حَقَّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو أوجَبُ الحُقوقِ البَشَريَّةِ، وحَقُّه التَّعظيمُ والإجلالُ والتَّوقيرُ، حتَّى إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ جَعَلَ مِن أسبابِ الرِّسالةِ ومِن حِكمةِ الرِّسالةِ أنْ نُؤمِنَ باللهِ ورَسولِه، ونُعَزِّرَه ونُوَقِّرَه؛ فهذا رُكنٌ وأساسٌ وحِكمةٌ مِن حِكَمِ إرسالِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[2]. وذلك بناء على قولٍ في التَّفسيرِ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ سُمِّيَت مُبايَعةً؛ لأنَّهم باعوا أنفُسَهم فيها مِنَ اللهِ بالجنَّةِ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ هذا الكلامُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ،

= قال ابن عاشور: (الظَّاهِرُ عندي: أنَّ سَبَبَ المُبايَعةِ قد انعدَمَ بالصُّلحِ الواقِعِ بيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبيْنَ أهلِ مكَّةَ، وأنَّ هذه الآيةَ نزَلت فيما بيْنَ ساعةِ البَيعةِ وبيْنَ انعِقادِ الهُدْنةِ، وحَصَل أجرُ الإيفاءِ بالنِّيَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٤/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٥)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٢).

وتأْكيدُه بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتِمام. ولَمَّا أُريدَ الانتِقالُ مِن الوعْدِ بالفتْحِ والنَّصرِ وما اقتَضاهُ ذلك ممَّا اتَّصلَ به ذِكْرُه، إلى تَبْيينِ ما جَرَى في حادثةِ الحُديبيَةِ، وإبلاغِ كلِّ ذي حظٍّ مِن تلك القَضيَّةِ نَصيبَه المُستحَقَّ ثَناءً أو غيرَه؛ صُدِّرَ ذلك بذِكْرِ مُرادِ اللهِ مِن إرسالِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِيَكونَ ذلك كالمُقدِّمةِ للقِصَّةِ، وذُكِرَ مِن حِكمةِ اللهِ تعالَى في إرسالِه ما له مَزيدُ اختِصاصٍ بالواقعةِ المُتحدَّثِ عنها، فذُكِرَتْ أوصافٌ ثلاثةٌ؛ هي: شاهِدٌ، ومُبشِّرٌ، ونَذيرٌ. وقُدِّم منها وَصفُ الشَّاهدِ؛ لأنَّه يَتفرَّعُ عنه الوَصفانِ بعْدَه[1].

- قَولُه: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ في ﴿لِّتُؤْمِنُواْ﴾ لامَ (كي) مُفيدةً للتَّعليلِ، ومُتعلِّقةً بفِعلِ ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾. والخِطابُ يَجوزَ أنْ يكونَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع أُمَّةِ الدَّعوةِ، أي: لتُؤمِنَ أنتَ والَّذين أُرسِلْتَ إليهم شاهِدًا ومُبشِّرًا ونَذيرًا، والمقصودُ الإيمانُ باللهِ، وأُقحِمَ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾؛ لأنَّ الخِطابَ شاملٌ للأُمَّةِ، وهم مَأْمورون بالإيمانِ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مأْمورٌ بأنْ يُؤمِنَ بأنَّه رسولُ اللهِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ للنَّاسِ خاصَّةً، ولا إشكالَ في عطْفِ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾. ويَجوزُ أنْ يكونَ الكلامُ قد انْتَهى عندَ قَولِه: ﴿وَنَذِيرًا﴾ [الفتح: ٨]، وتكونَ جُملةُ ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ...﴾ إلخ جُملةً مُعترِضةً، ويكونَ اللَّامُ في قَولِه: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ﴾ لامَ الأمْرِ، وتكونَ الجُملةُ استِئنافًا للأمْرِ[2].

- وضَمائرُ الغَيبةِ المنْصوبةِ الثَّلاثةُ عائِدةٌ إلى اسمِ الجَلالةِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لأنَّ إفرادَ الضَّمائرِ مع كَونِ المذكورِ قبْلَها اسمَينِ، دَليلٌ على أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٥٥، ١٥٦).

المُرادَ أحَدُهما، والقرينةُ على تَعيينِ المرادِ ذِكْرُ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾، ولأنَّ عطْفَ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ على لَفظِ الجَلالةِ اعتدادٌ بأنَّ الإيمانَ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إيمانٌ باللهِ؛ فالمَقصودُ هو الإيمانُ باللهِ[١].

- قَولُه: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ البُكرةُ: أوَّلُ النَّهارِ. والأصيلُ: آخِرُه، وهما كِنايةٌ عن استيعابِ الأوقاتِ بالتَّسبيحِ والإكثارِ منه، كما يُقال: شرْقًا وغرْبًا؛ لاستيعابِ الجِهاتِ وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ. وقيل: التَّسبيحُ هنا: كِنايةٌ عن الصَّلَواتِ الواجبةِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ وقَعَ في سُورةِ (الأحزابِ) نَظيرُ هذه الآيةِ، وهو قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]؛ فزِيدَ في صِفاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هنالك ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾، ولم يُذكَرْ مِثلُه في الآيةِ هذه الَّتي في سُورةِ (الفتْحِ)؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ هذه الآيةَ الَّتي في سُورةِ (الفتْحِ) وَرَدتْ في سِياقِ إبطالِ شَكِّ الَّذين شَكُّوا في أمْرِ الصُّلحِ، والَّذين كذَّبوا بوعْدِ الفتْحِ والنَّصرِ، والثَّناءِ على الَّذين اطْمَأنُّوا لذلك؛ فاقتُصِرَ مِن أوصافِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الوَصْفِ الأصليِّ؛ وهو أنَّه شاهِدٌ على الفريقَينِ، وكَونُه مُبشِّرًا لأحَدِ الفريقَينِ، ونَذيرًا للآخَرِ، بخِلافِ آيةِ (الأحزابِ)؛ فإنَّها ورَدَتْ في سِياقِ تَنزيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن مَطاعنِ المُنافِقين والكافرينَ في تَزوُّجِه زينبَ بنتَ جَحشٍ بعْدَ أنْ طلَّقَها زَيدُ بنُ حارثةَ بزَعْمِهم أنَّها زَوجةُ ابنِه؛ فناسَبَ أنْ يُزادَ في صِفاتِه ما فيه إشارةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إلى التَّمحيصِ بيْنَ ما هو مِن صِفاتِ الكَمالِ، وما هو مِن الأوهامِ النَّاشئةِ عن مَزاعمَ كاذبةٍ، مِثلُ التَّبنِّي؛ فزِيدَ كَونُه داعيًا إلى اللهِ بإذْنِه، أي: لا يتَّبِعُ مَزاعِمَ النَّاسِ ورَغَباتِهم، وأنَّه سِراجٌ مُنيرٌ يَهتدي به مَن هِمَّتُه في الاهتداءِ دونَ التَّقعيرِ[(١)].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ شُروعٌ في الغرَضِ الأصليِّ مِن هذه السُّورةِ، وهو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ أنَّ مَن بايَعَ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ صُورةً فقد بايَعَ اللهَ حقيقةً[(٢)].

- وأُكِّدتِ الجُملةُ بحرْفِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ[(٣)].

- وصِيغةُ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ لاستِحضارِ حالةِ المُبايَعةِ الجليلةِ؛ لِتَكونَ كأنَّها حاصِلةٌ في زمَنِ نُزولِ هذه الآيةِ مع أنَّها قد انقَضَت؛ لأنَّها جَديرةٌ بالتَّجْسيدِ؛ لتَكونَ عِبرةَ الأجدادِ للأحفادِ[(٤)].

- والحصْرُ المُفادُ مِن (إنَّما) حصْرُ الفِعلِ في مَفعولِه، أي: لا يُبايِعون إلَّا اللهَ، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[(٥)]؛ بادِّعاءِ أنَّ غايةَ البَيعةِ وغرَضَها هو النَّصْرُ لِدينِ اللهِ ورَسولِه، فنُزِّلَ الغرَضُ مَنزِلةَ الوَسيلةِ، فادُّعِيَ أنَّهم بايَعوا اللهَ لا الرَّسولَ[(٦)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٦، ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٤٥).
(٥) تقدم تعريفه (ص: ٤٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٧).

- جُملةُ ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مُقرِّرةٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ المُفيدةِ أنَّ بَيعتَهم النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الظَّاهِرِ، هي بَيعةٌ منهم للهِ في الواقعِ، فقرَّرَتْه جُملةُ ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ وأكَّدَتْه؛ ولذلك جُرِّدَت عن حرْفِ العطْفِ[١].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ على جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾؛ فإنَّه لَمَّا كشَفَ كُنْهَ هذه البَيعةِ بأنَّها مُبايَعةٌ للهِ ضَرورةَ أنَّها مُبايَعةٌ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ باعتِبارِ رِسالتِه عن اللهِ؛ صارَ أمْرُ هذه البَيعةِ عظيمًا خَطيرًا في الوفاءِ بما وقَعَ عليه التَّبايُعُ وفي نَكْثِ ذلك، والكلامُ تَحذيرٌ مِن نَكْثِ هذه البَيعةِ، وتَفظيعٌ له؛ لأنَّ الشَّرطَ يَتعلَّقُ بالمُستقبَلِ[٢].

- و(إنَّما) للقصْرِ، وهو لِقصْرِ النَّكثِ على مَدلولِ ﴿عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾؛ لِيُرادَ: لا يضُرُّ بنَكْثِه إلَّا نفْسَه، ولا يضُرُّ اللهَ شيئًا؛ فإنَّ نَكْثَ العهدِ لا يَخْلو من قصْدِ إضرارٍ بالمَنكوثِ؛ فجِيءَ بقصْرِ القَلْبِ لِقلْبِ قصْدِ النَّاكثِ على نفْسِه دونَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣].

- وعَبَّر بالمُضارِعِ في ﴿يَنكُثُ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ مَن فَعَلَ النَّكْثَ فهو في كُلِّ لَحظةٍ ناكِثٌ نَكْثًا جَديدًا[٤].

- قُرِئَ ﴿فَسَنُؤْتيهِ﴾ بنُونِ العَظَمةِ على الالْتِفاتِ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ، وقُرِئَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٥٩، ١٦٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٦٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٧).

بياءِ الغَيبةِ ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ عائدًا ضَميرُه على اسمِ الجَلالةِ[(١)].

- والآيةُ مِنَ الاحتِباكِ[(٢)]: ذكَرَ أوَّلًا أنَّ النَّكْثَ عليه، دليلًا على أنَّ الوفاءَ له ثانيًا، وإيتاءَ الأجرِ ثانيًا، دليلًا على إحلالِ العِقابِ أوَّلًا. وسِرُّه أنَّه بيَّنَ أنَّ ما يُريدُه النَّاكِثُ مِنَ الأذى لغَيرِه إنَّما هو واقِعٌ به؛ لأنَّ ذلك أعظَمُ في التَّرهيبِ عن النَّكْثِ؛ لِمَا جُبِل الإنسانُ عليه مِنَ النَّفرةِ عن ضرِّ نفْسِه، وبُعدِه عنه. وذكَرَ الأجرَ للمُوفِي؛ لأنَّه أعظَمُ في التَّرغيبِ[(٣)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٠).

قال ابن الجزري: (واختلَفوا في: ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا﴾؛ فقرأ أبو عَمرٍو، والكوفيُّون ورُوَيْسٌ بالياءِ. وانفرد بذلك ابنُ مِهْرانَ عن رَوحٍ أيضًا. وقرأ الباقونَ بالنُّونِ). ((النشر في القراءات العشر)) (٢/ ٣٧٥).

(٢) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٨).

الآيات (١١-١٤)

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤) ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بُورًا﴾: أي: هَلْكى، وأصلُ (بور): يدُلُّ على هَلاكِ الشَّيءِ وتَعَطُّلِه وخُلُوِّه[١].

﴿سَعِيرًا﴾: أي: نارًا شَديدةَ التَّلَهُّبِ والاتِّقادِ، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بما يَعتذِرُ به المتخلِّفونَ الَّذينَ لم يَخرُجوا معَه عامَ الحُدَيبيَةِ، فيقولُ سبحانَه: سيَقولُ لك -يا مُحمَّدُ- أهلُ البَوادي السَّاكِنونَ حوْلَ المدينةِ، الَّذين خَلَّفهم اللهُ عن الخُروجِ معك عامَ الحُدَيبيَةِ، إذا عاتَبْتَهم على تخَلُّفِهم: شغَلَتْنا أموالُنا وأهلُونا عن الخُروجِ معك؛ فادْعُ اللهَ أن يَغفِرَ لنا تخَلُّفَنا عنك! يَقولون ذلك بألسِنَتِهم، ولا يَعتَقِدونَه بقُلوبِهم!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك الأعرابِ: مَن يَملِكُ دَفْعَ الضَّرِّ عنكم إنْ أراده اللهُ بكم؟! أوْ مَن يَملِكُ مَنْعَ النَّفعِ عنكم إن أرادَه اللهُ بكم؟! ليس الأمرُ كما يَظُنُّ أولئك الأعرابُ مِن أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ ما تَنطوي عليه قُلوبُهم؛ فهو تعالى عالِمٌ ببَواطِنِ أُمورِهم، لا يَخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِهم.

ثمَّ يؤكِّدُ اللهُ تعالى كذِبَهم، فيقولُ: لم تتخَلَّفوا -أيُّها الأعرابُ- عن الخُروجِ لِشَغْلِكم بأموالِكم وأهليكم كما زعَمْتُم، بل لِظَنِّكم أنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ سيَستأصِلونَ الرَّسولَ وأصحابَه بالقَتلِ، فلا يَرجِعونَ إلى أهليهم أبَدًا، وحَسَّنَ الشَّيطانُ ذلك الظَّنَّ في قُلوبِكم، وظنَنْتُم ذلك الظَّنَّ السَّيِّئَ، وكُنتُم قومًا هَلْكَى لا خَيرَ فيكم.

ثمَّ يقولُ تعالى متوعِّدًا مَن كفَر: ومَنْ لم يُؤمِنْ باللهِ ورَسولِه فإنَّه كافِرٌ مُستَحِقٌّ للعِقابِ، وقد أعدَدْنا وهَيَّأْنا للكافِرينَ نارًا شديدةَ الاتِّقادِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سَعةَ مُلكِه، ونُفوذَ مشيئتِه، وأنَّه الحاكمُ المتصرِّفُ في أهلِ السَّمواتِ والأرضِ، فيقولُ: ولله سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ، يتصَرَّفُ فيهما كيف يَشاءُ؛ يَغفِرُ بفَضلِه لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُعَذِّبُ بعَدْلِه مَن يَشاءُ منهم، وكان اللهُ غَفورًا رَحيمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَذَّر مِنَ النَّكْثِ، ورغَّبَ في الوفاءِ؛ أتْبَعَ ذلك بذِكرِ التَّخلُّفِ عن الانضِمامِ

إلى جيشِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ الخروجِ إلى عُمرةِ الحُدَيبيَةِ، وهو ما فعَلَه الأعرابُ الَّذينَ كانوا نازِلينَ حوْلَ المدينةِ، بعدَ أن بايَعوه على الخروجِ معه[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه وتعالى أهْلَ بَيعةِ الرِّضوانِ، تَشَوَّفَ السَّامعُ إلى الخبرِ عمَّن غاب عن ذلك الجَنابِ؛ فاستُؤنِفَ الإخبارُ عمَّا يُنافِقونَ به، بقَولِه تعالى[٢]:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾.

أي: سيَقولُ لك -يا مُحمَّدُ- أهلُ البَوادي السَّاكِنونَ حوْلَ المدينةِ، الَّذين خَلَّفهم اللهُ في أهالِيهم عن السَّفَرِ معك إلى مَكَّةَ عامَ الحُدَيبيَةِ، إذا عاتَبْتَهم على تخَلُّفِهم، وقد أمَرْتَهم بالخُروجِ معك: شغَلَتْنا أموالُنا مِنَ الإبِلِ أو غَيرِها، وأهلونا مِنَ النِّساءِ والذَّراريِّ عن الخُروجِ معك؛ فادعُ اللهَ أن يَغفِرَ لنا تخَلُّفَنا عنك[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٠، ١٦١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٦، ٢٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٧)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦١).

قال ابنُ عاشور: (هو ما فعَلَه الأعرابُ الَّذين كانوا نازِلينَ حوْلَ المدينةِ، وهم سِتُّ قبائِلَ: غِفارٌ، ومُزَينةُ، وجُهَينةُ، وأشجَعُ، وأسلَمُ، والدِّيْلُ، بعدَ أنْ بايَعوه على الخُروجِ معه؛ فإنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا أراد المَسيرَ إلى العُمرةِ استَنفَرَ مَن حَوْلَ المدينةِ منهم؛ لِيَخرُجوا معه، فيَرهَبَه أهلُ مكَّةَ فلا يَصُدُّوه عن عُمرتِه، فتثاقَلَ أكثَرُهم عن الخُروجِ معه... وتخلَّفَ عن الخُروجِ معه مُعظَمُهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٠، ١٦١).

وقد اختلف في هؤلاء الأعرابِ فقيل: كانوا مِن المنافقينَ، وقيل: كانوا من ضعافِ الإيمانِ، ولم يكونوا منافقينَ.

ممن اختار القولَ الأولَ: ابنُ جرير، والزَّجَّاج، والزَّمَخْشري، والرَّسعني، وابنُ كثير، والشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣)، =

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: يَقولُ لك أولئك المُخَلَّفونَ بألسِنَتِهم قَولًا مُجرَّدًا لا يَعتَقِدونَه بقُلوبِهم، فهم كاذِبونَ في اعتذارِهم، وفي طلبِهم للاستِغفارِ[1]!

= ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧).

وممن اختار القولَ الثَّاني: الغرناطي، وابن عاشور. يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (١/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦١).

وقال ابنُ عطيةَ، وابنُ جزي: لم يكنْ إيمانُهم متمكِّنًا. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٧)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٩٣).

قال الرازي في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: (هذا يحتَمِلُ أمْرَينِ؛ أحَدُهما: أن يكونَ التَّكذيبُ راجعًا إلى قولِهم: ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾، وتحقيقُه هو أنَّهم أظهَروا أنَّهم يعتَقِدونَ أنَّهم مُسيئونَ بالتَّخَلُّفِ حتَّى استغفَروا، ولم يكُنْ في اعتِقادِهم ذلك، بل كانوا يَعتَقِدونَ أنَّهم بالتَّخَلُّفِ مُحسِنونَ. ثانيهما: قالوا: ﴿شَغَلَتْنَآ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ امتِناعَنا لهذا لا غيرُ، ولم يكُنْ ذلك في اعتِقادِهم، بل كانوا يَعتَقِدونَ امتناعَهم لاعتقادِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ يُقهَرونَ ويُغلَبونَ، كما قال بَعْدَه: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢]). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ أنَّهم في طلَبِ الاستِغفارِ عن التَّخَلُّفِ كاذِبون؛ لأنَّهم لا يُبالون أَسْتَغفَرَ لهم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أمْ لا: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والواحدي، وابن الجوزي، والخازن، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

وممَّن قال: إنَّ المرادَ تكذيبُهم في الاعتِذارِ والاستِغفارِ: الثعلبيُّ، والزمخشري، والبيضاوي، وأبو حيَّان، والبِقاعي، وأبو السعود، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) =

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان فِعْلُهم هذا مِن تخَلُّفِهم واعتِلالِهم وسُؤالِهم الاستِغفارَ: ظَنًّا منهم أنَّهم يَدفَعونَ عن أنفُسِهم بذلك المكروهَ، ويُحَصِّلونَ لها المحبوبَ، وكان كأنَّه قيل: قد عُلِمَ كَذِبُهم، فماذا يُقالُ لهم؟ استأنَفَ سُبحانَه الجوابَ بقَولِه[1]:

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿ضُرًّا﴾ بضمِّ الضَّادِ، بمعنى البؤسِ والسُّقمِ وسوءِ الحالِ[2].

٢- قراءةُ ﴿ضَرًّا﴾ بفتحِ الضَّادِ، ضدُّ النَّفعِ، وقيل: هما بمعنًى واحدٍ، مِثلُ:

= (٩/ ٤٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٩٣).

قال القاسمي: (قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيبٌ لهم في اعتِذارِهم، وأنَّ الَّذي خلَّفَهم ليس بما يَقولون، وإنَّما هو الشَّكُّ في الله، والنِّفاقُ. وكذا طلَبُهم للاستِغفارِ أيضًا ليس بصادرٍ عن حقيقةٍ؛ لأنَّه بغيرِ تَوبةٍ منهم، ولا ندَمٍ على ما سلَف منهم مِن معصيةِ التَّخلُّفِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٩٣).

وقال أبو حيَّان: (ولَمَّا عَلِموا أنَّ ذلك التَّخلُّفَ عن الرَّسولِ كان معصيةً، سألوا أن يَستغفِرَ لهم. ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: الظَّاهِرُ أنَّه راجِعٌ إلى الجُملتَينِ المَقولتَينِ مِن الشُّغلِ وطلَبِ الاستِغفارِ، لأنَّ قولَهم: ﴿شَغَلَتْنَا﴾ كَذِبٌ، وطلَبَ الاستِغفارِ خُبثٌ منهم، وإظهارُ أنَّهم مؤمِنون عاصون). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠١).

(٢) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٢٠)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٢٠٢).

الضُّعفِ والضَّعفِ[١].

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئكَ الأعرابِ: لا أحَدَ يَملِكُ دَفْعَ الضَّرِّ الَّذي أراده اللهُ بكم مِن أيِّ نَوعٍ كان؛ عَظيمًا أو حَقيرًا؛ فهو قادِرٌ على إهلاكِ أموالِكم وأهليكم مهما فعَلْتُم وشُغِلْتُم بها، ولا أحَدَ يَملِكُ مَنْعَ النَّفعِ الَّذي أرادَه اللهُ لكم مِن أيِّ نَوعٍ كان؛ قليلًا أو كثيرًا؛ فهو قادِرٌ على حِفظِ أموالِكم وأهليكم مع تَغَيُّبِكم، فلا يَضُرُّها بُعدُكم عنها[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧].

﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ أولئك الأعرابُ مِن أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ ما تَنطوي عليه قُلوبُهم؛ فاللهُ تعالى عالِمٌ ببَواطِنِ أُمورِهم، لا يَخفَى عليه تخَلُّفُهم أو غيرُه مِن أعمالِهم[٣].

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٢٠)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٦، ٢٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٢).

﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾.

أي: لم تَتخَلَّفوا -أيُّها الأعرابُ- عن الخُروجِ مع الرَّسولِ والمُؤمِنينَ لِشَغْلِكم بأموالِكم وأهليكم كما زعَمْتُم، كلَّا! وإنَّما تخَلَّفتُم عنهم لظَنِّكم أنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ سيَستأصِلونَهم بالقَتلِ، فلا يَرجِعونَ إلى أهليهم في المدينةِ أبَدًا[١].

﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾.

أي: وحَسَّن الشَّيطانُ ذلك الظَّنَّ في قُلوبِكم، فحسَّن لكم التَّخَلُّفَ عن الخُروجِ مع المؤمِنينَ[٢].

﴿وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾.

أي: وظَنَنْتُم أنَّ اللهَ لن يَنصُرَ رَسولَه والمؤمِنينَ، ولن يَرْجِعَهم سالِمينَ، ولن يُظهِرَ الحَقَّ المُبينَ[٣].

﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾.

أي: وكُنتُم -أيُّها المُخلَّفونَ- قَومًا في غايةِ الهَلاكِ والكَسادِ، لا خَيرَ فيكم، ولا نَفْعَ يُرجَى منكم[٤]!

﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ١٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ تعالى أنَّهم قَومٌ بُورٌ؛ ذكَرَ ما يدُلُّ على أنَّهم ليسوا بمؤمِنينَ، فقال[1]:

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ۝١٣﴾.

أي: ومَنْ لم يُؤمِنْ باللهِ ورَسولِه فإنَّه كافِرٌ مُستَحِقٌّ للعِقابِ، وقد أعدَدْنا وهَيَّأْنا للكافِرينَ نارًا شديدةَ التلَهُّبِ والاتِّقادِ[2]!

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بَعدَ ما ذكَرَ اللهُ تعالى مَن له أجرٌ عَظيمٌ مِن المُبايِعينَ، ومَن له عذابٌ أليمٌ مِن الظَّانِّينَ الضَّالِّينَ؛ أشار إلى أنَّه يَغفِرُ للأوَّلينَ بمَشيئتِه، ويُعَذِّبُ الآخَرينَ بمَشيئتِه، وغُفرانُه ورَحمتُه أعَمُّ وأشمَلُ، وأتَمُّ وأكمَلُ[3].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولله سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ، فيَتصَرَّفُ وَحْدَه فيهما كما يَشاءُ، ويَحكُمُ بما يَشاءُ[4].

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٤، ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

أي: يَغفِرُ اللهُ بفَضلِه لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُعَذِّبُ بعَدْلِه مَن يَشاءُ منهم[1].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ بالمَغفِرةِ والرَّحمةِ أزَلًا وأبَدًا، فهو الغَفورُ لِذُنوبِ عِبادِه؛ فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، وهو الرَّحيمُ بهِم؛ فيُكرِمُهم، ويُنعِمُ عليهم بنِعَمِه[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مَنِ اتَّخَذَ أهلًا ومالًا يَشغَلُه عنِ اللهِ -تعالى- فهو خاسِرٌ، كما قالت الأعرابُ: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾، وقال تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[3] [سبأ: ٣٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

قال ابن جرير: (هذا مِنَ اللهِ جَلَّ ثناؤه حَثٌّ لهؤلاء الأعرابِ المتخَلِّفينَ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على التَّوبةِ والمُراجَعةِ إلى أمرِ اللهِ في طاعةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يقولُ لهم: بادِروا بالتَّوبةِ مِن تخَلُّفِكم عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ اللهَ يَغفِرُ للتَّائِبينَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٠، ٢٦١).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (القَومُ لم يَكونوا مُجاهِرينَ بالكُفرِ؛ فلذلك جاءَ وَعيدُهم وتَوبيخُهم ممزوجًا فيه بَعضُ الإمهالِ والتَّرجيةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد كان عَلِمَ منهم أنَّهم سيُؤمِنونَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٤٢٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ إنَّما جُعِلَ ذلك الظَّنُّ مُزَيَّنًا في اعتِقادِهم؛ لأنَّهم لم يَفرِضوا غيرَه مِن الاحتِمالِ، وهو أن يَرجِعَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سالِمًا، وهكذا شأنُ العُقولِ الواهيةِ والنُّفوسِ الهاويةِ؛ ألَّا تأخُذَ مِنَ الصُّوَرِ الَّتي تُتصَوَّرُ بها الحوادِثُ إلَّا الصُّورةَ الَّتي تَلوحُ لها في بادئِ الرَّأيِ، وإنَّما تَلوحُ لها أوَّلَ شَيءٍ؛ لأنَّها الصُّورةُ المحبوبةُ، ثمَّ يَعتَريها التَّزيينُ في العَقلِ، فتَلهو عن فَرضِ غَيرِها، فلا تَستَعِدُّ لِحِدْثانِه؛ ولذلك قيل: «حُبُّكَ الشَّيءَ يُعمِي ويُصِمُّ»[(١)]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا﴾ لم يَقولوا: (شغَلَتْنا الأموالُ)؛ وذلك لأنَّ جَمْعَ المالِ لا يَصلُحُ عُذرًا؛ لأنَّه لا نهايةَ له، وأمَّا حِفظُ ما جُمِعَ مِن الشَّتاتِ، ومَنْعُ الحاصِلِ مِن الفَواتِ: يَصلُحُ عُذرًا، فقالوا: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا﴾، أي: ما صار مالًا لنا، لا مُطلَقُ الأموالِ[(٢)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أخبَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما بيَّتوه في قُلوبِهم، وفَضَح أمْرَهم مِن قَبلِ أن يَعتَذِروا، وهذه مِن مُعجِزاتِ القُرآنِ، بالإخبارِ عن ذلك قبْلَ وُقوعِه[(٣)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾، وقَولُه تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، حيثُ ذَكَر اللهُ سُبحانَه «يقولونَ بألسِنَتِهم» و«يقولونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦١).

بأفواهِهم»، فالمرادُ به أنَّه قولٌ باللِّسانِ مُجَرَّدٌ لا معنى تَحتَه، فإنَّه باطِلٌ، والباطِلُ لا حقيقةَ تَحتَه، وإنَّما غايتُه وقُصاراه أنَّه حركةُ لسانٍ مجرَّدةٌ عن مَعنًى، فليس وراءَ حَرَكةِ اللِّسانِ به شَيءٌ(١)!

٤- قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ قد عُلِمَ مِن تَصنيفِه سُبحانَه حالَهم إلى صِنفَينِ مع الإبهامِ: أنَّه يكونُ لِبَعضِهم الضَّرُّ؛ لأنَّ مِنهم مَن ارتَدَّ في زَمَنِ الرِّدَّةِ، ولِبَعضِهم النَّفعُ؛ لأنَّه ثَبَت على الإسلامِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ الجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا لِمُناسَبةِ ذِكرِ الإيفاءِ والنَّكثِ؛ فكَمُل بذِكرِ مَن تَخلَّفوا عن الدَّاعي للعهْدِ(٣).

- وبدَؤُوا بذِكرِ الأموالِ ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾؛ لأنَّ بها قِوامَ العَيشِ(٤)، ولأنَّ الانشِغالَ بها أكثَرُ، والعملَ على تنميتِها يَستَدْعي وقتًا طويلًا، وقد يَنشغِلُ المرءُ بها عن أهْلِه(٥).

- ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: إنَّ كلامَهم من طرَفِ اللِّسانِ غيرُ مُطابِقٍ لِما في الجَنانِ، وهو كِنايةٌ عن كَذِبِهم؛ فالجملةُ استِئنافٌ لتكذيبِهم.

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل- المجموعة الثامنة)) لابن تيمية (ص: ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٠، ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٨).

(٥) يُنظر: ((لمسات بيانية)) للسامرائي (ص: ١٨١، ١٨٢).

وقيل: جُملةُ ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ في موضعِ الحالِ. وقيل: يجوزُ أنْ تكونَ بَدَلَ اشْتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ﴾. والكذبُ راجِعٌ لِما تضَمَّنه الكلامُ مِن الخبَرِ عن تخلُّفِهم بأنَّه لِضَرورةٍ داعيةٍ له، وهي القيامُ بمَصالِحِهم الَّتي لا بُدَّ منها، وعدمُ مَن يَقومُ بها لو ذهَبوا معه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكذا راجِعٌ لِما تضَمَّنه (استَغفِرْ)، وهو وإنْ كان أمرًا وإنشاءً لا يحتمِلُ الصِّدقَ ولا الكَذِبَ، بَيْدَ أنَّ تكذيبَهم في الاستِغفارِ باعتِبارِ ما تضَمَّنه مِن اعترافِهم بأنَّهم مُذْنِبون، وأنَّ دُعاءَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ لهم يُفيدُهم فائدةً لازِمةً لهم معَ أنَّ اعتِقادَهم يُخالِفُه[1].

- وفي قَولِه: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أُمِر الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَ لهمْ ما فيه ردُّ أمْرِهم إلى اللهِ؛ لِيُعلِمَهم أنَّ استِغفارَه اللهَ لهم لا يُكرِهُ اللهَ على المغفرةِ؛ بلِ اللهُ يَفعَلُ ما يَشاءُ إذا أرادَه، فإنْ كان أراد بهم نفعًا نَفَعهم، وإنْ كان أرادَ بهم ضَرًّا ضَرَّهم، فما كان مِن النُّصحِ لأنفُسِهم أنْ يَتورَّطوا فيما لا يُرضِي اللهَ، ثمَّ يَستغْفِروه، فلعلَّه لا يَغفِرُ لهم؛ فالغرَضُ مِن هذا تَخويفُهم مِن عِقابِ ذَنْبِهم؛ إذ تَخلَّفوا عن نَفيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكَذَبوا في الاعتذارِ؛ لِيُكثِروا مِن التَّوبةِ، وتَدارُكِ المُمكِنِ[2].

- ومعنى المُلكِ هنا: القُدْرةُ والاستِطاعةُ، أي: لا يَقدِرُ أحدٌ أنْ يُغيِّرَ ما أرادهُ اللهُ، والغالبُ في مِثلِ هذا التَّركيبِ أنْ يكونَ لنَفْيِ القُدرةِ على تَحويلِ الشَّرِّ خَيرًا؛ فكان الجرْيُ على ظاهرِ الاستِعمالِ مُقتضيًا الاقتِصارَ على نفْيِ

(١) يُنظر: ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٢).

أنْ يَملِكَ أحدٌ لهم شيئًا إذا أرادَ اللهُ ضَرَّهم دُونَ زِيادةِ ﴿أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢا﴾، فتُوجَّهُ هذه الزِّيادةُ أنَّها لقَصْدِ التَّتميمِ والاستِيعابِ(١).

- وأيضًا قولُه: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا﴾ لا يَخلو مِن الفنِّ المعروفِ عندَ علماءِ البيانِ باللَّفِّ(٢)؛ فقد كان الأصْلُ: (فمَن يَملِكُ لكم مِن اللهِ شيئًا إنْ أراد بكم ضَرًّا، ومَن يَحرِمُكم النَّفعَ إنْ أرادَ بكم نفْعًا)؛ لأنَّ مِثلَ هذا النَّظمِ يُستعمَلُ في الضَّرِّ، وسِرُّ اختِصاصِه بدَفْعِ المَضرَّةِ: أنَّ المُلْكَ مُضافٌ في هذه المواضعِ باللَّامِ، ودفْعُ المَضرَّةِ نفْعٌ يُضافُ للمَدْفوعِ عنه، وليس كذلك حِرمانُ المَنفعةِ؛ فإنَّه ضَرَرٌ عائدٌ عليه لا له، فإذا ظهَرَ ذلك فإنَّما انتظَمَت الآيةُ على هذا الوجْهِ؛ لأنَّ القِسمينِ يَشتركانِ في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما نفْيٌ لدَفْعِ المُقدَّرِ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، فلمَّا تَقارَبا أدْرَجَهما في عِبارةٍ واحدةٍ، وخصَّ عِبارةَ دفْعِ الضَّرِّ؛ لأنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٣).

(٢) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ تُذكَرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.
واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَينِ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المُرَتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

هو المُتوقَّعُ لهؤلاء؛ إذ الآيةُ في سِياقِ التَّهديدِ أو الوعيدِ الشَّديدِ[(١)].

- وهذا الجوابُ ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ لا عِدَةَ فيه من اللهِ بأنْ يَغفِرَ لهم؛ إذ المقصودُ تَرْكُهم في حالةِ وجَلٍ؛ لِيَستكثِروا مِن فِعلِ الحَسَناتِ؛ وقُصِدَت مُفاتَحتُهم بالإبهامِ؛ لإلْقاءِ الوجَلِ في قُلوبِهم أنْ يَغفِرَ لهم، ثمَّ سيُتبِعُه بقولِه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ١٤] الآيةَ، الَّذي هو أقربُ إلى الإطماعِ[(٢)].

- و(بلْ) في قَولِه: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ إضرابٌ لإبطالِ قَولِهم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾، وبه يَزدادُ مَضمونُ قَولِه: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ تَقريرًا؛ لأنَّه يَتضمَّنُ إبطالًا لعُذْرِهم، ومِن معنى الإبطالِ يَحصُلُ بيانُ الإجمالِ الَّذي في قَولِه: ﴿كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾؛ إذ يُفيدُ أنَّه خَبيرٌ بكَذِبِهم في الاعتِذارِ؛ فلذلك أبطَلَ اعتِذارَهم بحرْفِ الإبطالِ[(٣)].

- وتَقديمُ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على مُتعلَّقِه؛ لقَصْدِ الاهتِمامِ بذِكرِ عَمَلِهم هذا[(٤)].

- وفي قَولِه: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ تَهديدٌ ووَعيدٌ[(٥)].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ هذه الجُملةُ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ [الفتح: ١١]، أي: خَبيرًا بما عَمِلْتُم، ومنه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنيِّر)) (٤/ ٣٣٦)، ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٨٧، ٣٨٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٣، ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ظنُّكم أنْ لنْ يَنقلِبَ الرَّسولُ والمؤمِنون. وأُعِيدَ حرْفُ الإبطالِ؛ زِيادةً لتَحقيقِ معنى البَدَليَّةِ[1].

- قَولُه: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ جِيءَ بحرْفِ (لن) المُفيدِ استِمرارَ النَّفيِ، وأُكِّدَ بقَولِه: ﴿أَبَدٗا﴾؛ لأنَّ ظنَّهم كان قَويًّا[2].

- والتَّزيينُ: التَّحسينُ، وهو كِنايةٌ عن قَبولِ ذلك[3].

- والمُرادُ بقولِه: ﴿وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾ إمَّا الظَّنُّ الأوَّلُ، والتَّكريرُ لتَشديدِ التَّوبيخِ والتَّسجيلِ عليه بالسَّوْءِ. أو هو وسائرُ ما يَظُنُّون باللهِ ورَسولِه مِن الأمورِ الزَّائغةِ الفاسِدةِ، الَّتي مِن جُمْلتِها الظَّنُّ بعدَمِ صِحَّةِ رِسالتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّ الجازِمَ بصِحَّتِها لا يَحومُ حوْلَ فِكْرِه ما ذُكِرَ مِن الاستِئصالِ[4].

- وإقحامُ كَلِمةِ ﴿قَوۡمَۢا﴾ بيْن (كُنْتُمْ) و﴿بُورٗا﴾؛ لإفادةِ أنَّ البَوارَ صارَ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم؛ لشِدَّةِ تَلبُّسِه بجَميعِ أفرادِهم[5].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا﴾

- قَولُه: ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا﴾ كَلامٌ مُبتَدأٌ مِن جِهتِه تعالَى، غيرُ داخلٍ في الكَلامِ المُلقَّنِ، مُقرِّرٌ لبَوارِهم، ومُبيِّنٌ لكَيفيَّتِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٥).

أي: ومَنْ لم يُؤمِنْ بهما كدَأْبِ هؤلاءِ المُخلَّفينَ؛ ﴿فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا﴾[١].

وقيل: هو جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْن أجزاءِ القَولِ المأمورِ به في قَولِه: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [الفتح: ١١] الآياتِ، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الفتح: ١٤]، وهذا الاعتِراضُ للتَّحذيرِ مِن استِدراجِهم أنفُسَهم في مَدارجِ الشَّكِّ في إصابةِ أعمالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُفضِيَ بهم إلى دَرَكاتِ الكُفْرِ بعدَ الإيمانِ؛ إذ كان تَخلُّفُهم عن الخُروجِ معه وما عَلَّلوا به تثاقُلَهم في نُفوسِهم، وإظهارُ عُذْرٍ مَكذوبٍ أضْمَروا خِلافَه، كلُّ ذلك حَومًا حوْلَ حِمى الشَّكِّ يُوشِكونَ أنْ يَقَعوا فيه[٢]. وذلك على القولِ بأنَّهم لم يكونوا مِن المنافِقينَ.

- وإظْهارُ لَفظِ (الكافرين) في مَقامِ أنْ يُقالَ: (أعتَدْنا لهم سَعيرًا)؛ لِزيادةِ تَقريرِ معنى ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ إيذانًا بأنَّ مَنْ لم يجمَعْ بيْنَ الإيمانِ بالله وبرسولِه فهو كافرٌ، وأنَّه مستوجِبٌ للسَّعيرِ بكُفرِه[٣].

- ونُكِّرَ ﴿سَعِيرٗا﴾ للتَّهويلِ، أو لأنَّها نارٌ مَخصوصةٌ[٤].

٤- قَولُه تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [الفتح: ١١]؛ فهو مِن أجزاءِ القَولِ، وهذا انتقالٌ مِن التَّخويفِ الَّذي أشعَرَ به ﴿فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ إلى إطْماعِهم بالمَغفرةِ الَّتي سَأَلوها؛ ولذلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٨).

قُدِّمَ الضَّرُّ على النَّفعِ في الآيةِ الأُولى، فقِيل: ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعًاۚ﴾ [الفتح: ١١]؛ لِيَكونَ احتمالُ إرادةِ الضَّرِّ بهم أسبَقَ في نُفوسِهم، وقُدِّمَتِ المَغفرةُ هنا؛ ليَتقرَّرَ معنى الإطْماعِ في نُفوسِهم، فيَبتدِروا إلى استِدراكِ ما فاتَهم. وهذا تَمهيدٌ لوَعْدِهم الآتي في قَولِه: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ إلى قولِه: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ﴾[1] [الفتح: ١٦].

- وقولُه: ﴿غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ صِيغَتا مُبالَغةٍ في المَغفرةِ والرَّحمةِ[2].

- وزادَ رَجاءَ المَغفرةِ تأْكيدًا بقَولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾، أي: الرَّحمةُ والمغفرةُ أقرَبُ مِن العِقابِ[3].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٦).

الآيات (١٥-١٧)

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ
أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ
بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ
تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ
يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن
يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿بَأْسٍ﴾: أي: قُوَّةٍ وبَطشٍ، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما ضاهاها[١].

﴿حَرَجٌ﴾: أي: إثمٌ ومُؤاخَذةٌ، وأصلُ (حرج): يدُلُّ على ضِيقٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يحكي اللهُ تعالى جانبًا مِن أقوالِ الَّذين تخلَّفوا عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في عامِ الحُدَيبيَةِ، ويرُدُّ عليها، فيقولُ: سيَقولُ الأعرابُ الَّذين خُلِّفوا في أهلِيهم عامَ الحُدَيبيَةِ، إذا انطَلَقْتَ -أيُّها الرَّسولُ- وأصحابُك إلى خَيبَرَ؛ لِتَأخُذوا المغانِمَ الَّتي وعَدَكم اللهُ بأخْذِها: دَعُونا نَتَّبِعْكم إلى خَيبَرَ!

يُريدُون أن يُغَيِّروا بذَهابِهم معكم وَعْدَ اللهِ الَّذي وَعَدَه أهلَ الحُدَيبيَةِ بأنْ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠، ١٥٤، ١٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧٠) و(١٨/ ٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٧).

يَجعَلَ غنائِمَ خَيبَرَ لهم خاصَّةً.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يرُدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: لن تَسيروا مَعَنا إلى قِتالِ أهلِ خَيبَرَ، هكذا قال اللهُ لنا مِن قَبلِ أن نَرجِعَ إليكم مِنَ الحُدَيبِيَةِ. فسيَقولُ أولئك المُخَلَّفونَ مِن الأعرابِ حينَ تَمنَعونَهم مِنَ الخُروجِ معكم إلى خَيبَرَ: إنَّما مَنعْتُمونا مِنَ الخُروجِ معكم؛ لِكَونِكم تَحسُدونَنا على مُشارَكتِكم في الغنائِمِ! فإنَّما هم قَومٌ لا يَفهَمونَ ولا يَعقِلونَ إلَّا قَليلًا!

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يَدعوَ هؤلاء المخلَّفينَ إلى الجهادِ، فاتحًا لهم بابَ التَّوبةِ إنِ استَجابوا، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- للأعرابِ الَّذين خُلِّفوا عن الخُروجِ معك إلى الحُدَيبِيَةِ: ستُدْعَونَ إلى قِتالِ قَومٍ ذَوي قُوَّةٍ شَديدةٍ في الحَربِ، تُقاتِلونَهم أو يَدخُلونَ في الإسلامِ مِن غَيرِ قِتالٍ، فإنْ تُطيعوا اللهَ بإجابةِ الدَّعوةِ إلى قِتالِ أولئك الكُفَّارِ، يُؤْتِكم اللهُ على الجِهادِ ثَوابًا حَسَنًا، وإنْ تَعصُوا اللهَ كما تخَلَّفتُم مِن قَبلُ عن الخُروجِ إلى الحُدَيبِيَةِ، يُعَذِّبْكم عَذابًا مُؤلِمًا.

ثمَّ يختِمُ الله سبحانَه هذه الآياتِ بذِكرِ الأعذارِ في تركِ الجهادِ، فيقولُ: ليس على الأعمَى ولا على الأعرَجِ ولا على المَريضِ إثمٌ في تخَلُّفِهم عن الجِهادِ مع المُؤمنينَ؛ لِعُذرِهم المانِعِ لهم مِن القِتالِ.

ثمَّ يُبشِّرُ الله تعالى المؤمنينَ الصَّادِقينَ، فيقولُ: ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه يُدخِلْه اللهُ جَنَّاتٍ تجري مِن تَحتِها الأنهارُ، ومَن يُعرِضْ عن طاعةِ اللهِ ورَسولِه يُعَذِّبْه اللهُ عَذابًا مُؤلِمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ

أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ -تعالى- المُخَلَّفينَ وذَمَّهم؛ ذكَرَ أنَّ مِن عقوبتِهمُ الدُّنيويَّةِ حِرمانَهم مِنَ الغنائمِ، واختِصاصَ الصَّحابةِ المؤمِنينَ بها[١].

﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡ﴾.

أي: سيَقولُ الأعرابُ الَّذين خُلِّفوا في أهلِيهم، ولم يَخرُجوا مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى مكَّةَ عامَ الحُدَيبِيَةِ، إذا انطَلَقْتَ -أيُّها الرَّسولُ- وأصحابُك إلى خَيبَرَ؛ لِتَأخُذوا المغانِمَ الَّتي وعَدَكم اللهُ بأخْذِها: دَعُونا نَتَّبِعْكم إلى خَيبَرَ[٢]!

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

أي: يُريدُ الأعرابُ المُخَلَّفونَ عن الحُدَيبِيَةِ أن يُغَيِّروا بذَهابِهم معكم وَعْدَ اللهِ الَّذي وَعَدَه أهلَ الحُدَيبِيَةِ بأنْ يَجعَلَ غنائِمَ خَيبَرَ لهم خاصَّةً؛ عِوَضًا عن غنائِمِ قُرَيشٍ بعدَ انصِرافِهم عن مَكَّةَ على صُلحِ الحُدَيبِيَةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧).

قال ابن عاشور: (إعلامٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما سيَقولُه المُخَلَّفون عن الحُدَيبِيَةِ يَتعلَّقُ بتَخلُّفِهم عن الحُدَيبِيَةِ وعُذْرِهم الكاذبِ، وأنَّهم سيَندَمون على تخلُّفِهم حينَ يَرَوْنَ اجتناءَ أهلِ الحُدَيبِيَةِ ثَمرةَ غزوِهم، ويَتضمَّنُ تأكيدَ تَكذيبِهم في اعتِذارِهم عن التَّخلُّفِ بأنَّهم حينَ يَعلَمونَ أنَّ هُنالِكَ مغانمَ مِن قِتالٍ غيرِ شَديدٍ يَحرِصونَ على الخُروجِ، ولا تَشْغَلُهم أموالُهم ولا أهالِيهم؛ فلو كان عذرُهم حقًّا لَمَا حَرَصُوا على الخروجِ إذا توقَّعوا المغانمَ، ولَأقْبَلوا على الاشتِغالِ بأموالِهم وأهلِيهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٦، ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧١)، ((نظم الدرر)) =

= للبقاعي (١٨/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٨).
قال ابنُ كثير: (أمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ألَّا يأذَنَ لهم في ذلك؛ مُعاقَبةً لهم مِن جِنسِ ذَنْبِهم؛ فإنَّ الله تعالى قد وَعَد أهلَ الحُدَيبِيَةِ بمغانِمِ خَيبَرَ وَحْدَهم، لا يَشرَكُهم فيها غَيرُهم مِنَ الأعرابِ المُتخَلِّفينَ، فلا يَقَعُ غيرُ ذلك شَرعًا وقَدَرًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧).
وقال ابن جزي: (﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي: يُريدونَ أن يُبدِّلوا وعدَ الله لأهلِ الحديبيةِ، وذلك أنَّ الله وعَدهم أنْ يُعوِّضَهم مِن غنيمةِ مكةَ غنيمةَ خيبرَ وفتحَها، وأنْ يكونَ ذلك مختصًّا بهم دونَ غيرِهم، وأراد المخلَّفونَ أن يُشاركوهم في ذلك، فهذا هو ما أرادوا مِن التَّبديلِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٨).
وقال ابنُ عاشورٍ: (تبديلُ كلامِ الله: مخالفةُ وحيِه مِن الأمرِ والنَّهيِ والوعْدِ كرامةً للمُجاهدينَ، وتأديبًا للمخلَّفينَ عن الخروجِ إلى الحديبيةِ. فالمرادُ بكلامِ الله: ما أوحاه إلى رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن وعدِ أهلِ الحُديبيةِ بمغانمِ خيبرَ خاصَّةً لهم، وليس المرادُ بكلامِ الله هنا القرآنَ؛ إذ لم ينزِلْ في ذلك قرآنٌ يومئذٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٨).
وقال محمد رشيد رضا: (قولُه في المُخلَّفينَ مِن الأعرابِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ يعني وَعْدَه في القرآنِ فيما سَبَق في السُّورةِ). ((تفسير المنار)) (٩/ ١٥٥).
وقال مكي: (قولُه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ والذي أرادوا أنْ يُبدِّلوا هو قولُه: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُ﴾ [الفتح: ١٥]، فتقدَّم في علم الله أنَّهم لا يتَّبعونَ النبيَّ، فأرادوا أنْ يُبدِّلوا ذلك، فقالوا للنبي: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡ﴾، وقد تقدَّم مِن الله أنَّهم لا يتَّبعونَهم فأرادوا أنْ يُغيِّروا ما تقدَّم في علم الله، وقد كان أخبَره الله في كتابِه بقولِه: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا﴾ إلى ﴿ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣]، فكلامُ الله هنا: ما أخبَرَ أنَّهم لن يتَّبعوا، فأرادوا أنْ يُبدِّلوا خبرَ الله ويتَّبعوه). ((الهداية الى بلوغ النهاية)) (٣/ ٢١٦٢).
وقال الزجاج: (يعني بقولِه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٤]، فأرادُوا أنْ يأْتوا بما ينقُضُ هذا، فأعلَم الله عزَّ وجلَّ أنَّهم لا يعقِلونَ، ولا يقدِرونَ على ذلك). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٣).
وقال ابنُ جزي: (وقيل: كلامُ الله قولُه: ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٤] وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّ هذه الآيةَ نزَلت بعدَ رجوعِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مِن تَبوكَ بعدَ الحُديبيةِ بمدةٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٨).

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: لن تَسيروا مَعَنا إلى خَيبَرَ[1].

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

أي: هكذا قال اللهُ لنا مِن قَبلِ أن نَرجِعَ إليكم مِنَ الحُدَيبِيَة، وتَسألونا الخُروجَ مَعَنا إلى خَيبَرَ: إنَّ غَنيمةَ خَيبَرَ خاصَّةٌ بمَن شَهِدَ الحُدَيبِيَةَ، وأنتم تخلَّفتُم عن الخُروجِ في ذلك الوَقتِ؛ فليس لكم إذَنْ حَقٌّ في غنائِمِ خَيبَرَ[2].

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾.

أي: فسيَقولُ أولئك المُخَلَّفونَ مِن الأعرابِ حينَ تَمنَعونَهم مِنَ الخُروجِ معكم إلى خَيبَرَ: ليس الأمرُ كما زَعَمْتُم أنَّه قَولُ اللهِ وأمْرُه، وإنَّما مَنَعْتُمونا مِنَ الخُروجِ معكم؛ لِكَونِكم تَحسُدونَنا على مُشارَكتِكم في الغنائِمِ[3]!

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: ليس الأمرُ كما زعَمَ الأعرابُ أنَّكم مَنعتُموهم مِنَ الخُروجِ معكم إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

قال ابن عاشور: (أخبَرَ اللهُ عنهم بما سيَقولونَه... وقد قالوا ذلك بعدَ نحوِ شَهرٍ ونِصفٍ! فلمَّا سَمِعَ المسلِمونَ المتأهِّبونَ للخُروجِ إلى خَيبَرَ مَقالتَهم قالوا: قد أخبَرَنا اللهُ في الحُدَيبِيَةِ بأنَّهم سيَقولونَ هذا)! ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٩).

خَيبَرَ حَسَدًا لهم، وإنَّما هم قَومٌ لا يَفهَمونَ ولا يَعقِلونَ إلَّا قَليلًا(١)!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٩، ١٧٠).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا يَعلَمونَ إلَّا أمرَ الدُّنيا، فليس لهم فِكرٌ إلَّا فيها، ويَفطُنون لأمورِها دونَ أمورِ الدِّينِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والقرطبي، والبيضاوي، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٩).

وقيل: لا يَعلَمون عن اللهِ ما لَهم وعليهم مِن الدِّينِ، إلَّا قليلًا منهم، وهو مَن صدقَ اللهَ والرَّسولَ. وممَّن اختاره: ابنُ أبي زَمَنين، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٨).

وقيل: لا يَفقَهونَ مِن أمرِ الدِّينِ إلَّا قَليلًا. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٥٠).

وقال ابنُ كثير: (﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ليس الأمرُ كما زَعَموا، ولكِنْ لا فَهْمَ لهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٨).

وقال ابن عاشور: (أفادَ قولُه: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ انتِفاءَ الفَهمِ عنهم؛ لأنَّ الفِعلَ في سِياقِ النَّفْيِ كالنَّكرةِ في سِياقِ النَّفيِ يَعُمُّ؛ فلذلك استَثْنى منه بقَولِه: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: إلَّا فَهمًا قليلًا، وإنَّما قلَّلَه لِكَونِ فَهمِهم مُقتصِرًا على الأُمورِ الواضحةِ مِن العاديَّات، لا يَنفُذُ إلى المُهمَّاتِ ودَقائقِ المعاني، ومِن ذلك ظَنُّهم حِرمانَهم مِنَ الالتِحاقِ بجَيشِ غَزوةِ خَيبَرَ مُنبعِثًا على الحسَدِ، وقد جَرَوا في ظَنِّهم هذا على المعروفِ مِن أهلِ الأنظارِ القاصِرةِ، والنُّفوسِ الضَّئيلةِ مِن التَّوسُّمِ في أعمالِ أهلِ الكَمالِ بمِنظارِ ما يَجِدونَ مِن دواعي أعمالِهم وأعمالِ خُلَطائِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٠).

وقال ابن عاشور أيضًا: (نَفَى اللهُ عنهم الفَهمَ دونَ الإيمانِ؛ لأنَّهم كانوا مُؤمِنينَ، ولكنَّهم كانوا جاهِلينَ بشَرائعِ الإسلامِ ونُظُمِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٠).

وذلك على قولِه بأنَّهم لم يَكونوا مُنافقينَ، وقد تقدَّم ذكرُ الخلافِ في ذلك، يُنظر ما تقدَّم (ص: ٦٨).

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ المُخَلَّفينَ مِنَ الأعرابِ يَتخلَّفونَ عن الجهادِ في سبيله، ويَعتذِرون بغَيرِ عُذرٍ، وأنَّهم يَطلُبونَ الخروجَ معهم إذا لم يكنْ شَوكةٌ ولا قِتالٌ، بل لِمُجَرَّدِ الغَنيمةِ؛ قال تعالى مُمتحِنًا لهم[1]:

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للأعرابِ الَّذين خُلِّفوا عن المَسيرِ معَك إلى الحُدَيبِيَةِ: ستُدْعَونَ إلى قِتالِ قَومٍ ذَوي قُوَّةٍ شَديدةٍ في الحَربِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٥-٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٢)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٥١٠، ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧١).

قال ابن جُزَي: (﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ اختُلف في هؤلاء القَومِ على أربعةِ أقوالٍ:
الأوَّلُ: أنَّهم هَوازِنُ ومَن حارَبَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ في غزوةِ خَيبَرَ.
والثَّاني: أنَّهم الرُّومُ؛ إذ دعا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى قتالِهم في غزوةِ تَبوكَ.
والثَّالثُ: أنَّهم أهلُ الرِّدَّةِ مِن بَني حَنيفةَ وغيرِهم الَّذين قاتَلَهم أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ.
والرَّابعُ: أنَّهم الفُرْسُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٨).
ممَّن قال مِن السَّلَفِ: إنَّ المرادَ بهم: هَوازِنُ وغَطَفانُ، وذلك يومَ حُنَينٍ: سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٢).
قال الخازن: (وأقوى هذه الأقوالِ قولُ مَن قال: إنَّهم هَوازِنُ وثَقيفٌ؛ لأنَّ الدَّاعيَ هو رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٨). واستحسَنَ ابنُ عطيَّةَ هذا القولَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٢).
وممَّن قال مِن السَّلَفِ: إنَّ المُرادَ بهم الرُّومُ: كعبٌ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٦)، =

= ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٢).

واستحسَنَ هذا القولَ أيضًا ابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٢).

قال ابن جُزَي: (ويَتقوَّى الأوَّلُ والثَّاني [أي أنَّ المرادَ هَوازِنُ والرُّومُ] بأنَّ ذلك ظهَرَ في حياةِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بَنو حَنيفةَ (أتْباعُ مُسَيْلِمةَ الكذَّابِ): مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، ونسَبَه الواحديُّ لأكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٨).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ بهم بَنو حَنيفةَ، يومَ اليَمامةِ: الزُّهْريُّ، وابنُ السَّائبِ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٢).

وقال ابن عاشور: (والقَومُ أُولو البأسِ الشَّديدِ يتعيَّنُ أنَّهم قومٌ مِن العربِ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾ يُشعِرُ بأنَّ القِتالَ لا يُرفَعُ عنهم إلَّا إذا أسلَموا، وإنَّما يكونُ هذا حُكمًا في قتالِ مُشرِكي العربِ؛ إذ لا تُقبَلُ منهم الجِزيةُ. فيَجوزُ أن يكونَ المرادُ: هَوازِنَ وثَقيفَ، وهذا مَرْويٌّ عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ وعِكْرِمةَ وقَتادةَ، وذلك غزوةُ حُنَينٍ، وهي بعدَ غزوةِ خَيبرَ، وأمَّا فتحُ مكَّةَ فلم يكُنْ فيه قِتالٌ. وعن الزُّهْريِّ ومُقاتِلٍ: أنَّهم أهلُ الرِّدَّةِ؛ لأنَّهم مِن قبائلِ العربِ المعروفةِ بالبأسِ، وكان ذلك صدرَ خلافةِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧١).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ بهم فارِسُ: ابنُ عبَّاسٍ، وعَطاءُ بنُ أبي رباحٍ، وعَطاءٌ الخُراسانيُّ، وابنُ أبي ليلى، وابنُ جُرَيْجٍ في آخَرينَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣١، ١٣٢).

وقال السعدي: (وهؤلاء القَومُ فارِسُ والرُّومُ، ومَن نحا نحوَهم وأشْبَهَهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

وقال ابن كثير: (وعن مجاهِدٍ: هم رجالٌ أُولو بأسٍ شديدٍ. ولم يُعَيِّنْ فِرقةً، وبه يقولُ ابنُ جُرَيجٍ، وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٨).

قال ابن جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُه أخبَرَ عن هؤلاء المُخَلَّفينَ مِن الأعرابِ أنَّهم سيُدْعَونَ إلى قتالِ قَومٍ أُولي بأسٍ في القتالِ، ونَجدةٍ في الحروبِ، ولم يُوضَعْ لنا الدَّليلُ مِن خبَرٍ ولا عقلٍ على أنَّ المَعْنيَّ بذلك هَوازِنُ، ولا بَنو حَنيفةَ، ولا فارِسُ، ولا الرُّومُ، ولا أعْيانٌ بأعْيانِهم، وجائزٌ أن يكونَ عُنِيَ بذلك بعضُ هذه الأجناسِ، وجائزٌ أن يكونَ عُنِيَ بهم غيرُهم، ولا قولَ فيه أصَحُّ مِن أن يُقالَ كما قال اللهُ جلَّ ثناؤُه: إنَّهم سيُدْعَونَ إلى قَومٍ =

﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾.

أي: تُقاتِلونَ هؤلاءِ الَّذين تُدْعَوْنَ إلى قتالِهم، فلا يَزالُ القتالُ مُستمِرًّا عليهم، أو يَدْخُلونَ في دينِكم مِن غَيرِ حربٍ ولا قِتالٍ، فيكونُ أحدُ الأمْرَينِ: إمَّا المُقاتَلةُ، وإمَّا الإسلامُ، لا ثالثَ لهما[1].

﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗا﴾.

أي: فإنْ تُطيعوا اللهَ -أيُّها الأعرابُ- بإجابةِ الدَّعوةِ إلى قِتالِ الكُفَّارِ الأشِدَّاءِ،

= أُولي بأسٍ شديدٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٩).

وقال أبو حيَّان: (إنَّ هذه الأقوالَ تمثيلاتٌ مِن قائليها، لا أنَّ المَعْنيَّ بذلك ما ذكَروا، بل أخبر بذلك مُبهَمًا دَلالةً على قوَّةِ الإسلامِ وانتِشارِ دعوتِه، وكذا وقَعَ حُسْنُ إسلامِ تلك الطَّوائفِ، وقاتَلوا أهلَ الرِّدَّةِ زمانَ أبي بكرٍ، وكانوا في فتوحِ البلادِ أيَّامَ عُمَرَ وأيَّامَ غيرِه مِن الخُلَفاءِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٠).

وقال ابن كثير: (وسواءٌ كان هؤلاء هم هَوازِنَ، أو أصحابَ مُسَيْلِمةَ، أو الرُّومَ، فقد وقَع ذلك). ((البداية والنهاية)) (٩/ ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٩٦).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾ هذا حُكمُ مَن لا تُؤخَذُ منهم الجِزيةُ... أي: يكونُ أحَدُ الأمْرَينِ؛ إمَّا المقاتَلةُ، وإمَّا الإسلامُ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٣). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٨)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٣٥).

وقال السعدي: (﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾ أي: إمَّا هذا وإمَّا هذا، وهذا هو الأمرُ الواقِعُ؛ فإنَّهم في حالِ قِتالِهم ومُقاتَلتِهم لأولئك الأقوام، إذْ كانت شِدَّتُهم وبأسُهم معهم، فإنَّهم في تلك الحالِ لا يَقبَلونَ أن يَبذُلوا الجِزيةَ، بل إمَّا أن يَدخُلوا في الإسلامِ، وإمَّا أن يُقاتِلوا على ما هم عليه، فلمَّا أثخَنَهم المُسلِمونَ وضَعُفوا وذَلُّوا، ذهَب بأسُهم؛ فصاروا إمَّا أن يُسلِموا، وإمَّا أن يَبذُلوا الجِزْيةَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣). ويُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٣٢١).

وقال البيضاوي: (معنى ﴿يُسۡلِمُونَ﴾ يَنقادُونَ؛ لِيَتناوَلَ تقَبُّلَهم الجِزْيةَ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٩).

يُؤْتِكم اللهُ على الجِهادِ ثَوابًا حَسَنًا: الغَنيمةَ في الدُّنيا، والجنَّةَ في الآخِرةِ[١].

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

أي: وإنْ تَعصُوا اللهَ فتُعْرِضوا عن القِتالِ كما تخَلَّفتُم مِن قَبلُ عن الخُروجِ إلى الحُدَيبيَةِ، يُعَذِّبْكم اللهُ عَذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا[٢].

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَوعَّدَ اللهُ تعالى المُتخلِّفينَ[٣]؛ بيَّنَ مَن يَجوزُ له التَّخلُّفُ وتَركُ الجِهادِ، وما بِسَبَبِه يَجوزُ تَركُ الجِهادِ[٤].

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٩، ٢٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالأجرِ الحَسَنِ: الجنَّةُ: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٩).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الغَنيمةُ والنَّصرُ في الدُّنيا، والجنَّةُ في الآخِرةِ: القرطبيُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٨).

أي: ليس على الأعمى إثمٌ في تخَلُّفِه عن الجِهادِ مع المُؤمِنينَ؛ لِعُذرِه بالعَمى المانعِ له مِن القِتالِ[١].

﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾.

أي: وليس على الأعرَجِ إثمٌ في تخَلُّفِه عن الجِهادِ معَ المُؤمِنينَ؛ لِعُذرِه بالعَرَجِ المانِعِ له مِن القِتالِ[٢].

﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

أي: وليس على المَريضِ بأمراضٍ أُخرى إثمٌ في تخَلُّفِه عن الجِهادِ معَ المُؤمِنينَ؛ لِعُذرِه بالمَرَضِ المانِعِ له مِن القِتالِ[٣].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه يُدخِلْه اللهُ في الآخِرةِ جَنَّاتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ أشجارِها[٤].

﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

قال ابن كثير: (ذَكَر الأعذارَ في تَرْكِ الجِهادِ؛ فمِنها لازِمٌ، كالعَمَى والعَرَجِ المُستَمِرِّ، وعارِضٌ، كالمَرَضِ الَّذي يَطرَأُ أيَّامًا ثمَّ يَزولُ، فهو في حالِ مَرَضِه مُلحَقٌ بذَوي الأعذارِ اللَّازمةِ حتَّى يَبرَأَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

أي: ومَن يُعرِضْ عن طاعةِ اللهِ ورَسولِه يُعَذِّبْه اللهُ عَذابًا مُوجِعًا مُؤلِمًا[(١)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ هذا منتهَى عِلمِهم في هذا الموضِعِ، ولو فَهِموا رُشْدَهم لَعَلِموا أنَّ حِرمانَهم بسَبَبِ عِصيانِهم، وأنَّ المعاصِيَ لها عُقوباتٌ دُنيويَّةٌ ودِينيَّةٌ؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(٢)].

٢- لفظُ «التَّولِّي» بمعنَى التَّولِّي عن الطَّاعةِ مذكورٌ في مواضِعَ مِن القرآنِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وذمُّ مَن تولَّى في غيرِ موضعٍ مِن القرآنِ دَليلٌ على وُجوبِ طاعةِ اللهِ ورَسولِه، وأنَّ الأمرَ المُطلَقَ يَقتَضي وُجوبَ الطَّاعةِ، وذمَّ المتوَلِّي عن الطَّاعةِ[(٣)].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، فالسَّعادةُ كُلُّها في طاعةِ اللهِ، والشَّقاوةُ في مَعصِيتِه ومُخالفتِه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

قيل: المرادُ بالعذابِ الأليمِ: عَذابُ جَهنَّمَ يومَ القيامةِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، ومكِّي، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٥٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٩).

وقيل: هو في الدُّنيا بالمذَلَّةِ، وفي الآخِرةِ بالنَّارِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ كثير، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٣) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ قولُه: ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾ حِكايةٌ لِمَقالَتِهم، وهو يَقْتضي أنَّهم قالوا هذه الكَلِمةَ استِنزالًا لإجابةِ طَلَبِهم، بأنْ أظهَروا أنَّهم يَخرُجون إلى غزْوِ خَيبَرَ كالأتْباعِ، أي: أنَّهم راضُونَ بأن يَكونوا في مُؤَخَّرةِ الجَيشِ، فيَكونَ حَظُّهم في مَغانِمِه ضَعيفًا[١]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ إثباتُ أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ إثباتُ القَولِ للهِ تعالى[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ على صيغةِ النَّفيِ بدَلًا عن قَولِه: (لا تتَّبِعونا) على صيغةِ النَّهيِ، وفيه مَعنًى لَطيفٌ، وهو: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بنَى على إخبارِ اللهِ تعالى عنهم النَّفيَ؛ لِوُثوقِه وقَطْعِه بصِدْقِه، فجَزَم وقال: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾، يعني: لو أَذِنتُكم ولو أردتُم واختَرتُم، لا يَتِمُّ لكم ذلك؛ لِما أخبَرَ اللهُ تعالى[٤].

وفيه وَجهٌ آخَرُ: أنَّه ساقَه مَساقَ النَّفيِ، وإن كان المرادُ به النَّهيَ؛ لأنَّه مع كَونِه آكَدَ يكونُ عَلَمًا من أعلامِ النُّبُوَّة، وهو أزجَرُ وأدَلُّ على الاستِهانةِ[٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٨).

أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ يدُلُّ على فَضيلةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ الدَّاعِينَ لجِهادِ أهلِ البَأسِ مِن النَّاسِ، وأنَّه تَجِبُ طاعتُهم في ذلك[1].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ في هذه البِشارةِ فُرصةٌ لهم لِيَستَدرِكوا ما جَنَوه من التَّخَلُّفِ عن الحُدَيبيَةِ، وكُلُّ ذلك دالٌّ على أنَّهم لم يَنسَلِخوا عن الإيمانِ[2]. وذلك على القولِ بأنَّهم لم يكونوا مِن المنافِقينَ.

٧- قَولُه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ استدَلَّ جماعةٌ مِنَ العلماءِ على صِحَّةِ إمامة أبي بكرٍ وعُمرَ بهذه الآيةِ؛ لأنَّه إن أُريدَ بها بنو حنيفةَ، فأبو بكرٍ دعا إلى قِتالِهم، وإن أُريدَ بها فارِسُ والرُّومُ، فعُمَرُ دعا إلى قِتالِهم، والآيةُ تُلزِمُهمُ اتِّباعَ طاعةِ مَن يَدْعوهم، وتَتوعَّدُهم على التَّخلُّفِ بالعِقابِ[3]. وذلك على بعضِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٢).
وممَّن استدلَّ بالآيةِ على خلافةِ أبي بكرٍ ووجوبِ طاعتِه: الشَّافِعيُّ، والأشعريُّ، وابنُ حزمٍ، وغيرُهم. يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٥٠٥).
وقال أيضًا: (ولا ريْبَ أنَّ أبا بكرٍ دعاهم إلى قتالِ المرتدِّينَ، ثمَّ قتالِ فارِسَ والرُّومِ، وكذلك عُمَرُ دعاهم إلى قتالِ فارِسَ والرُّومِ، وعُثمانُ دعاهم إلى قتالِ البَرْبَرِ ونحوِهم، والآيةُ تَتناوَلُ هذا الدُّعاءَ كلَّه. أمَّا تخصيصُها بمَن دعاهم بعدَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم -كما قاله طائفةٌ مِن المُحتجِّينَ بها على خِلافةِ أبي بكرٍ- فخطأٌ، بل إذا قيل: تَتناوَلُ هذا وهذا كان هذا ممَّا يَسوغُ، =

٨- قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ هذا حُكمُ هؤلاءِ المعاذيرِ في كُلِّ جِهادٍ إلى يومِ القيامةِ، إلَّا أن يَحزُبَ حازِبٌ في حَضرةٍ ما، فالفَرضُ مُتوَجِّهٌ بحَسَبِ الوُسعِ، ومعَ ارتِفاعِ الحَرَجِ فجائِزٌ لهم الغَزوُ، وأجْرُهم فيه مُضاعَفٌ(١).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ فيه عَدَمُ وُجوبِ الجِهادِ على مَن له عُذرٌ؛ كالأعمى، والأعرَجِ، والمَريضِ(٢).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أنَّ الأحكامَ تدورُ مع عِلَلِها؛ فإذا وُجِدَتِ العِلَّةُ في الحُكمِ ثَبَتَ، وإنِ انتَفَتِ العِلَّةُ انتفَى الحُكمُ؛ لأنَّ نَفيَ الحَرَجِ عن هؤلاء إنَّما كان لهذه العِلَّةِ الَّتي فيهم، فإذا بَرِئَ المريضُ واستقامَ، ومشَى الأعرَجُ، ورَدَّ اللهُ البَصَرَ على الأعمَى؛ انتفَى هذا الحُكمُ في حقِّهم، وثَبَتَ في حقِّهِم ما يَثبُتُ في حقِّ السَّالِمينَ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

- قولُه: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ هذا استِئنافٌ ثانٍ بعدَ قَولِه: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا

= ويمكِنُ أن يُرادَ بالآيةِ، ويُستدَلُّ عليه بها؛ ولهذا وجَب قتالُ الكفَّارِ مع كلِّ أميرٍ دعا إلى قتالِهم، وهذا أظهَرُ الأقوالِ في الآيةِ. ((منهاج السنة النبوية)) (٨/ ٥١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٤١٩).

وَأَهْلُونَا﴾[١] [الفتح: ١١].

- وفي قَولِه: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ استُغْنِيَ عن وصْفِهم بأنَّهم مِن الأعرابِ؛ لأنَّ تعريفَ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ تعريفُ العَهدِ، أي: المُخلَّفونَ المَذكورونَ[٢].

- وأشعَرَ قَولُه: ﴿ذَرُونَا﴾ بأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سيَمنَعُهم مِن الخُروجِ معه إلى غَزْوِ خَيبرَ[٣].

- قَولُه: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي: لا تَتَّبِعونا؛ فإنَّه نفْيٌ في مَعْنى النَّهيِ للمُبالَغةِ[٤].

- وجِيءَ بـ(لَن) المُفيدةِ تأكيدَ النَّفيِ؛ لقَطْعِ أطماعِهم في الإذْنِ لهم باتِّباعِ الجَيشِ الخارجِ إلى خَيبرَ؛ ولذلك حُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿تَتَّبِعُونَا﴾؛ للعِلْمِ به[٥].

- في قَولِه: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالمُبالَغةِ؛ فالإضرابُ الأوَّلُ مَعروفٌ، وهو دَيْدَنُهم، ودَليلُ لَجاجِهم وتَمادِيهم في التَّعنُّتِ والإصرارِ على السَّفَهِ، أمَّا الإضرابُ الثَّاني فهو الَّذي تَتجسَّدُ فيه بَلادَتُهم وغَباؤُهم؛ لأنَّ الإضرابَ الأوَّلَ فيه نِسبةٌ إلى جَهلٍ في شَيءٍ مَخصوصٍ، وهو نِسبتُهم الحسَدَ إلى المُؤمنينَ، والثَّانيَ فيه نِسبةٌ إلى جَهلٍ عامٍّ على الإطلاقِ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٦، ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨، ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٤٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

- قَولُه: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ انتِقالٌ إلى طَمْأنةِ المُخلَّفينَ بأنَّهم سيَنالون مَغانِمَ في غَزواتٍ آتيةٍ؛ لِيَعلَموا أنَّ حِرمانَهم مِن الخُروجِ إلى خَيبرَ مع جَيشِ الإسلامِ ليس لانسِلاخِ الإسلامِ عنهم، ولكنَّه لحِكمةِ نَوطِ المُسبَّباتِ بأسبابِها على طَريقةِ حِكمةِ الشَّريعةِ؛ فهو حِرمانٌ خاصٌّ بوَقعةٍ مُعيَّنةٍ، وأنَّهم سيُدْعون بعدَ ذلك إلى قِتالِ قَومٍ كافرينَ كما تُدْعَى طَوائفُ المُسلِمينَ، فذِكْرُ هذا في هذا المَقامِ إدخالٌ للمَسرَّةِ بعدَ الحُزنِ؛ لِيُزيلَ عنهم انكسارَ خَواطِرِهم مِن جرَّاءِ الحِرْمانِ[(١)]. وذلك على القولِ بأنَّهم لم يكونوا مِن المنافِقينَ.

- قَولُه: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾ كرَّرَ ذِكْرَهم بهذا الاسمِ؛ مُبالَغةً في الذَّمِّ، وإشعارًا بشَناعةِ التَّخلُّفِ، كأنَّ الذَّمَّ يَتوالَى عليهم كلَّما تَكرَّرَ ذِكْرُهم به، ووَسْمُهم بمِيسَمِه[(٢)].

- وكرَّرَ وَصْفَ ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ هنا؛ لِيَظهَرَ أنَّ هذه المَقالةَ قُصِدَ بها الَّذين نزَلَ فيهم قَولُه: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح: ١١]؛ فلا يَتوهَّمَ السَّامِعونَ أنَّ المَعنيَّ بالمُخلَّفينَ كلُّ مَن يقَعُ منه التَّخلُّفُ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧١).

- وأُسنِدَ ﴿سَتُدۡعَوۡنَ﴾ إلى المَجهولِ؛ لأنَّ الغرَضَ الأمْرُ بامتِثالِ الدَّاعي، وهو وَليُّ أمْرِ المسلِمينَ؛ بقَرينةِ قَولِه بعْدُ في تَذييلِه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الفتح: ١٧]، ودَعوةُ خُلفاءِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن بَعْدِه تَرجِعُ إلى دَعوةِ اللهِ ورسولِه؛ لقولِه: ((ومَن أطاعَ أميري فقد أطاعَني))(١).

- وعُدِّيَ فِعلُ ﴿سَتُدۡعَوۡنَ﴾ بحرْفِ (إلى)؛ لإفادةِ أنَّها مُضمَّنةٌ معنَى المشْيِ. وهذا فرْقٌ دَقيقٌ بيْنَ تَعديةِ فِعلِ الدَّعوةِ بحرْفِ (إلى) وبيْنَ تَعديتِه باللَّامِ، نحوُ قَولِك: دعَوْتُ فلانًا لِما نابَني(٢).

- و(أوْ) في قَولِه: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾ للتَّرديدِ بيْنَ الأمْرَينِ، والتَّنويعِ في حالةِ (تُدْعَون)، أي: تُدْعَونَ إلى قِتالِهم وإسلامِهم، وذلك يَستلزِمُ الإمعانَ في مُقاتَلتِهم، والاستِمرارَ فيها ما لم يُسلِموا(٣).

- وقولُه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ تَعبيرٌ بالتَّولِّي الَّذي مَضَى، وتَحذيرٌ مِن ارْتكابِ مِثلِه في مِثلِ هذه الدَّعوةِ بأنَّه تَوَلٍّ يُوقِعُ في الإثمِ؛ لأنَّه تَوَلٍّ عن دَعوةٍ إلى واجبٍ، وهو القِتالُ للجِهادِ؛ فالتَّشبيهُ في قَولِه: ﴿كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ تَشبيهٌ في مُطلَقِ التَّولِّي؛ لقصْدِ التَّشويهِ، وليس تَشبيهًا فيما يَترتَّبُ على ذلك التَّولِّي(٤).

٣- قَولُه تعالَى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧١).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٧١٣٧)، ومسلمٌ (١٨٣٥) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ اللهُ عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦] وبيْنَ جُملةِ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآيةَ، قُصِدَ منها نفْيُ الوَعيدِ عن أصحابِ الأعذارِ، تَنْصيصًا على العُذْرِ؛ للعِنايةِ بحُكْمِ التَّولِّي، والتَّحذيرِ منه(١).

- وفي نفْيِ الحرَجِ عن كلٍّ مِن الطَّوائفِ المَعدودةِ مَزيدُ اعتناءٍ بأمْرِهم، وتَوسيعٌ لِدائرةِ الرُّخصةِ(٢).

- واقتصَرَ على الأصنافِ الثَّلاثةِ؛ لأنَّ العُذرَ إمَّا أن يَكونَ بإخلالٍ في عضوٍ، أو باختِلالٍ في القوَّةِ، والَّذي يُسبِّبُ إخلالَ العضوِ فإمَّا أن يَكونَ بسَببِ اختِلالٍ في العضوِ الَّذي به الوُصولُ إلى العدُوِّ، والانتِقالِ في مَواضعِ القِتالِ، أو في العضوِ الَّذي تَتِمُّ به فائدةُ الحصولِ في المعركةِ والوُصولِ، والأوَّلُ: هو الرِّجْلُ، والثَّاني: هو العَينُ(٣).

- وقُدِّمَ الأعمى على الأعرَجِ؛ لأنَّ عُذْرَ الأعمى يَستَمِرُّ ولو حَضَرَ القِتالَ، والأعرَجُ إنْ حضَرَ راكِبًا أو بطَريقٍ آخَرَ يَقدِرُ على القِتالِ بالرَّمْيِ وغَيرِه(٤).

- وقدَّمَ الآفَةَ في الآلةِ على الآفَةِ في القُوَّةِ؛ لأنَّ الآفَةَ في القُوَّةِ تَزولُ وتَطرَأُ، والآفَةَ في الآلةِ إذا طرَأَت لا تَزولُ؛ فإنَّ الأعمى لا يَعودُ بَصيرًا، فالعُذرُ في مَحَلِّ الآلةِ أتَمُّ(٥).

- وقولُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ تذييلٌ لجُملةِ ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنًا ﴾ [الفتح: ١٦] الآيةَ؛ لِمَا تَضمَّنَتْه مِن إيتاءِ الأجْرِ لِكُلِّ مُطيعٍ مِن المخاطَبينَ وغيرِهم، والتَّعذيبِ لكلِّ مُتولٍّ كذلك، معَ ما في جُملةِ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ ﴾ مِن بَيانِ أنَّ الأجْرَ هو إدخالُ الجنَّاتِ، وهو يُفيدُ بطَريقِ المُقابَلةِ أنَّ التَّعذيبَ الأليمَ بإدخالِهم جهنَّمَ(١).

- قولُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ فصَّلَ الوعْدَ، وأجمَلَ الوَعيدَ؛ مُبالَغةً في الوَعْدِ؛ لسَبْقِ رَحمتِه، ثمَّ جبَرَ ذلك بالتَّكريرِ على سَبيلِ التَّعميمِ، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾؛ إذ التَّرهيبُ هاهنا أنفَعُ مِن التَّرغيبِ(٢).

- قُرِئَ ﴿نُدْخِلْهُ﴾ و﴿نُعَذِّبْهُ﴾ بنُونِ العظَمةِ على الالتِفاتِ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ، وقُرِئَ ﴿يُدۡخِلۡهُ﴾ ﴿يُعَذِّبۡهُ﴾ بالياءِ التَّحتيةِ جرْيًا على أُسلوبِ الغَيبةِ بعَودِ الضَّميرِ إلى اسمِ الجَلالةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٢).

قرأ نافعٌ، وأبو جعفرٍ، وابنُ عامرٍ بالنُّونِ فيهما، وقرأهما الباقون بالياءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

الآيات (١٨-٢٣)

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ
فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ
عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا
قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ
ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ
تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾: أي: فَرُّوا وانفَضُّوا وغُلِبوا؛ يُقالُ: وَلَّاه دُبُرَه: إذا انهزَمَ، والتَّوَلِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ، وأصلُ الدُّبُرِ: آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه(١).

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: السُّنَّةُ: هي الطَّريقةُ المَسلوكةُ والمِنهاجُ المتَّبَعُ، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ، واطِّرادِه في سُهولةٍ(٢).

﴿خَلَتْ﴾: أي: مَضَت وذَهَبت، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تعَرِّي الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٢٨).

(٢) يُنظر ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٧، ٤٩٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣١/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبشِّرًا المؤمنينَ الَّذين بايَعوا رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم يومَ الحُدَيبِيَةِ: لقد رَضِيَ اللهُ عن المُؤمنينَ حينَ بايَعوا رَسولَه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- تحتَ الشَّجَرةِ في الحُدَيبِيَةِ، على أن يُقاتِلوا كُفَّارَ قُرَيش ولا يَفِرُّوا، فعَلِمَ اللهُ ما في قُلوبِهم مِن الصِّدْقِ والوَفاءِ، والطَّاعةِ للهِ ورَسولِه؛ فأنزل اللهُ الطُّمَأنينةَ على قُلوبِهم، وجَزاهم اللهُ فَتْحًا يَحصُلُ لهم قريبًا، وغنائِمَ كَثيرةً يَأخُذونَها من أموالِ يَهودِ خَيبَرَ جعَلَها خاصَّةً لهم دُونَ غَيرِهم، وكان اللهُ عَزيزًا غالِبًا لكُلِّ شَيءٍ، حَكيمًا يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

وعَدَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- مَغانِمَ أُخرى كَثيرةً تأخُذونَها، فعجَّل اللهُ لكم -أيُّها المُؤمِنونَ المُبايِعونَ- غنائِمَ خَيبَرَ تأخُذونَها في وَقتٍ قَريبٍ بعدَ رُجوعِكم مِنَ الحُدَيبِيَةِ، وكفَّ اللهُ أيديَ الكُفَّارِ عنكم؛ فلم يَنَلْكم سوءٌ منهم، ولِيَكونَ ذلك آيةً للمُؤمِنينَ وعِبرةً لهم، ولِيَهدِيَكم اللهُ طَريقًا في الدِّينِ مُستَقيمًا لا اعوِجاجَ فيه.

ووعَدَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- فَتْحَ بلادٍ أُخرى لم تَقدِروا على فَتْحِها الآنَ، قد حَفِظَها اللهُ لكم، ويُيسِّرُ لكم فَتْحَها بعدَ حينٍ، وكان اللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرًا.

ولو قاتَلَكم الَّذين كَفَروا لَفَرُّوا وانهَزَموا عنكم، ثمَّ لا يَجِدونَ وَليًّا يَتولَّى أمْرَهم، ولا نَصيرًا يَنصُرُهم عليكم، لو قاتَلُوكم لَخَذَلَهم اللهُ خِذْلانَه أمثالَهم من أهلِ الكُفرِ به، الَّذين مَضَوا في الأُمَمِ السَّابِقةِ، سَنَّ الله فيهم الهَزيمةَ والخِذلانَ سُنَّةً مُؤكَّدةً لا تتغَيَّرُ، ولن تَجِدَ -يا مُحمَّدُ- لِعادةِ اللهِ الَّتي سنَّها في خَلْقِه تَغييرًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ

﴿ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ حالَ مَن تخَلَّف عن السَّفَرِ مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ذكَرَ حالَ المُؤمِنينَ الخُلَّصِ الَّذين سافَروا معَه(١).

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى حالَ المُخَلَّفينَ بعدَ قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]؛ عاد إلى بَيانِ حالِ المُبايِعينَ(٢).

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

أي: لقد رَضِيَ اللهُ عن المُؤمِنينَ حينَ بايَعوا رَسولَه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- تحتَ الشَّجَرةِ الكائِنةِ في أرضِ الحُدَيبِيَةِ، على أن يُقاتِلوا كُفَّارَ قُرَيشٍ ولا يَفِرُّوا(٣).

عن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كُنَّا يوم الحُدَيبِيَةِ ألفًا وأربَعَمِئَةٍ، فبايَعْناه وعُمَرُ آخِذٌ بيَدِه تحتَ الشَّجَرةِ، وهي سَمُرةٌ(٤)، وقال: بايَعْناه على ألَّا نَفِرَّ، ولم نبايِعْه على المَوتِ))(٥).

وعن مَعْقِلِ بنِ يَسارٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لقد رأيتُني يومَ الشَّجَرةِ، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُبايِعُ النَّاسَ، وأنا رافِعٌ غُصْنًا مِن أغصانِها عن رأسِه، ونحنُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٤٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).
(٤) السَّمُرة: شجرة الطَّلْحِ. يُنظر: ((الإفصاح)) لابن هُبَيْرة (٤/ ١٦٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٩٩).
(٥) رواه مسلم (١٨٥٦).

أربَعَ عَشْرةَ مِئةً. قال: لمْ نُبايِعْه على الموتِ، ولكِنْ بايَعْناه على ألَّا نفِرَّ))[(١)].

وعن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: أخبَرَتْني أمُّ مُبَشِّرٍ أنَّها سَمِعَت النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ عندَ حَفصةَ: ((لا يَدخُلُ النَّارَ -إن شاءَ اللهُ- من أصحابِ الشَّجَرةِ أحَدُ الَّذين بايَعوا تَحْتَها. قالت: بلى، يا رَسولَ اللهِ! فانتَهَرَها. فقالت حَفصةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قد قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]))[(٢)].

﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: فعَلِمَ اللهُ ما في قُلوبِ الصَّحابةِ الَّذين بايَعوا النَّبيَّ تحتَ الشَّجَرةِ، من الصِّدْقِ والوَفاءِ، والطَّاعةِ للهِ ورَسولِه[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (١٨٥٨).

(٢) رواه مسلم (٢٤٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).
وممَّن اختار هذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جرير، وابن القيم، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٠).
وقال ابنُ عطيَّةَ: (قولُه تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ قال قومٌ: معناه: مِن كراهةِ البَيعةِ على المَوتِ ونَحوِه. وهذا ضعيفٌ؛ فيه مَذَمَّةٌ للصَّحابةِ. وقال الطَّبَريُّ ومُنذِرُ بنُ سعيدٍ: معناه: مِنَ الإيمانِ وصِحَّتِه، والحُبِّ في الدِّينِ، والحِرصِ عليه. وهذا قولٌ حسَنٌ، لكنَّه مَن كانت هذه حالُه فلا يَحتاجُ إلى نُزولِ ما يُسكِّنُه، [إلَّا] أنَّه يَحتمِلُ أنْ يُجازَى بالسَّكينةِ والفتحِ القريبِ والمغانمِ. وقال آخَرونَ: معناه: مِنَ الهَمِّ بالانصِرافِ عن المشركينَ، والأنَفةِ في ذلك، على نحوِ ما خاطَبَ فيه عُمَرُ وغيرُه. وهذا تأويلٌ حسَنٌ، يَترتَّبُ معه نُزولُ السَّكينةِ، والتَّعريضُ بالفتحِ القريبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٦).

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: فأنزل اللهُ الطُّمَأنينةَ على قُلوبِهم، فثَبَتوا على الدِّينِ، وازدادوا يَقينًا بالحَقِّ المُبينِ[1].

﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾.

أي: وجَزاهم اللهُ فَتْحًا يَحصُلُ لهم قَريبًا؛ جزاءً لهم على قِيامِهم بأمرِ اللهِ، ورِضاهم بحُكْمِه[2].

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٦).

قيل: المرادُ بالفَتحِ هنا: فَتحُ خَيبَرَ. وممَّن قال بهذا القولِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والواحدي، والشوكاني، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ أبي ليلى، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ، والشَّعْبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥٢٤).

وقيل: المرادُ به: فَتحُ مَكَّةَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٧).

قال ابنُ القَيِّم: (كان أوَّلَ الفَتحِ والمغانِمِ فَتحُ خَيبَرَ ومَغانِمُها، ثمَّ استمَرَّت الفُتوحُ والمغانِمُ إلى انقضاءِ الدَّهرِ). ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨).

وقال ابنُ كثيرٍ: (هو ما أجرى اللهُ على أيديهم مِنَ الصُّلحِ بَيْنَهم وبيْنَ أعدائِهم، وما حَصَل بذلك مِنَ الخَيرِ العامِّ المُستَمِرِّ المتَّصِلِ بفَتحِ خَيبَرَ وفَتحِ مَكَّةَ، ثمَّ فَتحِ سائِرِ البلادِ والأقاليمِ عليهم، وما حَصَل لهم مِنَ العِزِّ والنَّصرِ والرِّفعةِ في الدُّنيا والآخِرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الفَتحَ؛ ذكَرَ بَعضَ ثَمرتِه[١].

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾.

أي: وأثابَهم غنائِمَ كَثيرةً يَأخُذونَها مِن أموالِ يَهودِ خَيبَرَ، وجعَلَها خاصَّةً لهم دُونَ غَيرِهم[٢].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِزَّةِ الكامِلةِ؛ فهو القاهِرُ الغالِبُ لكُلِّ شَيءٍ، ومُتَّصِفٌ بالحِكمةِ التَّامَّةِ؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[٣].

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٨)، ((سبل الهدى)) للصالحي (٥/ ٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠).

قال ابنُ عاشور: (المغانمُ الكثيرةُ المذكورةُ هنا هي مغانِمُ أرضِ خَيبَرَ، والأنعامُ والمتاعُ والحوائِطُ، فوُصِفَت بـ﴿ كَثِيرَةً ﴾؛ لتعَدُّدِ أنواعِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٧)، ((سبل الهدى)) للصالحي (٥/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال ابنُ جرير: (وكان اللهُ ذا عِزَّةٍ في انتِقامِه مِمَّن انتَقَم مِن أعدائِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٩).

وقال الواحدي: (حكيمًا في أمْرِه؛ حَكَم لكم بالغَنيمةِ، ولأهلِ خَيبَرَ بالسَّبْيِ والهَزيمةِ). ((التفسير الوسيط)) (٤/ ١٤٠).

وقال السعدي: (﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ أي: له العِزَّةُ والقُدرةُ الَّتي قهَرَ بها الأشياءَ، فلو شاء لانتصَرَ مِن الكُفَّارِ في كُلِّ وَقعةٍ تكونُ بَيْنَهم وبيْنَ المُؤمِنينَ، ولكِنَّه حَكيمٌ يَبتلي بَعضَهم ببَعضٍ، ويمتَحِنُ المؤمِنَ بالكافِرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ وعَدهم فيما سلَف بمغانمِ خَيْبَرَ- أردَف ذلك بِبيانِ أنَّ ما آتاهم مِنَ الفتحِ والمَغانمِ ليس هو الثَّوابَ وحْدَه[١].

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا ﴾.

أي: وعَدَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- مَغانِمَ أُخرى كَثيرةً، وذلك مِن سائِرِ المغانِمِ الَّتي يأخُذُها المُسلِمونَ بعدَ خَيبَرَ في الأوقاتِ الَّتي قدَّر اللهُ لهم أخْذَها فيها[٢].

﴿ فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ ﴾.

أي: فعجَّل اللهُ لكم -أيُّها المُؤمِنونَ المُبايِعونَ رَسولَه تحتَ الشَّجَرةِ- غنائِمَ خَيبَرَ تأخُذونَها في وَقتٍ قَريبٍ بعدَ رُجوعِكم مِنَ الحُدَيبيَةِ، وستَحصُلُ لكم غنائِمُ كَثيرةٌ بَعدَها[٣].

﴿ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ ﴾.

أي: وكفَّ اللهُ أيدِيَ الكُفَّارِ عنكم؛ فلم يَنَلْكم سوءٌ منهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٩، ٢٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).

قال ابن الجوزي: (أمَّا قولُه...: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا ﴾ فقال المفسِّرونَ: هي الفُتوحُ الَّتي تُفتَحُ على المُسلمينَ إلى يومِ القيامة). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٣).

وقال أبو حيَّان: (وهذه المغانمُ المَوعودُ بها هي المغانمُ الَّتي كانت بعدَ هذه، وتكونُ إلى يومِ القيامةِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ ومُجاهِدٌ وجمهورُ المفسِّرينَ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).

قال ابن عاشور: (كان قريبًا مِن يومِ البَيعةِ بنَحوِ شَهرٍ ونِصفٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٠)، ((تفسير =

= ابن عطية)) (٥/ ١٣٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١)، ((سبل الهدى)) للصالحي (٥/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).

قال الماوَرْدي: (﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدُها: اليهودُ؛ كفَّ أيديَهم عن المدينةِ عندَ خُروجِهم إلى الحُدَيبيَةِ.

الثَّاني: قُرَيشٌ؛ كفَّ أيديَهم عن المدينةِ عندَ خُروجِهم إلى الحُدَيبيَةِ.

الثَّالثُ: أَسَدٌ وغَطَفانُ الحَليفانِ عليهم عُيَيْنةُ بنُ حِصْنٍ ومالكُ بنُ عَوفٍ؛ جاؤُوا لِيَنصُروا أهلَ خَيبَرَ، فألقى اللهُ في قُلوبِهم الرُّعبَ فانهزَموا). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣١٧).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٨٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٣).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: السمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والقرطبي، وابنُ جُزَي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: عليُّ بنُ أبي طالب، وابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (١/ ٣٩٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥٢٥).

وممَّن اختار القولَ الثَّالثَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنين، والبغويُّ، والزمخشري، والنسفي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٦١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥٢٥).

قال ابن القيِّم في قولِه: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾: (قيل: أيديَ أهلِ مَكَّةَ أن يُقاتِلوهم. وقيل: أيديَ اليَهودِ حينَ هَمُّوا بأن يَغتالوا مَن بالمدينةِ بعدَ خُروجِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمَن معه مِنَ الصَّحابةِ منها. وقيل: هم أهلُ خَيبَرَ وحُلفاؤُهم الَّذين أرادوا نَصْرَهم مِن أَسَدٍ =

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ولِيَكونَ ذلك آيةً للمُؤمِنينَ وعِبرةً لهم(١).

= وغَطَفانَ. والصَّحيحُ تَناوُلُ الآيةِ للجَميعِ). ((زاد المعاد)) (٣/ ٢٧٨). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال ابنُ عاشور: (امتِنانٌ عليهم بنِعمةٍ غفَلوا عنها حينَ حَزِنوا لوُقوعِ صُلحِ الحُدَيبيَةِ، وهي نِعمةُ السِّلمِ، أي: كَفَّ أيديَ المُشركينَ عنهم؛ فإنَّهم لو واجَهوهم يومَ الحُدَيبيَةِ بالقِتالِ دونَ المراجَعةِ في سَبَبِ قُدومِهم لَرَجَع المُسلِمونَ بعدَ القِتالِ مُتعَبينَ، ولَمَا تهَيَّأَ لهم فَتحُ خَيبَرَ، وأنَّهم لو اقتَتَلوا مع أهلِ مكَّةَ لَدُحِضَ في ذلك مُؤمِنونَ ومُؤمِناتٌ كانوا في مكَّةَ، كما أشار إليه قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ ...﴾ [الفتح: ٢٥] الآيةَ. فالمرادُ بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾: أهلُ مَكَّةَ؛ جَرْيًا على مُصطَلَحِ القُرآنِ في إطلاقِ هذا اللَّفظِ غالِبًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال الشوكاني: (﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ اللَّامُ يجوزُ أن تتعَلَّق بفِعلٍ مَحذوفٍ يُقَدَّرُ بَعْدَه، أي: فَعَل ما فَعَل مِنَ التَّعجيلِ والكَفِّ؛ لِتَكونَ آيةً، أو على عِلَّةٍ مَحذوفةٍ تَقديرُها: وَعَد فعَجَّلَ وكَفَّ؛ لِتَنتَفِعوا بذلك، ولِتَكونَ آيةً. وقيل: إنَّ الواوَ مَزيدةٌ، واللَّامَ لِتَعليلِ ما قَبْلَه، أي: وكَفَّ لِتَكونَ، والمعنى: ذلك الكَفُّ آيةٌ يُعلَمُ بها صِدقُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في جميعِ ما يَعِدُكم به). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١)، ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤١).

قيل: المرادُ: ولِيَكونَ كَفُّهم عن المؤمنينَ آيةً لهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والنسفي، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٩). ويُنظر أيضًا: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٣).

قال ابنُ كثير: (أي: يَعتَبِرونَ بذلك؛ فإنَّ اللهَ حافِظُهم وناصِرُهم على سائِرِ الأعداءِ مع قِلَّةِ عَدَدِهم، ولِيَعلَموا بصَنيعِ اللهِ هذا بهم أنَّه العَليمُ بعواقِبِ الأُمورِ، وأنَّ الخيَرةَ فيما يَختارُه لِعبادِه المُؤمِنينَ وإنْ كَرِهوه في الظَّاهِرِ، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١).

وقيل: المعنى: ولِتَكونَ الغَنيمةُ آيةً للمُؤمِنينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مكِّي، والواحدي، والخازن، والسعدي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٥٩)، ((الوسيط)) =

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

أي: ولِيَهدِيَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- طَريقًا في الدِّينِ مُستَقيمًا لا اعوِجاجَ فيه؛ بسَبَبِ انقِيادِكم لأمْرِه، وقيامِكم بطاعتِه، ومُوافَقتِكم لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا سَرَّهم سُبحانَه بما بَشَّرَهم به مِن كَونِ القَضيَّةِ فَتحًا، ومِن غنائِمِ خَيبَرَ؛ أَتْبَعَ ذلك البِشارةَ، دالًّا على أنَّه لا مَطمَعَ لهم في حَوْزِه ولا عِلاجِه لولا مَعونَتُه[٢].

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾.

أي: ووعَدَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- فَتْحَ بلادٍ أُخرى لم تَقدِروا على فَتْحِها

= للواحدي (٤/ ١٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال السعدي: (﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الغَنيمةُ ﴿آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَستَدِلُّونَ بها على خَبَرِ اللهِ الصَّادِقِ، ووَعدِه الحَقِّ، وثوابِه للمُؤمِنينَ، وأنَّ الَّذي قَدَّرَها سيُقَدِّرُ غيرَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

وقيل المعنى: ولِتَكونَ هزيمتُهم وسلامتُكم آيةً للمؤمنينَ. وممَّن اختاره: الثعلبي، والبغوي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال ابنُ عاشور: (قولُه: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ عَطفٌ على ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهو حِكمةٌ أُخرى، أي: لِيَزولَ بذلك ما خامَرَكم مِن الكآبةِ والحُزنِ؛ فتَتجرَّدَ نُفوسُكم لإدراكِ الخَيرِ المَحضِ الَّذي في أمْرِ الصُّلحِ، وإحالتِكم على الوَعدِ؛ فتُوقِنوا أنَّ ذلك هو الحقُّ، فتَزدادوا يَقينًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٩، ٣٢٠).

الآنَ، قد حَفِظَها اللهُ لكم، وأعَدَّها لكم، ومَنَعَها عن غَيرِكم، فيُيَسِّرُ لكم فَتْحَها بعدَ حينٍ[1].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨، ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

ممَّن قال بأنَّ المرادَ بقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾: فَتحُ مَكَّةَ: ابنُ جريرٍ، والسمرقنديُّ، وابنُ عطيَّةَ، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: فارِسُ والرُّومُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٠٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ -في روايةٍ-، وابنُ أبي ليلى، والحسَنُ البصريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١).

وقيل: هي مغانمُ هَوازِنَ في غزوةِ حُنَينٍ. وممَّن اختاره: الزمخشري، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٤٠).

وقال ابنُ كثير: (قال مجاهِدٌ: هي كلُّ فتحٍ وغنيمةٍ إلى يومِ القيامةِ. وقال أبو داودَ الطَّيالسيُّ: حدَّثَنا شُعْبةُ، عن سِمَاكٍ الحَنَفيِّ، عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قال: هذه الفُتوحُ الَّتي تُفتَحُ إلى اليَوم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١).

وقال ابن عاشور: (الآيةُ أشارت إلى ثلاثةِ أنواعٍ مِن المغانمِ: نوعٌ مِن مَغانمَ مَوعودةٍ لهم قريبةِ الحُصولِ، وهي مَغانمُ خَيبَرَ؛ ونوعٌ هو مَغانمُ مَرجوَّةٌ كثيرةٌ غيرُ مُعيَّنٍ وَقتُ حُصولِها، ومنها مَغانمُ يومِ حُنَينٍ وما بعْدَه مِن الغزَواتِ؛ ونوعٌ هو مَغانمُ عظيمةٌ لا يَخطُرُ ببالِهم نَوالُها قد أعدَّها اللهُ للمُسلِمينَ، ولعلَّها مغانمُ بلادِ الرُّومِ وبلادِ الفُرسِ وبلادِ البَربرِ، وفي الآيةِ إيماءٌ إلى أنَّ هذا النَّوعَ الأخيرَ لا يَنالُه جَميعُ المخاطَبينَ؛ لأنَّه لم يأْتِ في ذِكرِه بضَميرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨١).

قال الواحديُّ: (أحاطَ اللهُ لكم بها، وجعَلَها لكم، وحَوَاها لكم. قال الفَرَّاءُ: أحاط اللهُ بها لكم حتَّى يَفتَحَها عليكم. ومعنَى الإحاطةِ على هذا القولِ: الحِفظُ، كأنَّه قال: حَفِظَها لكم، ومَنَعَها =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالقُدرةِ التَّامَّةِ على كُلِّ شَيءٍ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ أرادَه[1].

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قَدَّم سُبحانَه أنَّه كَفَّ أيديَ النَّاسِ عنكم أجمَعينَ؛ ذَكَر حُكْمَهم لو وقَعَ

= عن غَيرِكم حتَّى تَفتَحوها فتأخُذوها. وقال ابنُ عبَّاسٍ: عَلِمَ أنَّها ستَكونُ لكم. وهو قولُ مُقاتِلٍ، واختيارُ الزَّجَّاجِ، قال: ﴿أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قد عَلِمَها اللهُ، وقال: وهو ما يَغْنَمُ المسلمونَ إلى أن لا يقاتلَهم أحدٌ. وهذا معنَى قولِ مُجاهِدٍ في تفسيرِ ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾؛ لأنَّه قال: هي ما فتَحوا حتَّى اليَومِ. ومعنَى الإحاطةِ في هذا القَولِ: العِلمُ). ((البسيط)) (٢٠/ ٣٠٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٦٧).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإحاطةِ العِلمُ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإحاطةِ: حِفظُها وإعدادُها لكم: البغويُّ، والقرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١).

قِتالٌ[١].

﴿ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ﴾.

أي: ولو قاتَلَكم الَّذين كَفَروا باللهِ لَانهَزَموا عنكم، وفَرُّوا منكم[٢].

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾.

أي: ثمَّ لا يَجِدونَ وَلِيًّا يَتولَّى أمْرَهم ويَحفَظُهم ويَرعاهم، ولا نَصيرًا يَنصُرُهم ويُعينُهم عليكم؛ فهم مَخذولونَ مَغلوبون[٣].

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣ ﴾.

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُ ﴾.

أي: طريقةَ الله وعادتَه المعهودةَ الَّتي أجراها في السَّابِقينَ، بنصْرِ المؤمنينَ -مِن الرُّسلِ وأتْباعِهم- وهزيمةِ الكافرينَ، وإزهاقِ الباطلِ، وإظهارِ الحقِّ المبينِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال ابن القيِّم: (فإنْ قيلَ: فقد قاتَلوهم يومَ أُحُدٍ وانتَصَروا عليهم ولم يُوَلُّوا الأدبارَ؟!

قيل: هذا وَعدٌ مُعَلَّقٌ بشَرطٍ مَذكورٍ في غيرِ هذا الموضِعِ، وهو الصَّبرُ والتَّقْوى، وفات هذا الشَّرطُ يومَ أُحُدٍ بفَشَلِهم المُنافي للصَّبرِ، وتَنازُعِهم وعِصيانِهم المُنافي للتَّقوى؛ فصَرفَهم عن عَدُوِّهم، ولم يَحصُلِ الوَعدُ؛ لانتِفاءِ شَرْطِه). ((زاد المعاد)) (٣/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢١).

قال الرَّسْعَني: (﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ﴾ منصوبٌ على المصدرِ، أي: سَنَّ اللهُ غَلَبَةَ رسولِه والمؤمِنينَ سُنَّةً). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣١٠). =

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾.

أي: ولن تَجِدَ -يا مُحمَّدُ- لِعادةِ اللهِ الَّتي سنَّها في خَلْقِه تَغييرًا(١).

كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا * سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ هذه بِشارةٌ مِن اللهِ لعِبادِه المُؤمِنينَ بنَصرِهم على أعدائِهم الكافِرينَ، وأنَّهم لو قابَلوهم وقاتَلوهم فهم مَخذولونَ مَغلوبونَ، وهذه سُنَّةُ اللهِ في الأُمَمِ السَّابِقةِ؛ أنَّ جُندَ اللهِ هم الغالِبونَ(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا * سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ فيه أنَّ عادةَ اللهِ تعالى أنَّه يَنصُرُ المؤمِنينَ على الكافِرينَ إذا كانتْ نِيَّةُ المؤمنينَ نصْرَ دِينِ اللهِ، أي: إنَّ اللهَ ضمِنَ النَّصرَ للمؤمنينَ بأنْ تكونَ عاقبةُ حُروبِهم نَصرًا، وإنْ كانوا قد يُغْلَبون في بَعضِ المواقعِ، وإنَّما يكونُ كَمالُ النَّصرِ على حسَبِ ضَرورةِ

= وقال الشوكاني: (وانتِصابُ ﴿سُنَّةَ﴾ على المَصدريَّةِ بفِعلٍ مَحذُوفٍ، أيْ: بَيَّنَ اللهُ سُنَّةَ اللهِ. أو هو مَصدرٌ مؤكِّدٌ لِمَضمونِ الجُملةِ المُتقدِّمةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٨)، ((سبل الهدى)) للصالحي (٥/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

المؤمنينَ، وعلى حسَبِ الإيمانِ والتَّقْوى؛ ولذلك كان هذا الوعدُ غالبًا للرَّسولِ ومَن معَه، فيكونُ النَّصرُ تامًّا في حالةِ الخطرِ، كما كان يومَ بدْرٍ، ويكونُ سِجالًا في حالةِ السَّعةِ، كما في وَقعةِ أُحُدٍ، ويكونُ لِمَن بعْدَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن جُيوشِ المسلِمينَ على حسَبِ تَمسُّكِهم بوَصايا الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أنَّ القُرآنَ الكريمَ يَشهَدُ بِرِضا اللهِ عنِ الصَّحابةِ، وثَنائِه عليهم[2].

٢- عدالةُ الصَّحابةِ ثابتةٌ مَعلومةٌ بتعديلِ اللهِ لهم، وإخبارِه عن طَهارتِهم، واختيارِه لهم في نَصِّ القرآنِ؛ فمِن ذلك قَولُه تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقَولُه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، وقَولُه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقَولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، وقَولُه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ * وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨، ٩]، في آياتٍ يَكْثُرُ إيرادُها،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٢، ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٤٠٤).

ويطولُ تَعْدادُها، وجميعُ ذلك يَقتَضي القَطعَ بتَعديلِهم، ولا يَحتاجُ أحَدٌ منهم مع تعديلِ اللهِ له إلى تعديلِ أحَدٍ مِنَ الخَلْقِ! على أنَّه لو لم يَرِدْ مِنَ اللهِ ورَسولِه فيهم شَيءٌ مِمَّا ذكَرْناه لَأوجَبَت الحالُ الَّتي كانوا عليها مِنَ الهِجْرةِ والجِهادِ، ونُصرةِ الإسلامِ، وبَذْلِ المُهَجِ والأموالِ، والمُناصَحةِ في الدِّينِ، وقُوَّةِ الإيمانِ واليَقينِ- القَطْعَ على عدالتِهم، والاعتِقادَ لِنَزاهتِهم، وأنَّهم أفضَلُ مِن جَميعِ المُعَدَّلينَ والمُزَكَّيْنَ الَّذين يَجيئونَ مِن بَعْدِهم، هذا مَذهَبُ كافَّةِ العُلَماءِ، ومَن يُعْتَدُّ بقولِه مِن الفقهاءِ[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ما أتاهم مِنَ الفَتحِ والمغانِمِ ليس هو كُلَّ الثَّوابِ، بل الجَزاءُ قُدَّامَهم، وإنَّما هي لعاجِلةٍ عَجَّلَ بها[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ دَليلٌ على أنَّ اللهَ جلَّ جَلالُه قد يُثِيبُ المؤمِنَ رِزقًا في الدُّنيا على العَمَلِ الصَّالحِ، ولا يَحُطُّ ذلك مِن دَرَجةِ فَضلِه، ويَجعَلُ ذلك مِن أطيَبِ وُجوهِه! ألَا ترى أنَّ الغنائِمَ أطيَبُ وُجوهِ الكَسْبِ[3]؟!

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ هذا من أعلامِ النُّبُوَّةِ؛ فإنَّه لم يَزِغْ أحَدٌ مِن المُخاطَبينَ بهذه الآيةِ، وهم أهلُ الحُدَيبيَةِ، وكأنَّه -واللهُ أعلَمُ-

---

(١) يُنظر: ((الكفاية في علم الرواية)) للخطيب البغدادي (ص: ٤٦).
قال ابنُ حَجَرٍ: (اتَّفق أهلُ السُّنَّةِ على أنَّ الجَميعَ عُدولٌ، ولم يُخالِفْ في ذلك إلَّا شُذوذٌ مِنَ المُبتَدِعةِ). ((الإصابة في تمييز الصحابة)) (١/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٦١).

لذلك لم يَقُلْ: «ويَهدِيَهم» بالغَيبِ، على ما اقتَضاه السِّياقُ؛ لِئَلَّا يَعُمَّ غَيْرَهم ممَّن يُظهِرُ صِدقَه في الإيمانِ ثمَّ يَزيغُ، ولذا أكثَرُ تفاصيلِ هذه السُّورةِ من أعلامِ النُّبُوَّةِ؛ فإنَّه وقَعَ الإخبارُ به قبْلَ وُقوعِه(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أخبَرَ تعالى أنَّ سُنَّةَ اللهِ الَّتي لا تَبديلَ لها نَصرُ المُؤمِنينَ على الكافِرين، والإيمانُ المُستَلزِمُ لذلك يَتضَمَّنُ طاعةَ اللهِ ورَسولِه، فإذا نَقَصَ الإيمانُ بالمعاصي كان الأمرُ بحَسَبِه، كما جرى يومَ أُحُدٍ، وحيثُ ظهَرَ الكفَّارُ فإنَّما ذاك لِذُنوبِ المسلمينَ الَّتي أوجَبتْ نقْصَ إيمانِهم، ثمَّ إذا تابوا بتكميلِ إيمانِهم نصَرهم اللهُ(٢)!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ دَليلٌ على أنَّ هذا من مُقتَضى حِكمتِه تعالى؛ وأنَّه يَقضي في الأُمورِ المُتماثِلةِ بقَضاءٍ مُتماثِلٍ، لا بقَضاءٍ مُخالِفٍ، فإذا كان قد نَصَرَ المؤمِنينَ لأنَّهم مُؤمِنونَ كان هذا مُوجِبًا لنَصْرِهم حيثُ وُجِدَ هذا الوَصفُ، بخِلافِ ما إذا عَصَوا ونَقَصوا إيمانَهم كيومِ أُحُدٍ؛ فإنَّ الذَّنْبَ كان لهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، فعَمَّ كلَّ سُنَّةٍ له، وهو يَعُمُّ سُنَّتَه في خَلْقِه وأمْرِه في الطَّبيعيَّاتِ والدِّينيَّاتِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤١٩، ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥٤).

ﵟٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًاﵞ هو عودٌ إلى تَفصيلِ ما جازَى اللهُ به أصحابَ بَيعةِ الرِّضوانِ المُتقدِّمِ إجمالُه في قَولِه: ﵟإِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَﵞ(١) [الفتح: ١٠].

- قَولُه: ﵟلَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِﵞ في قَولِه: ﵟعَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَﵞ إيذانٌ بأنَّ مَن لم يُبايِعْ ممَّن خرَجَ مع النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليس حينَئذٍ بمُؤمنٍ، وهو تَعريضٌ بالجَدِّ بنِ قَيسٍ؛ إذ كان يومَئذٍ مُنافِقًا، ثمَّ حسُنَ إسلامُه(٢).

- وﵟإِذۡ يُبَايِعُونَكَﵞ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ ﵟرَضِيَﵞ، وفي تعليقِ هذا الظَّرْفِ بفِعلِ الرِّضا ما يُفهِمُ أنَّ الرِّضا مُسبَّبٌ عن مَفادِ ذلك الظَّرفِ الخاصِّ بما أُضيفَ هو إليه، مع ما يُعطيه تَوقيتُ الرِّضا بالظَّرْفِ المذكورِ مِن تَعجيلِ حُصولِ الرِّضا بحِدْثانِ ذلك الوقتِ. ومع ما في جَعْلِ الجُملةِ المُضافِ إليها الظَّرْفُ فِعليَّةً مُضارعيَّةً ﵟيُبَايِعُونَكَﵞ من حُصولِ الرِّضا قبْلَ انقِضاءِ الفِعلِ، بلْ في حالِ تَجدُّدِه؛ فالمُضارعُ في قَولِه: ﵟيُبَايِعُونَكَﵞ مُستعمَلٌ في الزَّمانِ الماضي لاستِحضارِ صُورةِ حالةِ المُبايَعةِ الجليلةِ(٣).

- وذِكَرَ ﵟتَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِﵞ لاستِحضارِ تلك الصُّورةِ تنْويهًا بالمكانِ؛ فإنَّ لِذِكرِ مَواضِعِ الحوادثِ وأزمانِها مَعانيَ تَزيدُ السَّامعَ تَصوُّرًا، ولِمَا في تلك الحَوادثِ مِن ذِكرَى، مِثلُ مَواقعِ الحُروبِ والحَوادثِ، ومَواقِعِ المَصائِبِ وأيَّامِها(٤).

- قَولُه: ﵟفَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡﵞ مُتعلِّقٌ بقَولِه: ﵟإِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِﵞ، كما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٣). ويُنظر أيضًا: ((صحيح مسلم)) (١٨٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٣، ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٧٥).

يقولُ القائلُ: فَرِحتُ أمسِ إذْ كَلَّمتُ زَيدًا فقام إلَيَّ، أو إذْ دخلْتُ عليه فأكرَمَني؛ فيَكونُ الفرحُ بعدَ الإكرامِ ترتيبًا. كذلك هاهنا، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مِنَ الصِّدقِ؛ إشارةً إلى أنَّ الرِّضا لم يكنْ عندَ المُبايَعةِ فحسْبُ، بل عندَ المُبايَعةِ الَّتي كان معها عِلمُ اللهِ بصِدقِهم[١].

وقيل: الفاءُ في قَولِه: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ليستْ للتَّعقيبِ؛ لأنَّ عِلْمَ اللهِ بما في قُلوبِهم ليس عقِبَ رِضاهُ عنهم، ولا عقِبَ وُقوعِ بَيعتِهم؛ فتَعيَّنَ أنْ تكونَ فاءً فَصيحةً تُفصِحُ عن كَلامٍ مُقدَّرٍ بعْدَها، والتَّقديرُ: فلمَّا بايَعُوك عَلِمَ ما في قُلوبِهم مِن الكآبةِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-. ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ لتَفريعِ الإخبارِ بأنَّ اللهَ عَلِمَ ما في قُلوبِهم بعدَ الإخبارِ برِضا اللهِ عنهم؛ لِمَا في الإخبارِ بعِلمِه ما في قُلوبِهم مِن إظهارِ عِنايتِه بهم.

ويجوزُ أنْ يكونَ المقصودُ مِن التَّفريعِ قولَه: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾، ويكونَ قَولُه: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تَوطئةً له على وَجْهِ الاعتراضِ[٢].

- قَولُه: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فترَتَّبَ على عِلْمِه ما في قُلوبِهم إنزالُه السَّكينةَ عليهم، أي: على قُلوبِهم؛ فعُبِّرَ بضَميرِهم عِوَضًا عن ضَميرِ قُلوبِهم؛ لأنَّ قُلوبَهم هي نُفوسُهم[٣].

- وفي قَولِه: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وُصِفَت المَغانمُ بأنَّها كثيرةٌ؛ لتَعدُّدِ أنواعِها[٤]. وفائدةُ وَصْفِ المَغانمِ بجُملةِ ﴿يَأْخُذُونَهَا﴾: تَحقيقُ حُصولِ فائدةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذا الوَعدِ لجَميعِ أهلِ البَيعةِ قبْلَ أنْ يقَعَ بالفِعلِ؛ ففيهِ زِيادةُ تَحقيقٍ لِكَونِ الفتحِ قريبًا، وبشارةٌ لهم بأنَّهم لا يَهلِكُ منهم أحدٌ قبْلَ رُؤيةِ هذا الفتحِ[1].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ مُعترِضةٌ، وهي مُفيدةٌ تذييلًا لجُملةِ ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾؛ لأنَّ تَيسيرَ الفتْحِ لهم وما حصَلَ لهم فيه مِن المغانمِ الكثيرةِ مِن أثَرِ عِزَّةِ اللهِ الَّتي لا يَتعاصَى عليها شيءٌ صَعبٌ، ومِن أثَرِ حِكمتِه في تَرتيبِ المُسبَّباتِ على أسبابِها في حالةٍ لَيظُنُّ الرَّائي أنَّها لا تُيَسَّرُ فيها أمثالُها[2].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ على طَريقِ الالْتِفاتِ، وهو استِئنافٌ بَيانيٌّ نشَأَ عن قولِه: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ١٨، ١٩]؛ إذ عُلِمَ أنَّه فتْحُ خَيبَرَ، فحُقَّ لهم ولِغَيرِهم أنْ يَخطُرَ ببالِهم أنْ يَترقَّبوا مَغانِمَ أخرى؛ فكان هذا الكَلامُ جوابًا لهم، أي: لَكم مَغانِمُ أُخرى لا يُحرَمُ منها مَن تخلَّفوا عن الحُدَيْبِيَةِ، وهي المَغانِمُ الَّتي حصَلَتْ في الفتوحِ المُستقبَلةِ[3].

- ووَصْفُ (مَغَانِمَ) بِجُملةِ (تَأْخُذُونَهَا)؛ لتَحقيقِ الوعْدِ[4].

- وقولُه: ﴿فَعَجَّلَ﴾ مُستعمَلٌ في الزَّمنِ المُستقبَلِ؛ تَنبيهًا على تَحقيقِ وُقوعِه، أي: سيُعجِّلُ لكم هذه، وإنَّما جعَلَ نَوالَهم غنائِمَ خَيبرَ تَعجيلًا؛ لقُربِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٦، ١٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).

حُصولِه مِن وقتِ الوعدِ به[1].

- قَولُه: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ الظَّاهِرُ أنَّ الواوَ عاطفةٌ، وأنَّ ما بعدَ الواوِ عِلَّةٌ كما تَقْتضي لامُ (كيْ)؛ فتعيَّنَ أنَّه تَعليلٌ لشَيءٍ ممَّا ذُكِرَ قَبْلَه في اللَّفظِ، أو عَطْفٌ على تَعليلٍ سبَقَه؛ فيجوزُ أنْ يكونَ مَعطوفًا على بَعضِ التَّعليلاتِ المُتقدِّمةِ مِن قولِه: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، أو مِن قولِه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [الفتح: ٥]، وما بيْنَهما اعتراضًا، وهو وإنْ طالَ فقَدِ اقتضَتْه التَّنقُّلاتُ المُتناسِباتُ، والمعنى: أنَّ اللهَ أنزَلَ السَّكينةَ في قلوبِ المؤمنينَ لِمَصالحَ لهم؛ منها: ازديادُ إيمانِهم، واستِحقاقُهم الجنَّةَ، وتَكفيرُ سيِّئاتِهم، واستِحقاقُ المنافِقينَ والمشرِكينَ العَذابَ، ولِتَكونَ السَّكينةُ آيةً للمؤمنين، أي: عِبرةً لهم واستِدلالًا على لُطفِ اللهِ بهم، وعلى أنَّ وعْدَه لا تأْويلَ فيه.

ويجوزُ أنْ يكونَ مَعطوفًا على تَعليلٍ مَحذوفٍ يُثارُ مِن الكلامِ السَّابقِ؛ حُذِفَ لِتذهَبَ نفْسُ السَّامعِ كلَّ مَذهَبٍ مُمكنٍ في تَقديرِه؛ تَوفيرًا للمعنى، والتَّقديرُ: فعجَّلَ لكم هذه لِغاياتٍ وحِكَمٍ، ولِتَكونَ آيةً؛ فهو مِن ذِكرِ الخاصِّ بعْدَ العامِّ المُقدَّرِ. فالتَّقديرُ مَثَلًا: لِيَحصُلَ التَّعجيلُ لكم بنفْعٍ عِوَضًا عمَّا تَرقَّبتُموه مِن مَنافعِ قِتالِ المشركينَ، ولِتَكونَ هذه المغانمُ آيةً للمؤمنينَ منكم ومَن يَعرِفون بها أنَّهم مِن اللهِ بمَكانِ عِنايتِه، وأنَّه مُوفٍ لهم ما وَعَدَهم، وضامنٌ لهم نصْرَهم الموعودَ، كما ضمِنَ لهم المغانمَ القريبةَ والنَّصْرَ القريبَ. وتلك الآيةُ تَزيدُ المؤمنينَ قُوَّةَ إيمانٍ. وضَميرُ ﴿وَلِتَكُونَ﴾ على هذه راجِعٌ إلى قَولِه: ﴿هَٰذِهِۦ﴾، على أنَّها المُعلَّلةُ. ويجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ للخِصالِ الَّتي دلَّ عليها مَجموعُ قَولِه: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).

﴿هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾؛ فيكونَ مَعنى قولِه: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِغاياتٍ جَمَّةٍ؛ منها: ما ذُكِرَ آنِفًا، ومنها: سلامةُ المسلمينَ في وقْتٍ هم أحوَجُ فيه إلى استِبقاءِ قُوَّتِهم منهم إلى قِتالِ المشركينَ ادِّخارًا للمُستقبَلِ، أو تكونَ جُملةُ ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ مُعترِضةً، والواوُ اعتراضيَّةً غيرَ عاطفةٍ، وضَميرُ (لِتَكُونَ) عائدًا إلى المرَّةِ مِن فِعلِ (كفَّ)، أي: الكَفَّةِ[1].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ هذا مِن عطْفِ الجُملةِ على الجُملةِ؛ فقولُه: (أُخْرَى) مَبتدأٌ مَوصوفٌ بجُملةِ ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾، والخبرُ قولُه: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾، ومَجموعُ الجُملةِ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ [الفتح: ٢٠]؛ فلفظُ (أُخرى) صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿مَغَانِمَ﴾ الَّذي في الجُملةِ قبْلَها، أي: هي نَوعٌ آخَرُ مِن المغانمِ صَعبةُ المَنالِ، ومعنى المغانمِ يَقتضي غانِمينَ؛ فَعُلِمَ أنَّها لهم، أي: غيرَ الَّتي وعَدَهم اللهُ بها، أي: هذه لم يَعِدْهم اللهُ بها، وليستْ ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ عطْفًا على قَولِه: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٠] عطفَ المُفردِ على المفْردِ؛ إذ ليس المرادُ غَنيمةً واحدةً، بل غنائمَ كثيرةً[2].

- قَولُه: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ معنَى الإحاطةِ فيها إيماءٌ إلى أنَّها كالشَّيءِ المُحاطِ به مِن جَوانبِه، فلا يَفوتُهم مكانُه، جُعِلَت كالمَخبوءِ لهم؛ ولذلك ذُيِّل بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾؛ إذ هو أمْرٌ مُقرَّرٌ في عِلمِهم[3].

٤- قَولُه تعالَى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ هذا عطْفٌ على قَولِه: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠]، على أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٨، ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بَعضَه مُتعلِّقٌ بالمَعطوفِ عليه، وبعضَه مَعطوفٌ على المعطوفِ عليه، فما بيْنَهما ليس مِن الاعتِراضِ، والمَقصودُ مِن هذا العَطْفِ التَّنبيهُ على أنَّ كَفَّ أيدَي النَّاسِ عنهم نِعمةٌ على المُسلِمينَ، باستِبْقاءِ قُوَّتِهم وعُدَّتِهم ونَشاطِهم، وليس الكفُّ لدَفعِ غَلَبةِ المشركينَ إيَّاهم؛ لأنَّ اللهَ قدَّرَ للمُسلِمينَ عاقِبةَ النَّصرِ، فلو قاتَلَهم الَّذين كَفَروا لَهزَمَهم المُسلِمونَ ولم يَجِدوا نصيرًا، أي: لم يَنتصِروا بجَمْعِهم ولا بمَن يُعينُهم[١].

- والمُرادُ بالَّذين كَفَروا في قَولِه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ ما أُريدَ بالنَّاسِ في قَولِه: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾، وكان مُقْتضَى الظَّاهِرِ الإتيانَ بضَميرِ النَّاسِ بأنْ يُقالَ: (وَلَو قَاتَلُوكُم)؛ فعُدِلَ عنه إلى الاسمِ الظَّاهِرِ؛ لِمَا في الصِّلةِ مِن الإيماءِ إلى وجهِ بِناءِ الخبَرِ، وهو أنَّ الكُفرَ هو سببُ تَوليةِ الأدبارِ في قِتالِهم للمُسلِمينَ؛ تمْهيدًا لقَولِه: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾[٢].

- و(الأَدبارَ) منْصوبٌ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لِـ(ولَّوْا)، ومَفعولُه الأولُ مَحذوفٌ؛ لِدَلالةِ ضَميرِ ﴿قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عليه، والتَّقديرُ: لَوَلَّوكُم الأدبارَ[٣].

- قَولُه: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ حرْفُ (ثمَّ) هنا للتَّراخي الرُّتَبيِّ؛ فإنَّ عدَمَ وِجْدانِ الوليِّ والنَّصيرِ أشَدُّ على المنْهزِمِ مِن انهزامِه؛ لأنَّه حِينَ يَنهزِمُ قد يكونُ له أملٌ بأنْ يَستنصِرَ مَن يُنجِدُه، فيَكُرُّ به على الَّذين هزَموه، فإذا لم يَجِدْ وَليًّا ولا نَصيرًا تحقَّقَ أنَّه غيرُ مُنتصِرٍ، وأصلُ الكلامِ: لَولَّوُا الأدبارَ وما وجَدوا وليًّا ولا نَصيرًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- قَولُه تعالَى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾

- قَولُه: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُ ﴾ انتصَبَ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ﴾ نِيابةً عن المفعولِ المُطلَقِ الآتي بدَلًا مِن فِعلِه؛ لإفادةِ مَعنى تأْكيدِ الفِعلِ المَحذوفِ، والمعنى: سنَّ اللهُ ذلك سُنَّةً[1].

- وفائدةُ هذا الوصْفِ ﴿ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُ ﴾ الدَّلالةُ على اطِّرادِ سُنَّةِ اللهِ وثَباتِها[2].

- ولَمَّا وصَفَ تلك السُّنَّةَ بأنَّها راسِخةٌ فيما مَضَى؛ أعقَبَ ذلك بوَصْفِها بالتَّحقُّقِ في المُستقبَلِ؛ تعْميمًا للأزمِنةِ بقولِه: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾[3].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٢، ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٤-٢٦)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ
مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم
مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ
ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا
وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿أَظْفَرَكُمْ﴾: أي: أظْهرَكم ونَصرَكم، وأصلُ (ظفر): يدُلُّ على القَهرِ والفَوزِ والغَلَبةِ[١].

﴿وَٱلْهَدْىَ﴾: أي: ما يُهدَى إلى البَيتِ مِن الأنعامِ؛ وسُمِّيَ هَدْيًا لأنَّ مُهْدِيَه تقَرَّبَ به إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ[٢].

﴿مَعْكُوفًا﴾: أي: مَحبوسًا، وأصلُ (عكف): يدُلُّ على حَبسٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦٥، ٤٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

﴿تَطَـُٔوهُمۡ﴾: أي: تَقتُلوهم وتُوقِعوا بهم، وأصلُه يدُلُّ على وَطءٍ بالقَدَم، واستُعمِلَ في معنى القَتلِ؛ لأنَّ مَن وَطِئَ الشَّيءَ برِجْلِه فقد استَقصى في إهلاكِه وإهانتِه(١).

﴿مَّعَرَّةُۢ﴾: أي: غُرمُ الكَفَّارةِ ومَسَبَّةُ الكُفَّارِ، وهي مَصدَرٌ ميميٌّ مِن عَرَّه: إذا دهاه، وأصابَه بما يَكرَهُه ويَشُقُّ عليه؛ مِن ضُرٍّ أو غُرمٍ أو سُوءِ قالةٍ(٢).

﴿تَزَيَّلُواْ﴾: أي: تميَّزوا وتفرَّقوا، وأصلُ (زيل): يدُلُّ على التَّبايُنِ والمُفارَقةِ(٣).

﴿ٱلۡحَمِيَّةَ﴾: أي: الأَنَفةَ والغَضَبَ، وأكثَرُ إطلاقِ ذلك على استِكبارٍ لا مُوجِبَ له، وأصلُها يدُلُّ على حَرارةٍ(٤).

المعنى الإجماليُّ:

يمتنُّ اللهُ تعالى على المؤمنينَ بنعمةٍ مِن نِعَمِه الَّتي أنعَمَ بها عليهم عامَ الحُدَيبيَةِ، فيقولُ: واللهُ وَحْدَه هو الَّذي كَفَّ أيدِيَ المُشرِكينَ عَنْكم -أيُّها المُؤمِنونَ- وأيديَكم عنهم، وأنتم في الحُدَيبيَةِ مِن بَعدِ أن أظْهَرَكم ونَصَرَكم عليهم، وكان اللهُ بما تَعمَلونَ جميعًا بَصيرًا.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٣).

ثمَّ يقولُ تعالى مخبرًا عن المشركينَ: هؤلاء المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ هم الَّذين كَفَروا بالحَقِّ، وصَدُّوكم -أيُّها المُؤمِنونَ- عن دُخولِ المَسجِدِ الحَرامِ عامَ الحُدَيبيَةِ، ومَنَعوا الأنعامَ الَّتي أهدَيْتُموها عن الوُصولِ إلى مَحَلِّ ذَبْحِها في مَكَّةَ!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى جانبًا مِن حِكمتِه في منعِ قتالِ المشركينَ، فيقولُ: ولَولا رِجالٌ ونِساءٌ مِنَ المُستَضعَفينَ الَّذين يَكتُمونَ إيمانَهم في مَكَّةَ مِمَّن لا تَعلَمونَ حالَهم؛ أن تَقتُلوهم إذا دخَلْتُم مكَّةَ فاتِحينَ، فيَنالَكم بسَبَبِ قَتْلِهم سوءٌ مِن إثمٍ أو مَغْرَمٍ أو غَمٍّ- لَأَذِنَ اللهُ لكم في فَتحِ مَكَّةَ.

مَنَعَكم اللهُ مِن قِتالِ كُفَّارِ قُرَيشٍ عامَ الحُدَيبيَةِ؛ لِيُدخِلَ في الإسلامِ مِن أهلِ مَكَّةَ مَن يَشاءُ منهم قبْلَ أن تَدخُلوها فاتِحينَ، ولو تَمَيَّزَ مَنْ آمَنَ في مكَّةَ عن الكُفَّارِ وتفَرَّقوا عنهم، لَعَذَّبْنا أولئك الكُفَّارَ بـأيديكم -أيُّها المُؤمِنونَ- عَذابًا مُؤلِمًا، حينَ وَضَع كُفَّارُ قُرَيشٍ في قُلوبِهم أَنَفَةَ الجاهِليَّةِ واستِكبارَها في شُروطِ الصُّلحِ يومَ الحُدَيبيَةِ، فأنزَلَ اللهُ الطُّمَأنينةَ والصَّبرَ والثَّباتَ على رَسولِه وعلى أصحابِه المُؤمِنينَ، وألزَمَهم اللهُ كَلِمةَ التَّوحيدِ، ووفَّقَهم لالتِزامِها قَولًا وعَمَلًا، وكانوا أحقَّ بتلك الكَلِمةِ مِنَ الكُفَّارِ، وأهلًا لها دُونَهم، وكان اللهُ بكُلِّ شَيءٍ عَليمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها تَبيينٌ لِما تَقدَّمَ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ [الفتح: ٢٢]، أي: هو بتَقديرِ اللهِ؛ لأنَّه كَفَّ أيديَهم عنكم بالفِرارِ، وأيديَكم عنهم

بالرُّجوعِ عنهم وتَرْكِهم[١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾

سَبَبُ النُّزولِ[٢]:

١- عن سَلَمةَ بنِ الأكوَعِ -رَضِيَ اللهُ عنه- في قِصَّةِ صُلحِ الحُدَيبيَةِ، قال: ((قَدِمْنا الحُدَيبيَةَ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونحنُ أربَعَ عَشْرةَ مِئةً... ثمَّ إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دَعانا للبَيعةِ في أصلِ الشَّجَرةِ... ثمَّ إنَّ المُشرِكينَ راسَلونا الصُّلحَ حتَّى مشى بَعضُنا في بَعضٍ، واصطَلَحْنا... فلمَّا اصطَلَحْنا نحنُ وأهلُ مكَّةَ، واختَلَط بَعضُنا ببَعضٍ؛ أتيتُ شَجَرةً فكَسَحْتُ شَوكَها[٣] فاضطجَعْتُ في أصلِها، قال: فأتاني أربعةٌ من المُشرِكينَ من أهلِ مَكَّةَ، فجَعَلوا يَقعونَ في رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأبغَضْتُهم، فتحَوَّلتُ إلى شَجَرةٍ أُخرى، وعَلَّقوا سِلاحَهم واضْطَجَعوا، فبَيْنَما هم كذلك إذْ نادى مُنادٍ مِن أسفَلِ الوادي: يا لَلْمُهاجِرينَ! قُتِلَ ابنُ زُنَيمٍ! قال: فاختَرَطتُ سَيفي[٤]، ثمَّ شَدَدْتُ على أولئك الأربَعةِ وهم رُقودٌ، فأخَذْتُ سِلاحَهم، فجعَلْتُه ضِغْثًا[٥] في يَدي. قال: ثمَّ قُلتُ: والَّذي كرَّمَ وَجْهَ مُحمَّدٍ لا يَرفَعُ أحَدٌ مِنكم رأسَه إلَّا ضَربتُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨١).

(٢) قال ابنُ حجر: (المشهورُ في سببِ نُزولِها ما أخرجه مسلمٌ مِن حديثِ سَلَمةَ بنِ الأكْوَعِ، ومِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ أيضًا، وأخرجه أحمدُ والنَّسائيُّ مِن حديثِ عبدِ الله بنِ مغفلٍ). ((فتح الباري)) (٥/ ٣٥١).

(٣) كَسَحْتُ شَوْكَها: أي قطعتُه، وكنستُ ما تحتَها منه. يُنظر: ((كشف المُشْكِل)) لابن الجوزي (٢/ ٣٠٦)، ((المفهم)) للقرطبي (٣/ ٦٧١)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٧٦).

(٤) اخترطتُ سيفي: أي: سللتُه مِن غِمْدِه. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٢/ ٣٠٧).

(٥) فجعلْتُه ضِغْثًا في يدي: الضِّغْثُ: الحُزمةُ والباقةُ مِن الشَّيءِ؛ كالبَقْلِ وما أشْبَهَه. والمعنى: جعلتُ سلاحَهم في يدي مِثلَ الضِّغْثِ. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٢/ ٣٠٧).

الَّذي فيه عَيْناه! قال: ثمَّ جِئتُ بهم أسوقُهم إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. قال: وجاء عَمِّي عامِرٌ برَجُلٍ مِنَ العَبَلاتِ[1] يُقالُ له: مِكْرَزٌ، يَقودُه إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على فَرَسٍ مُجَفَّفٍ[2] في سَبعينَ مِنَ المُشرِكينَ، فنظَرَ إليهم رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: دَعوهم يَكُنْ لهم بَدءُ الفُجورِ وثِناه[3]! فعفا عنهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنزل اللهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ الآيةَ كُلَّها))[4].

٢- عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((إنَّ ثمانينَ رَجُلًا مِن أهلِ مَكَّةَ هَبَطوا على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن جَبَلِ التَّنعيمِ مُتسَلِّحينَ، يُريدونَ غِرَّةَ[5] النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، فأخَذَهم سَلَمًا[6] فاستَحْياهم[7]،

---

(١) العَبَلات: بطنٌ مِن بَني عبدِ شمسٍ، نُسبوا إلى أُمٍّ لهم تُسَمَّى: عبلةَ بنتَ عبيدٍ. يُنظر: ((المفهم)) للقرطبي (٣/ ٦٧١)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٧٦، ١٧٧).

(٢) المجفَّف مِن الخَيلِ: هو الَّذي عليه التَّجافيفُ، وهي كلُّ ما يَمنعُ وُصولَ الأذى إليه، فهو مِثلُ المُدَجَّجِ مِن الرِّجال، وهو الَّذي عليه السِّلاحُ التَّامُّ. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٢/ ٣٠٧).

(٣) بَدؤه: ابتداؤه، وثِنَاهُ: عودُه ثانيةً؛ فبَدءُ الفجورِ وثِنَاهُ، أي: أوَّلُه وآخِرُه. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٢/ ٣٠٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٢٥)، ((المفهم)) للقرطبي (٣/ ٦٧١)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٧٧).

(٤) رواه مسلم (١٨٠٧).

(٥) أي: يَلتمِسونَ غفلتَهم؛ لِيَتمكَّنوا منهم، والغِرَّةُ: الغفلةُ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٧٦٨).

(٦) فأخذهم سَلَمًا: بفتح السِّين واللَّام، أي: أسرى، والسَّلَمُ بالفتح: الأسيرُ؛ لأنَّه أسلَمَ وترَك. وضُبط أيضًا بإسكانِ اللَّامِ مع كسرِ السِّينِ وفَتحِها، ومعناه: الصُّلحُ. يُنظر: ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (٢/ ٢١٧). ويُنظر: أيضًا: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٩٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٨٧).

(٧) استَحْياهم: استَبْقاهم ولم يَقتُلْهم. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٣/ ٣٠٨)، ((جامع الأصول)) لابن الأثير (٢/ ٣٥٩).

فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾))[١].

٣- عن عبدِ اللهِ بنِ مُغَفَّلٍ المُزَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالحُدَيبيَةِ في أصلِ الشَّجَرةِ الَّتي قال اللهُ تعالى في القُرآنِ، وكان يقَعُ مِن أغصانِ تلك الشَّجَرةِ على ظَهرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعليُّ بنُ أبي طالِبٍ وسُهَيلُ بنُ عَمرٍو بيْنَ يَدَيه. فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِعَليٍّ رَضِيَ اللهُ تعالى عنه: اكتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم. فأخَذَ سُهَيلُ ابنُ عَمرٍو بيَدِه، فقال: ما نَعرِفُ بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ! اكتُبْ في قَضِيَّتِنا ما نَعرِفُ. قال: اكتُبْ باسْمِك اللَّهُمَّ. فكَتَب: هذا ما صالَحَ عليه محمَّدٌ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أهلَ مَكَّةَ. فأمسَكَ سُهَيلُ بنُ عَمرٍو بيَدِه، وقال: لقد ظلَمْناك إنْ كُنتَ رَسولَه! اكتُبْ في قَضِيَّتِنا ما نَعرِفُ. فقال: اكتُبْ هذا ما صالَحَ عليه محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ. وأنا رَسولُ اللهِ! فكَتَب، فبَيْنا نحنُ كذلك إذ خرَجَ علينا ثلاثونَ شابًّا عليهم السِّلاحُ، فثاروا في وُجوهِنا، فدعا عليهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخَذَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بأبصارِهم، فقَدِمْنا إليهم فأخَذْناهم، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هل جِئتُم في عَهدِ أَحَدٍ، أو هل جَعَل لكم أَحَدٌ أمانًا؟ فقالوا: لا. فخلَّى سَبيلَهم، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤]))[٢].

(١) رواه مسلم (١٨٠٨).

(٢) أخرجه النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٥١١)، وأحمدُ (١٦٨٠٠) واللفظُ له.

قال الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٤٨): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ)، وصحَّح إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٥/ ٣٥١)، وصَحَّحه شعيبُ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٧/ ٣٥٥).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الَّذي كَفَّ أيديَ المُشرِكينَ عنكم -أيُّها المُؤمِنونَ- وأيديَكم عنهم، وأنتم في الحُدَيبيَةِ مِن بَعدِ أن أظْهَرَكم ونَصَرَكم عليهم(١).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [المائدة: ١١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ على مَعنى الغَيْبةِ، أي: كانَ الله بما عمِل الكفَّارُ من كفرِهم وصدِّهم عن المسجدِ بصيرًا(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال الواحدي: (المعنى: أنَّ اللهَ تعالى يَذكُرُ مِنَّتَه بحَجْزِه بيْنَ الفريقَينِ حتَّى لم يَقتَتِلا، وحتَّى اتَّفق بيْنَهم الصُّلحُ الَّذي كان أعظَمَ مِن الفَتحِ، وسَلِمَ للرَّجُلِ مَن بَيْنَه وبيْنَه قَرابةٌ، ومَن هو مُؤمِنٌ مِن أهلِ مكَّةَ؛ أن يُصابَ. وهذا قَولُ عامَّةِ المُفَسِّرينَ). ((البسيط)) (٢٠/ ٣١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٢).

قال السَّمْعاني: (قَولُه: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ يعني: الحُدَيبيَةَ، وإنَّما سَمَّاها بَطْنَ مكَّةَ؛ لِقُربِها مِن مكَّةَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٠٤).

وقال ابنُ عاشور: (الحُدَيبيَةُ قَريبةٌ مِن مكَّةَ، وهي مِنَ الحِلِّ، وبَعضُ أرضِها مِنَ الحَرَمِ، وهي على الطَّريقِ بيْنَ مكَّةَ وجُدَّةَ، وهي إلى مكَّةَ أقرَبُ، وتُعرَفُ اليومَ باسمِ الشُّمَيسِي). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٥).

وقال القرطبي: (﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: يريدُ به مكَّةَ. الثَّاني: الحُدَيبيَة؛ لأنَّ بعضَها مُضافٌ إلى الحَرَم). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٢).

(٢) قرأ بها أبو عَمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجوزي (٢/ ٣٧٥).

ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٧٤).

٢- قِراءةُ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على معنى الخِطابِ، أي: أنتم وهم[(١)].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

أي: وكان اللهُ بما تَعمَلونَ -أيُّها المُؤمِنونَ والمُشرِكونَ- بَصيرًا؛ فلا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أعمالِكم[(٢)].

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر الأُمورَ المُهَيِّجةَ على قِتالِ المُشرِكينَ، وهي كُفرُهم باللهِ ورَسولِه، وصَدُّهم رَسولَ اللهِ ومَن معه مِنَ المُؤمِنينَ أن يأتُوا للبَيتِ الحَرامِ زائِرينَ مُعَظِّمينَ له بالحَجِّ والعُمرةِ[(٣)].

وأيضًا لَمَّا كان ما مضَى مِن وَصْفِ الكُفَّارِ على وَجهٍ يَشملُ غَيرَهم مِن جَميعِ الكُفَّارِ؛ عَيَّنَهم مُبيِّنًا لِسَبَبِ كَفِّهم عنهم، مع استِحقاقِهم في ذلك الوَقتِ للبَوارِ والنَّكالِ والدَّمارِ، فقال[(٤)]:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجوزي (٢/ ٣٧٥).

ويُنظر لمعنَى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٦).

أي: هؤلاء المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ هم الَّذين كَفَروا بالحَقِّ، وصَدُّوكم -أيُّها المُؤمِنونَ- عن دُخولِ المَسجِدِ الحَرامِ عامَ الحُدَيبيَةِ(١).

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((خرَجْنا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُعتَمِرينَ، فحالَ كُفَّارُ قُرَيشٍ دونَ البَيتِ، فنَحَرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بُدْنَه، وحَلَق رَأْسَه))(٢).

﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾.

أي: وهم مَن مَنَع الهدْيَ عن الوُصولِ إلى مَحَلِّ ذَبْحِها في مَكَّةَ(٣).

﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾.

أي: ولَولا رِجالٌ ونِساءٌ مِنَ المُستَضعَفينَ الَّذين يَكتُمونَ إيمانَهم في مَكَّةَ، مِمَّن لا تَعلَمونَ بشَأنِهم؛ أن تَقتُلوهم إذا دخَلْتُم مكَّةَ فاتِحينَ، فيَنالَكم بسَبَبِ قَتْلِهم سوءٌ مِن إثمٍ أو مَغْرَمٍ أو غَمٍّ أو مَلامةٍ- لَأَذِنَ اللهُ لكم في فَتحِ مكَّةَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

(٢) رواه البخاريُّ (١٨١٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال ابن عاشور: (الهَدْيُ: ما يُهدَى إلى الكَعبةِ مِنَ الأنعامِ... ومعنى صَدِّهم الهَدْيَ: أنَّهم صَدُّوا أهلَ الهَدْيِ عن الوُصولِ إلى المَنحَرِ...، وليس المرادُ: أنَّهم صَدُّوا الهدايا مُباشَرةً؛ لأنَّه لم يُنقَلْ أنَّ المُسلِمينَ عَرَضوا على المُشرِكينَ تَخليةَ مَن يَذهَبُ بهَداياهم إلى مكَّةَ لِتُنحَرَ بها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٧، ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٤)، =

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: مَنَعَكم اللهُ مِن قِتالِ كُفَّارِ قُرَيشٍ عامَ الحُدَيبيَةِ؛ لِيُدخِلَ اللهُ في الإسلامِ مِن أهلِ مكَّةَ مَن يَشاءُ منهم قبْلَ أنْ تَدخُلوها فاتِحينَ[١].

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: لو تَمَيَّزَ مَنْ آمَنَ في مكَّةَ عن كُفَّارِها وتفرَّقوا عنهم، لَعَذَّبْنا أولئك الكُفَّارَ بأيديكم -أيُّها المُؤمِنونَ- عَذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا في الدُّنيا بالقَتلِ أو غَيرِه، فلا يَلحَقُ أولئك المؤمِنينَ في مكَّةَ ضَرَرٌ أو مَكروهٌ مِن قِبَلِكم[٢].

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

أي: إذ[٣] وَضَع كُفَّارُ قُرَيشٍ في قُلوبِهم أَنَفَةَ الجاهِليَّةِ واستِكبارَها وأخلاقَها

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٩-١٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٢).

(٣) قال الشوكاني: (والظَّرفُ في قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ منصوبٌ بفعلٍ مُقدَّرٍ، أي: اذكُرْ وَقْتَ جَعْلِ الَّذينَ كفروا في قلوبِهم الحميَّةَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٤).

وقيل: العامِلُ في ﴿إِذْ﴾ قولُه تعالى: ﴿لَعَذَّبْنَا﴾، أي: لَعَذَّبْناهم إذْ جَعَلوا هذا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٦٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٦)، =

الشَّنيعةَ، فأبَوا أن يُكتَبَ في كِتابِ الصُّلحِ يومَ الحُدَيبيَةِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، وأن يُكتَبَ فيه: محمَّدٌ رَسولُ اللهِ، ومَنَعوا المؤمِنينَ القادِمينَ للعُمرةِ مِن دُخولِ مَكَّةَ[(١)].

عن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ قُرَيشًا صالَحوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيهم سُهَيلُ بنُ عَمرٍو، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِعَليٍّ: اكتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ. قال سُهَيلٌ: أمَّا باسمِ اللهِ فما نَدري ما بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ! ولكِنِ اكتُبْ ما نَعرِفُ: باسْمِك اللَّهُمَّ. فقال: اكتُبْ مِن مُحمَّدٍ رَسولِ اللهِ. قالوا: لو عَلِمْنا أنَّك رَسولُ اللهِ لَاتَّبَعْناك، ولكِنِ اكتُبِ اسْمَك واسْمَ أبيك. فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اكتُبْ: مِن مُحمَّدِ بنِ عبدِاللهِ. فاشتَرَطوا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ مَن جاءَ مِنْكم لم نَرُدَّه عليكم، ومَن جاءَكم مِنَّا رَدَدْتُموه علينا، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، أنكتُبُ هذا؟! قال: نَعَمْ؛ إنَّه مَن ذَهَب مِنَّا إليهم فأبعَدَه اللهُ! ومَن جاءنا منهم سيَجعَلُ اللهُ له فَرَجًا ومَخْرَجًا))[(٢)].

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: فلمَّا فَعَل المُشرِكونَ ما فَعَلوا مِن ذلك، أنزَلَ اللهُ الطُّمَأنينةَ والرِّضا والصَّبرَ والثَّباتَ على رَسولِه، وعلى أصحابِه المُؤمِنينَ[(٣)].

= ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٩).

وقال ابن عاشور: (ظَرْفٌ مُتعلِّقٌ بفِعلِ «صَدُّوكُمْ» [الفتح: ٢٥]، أي: صَدُّوكم صدًّا لا عُذْرَ لهم فيه، ولا داعيَ إليه إلَّا حَمِيَّةُ الجاهليَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٧، ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٣).

(٢) رواه مسلم (١٧٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾.

أي: وألزَم اللهُ رَسولَه وأصحابَه المُؤمِنينَ كَلِمةَ لا إلهَ إلَّا اللهُ، الَّتي يَتَّقونَ بها سَخَطَه وعَذابَه، فوَفَّقَهم لالتزامِها قَولًا وعَمَلًا، والقيامِ بأداءِ حُقوقِها، فلا يَنفَكُّونَ عنها أبَدًا[1].

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾.

أي: وكانوا أحقَّ بتلك الكَلِمةِ مِنَ الَّذين كَفَروا، وهم أهلُها مِن دُونِهم[2].

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى متَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِلمِ التَّامِّ بكُلِّ شَيءٍ؛ فلا يَخفَى عليه

= (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٤).

قال ابن عاشور: (وتفريعُ ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ على ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يُؤذِنُ بأنَّ المؤمنينَ وَدُّوا أنْ يُقاتِلوا المشركينَ، وأنْ يَدخُلوا مكَّةَ للعُمرةِ عَنوةً؛ غَضَبًا مِن صَدِّهم عنها، ولكنَّ اللهَ أنزَلَ عليهم السَّكينةَ... فعصَمَهم مِن مُقابَلةِ الحَميَّةِ بالغضَبِ والانتقامِ، فقابَلوا الحَمِيَّةَ بالتَّعقُّلِ والتَّثبُّتِ؛ فكان في ذلك خَيرٌ كثيرٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٥، ١٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٧).

قال ابن جُزَي: (﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ قال الجمهورُ: هي: لا إلهَ إلَّا اللهُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٩١). وعزاه الواحديُّ لجماعةِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٢٠).

وقال الرَّسْعَني: (وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٍ، وعِكْرِمةَ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، وقَتادةَ، والضَّحَّاكِ، والسُّدِّيِّ في آخَرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٧).

شَيءٌ سُبحانَه، ومِن ذلك عِلْمُه بمَن يَستَحِقُّ فَضْلَه وإنعامَه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الإشارةِ إلى بَيانِ سِرٍّ مِن أسرارِ مَنْعِ اللهِ تعالى لهم مِنَ التَّسليطِ عليهم: حَثٌّ للعَبدِ على ألَّا يَتَّهِمَ اللهَ في قَضائِه؛ فرُبَّما عَسَّر عليه أمرًا يَظهَرُ له أنَّ السَّعادةَ كانت فيه، وفي باطِنِه سُمٌّ قاتِلٌ! فيَكونُ مَنْعُ اللهِ له منه رَحمةً في الباطِنِ، وإن كان نِقمةً في الظَّاهِرِ! فالزَمِ التَّسليمَ مع الاجتِهادِ في الخَيرِ، والحِرصِ عليه، والنَّدَمِ على فَواتِه، وإيَّاك والاعتِراضَ[٢]!

٢- قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ الغَضَبُ والحَميَّةُ تحمِلُ المَرءَ على فِعلِ ما يَضُرُّه، وتَرْكِ ما يَنفَعُه، وهذا مِن الجَهلِ الَّذي هو عَمَلٌ بخِلافِ العِلمِ حتَّى يُقدِمَ المَرءُ على فِعلِ ما يَعلَمُ أنَّه يَضُرُّه، وتَرْكِ ما يَعلَمُ أنَّه يَنفَعُه؛ لِما في نَفْسِه مِن البُغضِ والمُعاداةِ لأشخاصٍ وأفعالٍ، وهو في هذه الحالِ ليس عديمَ العِلمِ والتَّصديقِ بالكُلِّيَّةِ، لكِنَّه لِما في نَفْسِه مِن بُغضٍ وحَسَدٍ غَلَب مُوجِبُ ذلك لِمُوجِبِ العِلمِ؛ فدَلَّ على ضَعفِ العِلمِ لِعَدَمِ مُوجِبه ومُقتَضاه، ولكِنَّ ذلك المُوجِبَ والنَّتيجةَ لا تُوجَدُ عنه وَحْدَه، بل عنه وعمَّا في النَّفْسِ مِن حُبِّ ما يَنفَعُها، وبُغضِ ما يَضُرُّها، فإذا حَصَل لها مَرَضٌ ففَسَدت به أحبَّت ما يَضُرُّها، وأبغَضَت ما يَنفَعُها، فتَصيرُ النَّفْسُ كالمريضِ الَّذي يَتناوَلُ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٩).

يَضُرُّه لِشَهوةِ نَفْسِه له، مع عِلْمِه أنَّه يَضُرُّه[(١)]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ مَحلَّ ذَبْحِ الهَدْيِ: الحَرَمُ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾ أنَّ الإنسانَ يَنتَفِعُ بعَمَلِ غَيرِه؛ فقد رَفَعَ اللهُ تعالى العَذابَ عن بَعضِ النَّاسِ بسَبَبِ بَعضٍ، وذلك انتِفاعٌ بعَمَلِ الغَيرِ[(٣)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى قد يَدفَعُ عن الكافِرِ مِن أجْلِ المُؤمِنِ[(٤)].

٤- قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قَولُه تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تفضيلٌ للصَّحابةِ، وإخبارٌ عن صِفتِهم الكريمةِ مِنَ العِفَّةِ عن المَعصيةِ، والعِصمةِ عن التَّعدِّي، حتَّى إنَّهم لو أصابوا مِن أولئك أحدًا لَكان من غيرِ قَصدٍ، وهذا كما وَصَفَت النَّملةُ جُندَ سُليمانَ عليه السَّلامُ في قَولِها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[(٥)] [النمل: ١٨].

٥- قال الله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في هذه الآيةِ تنبيهٌ على مُراعاةِ الكافِرِ في حُرمةِ المؤمنِ إذا لم تُمكِنْ إذايةُ الكافِرِ إلَّا

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية- المجموعة الخامسة)) (ص: ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٩).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٣٨).

بإذايةِ المؤمنِ[(١)]، وفيها دَلالةٌ على ما قاله الشَّافِعيُّ ومالِكٌ: إنَّه لا تُحرَقُ سَفينةُ الكُفَّارِ إذا كان فيها أُسارى المُسلِمينَ، وكذلك في إحراقِ الحُصونِ إذا كان فيها أُسارى المُسلِمينَ[(٢)]. وكذلك لو تَتَرَّسَ كافِرٌ بمُسلِمٍ لم يَجُزْ رَمْيُه، وإنْ فَعَل ذلك فاعِلٌ فأتلَفَ أحَدًا مِنَ المُسلِمينَ فعَليه الدِّيَةُ والكَفَّارةُ، فإنْ لم يَعلَموا فلا دِيَةَ ولا كَفَّارةَ؛ وذلك أنَّهم إذا عَلِموا فليس لهم أن يَرمُوا، فإذا فَعَلوه صاروا قَتَلةً خَطأً، والدِّيةُ على عواقِلِهم، فإن لم يَعلَموا فلَهم أن يَرمُوا، وإذا أُبيحوا الفِعلَ لم يَجُزْ أن يَبقى عليهم فيها تَبِعةٌ ومَسئوليةٌ[(٣)].

٦- قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ لَمَّا كانت حَمِيَّةُ الجاهِليَّةِ تُوجِبُ مِن الأقوالِ والأعمالِ ما يُناسِبُها، جَعَل اللهُ في قُلوبِ أوليائِه سَكينةً تُقابِلُ حَمِيَّةَ الجاهِليَّةِ، وفي ألسِنَتِهم كَلِمةَ التَّقوى مُقابَلةً لِما تُوجِبُه حَمِيَّةُ الجاهِليَّةِ من كَلِمةِ الفُجورِ؛ فكان حَظُّ المؤمِنينَ السَّكينةَ في قُلوبِهم، وكَلِمةَ التَّقوى على ألسِنَتِهم، وحَظُّ أعدائِهم حَمِيَّةَ الجاهِليَّةِ في قُلوبِهم، وكَلِمةَ الفُجورِ والعُدوانِ على ألسِنَتِهم؛ فكانت هذه السَّكينةُ وهذه الكَلِمةُ جُندًا مِن جُندِ اللهِ أيَّدَ بها اللهُ رَسولَه والمُؤمِنينَ في مُقابَلةِ جُندِ الشَّيطانِ الَّذي في قُلوبِ أوليائِه وألسِنَتِهم[(٤)].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أُضيفَت (الكَلِمةُ) إلى (التَّقوى)؛

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٥٥).

لأنَّها سَبَبُ التَّقْوى وأساسُها[١]؛ فإنَّهم يتَّقونَ بها غضَبَ الله وعذابَه[٢].

٨- لَفظُ «كلمة» حيثُ وُجِد في الكتابِ والسُّنَّةِ؛ بل وفي كلامِ العربِ -نَظْمِه ونَثْرِه- إنَّما يُرادُ به المفيدُ الَّتي تُسمِّيها النُّحاةُ: «جملةً تامَّةً»، وذلك كقولِه تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾[٣]، وهي لا إلهَ إلَّا اللهُ.

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ هذا مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ؛ فإنَّ أهلَ الحُدَيبيَةِ الَّذين أُلزِموا هذه الكَلِمةَ ماتوا كُلُّهم على الإسلامِ[٤].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ فيه سُؤالٌ: ما فائِدةُ قَولِه: ﴿وَأَهْلَهَا﴾ بعدَ قَولِه: ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾؟

الجوابُ: الضَّميرُ في ﴿بِهَا﴾ لِكَلِمةِ التوحيد، وفي (أَهْلَهَا) للتَّقْوى؛ فلا تَكرارَ[٥].

١١- إنْ قيل: ما مِن أحدٍ إلَّا وهو حَقيقٌ بقَولِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فما معنَى قَولِه تعالى: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾؟

الجوابُ: هو إشعارٌ بأنَّ اللهَ تعالى اصْطَفاهم لدِينِه، وأخلَصَهم لمعرفتِه، وأهَّلَهم لتَوحيدِه؛ فكانوا أحَقَّ بها لِمَوضِعِ اصْطِفاءِ اللهِ تعالى إيَّاهم، حيث جعَلَهم مِن أهلِ السَّعادةِ[٦].

١٢- قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣١٦).
(٣) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٨٤).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣١، ٣٣٢).
(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣١٦).

ﱡﭐ ﴿ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في الآيةِ لَطائفُ مَعنويَّةٌ؛ وهو أنَّه تعالَى أبانَ غايةَ البَونِ بيْنَ الكافرِ والمؤمنِ، بايَنَ بيْنَ الفاعِلَينِ؛ إذ فاعلُ ﴿جَعَلَ﴾ هو الكُفَّارُ، وفاعلُ (أَنْزَلَ) هو اللهُ تعالى، وبيْنَ المفعولَينِ؛ إذ تلك حَمِيَّةٌ، وهذه سَكينةٌ، وبيْنَ الإضافتَينِ؛ أضافَ الحَمِيَّةَ إلى الجاهليَّةِ، وأضافَ السَّكينةَ إلى اللهِ تعالَى، وبيْنَ الفِعلِ (جعَلَ وأنزَلَ)؛ فالحَمِيَّةُ مَجعولةٌ في الحالِ في العرَضِ الَّذي لا يَبْقَى، والسَّكينةُ كالمحفوظةِ في خِزانةِ الرَّحمةِ فأنزَلَها. والحميَّةُ قبيحةٌ مذمومةٌ في نفسِها، وازدادَتْ قُبحًا بالإضافةِ إلى الجاهليَّةِ، والسَّكينةُ حسنةٌ في نفسِها، وازدادَتْ حُسنًا بإضافتِها إلى اللهِ تعالى. والعَطفُ في ﴿فَأَنزَلَ﴾ بالفاءِ لا بالواوِ يدُلُّ على المُقابَلةِ، تقولُ: أكرَمَني زَيدٌ فأكرَمْتُه، فدلَّتْ على المُجازاةِ للمُقابَلةِ، وكذلك ﴿جَعَلَ﴾ ﴿فَأَنزَلَ﴾. ولَمَّا كان الرَّسولُ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو الَّذي أجابَ أوَّلًا إلى الصُّلحِ، وكان المؤمِنونَ عازِمينَ على القِتالِ وألَّا يَرجِعوا إلى أهلِهم إلَّا بعْدَ فتْحِ مكَّةَ أو النَّحْرِ في المَنحَرِ، وأبَوْا إلَّا أنْ يَكتُبوا: محمَّدٌ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وباسمِ اللهِ؛ قال تعالَى: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾. ولَمَّا سكَنَ هو صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للصُّلْحِ سكَنَ المؤمِنونَ، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. ولَمَّا كان المؤمِنونَ عندَ اللهِ تعالى أُلْزِموا تلك الكلِمةَ قال تعالَى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾(١) [الحجرات: ١٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٥٠).

- قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠]، وهذا كفٌّ غيرُ الكَفِّ المُرادِ مِن قَولِه: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾.

وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخَبَرِ الفِعليِّ لإفادةِ التَّخصيص، أي: القَصرِ، أي: لم يَكُفَّهم عنكم، ولا كَفَّكم عنهم إلَّا اللهُ تعالى، لا أنتُم ولا همْ[١].

- وضَمائرُ الغَيبةِ في قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ راجِعةٌ لِلَّذينَ كَفَروا في قَولِه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الفتح: ٢٢]، ووَجْهُ عَودِه إليه مع أنَّ الَّذين كفَّ اللهُ أيديَهم فريقٌ غيرُ الفريقِ الَّذي في قَولِه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ هو أنَّ عُرْفَ كَلامِ العرَبِ جارٍ على أنَّ ما يَصدُرُ مِن بَعضِ القومِ يُنسَبُ إلى القومِ بدونِ تَمْييزٍ[٢].

- وقيل: ﴿أَظْفَرَكُمْ﴾ مُظهِرًا لكم عليهم؛ فتعديةُ الفعلِ بـ (على) لِتضَمُّنه ما يتعدَّى به، وهو الإظهارُ والاعلاءُ، أي: جعلَكم ذَوي غلَبةٍ تامَّةٍ. وقيل: عُدِّي بـ (على)؛ لِتَضْمينه معنَى أيَّدَكم[٣]. وقيل: فِعلُ (ظَفِرَ) يَتعَدى بالباءِ، كما يَتعدَّى بـ (على)، يقال: ظَفِرْتُ بفُلانٍ، وظَفِرْتُ عليه[٤].

- وقولُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ تَذييلٌ لِما قبْلَه[٥].

- قَولُه: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ قُرِئَ بتاءِ الخِطابِ، وقُرِئَ بياءِ الغَيبةِ[٦]، أي: عليمًا بما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٣، ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٦). ويُنظر أيضًا: ((أمالي ابن الشجري)) (١/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٥). ويُنظر أيضًا: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٧٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٦).

(٦) يُنظر ما تقدَّم في القِراءات ذات الأثَرِ في التَّفسيرِ (ص: ١٣٣).

يَعمَلونَ مِن انحدارِهم على غِرَّةٍ منكم، طامِعينَ أنْ يَتمكَّنوا مِن أنْ يَغلِبوكم، وفي كِلْتا القِراءتَينِ اكتِفاءٌ[(١)]، أي: كان اللهُ بما تَعمَلون ويَعمَلون بصيرًا، أو بما يَعمَلون وتَعمَلون بَصيرًا؛ لأنَّ قولَه: ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ يُفيدُ عمَلًا لِكُلِّ فريقٍ، أي: عَلِمَ نيَّاتِكم، فكَفَّها لِحكمةِ استِبقاءِ قُوَّتِكم، وحُسْنِ سُمعَتِكم بيْنَ قَبائلِ العَربِ، وألَّا يجِدَ المشركون ذَريعةً إلى التَّظلُّمِ منكم بالباطِلِ[(٢)].

- قَولُه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ على قِراءةِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالياءِ؛ ففيه تَهديدٌ للكُفَّارِ[(٣)].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

- قَولُه: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ استِئنافٌ انتقلَ به مِن مَقامِ الثَّناءِ على المؤمنينَ الَّذين بايَعوا

(١) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٥).

رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما اكتَسَبوا بتلك البَيعةِ مِن رِضا اللهِ تعالَى، وجَزائِه ثَوابَ الآخِرةِ، وخَيرَ الدُّنيا عاجِلَه وآجِلَه، وضَمانِ النَّصْرِ لهم في قِتالِ المشركين، وما هيَّأ لهم مِن أسبابِ النَّصْرِ؛ إلى تَعييرِ المشركين بهذه المَذمَّةِ الَّتي أتَوْا بها بالصَّدِّ عن المسجدِ الحرامِ، وصَدِّ الهَدْيِ عن أنْ يُبلَغَ به إلى أهلِه؛ فإنَّها سُبَّةٌ لهم بيْنَ العرَبِ، وهم أَوْلى النَّاسِ بالحَفاوةِ بمَن يَعتَمِرونَ، وضميرُ الغَيبةِ ﴿هُمُ﴾ المُفتتَحُ به عائدٌ إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِن قوله: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ [الفتح: ٢٢] الآيةَ. والمقصودُ بالافتتاحِ بضَميرِهم هنا: استِرعاءُ السَّمْعِ لِمَا يَرِدُ بعدَه مِن الخَبرِ[1].

- وذِكرُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إدماجٌ[2] للنِّداءِ عليهم بوصْفِ الكُفرِ، ولهذا الإدماجِ نُكتةٌ أيضًا، وهي أنَّ وصْفَ الَّذين كفَروا بمَنْزلةِ الجِنسِ فصارَ الموصولُ في قُوَّةِ المُعرَّفِ بلامِ الجِنسِ؛ فتُفيدُ جُملةُ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قصْرَ جِنسِ الكُفرِ على هذا الضَّميرِ؛ لِقَصْدِ المُبالَغةِ؛ لكَمالِهم في الكُفرِ بصَدِّهم المُعتمِرينَ عن المَسجدِ الحرامِ، وصَدِّ الهَديِ عن أنْ يَبلُغَ مَحِلَّه[3].

- وفائدةُ ذِكرِ هذا الحالِ ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ التَّشنيعُ على الَّذين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٧).

(٢) الإدماجُ: أن يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضَينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمَعنًى -من مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجَتِ المُبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه تعالى بالحمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ تعالى بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٧).

كفَروا في صَدِّهم المُسلِمينَ عن البَيتِ بأنَّهم صَدُّوا الهَدايا أنْ تَبلُغَ مَحِلَّها؛ إذ اضْطُرَّ المسلمونَ أنْ يَنحَروا هَداياهم في الحُدَيْبيَةِ؛ فقد عطَّلوا بفِعلِهم ذلك شَعيرةً مِن شَعائرِ اللهِ؛ ففي ذِكرِ الحالِ تَصويرٌ لهيئةِ الهَدايا وهي مَحبوسةٌ(١).

- قولُه: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أتْبَعَ النَّعيَ على المشركينَ سُوءَ فِعلِهم مِن الكُفْرِ، والصَّدِّ عن المَسجدِ الحرامِ، وتَعطيلِ شعائرِ اللهِ؛ وَعْدَه المسلمينَ بفتْحٍ قريبٍ ومَغانِمَ كثيرةٍ، بما يَدفَعُ غُرورَ المشركين بقوَّتِهم، ويُسَكِّنُ تَطلُّعَ المسلِمينَ لتَعْجيلِ الفتْحِ؛ فبيَّنَ أنَّ اللهَ كفَّ أيديَ المسلِمينَ عن المشركين معَ ما قرَّره آنِفًا مِن قولِه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٢] أنَّه إنَّما لم يأمُرِ المسلمينَ بقِتالِ عَدوِّهم لَمَّا صَدُّوهم عن البيتِ؛ لأنَّه أرادَ رحمةَ جَمْعٍ مِن المؤمنينَ والمؤمناتِ كانوا في خِلالِ أهلِ الشِّركِ لا يَعلَمونَهم، وعِصَمَ المسلِمينَ مِن الوُقوعِ في مَصائبَ مِن جرَّاءِ إتلافِ إخوانِهم؛ فالجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾، أو على جُملةِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ [الفتح: ٢٤]، وأيًّا ما كان فهي كَلامٌ مُعترِضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إلخ، وبيْنَ جُملةِ ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ [الفتح: ٢٦]، ونَظْمُ هذه الآيةِ بَديعٌ في أُسلوبَيِ الإطنابِ والإيجازِ، والتَّفنُّنِ في الانتقالِ ورَشاقةِ كَلِماتِه(٢).

- وإجْراءُ الوصْفِ على رِجالٍ ونِساءٍ بالإيمانِ في قولِه: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٨٨، ١٨٩).

﴿وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ﴾ مُشيرٌ إلى أنَّ وُجودَهم المانعَ مِن حُصولِ مَضمونِ الجَوابِ، هو الوجودُ الموصوفُ بإيمانِ أصحابِه، ولكنَّ الامتِناعَ ليس مُعلَّقًا على وُجودِ الإيمانِ، بل على وُجودِ ذَواتِ المؤمنينَ والمؤمناتِ بيْنَهم[١].

- ووَجْهُ عَطْفِ ﴿وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ﴾ -مع أنَّ وُجودَ ﴿رِجَالٌ مُّؤۡمِنُونَ﴾ كافٍ في ربْطِ امتِناعِ الجوابِ بالشَّرطِ، ومع التَّمكُّنِ مِن أنْ يقولَ: ولولا المؤمِنونَ؛ فإنَّ جَمْعَ المذكَّرِ في اصطلاحِ القرآنِ يَتناولُ النِّساءَ غالبًا- أنَّ تَخصيصَ النِّساءِ بالذِّكرِ أنسَبُ بمعنَى انتفاءِ المَعرَّةِ بقَتْلِهنَّ، وبمعنى تَعلُّقِ رَحمةِ اللهِ بهنَّ[٢]. ولأنَّ الموضِعَ مَوضِعُ وَهْمِ اختِصاصِ الرِّجالِ بالحُكمِ، فقال: والنِّساءُ المُؤمِناتُ أيضًا؛ لأنَّ تَخريبَ بُيُوتِهنَّ، ويُتْمَ أولادِهنَّ بسَبَبِ رِجالِهنَّ: وَطأةٌ شَديدةٌ، ولأنَّ في مَحَلِّ الشَّفَقةِ تُعَدُّ المواضِعُ لِتَرقيقِ القَلبِ، يُقالُ لِمَن يُعَذِّبُ شَخصًا: لا تُعذِّبْه وارحَمْ ذُلَّه وفَقْرَه وضَعْفَه، وأولادَه وصِغارَه وأهلَه الضُّعَفاءَ العاجِزينَ! فكذلك هاهنا قال: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٌ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ﴾؛ لِتَرقيقِ قُلوبِ المُؤمِناتِ، ورِضاهم بما جَرى مِنَ الكَفِّ بعدَ الظَّفَرِ[٣].

- والباءُ في ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ للمُلابَسةِ، أي: مُلابِسينَ لانتِفاءِ العِلمِ[٤].

- قَولُه: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ﴿لِّيُدۡخِلَ﴾ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ دلَّ عليه المعنى، أي: كان انتِفاءُ التَّسليطِ على أهلِ مكَّةَ، وانتفاءُ العذابِ ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وهذا المَحذوفُ هو مَفهومٌ مِن جَوابِ (لو)[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٣، ٨٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٧).

- وقولُه: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ تَعليلٌ للكَفِّ عن قِتالِ المؤمنينَ غَيرِ المعروفينَ المُقيمين وسَطَ الكفَّارِ[(١)].

- و﴿مَن يَشَآءُ﴾ يعُمُّ كلَّ مَن أرادَ اللهُ مِن هذه الحالةِ رَحمتَه في الدُّنيا والآخِرةِ، أو فيهما معًا، وعبَّرَ بقولِه: ﴿مَن يَشَآءُ﴾؛ لِمَا فيه مِن شُمولِ أصنافٍ كثيرةٍ، ولِمَا فيه مِن الإيجازِ، ولِمَا فيه مِن الإشارةِ إلى الحِكمةِ الَّتي اقتَضَتْ مَشيئةُ اللهِ رحمةَ أولئك[(٢)].

- قَولُه: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ﴾ إلى آخِرِها، أي: لولا وُجودُ رجالٍ مؤمنينَ... إلخ، مُندمِجينَ في جَماعةِ المشركينَ غيرِ مُفترِقينَ؛ لو افترَقوا لَعذَّبْنا الكافرينَ منهم[(٣)].

- والتَّزيُّلُ: مُطاوِعُ زيَّلَه؛ إذا أبعَدَه عن مكانٍ، وزيَّلَهم، أي: أبْعَدَ بَعضَهم عن بعضٍ، أي: فرَّقَهم، وهو هنا بمَعنى التَّفرُّقِ والتَّميُّزِ مِن غَيرِ مُراعاةِ مُطاوَعةٍ لفِعلِ فاعلٍ؛ لأنَّ أفعالَ المُطاوَعةِ كثيرًا ما تُطلَقُ لإرادةِ المُبالَغةِ؛ لدَلالةِ زيادةِ المَبْنى على زِيادةِ المَعنى، والمعنى: لو تفرَّقَ المؤمنونَ والمؤمناتُ عن أهلِ الشِّرْكِ لَسَلَّطْنا المسلمينَ على المُشركين فعذَّبوا الَّذين كفَروا عَذابَ السَّيفِ؛ فإسنادُ التَّعذيبِ إلى اللهِ تعالى لأنَّه يَأمُرُ به، ويُقدِّرُ النَّصرَ للمُسلِمينَ[(٤)].

- وعُدِلَ عن ضَميرِ الغَيبةِ إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ في قَولِه: ﴿لَعَذَّبۡنَا﴾ على طَريقةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الالتِفاتِ[١].

- و(مِن) في قَولِه: ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ للتَّبعيضِ، أي: لَعذَّبْنا الَّذين كَفَروا مِن ذلك الجَمْعِ المُتفرِّقِ المتميِّزِ مُؤمِنُهم عن كافرِهم، أي: حين يَصيرُ الجمْعُ مُشركين خُلَّصًا وحْدَهم[٢].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾

- قَولُه: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ...﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بفِعلِ (صَدُّوكُمْ) [الفتح: ٢٥] -وذلك على قولٍ-؛ فكان تَعليقُ هذا الظَّرْفِ بفِعلِ ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ مُشعِرًا بتَعليلِ الصَّدِّ، بكَونِه حَمِيَّةَ الجاهليَّةِ؛ ليُفيدَ أنَّ الحَمِيَّةَ مُتمكِّنةٌ منهم، تَظهَرُ منها آثارُها، فمنها الصَّدُّ عن المسجِدِ الحرامِ[٣].

- وجُملةُ ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ عطْفُ بيانٍ للحَمِيَّةِ، قُصِدَ مِن إجمالِه ثمَّ تَفصيلِه تَقريرُ مَدْلولِه وتأْكيدُه ما يَحصُلُ لو قال: إذ جعَلَ الَّذين كَفَروا في قُلوبِهم حَميَّةَ الجاهليَّةِ[٤].

- وإضافةُ الحَمِيَّةِ إلى الجاهليَّةِ؛ لقَصْدِ تَحقيرِها وتَشنيعِها؛ فإنَّها مِن خُلُقِ أهلِ الجاهليَّةِ؛ فإنَّ ذلك انتِسابُ ذمٍّ في اصطلاحِ القُرآنِ[٥]، والحَمِيَّةُ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٩٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٩٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نفْسِها صِفةٌ مَذمومةٌ، وبالإضافةِ إلى الجاهليَّةِ تَزدادُ قُبحًا[١].

- وإضافةُ السَّكينةِ إلى ضَميرِ اللهِ تعالَى إضافةُ تَشريفٍ؛ لأنَّ السَّكينةَ مِن الأخلاقِ الفاضلةِ[٢]، فهي في نفْسِها وإنْ كانت حسَنةً، لكنَّ الإضافةَ إلى اللهِ فيها مِنَ الحُسنِ ما لا يَبقى معه لِحُسْنٍ اعتِبارٌ[٣].

- والآيةُ مِنَ الاحتِباكِ[٤]: ذكَرَ حَمِيَّةَ الجاهليَّةِ أوَّلًا دليلًا على ضِدِّها ثانيًا، وكَلِمةَ التَّقْوى ثانيًا دليلًا على ضِدِّها أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه ذكَرَ مَجْمَعَ الشَّرِّ أوَّلًا؛ تَرهيبًا منه، ومَجمَعَ الخَيرِ ثانيًا؛ تَرغيبًا فيه[٥].

- قَولُه: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ جِيءَ بفِعلِ (كانوا)؛ لدَلالتِها على أنَّ هذه الأحقِّيَّةَ راسخةٌ فيهم، حاصِلةٌ في الزَّمنِ الماضي، أي: في قَدَرِ اللهِ تعالَى، والمعنى: أنَّ نُفوسَ المؤمنينَ كانتْ مُتهيِّئةً لِقَبولِ كَلمةِ التَّقوى والتزامِها بما أرشَدَها اللهُ إليه. والمُفضَّلُ عليه مُقدَّرٌ دلَّ عليه ما تقدَّمَ، أي: أحَقَّ بها مِن الَّذين كفَروا؛ لأنَّ اللهَ قدَّرَ لهم الاستِعدادَ للإيمانِ دونَ الَّذين أصَرُّوا على الكُفرِ[٦].

- وقولُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ تَذْييلٌ، وسَبَق في عِلْمِ اللهِ ذلك في عُمومِ ما أحاطَ به عِلْمُ اللهِ مِن الأشياءِ مَجرَى تَكوينِه على نَحوِ عِلْمِه[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٤).

(٤) تقدَّم تعريفه (ص: ٦٥).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٧).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٢٧-٢٨)

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلرُّءْيَا﴾: ما يُرى في المنامِ، وأصلُ (رأى): يدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُؤكِّدًا صِدقَ ما شاهَده النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في رُؤياه: لَقد صَدَقَ اللهُ رَسولَه مُحمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- الرُّؤيا الَّتي رآها في مَنامِه؛ أنَّه يَدخُلُ هو وأصحابُه المَسجِدَ الحَرامَ آمِنينَ، فلَتَدخُلَنَّ -يا مُحمَّدُ- وأصحابُك المَسجِدَ الحَرامَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنينَ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ، مُحَلِّقينَ رُؤوسَكم ومُقَصِّرينَ، لا تَخافونَ.

فعَلِمَ اللهُ ما لم تَعلَموه مِنَ المصالحِ والمَنافِعِ في مَنْعِكم مِن دُخولِ مَكَّةَ عامَ الحُدَيبيَةِ، وتأخيرِ دُخولِكم إلى العامِ الَّذي يَليه، فجعَلَ اللهُ لكم فَتحًا قَريبًا، وهو صُلحُ الحُدَيبيَةِ.

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا الحِكمةَ مِن إرسالِه نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم: واللهُ هو الَّذي بَعَث رَسولَه مُحمَّدًا بالعِلمِ النَّافِعِ، وبَعَثه بدينِ الإسلامِ الحَقِّ؛ لِيُعلِيَ اللهُ الإسلامَ على جَميعِ الأديانِ الأُخرى، وكَفَى باللهِ شَهيدًا.

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٥).

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قَرَّر اللهُ سُبحانَه وتعالى عِلْمَه بالعواقِبِ؛ لإحاطةِ عِلْمِه، ووَجَّهَ أسبابَ كَفِّه أيديَ الفَريقَينِ، وبَيَّنَ ما فيه مِنَ المصالِحِ، وما في التَّسليطِ مِن المفاسِدِ؛ مِن قَتلِ مَن حَكَم بإيمانِه مِن المُشرِكينَ، وإصابةِ مَن لا يُعلَمُ من المُؤمِنينَ، وغيرِ ذلك، إلى أنْ خَتَم بإحاطةِ عِلْمِه المُستَلزِمِ لِشُمولِ قُدرتِه- أنتَجَ ذلك قَولَه لِمَن توقَّعَ الإخبارَ عن الرُّؤيا الَّتي أقلَقَهم أمْرُها، وكاد بَعضُهم أن يُزلزِلَه ذِكْرُها، على سَبيلِ التَّأكيدِ[١]:

﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: لقد حقَّق اللهُ رُؤيا رَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الَّتي رآها في مَنامِه؛ أنَّه يَدخُلُ هو وأصحابُه المَسجِدَ الحَرامَ آمِنينَ[٢].

عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمةَ، ومَرْوانِ بنِ الحَكَمِ في قِصَّةِ صُلحِ الحُدَيبِيَةِ، قالا:

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٢، ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال ابن عاشور: (معنى ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا﴾: أنَّه أراهُ رُؤيا صادقةً؛ لأنَّ رُؤيا الأنبياءِ وحْيٌ، فآلَت إلى مَعنى الخبَرِ؛ فوُصِفَت بالصِّدقِ لذلك، وهذا تَطمينٌ لهم بأنَّ ذلك سيَكونُ لا مَحالةَ، وهو في حينِ نُزولِ الآيةِ لَمَّا يَحصُلْ؛ بقَرينةِ قولِه: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٩، ١٤٠).

((... قال عُمَرُ بنُ الخطَّابِ: فأتَيتُ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقُلتُ: ألَسْتَ نبيَّ اللهِ حَقًّا؟ قال: بلى. قلتُ: ألَسْنا على الحَقِّ، وعَدُوُّنا على الباطِلِ؟ قال: بلى. قلتُ: فلِمَ نُعطي الدَّنيَّةَ في دِينِنا إذًا؟! قال: إنِّي رَسولُ اللهِ، ولَستُ أعصِيه، وهو ناصِري. قلتُ: أوَلَيس كنتَ تُحَدِّثُنا أنَّا سنَأتي البَيتَ فنَطُوفُ به؟! قال: بلى. فأخبَرْتُك أنَّا نأتيه العامَ؟ قال: قُلتُ: لا. قال: فإنَّك آتِيه ومُطَّوِّفٌ به. قال: فأتَيتُ أبا بَكرٍ، فقُلتُ: يا أبا بَكرٍ، أليسَ هذا نَبيَّ اللهِ حَقًّا؟ قال: بلى. قُلتُ: ألَسْنا على الحَقِّ وعَدُوُّنا على الباطِلِ؟ قال: بلى. قُلتُ: فلِمَ نُعطي الدَّنِيَّةَ في دينِنا إذًا؟! قال: أيُّها الرَّجُلُ، إنَّه لَرَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وليس يَعصي رَبَّه، وهو ناصِرُه. فاستَمْسِكْ بغَرْزِه[1]؛ فواللهِ إنَّه على الحَقِّ. قلتُ: أليس كان يُحَدِّثُنا أنَّا سنأتي البَيتَ ونَطُوفُ به؟! قال: بلى. أفأخبَرَك أنَّك تأتيه العامَ؟! قُلتُ: لا. قال: فإنَّك آتِيه ومُطَّوِّفٌ به))[2].

﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

أي: أُقسِمُ لَتَدخُلُنَّ[3] المَسجِدَ الحَرامَ إنْ شاءَ اللهُ وأنتم آمِنونَ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ[4].

---

(١) المعنى: تمسَّكْ بأمْرِه ولا تُخالِفْه، كما يتمسَّكُ المرءُ بالغَرْزِ أي: بِركابِ الرَّاكِبِ (وهو ما يضعُ فيه قدمَه)، فلا يُفارِقُه، بلْ يَسيرُ بسَيرِه. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ٥٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٥٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٣٤٦)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطلَّاني (٤/ ٤٥٠).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٣) قال الرازي: (وقولُه: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾، جازَ أنْ يَكونَ تفسيرًا لِلرُّؤيا، يعني الرُّؤيا هي: واللهِ لَتَدْخُلُنَّ، وعلى هذا تَبيَّنَ أنَّ قولَه: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ كان في الكلامِ؛ لأنَّ الرُّؤْيا كانت كلامًا. ويحتملُ أنْ يكونَ تَحْقيقًا لقولِه تعالَى: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ﴾ يعني: واللَّهِ لَيَقَعَنَّ الدُّخولُ، ولَيَظهرَنَّ الصِّدقُ؛ فـ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ ابتداءُ كلامٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥). =

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خرَجَ مُعتَمِرًا، فحالَ كُفَّارُ قُرَيشٍ بَيْنَه وبيْنَ البيتِ، فنَحَر هَدْيَه، وحَلَقَ رَأسَه بالحُدَيبيَةِ، وقاضاهم[1] على أن يَعتَمِرَ العامَ المُقبِلَ، ولا يَحمِلَ سِلاحًا عليهم إلَّا سُيوفًا، ولا يُقيمَ بها إلَّا ما أحَبُّوا، فاعتَمَر مِنَ العامِ المُقبِلِ، فدخَلَها كما كان صالَحهم، فلمَّا أقام بها ثلاثًا أمَرُوه أن يَخرُجَ، فخَرَج))[2].

﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾.

أي: وبَعضُكم سيَحلِقُ شَعرَ رأسِه، وبَعضُكم سيُقَصِّرُه[3].

= قال السمعاني: (هذا التَّحقيقُ [أي: للرؤيا] حَصَل في العامِ الثَّاني حينَ اعتَمَروا عُمرةَ القَضاءِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٠٧).

وقال ابن كثير: (﴿... لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ هذا لِتَحقيقِ الخبَرِ وتَوكيدِه، وليس هذا مِنَ الاستِثناءِ في شَيءٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦).

وقال ابن تيميَّة: (قولُه: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ لا يُتَصَوَّرُ فيه شَكٌّ مِن اللهِ؛ بل ولا مِن رَسولِه المخاطَبِ والمؤمنينَ... فقولُه سبحانَه: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ تحقيقُ أنَّ ما وَعَدْتُكم به يكونُ لا مَحالةَ بمَشيئَتي وإرادَتي؛ فإنَّ ما شِئْتُ كانَ، وما لم أشأْ لم يَكُنْ؛ فكانَ الاستثناءُ هنا لِقَصدِ التَّحقيقِ؛ لِكَونِهم لم يَحْصُلْ لهم مَطْلوبُهم الَّذي وُعِدوا به ذلك العامَ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٤٥٤، ٤٥٧).

وفي قولِه تعالى: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ أقوالٌ أخرى، سيأتي ذِكرُها في الفوائدِ العلميَّةِ واللَّطائفِ (ص: ١٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٧).

(١) قاضاهم: أي: صالَحهم. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلَّاني (٦/ ٣٨١).

(٢) رواه البخاري (٢٧٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال القرطبي: (التَّحليقُ والتَّقصيرُ جَميعًا للرِّجالِ؛ ولذلك غَلَّب المذكَّرَ على المُؤَنَّثِ، والحَلقُ أفضَلُ، وليس للنِّساءِ إلَّا التَّقصيرُ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩١).

وقال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حالٌ مُقَدَّرةٌ؛ لأنَّهم في حالِ دُخولِهم لم =

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((حَلَق رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحَلَق طائِفةٌ من أصحابِه، وقصَّرَ بَعْضُهم. قال عبدُ اللهِ: إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: رَحِمَ اللهُ المحَلِّقينَ -مرَّةً أو مرَّتَينِ- ثمَّ قال: والمُقَصِّرينَ))[1].

﴿لَا تَخَافُونَ﴾.

أي: ولا يَحصُلُ لكم خَوفٌ[2].

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾.

أي: فعَلِمَ اللهُ ما لم تَعلَموه أنتم -أيُّها المُؤمِنونَ- مِنَ المصالحِ والمَنافِعِ في مَنْعِكم مِن دُخولِ مَكَّةَ عامَ الحُدَيبيَةِ، وتأخيرِ دُخولِكم إلى العامِ الَّذي يَليه[3].

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

أي: فقدَّر اللهُ لكم قبْلَ دُخولِكم المَسجِدَ الحَرامَ في العامِ التَّالي فَتحًا قَريبًا،

= يَكونوا مُحَلِّقينَ ومُقَصِّرينَ، وإنَّما كان هذا في ثاني الحالِ، كان مِنهم مَن حَلَق رأسَه، ومِنهم مَن قَصَّرَه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦).

(١) رواه البخاريُّ (١٧٢٧)، ومسلمٌ (١٣٠١) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال ابنُ كثير: (قولُه: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾: حالٌ مُؤَكِّدةٌ في المعنى، فأثبَتَ لهم الأمْنَ حالَ الدُّخولِ، ونفَى عنهم الخَوفَ حالَ استِقرارِهم في البَلَدِ؛ لا يَخافونَ مِن أحَدٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال ابن عطية: (قولُه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ يُريدُ ما قدَّره مِن ظُهورِ الإسلامِ في تلك المُدَّة، ودُخولِ النَّاسِ فيه، وما كان أيضًا بمكَّةَ مِن المؤمِنينَ؛ دَفَعَ اللهُ بهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠).

وهو صُلحُ الحُدَيبيَةِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٠، ٢٠١).

قال القرطبي: (﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: مِن دُونِ رُؤيا النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَتحَ خَيبَرَ. قاله ابنُ زَيدٍ، والضَّحَّاكُ. وقيل: فَتحُ مَكَّةَ. وقال مجاهِدٌ: هو صُلحُ الحُدَيبيَةِ. وقاله أكثَرُ المفَسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩١).

وممَّن قال بأنَّه فَتحُ خَيبَرَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، ومكِّي، والسمعاني، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٥٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٧٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٣).

وممَّن قال بأنَّه صُلحُ الحُدَيبيَةِ: الواحديُّ، وابنُ جُزَي، وابن القيِّم، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٩٢)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٣٩٠) و (٩/ ١٣٧).

ونسَبَه البغويُّ، والخازنُ، والشوكانيُّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٥).

وقيل: المرادُ: فتحُ خَيبَرَ، وصُلحُ الحُدَيبيَةِ. ومِمَّن ذهب إلى الجَمعِ بيْنَهما: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٥).

وذهبَ ابنُ عَطيَّةَ إلى العُموم، فقال: (يَحسُنُ أن يكونَ الفَتحُ هنا اسمَ جِنسٍ يَعُمُّ كُلَّ ما وَقَع مِمَّا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيه ظهورٌ وفَتحٌ عليه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠).

وقال ابنُ عاشور: (هذا الفَتحُ أوَّلُه هو فَتحُ خَيبَرَ الَّذي وَقَع قبْلَ عُمرةِ القَضيَّةِ، وهذا القَريبُ مِن وَقتِ الصُّلح). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠١).

وقال ابن القيِّم: (﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو صُلحُ الحُدَيبيَةِ، وهو أوَّلُ الفَتحِ المذكورِ في قَولِه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]؛ فإنَّ بسَبَبِه حَصَل مِن مَصالحِ الدِّينِ =

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ فيها تأكيدًا لِصِدقِ رُؤْيا النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَبشيرًا بفَتحِ مكَّةَ(١).

وأيضًا لَمَّا كانت هذه الواقعةُ -أي: رُجوعُهم يومَ الحُدَيْبِيَةِ مِن غيرِ دُخولٍ لِمَكَّةَ- ممَّا تَشَوَّشَتْ بها قلوبُ بعضِ المؤمِنينَ، وخَفِيَتْ عليهم حِكمتُها، فبيَّن اللهُ تعالى حِكمتَها ومَنفعتَها، وهكذا سائرُ أحكامِه الشَّرعيَّةِ؛ فإنَّها كلَّها هُدًى ورحمةٌ- أَخبَرَ بحُكمٍ عامٍّ، فقال(٢):

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي بَعَث رَسولَه مُحمَّدًا بالعِلمِ النَّافِعِ المُشتَمِلِ على بَيانِ الحَقِّ، وبعَثَه بدِينِ الإسلامِ المُشتَمِلِ على الأعمالِ الصَّالحةِ، وشرائِعِ الدِّينِ الكامِلةِ(٣).

= والدُّنيا، والنَّصرِ، وظُهورِ الإسلامِ وبُطلانِ الكُفرِ- ما لم يَكونوا يَرجُونَه قبْلَ ذلك، ودخَلَ النَّاسُ بَعضُهم في بَعضٍ، وتكَلَّم المسلمونَ بكَلِمةِ الإسلامِ وبراهينِه وأدِلَّتِه جَهرةً لا يخافون، ودخَلَ في ذلك الوَقتِ في الإسلامِ قَريبٌ مِمَّن دخل فيه إلى ذلك الوَقتِ، وظهر لكُلِّ أحدٍ بَغيُ المُشرِكينَ وعَداوتُهم وعِنادُهم، وعَلِمَ الخاصُّ والعامُّ أنَّ مُحمَّدًا وأصحابَه أَولى بالحَقِّ والهدى، وأنَّ أعداءَهم ليس بأيديهم إلَّا العُدوانُ والعِنادُ؛ فإنَّ البَيتَ الحرامَ لم يُصَدَّ عنه حاجٌّ ولا مُعتَمِرٌ مِن زَمَنِ إبراهيمَ؛ فتحَقَّقَت العرَبُ عِنادَ قُرَيشٍ وعَداوتَهم، وكان ذلك داعِيةً لِبَشَرٍ كَثيرٍ إلى الإسلامِ، وزاد عِنادُ القَومِ وطُغيانُهم، وذلك مِن أكبرِ العَونِ على نُفوسِهم، وزاد صَبرُ المُؤمِنين واحتِمالُهم والتزامُهم لحُكمِ اللهِ وطاعةِ رَسولِه، وذلك مِن أعظَمِ أسبابِ نَصْرِهم، إلى غيرِ ذلك مِن الأُمورِ الَّتي عَلِمَها اللهُ ولم يَعْلَمْها الصَّحابةُ. ((شفاء العليل)) (ص: ٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٣٤)، ((الجواب =

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

أي: أرسَلَ اللهُ رَسولَه بالهُدى ودِينِ الحَقِّ؛ لِيُعلِيَ اللهُ الإسلامَ على جَميعِ الأديانِ الأُخرى(١).

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يَذهَبُ اللَّيلُ والنَّهارُ حتَّى تُعبَدَ اللَّاتُ والعُزَّى! فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنْ كُنتُ لَأظُنُّ حينَ أنزَلَ اللهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ

= الصحيح)) لابن تيمية (١/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩١)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٢٣٩) و(٦/ ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٢).

قال ابنُ عطيَّة: (إعلامٌ بأنَّه يُظهِرُه على جميعِ الأديانِ، ورأى بَعضُ النَّاسِ لَفظةَ: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ تَقتَضي مَحْوَ غَيرِه به؛ فلذلك قالوا: إنَّ هذا الخبَرَ يَظهَرُ للوُجودِ عندَ نُزولِ عيسى ابنِ مَريمَ عليه السَّلامُ؛ فإنَّه لا يَبقى في وَقتِه غيرُ دينِ الإسلامِ، وهو قَولُ الطَّبَريِّ والثَّعلبيِّ. ورأى قَومٌ أنَّ الإظهارَ هو الإعلاءُ وإنْ بَقِيَ مِن الدِّينِ الآخَرِ أجزاءٌ، وهذا موجودٌ الآنَ في دينِ الإسلامِ؛ فإنَّه قد عمَّ أكثَرَ الأرضِ، وظهَرَ على كُلِّ دينٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٠).

وقال ابن جرير: (هذا إعلامٌ مِنَ اللهِ تعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والَّذين كَرِهوا الصُّلحَ يومَ الحُدَيبيَةِ مِن أصحابِه: أنَّ اللهَ فاتِحٌ عليهم مكَّةَ وغَيرَها مِن البُلدانِ، مُسَلِّيهم بذلك عمَّا نالَهم مِن الكآبةِ والحُزنِ بانصِرافِهم عن مكَّةَ قبْلَ دُخولِهِمُوها، وقبْلَ طَوافِهم بالبَيتِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠، ٣٢١).

وقال ابنُ القيِّم: (أخبَرَهم بأنَّه هو الَّذي أرسَلَ رَسولَه بالهُدى ودينِ الحَقِّ؛ لِيُظهِرَه على الدِّينِ كُلِّه؛ فقد تكَفَّلَ اللهُ لهذا الأمرِ بالتَّمامِ والإظهارِ على جميعِ أديانِ أهلِ الأرضِ؛ ففي هذا تقويةٌ لِقُلوبِهم، وبِشارةٌ لهم وتَثبيتٌ، وأن يَكونوا على ثِقةٍ مِن هذا الوَعدِ الَّذي لا بُدَّ أن يُنجِزَه؛ فلا تَظُنُّوا ما وقع مِنَ الإغماضِ والقَهرِ يومَ الحُدَيبيَةِ نُصرةً لِعَدُوِّه، ولا تخَلِّيًا عن رَسولِه ودِينِه، كيف وقد أرسَلَه بدِينِه الحَقِّ، ووَعَده أن يُظهِرَه على كُلِّ دينٍ سِواه؟!). ((زاد المعاد)) (٣/ ٢٨٠).

لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣] أنَّ ذلك تامًّا! قال: إنَّه سيكونُ مِن ذلك ما شاء اللهُ!))[١].

وعن ثَوْبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ زَوَى[٢] لِيَ الأرضَ، فرأيْتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سيَبلُغُ مُلكُها ما زُوِيَ لي منها))[٣].

وعن تَميم الدَّاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لَيَبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بَلَغ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يَترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ[٤] إلَّا أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفرَ))[٥].

وعن خبَّابِ بنِ الأرَتِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((شَكَوْنا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدةً[٦] له في ظِلِّ الكَعبةِ، قُلْنا له: ألَا تَستَنصِرُ لنا،

---

(١) رواه مسلم (٢٩٠٧).

(٢) أي: قبَضَها وجمَعَها لي. يُنظر: ((معالم السنن)) للخَطَّابي (٤/ ٣٣٩)، ((المفهم)) للقرطبي (٧/ ٢١٦)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣).

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٤) المَدَر: البيتُ المبنيُّ من الطِّينِ، والوَبَر: مِن الشَّعرِ، والعربُ تُعَبِّرُ عن أهل الحضرِ بأهلِ المَدَرِ، وعن أهلِ الباديةِ بأهلِ الوَبَرِ؛ لأنَّهم يَتَّخِذون بُيوتَهم مِن الوَبَر. يُنظر: ((المفهم)) للقرطبي (٧/ ٢٨٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٥٢).

(٥) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧) واللَّفظُ له، والحاكم (٨٣٢٦)، والبيهقي (١٩٠٩٠).
صحَّحه الحاكِمُ على شَرطِ الشَّيخَين، وقال الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٧): (رجالُه رجالُ الصَّحيح). وقال الألباني في ((تحذير الساجد)) (١٥٨): (على شَرطِ مُسلِمٍ). وصَحَّح إسنادَه على شرطِ مُسلِمٍ: شُعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨/ ١٥٥).

(٦) أي: جعَلها وِسادةً (أي: مِخَدَّةً) له تحتَ رأسِه، والبُرْدةُ: كِساءٌ أسْوَدُ مربَّعٌ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٤٤٧) و (٢/ ٥٥٠)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١٠/ ٩٦).

ألَا تَدْعو اللهَ لنا؟! قال: كان الرَّجُلُ فيمَنْ قَبْلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسِه فيُشَقُّ باثنَتَينِ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه! ويُمشَطُ بأمشاطِ الحَديدِ ما دونَ لَحمِه مِن عَظمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه! واللهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأمرَ، حتَّى يَسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ، لا يخافُ إلَّا اللهَ أو الذِّئبَ على غَنَمِه، ولكِنَّكم تَستَعجِلونَ!))[1].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

أي: ويَكفي أن يَكونَ اللهُ شاهِدًا على أنَّه مُظهِرٌ دِينَه، وعلى أنَّ مُحمَّدًا رَسولُه، صلَّى الله عليه وسلَّم[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٥).

مِمَّن ذهب إلى أنَّ المعنى أنَّه شهيدٌ على أنَّه مُظهِرٌ دِينَه: ابنُ جرير، والرَّسْعَني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣١٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ البصريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠).

وقال الزمخشريُّ والنَّسَفيُّ وأبو حيَّان: وكفى بالله شهيدًا على أنَّ ما وعَدَه كائنٌ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٠).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّ المعنى: أنَّه شهيدٌ بأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، وأنَّه صادقٌ فيما يُخبِرُ: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقنديُّ، والواحدي، والبغوي، والرازي، والقرطبي، والخازنُ، وابنُ كثير، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٢٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٨٣).

قال البِقاعي: (وهو يَشهَدُ بكُلِّ ما أخبَرَ به رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذه السُّورةِ خصوصًا، وفي غيرِها عمومًا). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٣٣٧).

وقال الشوكاني: (كَفَى اللهُ شَهيدًا على هذا الإظْهارِ الَّذي وَعَدَ المُسلِمينَ به، وعلى صحَّةِ نُبُوَّةِ =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أنَّ رِسالةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تتضَمَّنُ شيئَينِ؛ هما: العِلمُ النَّافِعُ، والعَمَلُ الصَّالِحُ؛ فالهُدى هو: العِلمُ النَّافِعُ، ودِينُ الحَقِّ هو: العَمَلُ الصَّالِحُ الَّذي اشتمَلَ على الإخلاصِ للهِ، والمُتابَعةِ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ﴾ لَمَّا كان للنَّظَرِ إلى الرُّؤيا اعتِبارانِ: أحَدُهما من جِهةِ الواقِعِ، وهو غَيبٌ عن الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهم أجمَعينَ، والآخَرُ مِن جِهةِ الإخبارِ، وهو مع الرُّؤيا شَهادةٌ بالنِّسبةِ إليه سُبحانَه وتعالى- عَبَّرَ بالصِّدقِ والحَقِّ[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، فيه سؤالٌ: ما وَجْهُ التَّعليقُ بمَشيئةِ اللهِ -تعالى- في إخبارِه؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّه ذكَرَه تعليمًا للعِبادِ الأدَبَ، وتأكيدًا لقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[3] [الكهف: ٢٣، ٢٤].

= نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٦).

قال الشنقيطي: (قال علماءُ البصرةِ: المرادُ بالتَّقييدِ بالمشيئةِ في هذا الأمرِ المُحَقَّقِ: هو تعليمُ الخَلْقِ ألَّا يَتكلَّموا عن أمرٍ مُستقبَلٍ إلَّا مُعَلِّقينَ بمشيئةِ اللهِ، وإنَّما جِيءَ بالأمرِ المُحَقَّقِ لِتَوكيدِ ذلك، وأنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أن يَتحدَّثَ عن مُستقبَلٍ أنَّه سيَقَعُ أو سيَفعَلُ إلَّا إذا قُيِّدَ بمشيئةِ اللهِ، =

الوجهُ الثَّاني: أنَّ الاستِثناءَ في دُخولِ جميعِهم؛ إذْ عُلِم أنَّ بعضَهم يَموتُ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾ مِن قَولِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لأصحابِه، حكايةً عن رُؤْياه؛ فيَكونُ الاستِثناءُ في الرُّؤْيا، لا في خبرِ اللهِ.

الوجهُ الرَّابعُ: أنَّ (إنْ) بمعنى (إذْ)؛ أي: إذْ شاء اللهُ[(١)].

الوجهُ الخامسُ: أنَّ الدُّخولَ لَمَّا لم يقَعْ عامَ الحُدَيبيَةِ، وكان المؤمنونَ يُريدونَ الدُّخولَ، ويأبَوْنَ الصُّلحَ، قال: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾، ولكنْ لا بجَلادتِكم، ولا بإرادتِكم، إنَّما تَدْخُلون بمَشيئةِ اللهِ تعالى.

الوجهُ السَّادسُ: أنَّ ذلك تحقيقًا للدُّخولِ؛ وذلك لأنَّ أهلَ مكَّةَ قالوا: لا تَدْخُلوها إلَّا بإرادتِنا، ولا نُريدُ دُخولَكم في هذه السَّنةِ، ونَختارُ دُخولَكم في السَّنةِ القابِلةِ، والمؤمِنونَ أرادوا الدُّخولَ في عامِهم، ولم يَقَعْ؛ فكان لِقائلٍ أن يَقولَ: بقيَ الأمرُ موقوفًا على مَشيئةِ أهلِ مكَّةَ: إنْ أرادوا في السَّنةِ الآتيةِ يَتْرُكونَنا نَدخُلُها، وإنْ كَرِهوا لا نَدخُلُها، فقال: لا تُشترَطُ إرادتُهم ومشيئتُهم، بل تمامُ الشَّرطِ بمَشيئةِ اللهِ[(٢)].

الوجهُ السَّابعُ: أنَّها للتَّبرُّكِ[(٣)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ أنَّ الشَّيءَ

= كما قال اللهُ لنبيِّه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]. ((العذب النمير)) (٢/ ٢١٢).

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٣٣٢، ١٣٣٣).

قال ابنُ عطيَّةَ: (وهذا حسَنٌ في معناه، ولكنْ كَوْنُ «إنْ» بمعنَى «إذْ» غيرُ موجودٍ في لسانِ العربِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٥).

المُحَقَّقَ قد يُربَطُ بالمشيئةِ؛ إشارةً إلى أنَّه واقِعٌ بمشيئةِ اللهِ[١].

٤- جوازُ الاستِثناءِ في الإيمانِ إذا كان للتَّعليلِ، بمعنى: أنا مُؤمِنٌ بمشيئةِ اللهِ؛ لأنَّ هذه هي الحقيقةُ، والدَّليلُ على ذلك قَولُه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾؛ فالتَّعليقُ هنا ليس للتَّردُّدِ؛ لأنَّ اللهَ غيرُ مترَدِّدٍ، وإنَّما هو لبيانِ العِلَّةِ، وهي أنَّ دُخولَكم بمَشيئةِ اللهِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أنَّ الحَلْقَ والتَّقصيرَ نُسُكٌ في الحجِّ والعُمرةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وصَفَهم به، بقَولِه سُبحانَه: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، ولو لم يكُنْ مِنَ المَناسِكِ لَمَا وصَفَهم به[٣]، فجَعَل الحلقَ والتَّقصيرَ شِعارَ النُّسُكِ وعلامَتَه، وعَبَّر عن النُّسُكِ بالحلقِ والتَّقصيرِ، وذلك يَقْتَضي كونَه جزءًا منه وبعضًا له[٤]، قال العُلماءُ: إذا عُبِّرَ بجُزءٍ مِن العبادةِ عن العبادةِ كان دَليلًا على وُجوبِه فيها[٥].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤١٣).

وأهلُ السُّنَّةِ يَستثنونَ في الإيمانِ أيضًا؛ لأنَّ الإيمانَ المطْلَقَ يتَضَمَّنُ فِعْلَ كلِّ ما أمَرَ اللهُ به، وتَرْكَ كلِّ ما نَهى عنه، فإذا قال الرَّجُلُ: أنا مُؤْمِنٌ، بهذا الاعتبارِ: فقَدْ شَهِد لنفْسِه أنَّه مِن الأبرارِ المتَّقينَ، القائِمينَ بجميعِ ما أُمِروا به، وترْكِ كلِّ ما نُهُوا عنه! وهذا مِن تزكيةِ الإنسانِ لنفْسِه، ولو كانت هذه الشَّهادةُ صحيحةً، لَكانَ يَنْبَغي أنْ يَشْهَدَ لنفْسِه بالجنَّةِ إنْ ماتَ على هذه الحالِ، وهذا مَأْخَذُ عامَّةِ السَّلَفِ الَّذينَ كانوا يَسْتَثْنونَ. أمَّا إنْ أرادَ المُسْتَثني الشَّكَّ في أصلِ إيمانِه فإنَّه يُمنَعُ من الاستثناءِ، وهذا ممَّا لا خِلافَ فيه. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٤٦)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (٢/ ٤٩٤- ٤٩٨).

(٣) يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٣/ ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((شرح العمدة- كتاب الحج)) لابن تيمية (٢/ ٥٤٢).

(٥) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٧/ ٣٩٦).

وَمُقَصِّرِينَ ﴾ فيه أنَّ الحَلْقَ غَيرُ مُتعَيِّنٍ في النُّسُكِ، بل يُجْزِئُ عنه التَّقصيرُ[(١)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ أنَّه يَجِبُ أنْ يكونَ الحَلْقُ أو التَّقصيرُ شامِلًا لجَميعِ الرَّأسِ؛ فالفِعلُ المضافُ إلى الرَّأسِ يَشملُ جَميعَه. وفيه بيانُ خَطَأِ بعضِ النَّاسِ إذا أراد أنْ يَتحَلَّلَ مِن العُمرةِ فإنَّه يُقَصِّرُ شَعَراتٍ قليلةً مِن رأسِه ومِن جِهةٍ واحدةٍ! وهذا خِلافُ ظاهِرِ الآيةِ الكريمةِ؛ فلا بُدَّ أنْ يكونَ للتَّقصيرِ أثَرٌ بَيِّنٌ على الرَّأسِ، ومِن المعلومِ أنَّ قَصَّ شَعرةٍ أو شَعرَتينِ أو ثَلاثِ شَعَراتٍ: لا يُؤَثِّرُ، ولا يَظهَرُ على المُعتَمِرِ أنَّه قَصَّرَ، فيَكونُ مخالِفًا لظاهِرِ الآيةِ الكَريمةِ[(٢)].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ فيه اختِصاصُ الحَلقِ والتَّقصيرِ بالرَّأسِ دُونَ اللِّحْيةِ وسائِرِ شَعرِ البَدَنِ[(٣)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أنَّ مَنِ اتَّبَعَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فإنَّه غالِبٌ، ومعنى «يُظْهِرَه» يُعْلِيَه؛ لأنَّ الظَّهْرَ والظُّهورَ كِلَاهما يدُلُّ على الغَلَبةِ[(٤)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أنَّ الإسلامَ سيَعْلو على جميعِ الأديانِ[(٥)].

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٢/ ٤٥٤) و (٢٤/ ٣٠٢).

وُجوبُ حلْقِ أو تقصيرِ جميعِ الرَّأسِ هو مذهبُ المالكيَّةِ والحنابلةِ. يُنظر: ((حاشية العدوي)) (١/ ٦٨٣، ٦٨٩)، ((كشاف القِناع)) للبهوتي (٢/ ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٩).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ حُجَّةٌ لأهلِ السُّنَّةِ على كُلِّ مَن أَسَرَّ دِينًا مِن أهلِ البِدْعةِ، وكلِّ مَن كان على شَيءٍ يَزعمُ أنَّه مِن الدِّينِ وهو يَستُرُه ولا يُظْهِرُه خَشيةَ إنكارِه! فقد عُرِفَ بُطلانُه قبْلَ أنْ يُسألَ بُرهانَه، واستَوى في مَعرفةِ تزييفِه العالِمُ والجاهِلُ؛ إذْ مِن شَرْطِ الآيةِ أنْ يكونَ بعدَ نُزولِها دينُ الحقِّ ظاهرًا؛ فإنْ كُتِمَ عَدِمَ شَرْطَه المشروطَ فيه، وفي عَدَمِ شَرْطِه دُخولُ الخَلَلِ عليه، وزَوالُ الحقِّ عنه[1].

١٢- كثيرًا ما يَجمَعُ سُبحانَه بيْنَ هَذينِ الأصلَينِ: (الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ)؛ لأنَّ بهما تَمامَ الدَّعوةِ، وظُهورَ دِينِه على الدِّينِ كُلِّه[2].

١٣- قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ عطَفَ دينَ الحَقِّ على الهُدى؛ لِيَشملَ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الأحكامِ؛ أُصولِها وفُروعِها، مِمَّا أُوحِيَ به إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سِوى القُرآنِ مِن كُلِّ وَحيٍ بكَلامٍ لم يُقصَدْ به الإعجازُ، أو كان مِن سُنَّةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

وفيه وَجهٌ آخَرُ: أن يكونَ المرادُ بالهُدى أصولَ الدِّينِ مِن اعتِقادِ الإيمانِ، وفَضائِلِ الأخلاقِ الَّتي بها تَزكيةُ النَّفْسِ، ودينُ الحَقِّ: شَرائِعُ الإسلامِ وفُروعُه[3].

١٤- قولُه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ فيه تَوطينٌ لنُفوسِ المؤمنينَ على أنَّ اللهَ تعالى سيَفتحُ لهم مِن البلادِ،

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٥٢١، ٥٢٢).

وأخرج اللالكائي في ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)) (٢٥١) قولَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ: (إذا رأيْتَ قومًا يَتناجَوْنَ في دينِهم بشيءٍ دونَ العامَّةِ، فاعلَمْ أنَّهم على تأسيسِ ضلالةٍ).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠١).

ويُقيِّضُ لهم مِن الغلَبةِ على الأقاليمِ ما يَستقِلُّون إليه فتحَ مكةَ(١).

١٥- قَولُه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ فيه إثباتُ الشَّهادةِ للهِ(٢).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أنَّ شَهادةَ اللهِ كافيةٌ عن كُلِّ شَهادةٍ(٣).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

- قَولُه: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشِئٌ عن قولِه: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦]، ودَحْضُ ما خامَرَ نُفوسَ فريقٍ مِن الفشَلِ، أو الشَّكِّ، أو التَّحيُّرِ، وتَبْيينُ ما أنعَمَ اللهُ به على أهلِ بَيعةِ الرِّضوانِ مِن ثَوابِ الدُّنيا والآخِرةِ إلى كشْفِ شُبهةٍ عرَضَت للقومِ في رُؤيا رآها رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ذلك أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رأى رُؤيا قبْلَ خُروجِه إلى الحُدَيْبِيَةِ -أو وهو في الحُدَيبيَةِ-: كأنَّه وأصحابَه قد دخَلوا مكَّةَ آمِنينَ، وحلَقوا وقصَّروا، هكذا كانتِ الرُّؤْيا مُجْمَلةً، ليس فيها وُقوعُ حَجٍّ ولا عُمرةٍ، والحَلْقُ والتَّقصيرُ مُناسِبٌ لِكلَيهِما(٤).

- وتَوكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (قد)؛ لإبطالِ شُبْهةِ المنافِقينَ الَّذين قالوا: فأينَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٧).

الرُّؤيا[(١)]؟!

- قَولُه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، أي: مُلتَبِسًا به؛ فإنَّ ما رآهُ كائنٌ لا مَحالةَ في وقْتِه المُقدَّرِ له، وهو العامُ القابِلُ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ صِفةَ مَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: صِدقًا مُلتبِسًا بالحَقِّ، وهو القَصدُ إلى التَّمييزِ بيْنَ الثَّابتِ على الإيمانِ والمُتزلزِلِ فيه، أو حالٌ مِن الرُّؤيا، أي: مُلتبِسةً بالحقِّ ليستْ مِن قَبيلِ أضغاثِ الأحلامِ، وأنْ يكونَ قَسَمًا إمَّا باسمِ اللهِ تعالَى، أو بنَقيضِ الباطلِ[(٢)].

- قَولُه: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ إلى آخِرِها، يجوزُ أنْ يكونَ بَيانًا لجُملةِ ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ معنى ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾ تَحقيقُ دُخولِ المسجِدِ الحرامِ في المُستقبَلِ، فيُعلَمُ منه أنَّ الرُّؤيا إخبارٌ بدُخولٍ لم يُعيَّنْ زَمنُه؛ فهي صادِقةٌ فيما يَتحقَّقُ في المُستقبَلِ، وهذا تَنبيهٌ لِلَّذين لم يَتفطَّنوا لذلك، فجَزَموا بأنَّ رُؤيا دُخولِ المسجِدِ تَقْتضي دُخولَهم إليه أيَّامَئذٍ، وما ذلك بمَفهومٍ مِن الرُّؤيا، وكان حَقُّهم أنْ يَعلَموا أنَّها وعْدٌ لم يُعَيَّنْ إبَّانَ مَوعودِه. وقيل: الأحسَنُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ استِئنافًا بَيانيًّا عن جُملةِ ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ﴾، أي: سيَكُون ذلك في المُستقبَلِ لا مَحالةَ؛ فيَنْبغي الوقفُ عندَ قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لِيظهَرَ معنى الاستِئنافِ. وقولُه: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مِن شأنِه أنْ يُذيَّلَ به الخبَرُ المُستقبَلُ إذا كان حُصولُه مُتراخيًا[(٣)].

- قَولُه: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ﴾ التَّحليقُ والتَّقصيرُ كِنايةٌ عن التَّمكُّنِ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٩).

إتمامِ الحَجِّ والعُمرةِ، وذلك مِن استِمرارِ الأمْنِ، على أنَّ هذه الحالةَ حكَتْ ما رآهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في رُؤياهُ، أي: يَحلِقُ مَن رامَ الحَلْقَ، ويُقصِّرُ مَن رامَ التَّقصيرَ، أي: لا يُعجِّلُهم الخَوفُ عن الحَلقِ، فيَقتَصِرون على التَّقصيرِ[1].

- وذَكَر الحِلاقَ والتَّقصيرَ دونَ الطَّوافِ والسَّعْيِ؛ لأنَّهما صِفَتانِ لبدنِ الإنسانِ ينتقلانِ بانْتِقالِه[2].

- وجُملةُ ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ في مَوضعِ الحالِ؛ فيجوزُ أنْ تكونَ مُؤكِّدةً لقولِه: ﴿ءَامِنِينَ﴾ تأْكيدًا بالمُرادفِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الأمنَ كاملٌ مُحقَّقٌ. ويجوزُ أنْ تكونَ حالًا مُؤسِّسةً على أنَّ ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: لا تَخافونَ غَدْرًا، وذلك إيماءٌ إلى أنَّهم يكونونَ أشدَّ قُوَّةً مِن عدوِّهم الَّذي أمَّنَهم، وهذا يُومِئُ إلى حِكمةِ تأْخيرِ دُخولِهم مكَّةَ إلى عامٍ قابلٍ، حيثُ يَزْدادون قُوَّةً واستِعدادًا، وهو أظهَرُ في دُخولِهم عامَ حَجَّةِ الوداعِ[3]. وقيل: قال: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ بعدَ قولِه: ﴿ءَامِنِينَ﴾ والمعنَى: آمِنينَ في حالِ الدُّخولِ، لا تَخافُونَ عَدُوَّكم أن يُخرِجَكم منه في المُستَقبَلِ[4].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ لتَفريعِ الأخبارِ، لا لتَفريعِ المُخبَرِ به؛ لأنَّ عِلمَ اللهِ سابِقٌ على دُخولِهم، وعلى الرُّؤيا المُؤذِنةِ بدُخولِهم[5].

- قَولُه: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ في إيثارِ فِعلِ (جَعَلَ) في هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((شرح العمدة- كتاب الحج)) لابن تيمية (٢/ ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٠).

التَّركيبِ دونَ أنْ يقولَ: (فتَحَ لكم مِن دونِ ذلك فتْحًا قريبًا)، أو نحوَه؛ لإفادةِ أنَّ هذا الفتْحَ أمْرُه عجيبٌ، ما كان لِيَحصُلَ مِثلُه لولا أنَّ اللهَ كوَّنَه. وصِيغةُ الماضي في (جَعَلَ)؛ لِتَنزيلِ المُستقبَلِ المحقَّقِ مَنزِلةَ الماضي، أو لأنَّ (جَعَلَ) بمعنى (قَدَّرَ)(١).

٢- قَولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ زيادةُ تَحقيقٍ لصِدقِ الرُّؤيا؛ بأنَّ الَّذي أرسَلَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهذا الدِّينِ ما كان لِيُرِيَه إلَّا رُؤيا صادقةً؛ فهذه الجُملةُ تأكيدٌ للتَّحقيقِ المُستفادِ مِن حرْفِ (قد) ولامِ القَسَمِ في قَولِه: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧]، وبهذا يَظهرُ حُسنُ مَوقعِ الضَّميرِ والمَوصولِ في قَولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ لأنَّ المَوصولَ يُفيدُ العِلمَ بمَضمونِ الصِّلةِ غالبًا(٢).

- والضَّميرُ عائِدٌ إلى اسمِ الجلالةِ في قَولِه: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا﴾، وهم يَعلَمون أنَّ رُؤيا الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وحْيٌ مِن اللهِ؛ فهو يُذكِّرُهم بهاتَينِ الحقيقتَينِ المَعلومتَينِ عندَهم حِينَ لم يَجْرُوا على مُوجَبِ العِلمِ بهما، فخامَرَتهم ظُنونٌ لا تَليقُ بمَن يَعلَمُ أنَّ رُؤيا الرَّسولِ وحْيٌ، وأنَّ الموحِيَ له هو الَّذي أرسَلَه؛ فكيف يُريه رُؤيا غيرَ صادِقةٍ؟! وفي هذا تَذكيرٌ ولَومٌ للمؤمنينَ الَّذين غفَلوا عن هذا، وتَعريضٌ بالمنافِقين الَّذين أدخَلوا التَّردُّدَ في قُلوبِ المؤمنينَ(٣).

- والباءُ في ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ للمُصاحَبةِ، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿أَرۡسَلَ﴾، والهُدَى أُطلِقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على ما به الهُدى(١).

- واللَّامُ في ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ لتَعليلِ فِعلِ ﴿أَرْسَلَ﴾ ومُتعلَّقاتِه، أي: أرسَلَه بذلك؛ لِيُظهِرَ هذا الدِّينَ على جَميعِ الأديانِ الإلهيَّةِ السَّالفةِ، ولذلك أكَّدَ بـ ﴿كُلِّهِۦ﴾؛ لأنَّه في معنى الجمْعِ(٢).

- والإظهارُ: أصلُه مُشتقٌّ مِن (ظَهَر) بمعنى بَدَا؛ فاستُعمِلَ كنايةً عن الارتفاعِ الحقيقيِّ، ثمَّ أُطلِقَ على الشَّرَفِ، فصار (أظهرَه) بمعنى أعلاهُ، أي: لِيُشرِّفَه على الأديانِ كلِّها(٣).

- ولَمَّا كان المَقصودُ مِن قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ الشَّهادةَ بأنَّ الرُّؤيا صِدقٌ؛ ذيَّلَ الجُملةَ بقولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، أي: أجزَأَتْكم شَهادةُ اللهِ بصِدْقِ الرُّؤيا إلى أنْ ترَوا ما صَدَقَها(٤) في الإبَّانِ(٥).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو المَوصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يقالَ مَثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٢).

الآية (٢٩)

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سِيمَاهُمۡ﴾: أي: عَلاماتُهم وآثارُهم، وأصلُ (وسم): يدُلُّ على الأثَرِ والمَعْلَمِ[(١)].

﴿شَطۡـَٔهُۥ﴾: أي: فِراخَه وصِغارَه، وشَطءُ الزَّرعِ: فُروخُ الزَّرعِ، وهو ما خرَجَ منه وتفَرَّعَ في شاطِئَيه وجانِبَيه، وشَطءُ النَّباتِ: ما خرَجَ مِن حَولِ الأصلِ[(٢)].

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾: أي: أعانَه وقوَّاه، وأصلُ (أزر): يدُلُّ على القُوَّةِ والشِّدَّةِ[(٣)].

﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾: أي: غَلُظَ وبلَغَ غايةَ قُوَّتِه، والغِلْظةُ ضِدُّ الرِّقَّةِ[(٤)].

﴿سُوقِهِۦ﴾: أي: أُصولِه، جمعُ ساقٍ: وهو العُودُ والحامِلُ، وأصلُ (سوق):

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

يدُلُّ على حَذْوِ الشَّيء، وسُمِّيَت السَّاقُ بذلك؛ لأنَّ الماشيَ يَنساقُ عليها[١].

﴿لِيَغِيظَ﴾: الغَيظُ: أشدُّ الغَضَبِ، وهو الحرارةُ الَّتي يجِدُها الإنسانُ مِن فَورانِ دَمِ قَلبِه، وأصلُه يدُلُّ على كَربٍ يَلحَقُ الإنسانَ مِن غَيرِه[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يختِمُ اللهُ تعالى السُّورةَ بالثَّناءِ على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعلى أصحابِه، فيقولُ: مُحمَّدٌ رَسولُ اللهِ، وأصحابُه الَّذين معه يُظهِرونَ لِمَن خالَفَ دِينَهم الشِّدَّةَ، ولِمَن وافَقَه الرَّحمةَ والرَّأفةَ، تَراهم -أيُّها الرَّائي- راكِعينَ وساجِدينَ، يَطلُبونَ أن يَتفَضَّلَ اللهُ عليهم برَحمتِه، فيُدخِلَهم جَنَّتَه، وأن يَرضى عنهم، عَلامتُهم في وُجوهِهم؛ مِن أثَرِ سُجُودِهم في صَلاتِهم.

هذا الَّذي وُصِفوا به هو وَصْفُهم في التَّوراةِ، وصِفَتُهم في الإنجيلِ أنَّهم كزَرعٍ أخرَجَ فِراخَه، فقوَّى الزَّرعَ فَرْخُهُ، فغَلُظَ الزَّرعُ، وبَلَغ غايةَ قُوَّتِه، وقام على أُصولِه، يُعجِبُ هذا الزَّرعُ الزُّرَّاعَ؛ لِيَغيظَ بهم الكُفَّارَ حينَ يَرَونَ كَثرتَهم وقُوَّتَهم.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى ما وعَدهم به، فيقولُ: وَعَد اللهُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ مِن أصحابِ نَبيِّه مَغفِرةً لِذُنوبِهم وأجرًا عَظيمًا.

تَفسيرُ الآيةِ:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٩).

﴿فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن صِدقَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في رُؤياه، واطمَأنَّت نُفوسُ المُؤمِنينَ؛ أعقَبَ ذلك بتَنويهِ شَأنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والثَّناءِ على المُؤمِنينَ الَّذين معه(١).

وأيضًا لَمَّا ختَمَ اللهُ سُبحانَه بإحاطةِ العِلمِ بالخَفايا والظَّواهِرِ في الإخبارِ بالرِّسالةِ؛ عَيَّنَها في قَولِه -جوابًا لِمَن يَقولُ: مَنِ الرَّسولُ المُنَوَّهُ باسمِه؟-(٢):

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾.

محمَّدٌ رسولُ الله حقًّا بلا رَيْبٍ(٣).

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠).

قال ابن عطية: (قَولُه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ قال جُمهورُ النَّاسِ: هو ابتِداءٌ وخَبَرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠).

وممَّن ذهب إلى هذا: الثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، وابنُ كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٥).

وقيل: هذه الجُملةُ مُتعَلِّقةٌ بما بَعْدَها، أي: محمَّدٌ رَسولُ اللهِ وأصحابُه أشدَّاءُ على الكفَّارِ، رُحماءُ بيْنَهم. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥). ويُنظر أيضًا: ((الهداية)) لمكي (١١/ ٦٩٧٤).

أي: وأصحابُ مُحمَّدٍ الَّذين معه يُظهِرونَ لِمَن خالَفَ دِينَهم الشِّدَّةَ والصَّلابةَ، ولِمَن وافقَه الرَّحمةَ والرَّأفةَ واللِّينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلُ المُؤمنينَ في تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم مَثَلُ الجَسَدِ؛ إذا اشتكى منه عُضوٌ تَداعَى له سائرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى))(٢).

وعن أبي موسى الأَشْعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المُؤمِنُ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ؛ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا. وشَبَّك بيْنَ أصابعِه))(٣).

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٤).

قال السعدي: (﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: جادُّونَ ومُجتهِدونَ في عَداوَتِهم، وساعُون في ذلك بغايةِ جُهدِهم، فلمْ يَرَوا منهم إلَّا الغِلظةَ والشِّدَّةَ؛ فلذلك ذلَّ أعداؤُهم لهم، وانكسَروا، وقهَرَهم المُسلِمونَ، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: مُتحابُّونَ مُتراحِمونَ مُتعاطِفونَ، كالجسَدِ الواحِدِ، يحبُّ أحدُهم لأخيه ما يحبُّ لنفْسِه، هذه مُعامَلَتُهم مع الخَلقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال ابن عاشور: (المقصودُ الثَّناءُ على أصحابِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم... والمرادُ: أصحابُه كُلُّهم، لا خُصوصُ أهلِ الحُدَيبِيَةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٣).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٠١١)، ومسلمٌ (٢٥٨٦) واللَّفظُ له.

(٣) رواه البخاريُّ (٢٤٤٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٥٨٥).

أي: تَرى[١] أصحابَ مُحمَّدٍ مُداومِينَ على صَلاتِهم، مُكثِرينَ منها؛ فتَراهم راكِعينَ وساجِدينَ[٢].

عن المُخارِقِ، قال: ((خَرَجْنا حُجَّاجًا، فلمَّا بَلَغْنا الرَّبَذَةَ[٣] قُلتُ لأصحابي: تقَدَّموا، وتخَلَّفْتُ، فأتيتُ أبا ذَرٍّ وهو يُصَلِّي، فرأيتُه يُطيلُ القِيامَ، ويُكثِرُ الرُّكوعَ والسُّجودَ، فذكَرتُ ذلك له، فقال: ما أَلَوتُ أن أُحسِنَ؛ إنِّي سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ: مَن رَكَع رَكعةً أو سَجَد سَجدةً، رُفِعَ بها دَرَجةً، وحُطَّت عنه بها خَطيئةٌ))[٤].

﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾.

أي: يَطلُبونَ أن يَتفَضَّلَ اللهُ عليهم برَحمتِه، فيُدخِلَهم جَنَّتَه، وأن يَرضى عنهم؛ فهذا مقصودُهم[٥].

---

(١) قال ابن عاشور: (الخِطابُ في ﴿تَرَىٰهُمۡ﴾ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ، بل لِكُلِّ مَن تتأتَّى رُؤيتُه إيَّاهم، أي: يَراهم الرَّائي). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٥). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

(٣) الرَّبَذَة: قَريةٌ كانت عامرةً في صَدْرِ الإسلامِ، وبها قبرُ أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ وجماعةٍ مِن الصَّحابةِ، تقعُ شرقَ المدينةِ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٥).

(٤) أخرجه أحمد (٢١٣٠٨) واللَّفظُ له، والطَّحاويُّ في ((شرح معاني الآثار)) (٢٧٣٠)، والبيهقي (٤٨٨٣).

قال المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ١٩٤): (هو بمجموع طُرُقه حَسَنٌ أو صحيحٌ). وذكر الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٥١) أنَّه رُوِيَ بنحوه بأسانيدَ بَعضُها رجالُه رجالُ الصَّحيحِ. وصحَّحه لغيرِه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٩٢)، وصحَّحه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٥/ ٢٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧١، ٧٢].

﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾.

أي: عَلامةُ أصحابِ مُحمَّدٍ كائِنةٌ في وُجوهِهم؛ مِن أثَرِ سُجُودِهم في صَلاتِهم(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢١، ٣٢٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال ابنُ الجوزي: (هل هذه العَلامةُ في الدُّنيا، أم في الآخِرةِ؟ فيه قولانِ:

أحَدُهما: في الدُّنيا. ثمَّ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّها السَّمتُ الحَسَنُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ في روايةِ ابنِ أبي طَلْحةَ. وقال في روايةِ مُجاهِدٍ: أمَا إنَّه ليس بالَّذي تَرَونَ، ولكِنَّه سِيما الإسلامِ وسَمْتُه وخُشوعُه. وكذلك قال مجاهِدٌ: ليس بِنَدَبِ التُّرابِ في الوَجهِ، ولكِنَّه الخُشوعُ والوَقارُ والتَّواضُعُ.

والثَّاني: أنَّه نَدَى الطَّهورِ، وثَرى الأرضِ. قاله سعيدُ بنُ جُبَير. وقال أبو العاليةِ: لأنَّهم يَسجُدونَ على التُّرابِ لا على الأثوابِ. وقال الأَوْزاعيُّ: بلَغَني أنَّه ما حمَلَتْ جِباهُهم مِنَ الأرضِ.

والثَّالثُ: أنَّه السُّهومُ، فإذا سَهِم وَجهُ الرجُلِ مِنَ اللَّيلِ أصبَحَ مُصْفارًّا. قال الحَسَنُ البصري: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾: الصُّفرةُ. وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: أثَرُ السَّهَرِ. وقال شِمْرُ بنُ عطيَّةَ: هو تهيُّجٌ في الوَجهِ مِن سَهَرِ اللَّيلِ.

والقَولُ الثَّاني: أنَّها في الآخِرةِ. ثمَّ فيه قولانِ:

أحَدُهما: أنَّ مَواضِعَ السُّجودِ مِن وُجوهِهم تكونُ أشدَّ وُجوهِهم بَياضًا يومَ القيامةِ. قاله عطيَّةُ العَوفيُّ، وإلى نحوِ هذا ذهب الحسَنُ، والزُّهْريُّ. وروَى العَوفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ قال: صَلاتُهم تَبدو في وُجوهِهم يومَ القيامةِ.

والثَّاني: أنَّهم يُبعَثونَ غُرًّا مُحَجَّلينَ؛ مِن أثرِ الطُّهورِ. ذكره الزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٨، ١٣٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩). =

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾.

أي: هذا الَّذي وُصِفوا به هو وَصْفُهم في التَّوراةِ[١].

﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾.

أي: وصِفَتُهم في الإنجيلِ أنَّهم كزَرعٍ أخرَجَ فِراخَه، فنَبَتَتْ في جَوانِبِه[٢].

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الهَدْيُ والسَّمتُ الحَسَنُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: علاماتُ التَّهجُّدِ باللَّيلِ وأماراتُ السَّهرِ: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٣).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: السَّمْتُ الحَسَنُ، وهيئةُ الخُشوعِ والخُضوعِ الباديةُ في وُجوهِهم في الدُّنيا، والبَياضُ في وُجوهِهم في الآخِرةِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٤٠).

وقيل: المرادُ: ما يَلُوحُ في وُجوهِهم مِن نُورِ العبادةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

وقيل: المرادُ: العَلامةُ الَّتي تَحدُثُ في جَبهةِ السُّجَّدِ؛ من كَثرةِ السُّجودِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والزمخشري، والبيضاوي، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٩٢، ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٤٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٨).

قال البقاعي: (﴿أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ أي: فِراخَه ووَرَقَه وما خَرَج حَوْلَ أُصولِه؛ فكان ذلك كُلُّه مَثَلَه). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٣٤٣).

وقال ابن جرير: (وإنَّما مثَّلَهم بالزَّرعِ المُشطِئِ؛ لأنَّهم ابتَدَؤوا في الدُّخولِ في الإسلامِ وهم =

﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾.

أي: فقوَّى الزَّرعَ فَرْخُه، فغَلُظَ الزَّرعُ، وتَناهَى طُولُه، وبَلَغ غايةَ قُوَّتِه، وقام على أُصولِه[1].

= عَدَدٌ قَليلونَ، ثمَّ جَعَلوا يَتزايَدون، ويَدخُلُ فيه الجَماعةُ بَعْدَهم، ثمَّ الجماعةُ بعدَ الجَماعةِ، حتَّى كَثُر عَدَدُهم، كما يَحدُثُ في أصلِ الزَّرعِ الفَرخُ منه، ثمَّ الفَرخُ بَعْدَه، حتَّى يَكثُرَ ويَنْمِيَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٧).

وقد ذهب مجاهِدٌ والفَرَّاءُ والزمخشريُّ إلى أنَّ مَثَلَ الصَّحابةِ في التَّوراةِ وفي الإنجيلِ: واحِدٌ، فالمعنى عندَهم: ذلك مَثَلُهم في التَّوراةِ ومَثَلُهم في الإنجيلِ أيضًا. وضَعَّفَ هذا القَولَ ابنُ جرير، ورجَّح أنَّ مَثَلَهم في التَّوراةِ غَيرُ مَثَلِهم في الإنجيلِ، كما هو ظاهِرُ الآيةِ. يُنظر: ((تفسير مجاهد)) (ص: ٦٠٩)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٣، ٤١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٨).

قال ابن قُتَيْبةَ: (هذا مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ خَرَج وَحْدَه، فأيَّده بأصحابِه، كما قَوَّى الطَّاقةَ مِن الزَّرعِ بما نَبَت منها، حتَّى كَثُرَت وغَلُظَت واستَحكَمَت). ((غريب القرآن)) (ص: ٤١٤).

وقال القرطبي: (هذا مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ تعالى لأصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يعني: أنَّهم يَكونونَ قَليلًا، ثمَّ يَزدادونَ ويَكثُرونَ؛ فكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ بدأ بالدُّعاءِ إلى دينه ضَعيفًا، فأجابه الواحدُ بعدَ الواحِدِ حتَّى قَوِيَ أمرُه، كالزَّرعِ يَبدو بعدَ البَذرِ ضَعيفًا، فيَقْوى حالًا بعدَ حالٍ، حتَّى يَغلُظَ نَباتُه وأفراخُه؛ فكان هذا مِن أصَحِّ مَثَلٍ وأقوى بَيانٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٥).

وقال الزمخشري: (هذا مَثَلٌ ضربه اللهُ لِبَدْءِ أمرِ الإسلام وتَرَقِّيه في الزِّيادةِ إلى أن قَوِيَ واستَحْكَم؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قام وحْدَه، ثمَّ قوَّاه اللهُ بمَنْ آمَنَ معه كما يُقَوِّي الطَّاقةَ الأولى مِن الزَّرعِ ما يحتَفُّ بها ممَّا يتولَّدُ منها حتَّى يُعجِبَ الزُّرَّاعَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٨).

وقال ابن عاشور: (هذا يتضَمَّنُ نَماءَ الإيمانِ في قُلوبِهم، وأنَّهم يَدْعُونَ النَّاسَ إلى الدِّينِ حتَّى =

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾.

أي: يُثيرُ هذا الزَّرعُ الَّذي استَغلَظَ واستوَى على سُوقِه إعجابَ الَّذين زَرَعوه[١].

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾.

أي: إنَّما جَعَل اللهُ تعالى أصحابَ نَبيِّه بتلك الصِّفةِ، فكَثَّرهم وقوَّاهم؛ لِيَغيظ بهم الكُفَّارَ حينَ يَرونَ كَثرتَهم وقُوَّتَهم[٢].

= يَكثُرَ المؤمِنونَ، كما تُنبتُ الحَبَّةُ مِئةَ سُنبُلةٍ، وكما تَنبُتُ مِن النَّواةِ الشَّجَرةُ العَظيمةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال ابنُ عطية: (إذا أعجَبَ الزُّرَّاعَ فهو أَحْرى أن يُعجِبَ غيرَهم؛ لأنَّه لا عَيبَ فيه؛ إذ قد أعجَبَ العارِفينَ بالعُيوبِ، ولو كان مَعيبًا لم يُعجِبْهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٢، ١٤٣).

وقال الزَّجَّاج: (﴿ٱلزُّرَّاعَ﴾ محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والدُّعاةُ إلى الإسلامِ، وهم أصحابُه). ((معاني القرآن)) (٥/ ٢٩).

وقال ابنُ كثير: (الصَّحابةُ رَضِيَ الله عنهم خَلَصَت نيَّاتُهم، وحَسُنَت أعمالُهم؛ فكُلُّ مَن نَظَر إليهم أعجَبوه في سَمْتِهم وهَدْيِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٢).

وقال السعدي: (الصَّحابةُ رَضِيَ الله عنهم هم كالزَّرعِ في نَفْعِهم للخَلْقِ، واحتياجِ النَّاسِ إليهم؛ فقُوَّةُ إيمانِهم وأعمالِهم بمَنزلةِ قُوَّةِ عُروقِ الزَّرعِ وسُوقِه، وكَونُ الصَّغيرِ والمتأخِّرِ إسلامُه قد لَحِقَ الكَبيرَ السَّابقَ، ووازَرَه وعاوَنَه على ما هو عليه مِن إقامةِ دينِ اللهِ والدَّعوةِ إليه: كالزَّرعِ الَّذي أخرَجَ شَطْأَه، فآزَرَه فاستَغلَظَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥، ٧٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥١ - ٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

وقال عزَّ شأنُه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

أي: وَعَد اللهُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ مِن أصحابِ نَبيِّه أن يَنالوا مَغفِرةً لِذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، ووَعَدَهم أن يَنالوا أجرًا عَظيمًا[1].

= قال السعدي: (﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ حينَ يَرَونَ اجتِماعَهم وشِدَّتَهم على دِينِهم، وحينَ يَتصادَمونَ هم وهم في مَعارِكِ النِّزالِ، ومعامِعِ القِتالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٦).

قال النَّحَّاسُ: (يجوزُ أن تكونَ «مِنْ» هاهنا لبيانِ الجِنسِ، كما قال تعالى: ﴿ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، ويجوزُ أن تكونَ للتَّبعيضِ، أي: وَعَد اللهُ الَّذين ثَبَتوا على الإيمانِ =

كما قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تَسُبُّوا أصحابي؛ فلو أنَّ أحَدَكم أنفقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ما بلَغَ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصيفَه(١)!))(٢).

= منهم مَغفِرةً وأجرًا عَظيمًا). ((معاني القرآن)) (٦/ ٥١٨). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩، ٣٠).

وقال ابنُ عاشور: (وقولُه: ﴿مِنْهُم﴾ يجوزُ أنْ تكونَ «مِن» للبَيانِ...، ويَجوزُ إبقاؤُه على ظاهِرِ المعنى مِن التَّبعيضِ؛ لأنَّه وَعدٌ لكلِّ مَن يكونُ مع النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الحاضرِ والمستقبَلِ؛ فيَكونُ ذِكرُ «مِن» تَحذيرًا، وهو لا يُنافي المغفِرةَ لِجَميعِهم؛ لأنَّ جَميعَهم آمَنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ، وأصحابُ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هم خِيرةُ المُؤمنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٠، ٢١١).

وممَّن قال بأنَّها لبيانِ الجِنسِ: القرطبيُّ، وابن القيِّم، والسمين الحلبي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ١٧٧)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٧٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٣).

قال القونوي: («مِنْ» للبيانِ لا للتَّبعيضِ، فلا يكونُ حُجَّةً للطَّاعِنينَ في الأصحابِ بجَعْلِ «مِنْ» تبعيضيَّةً، ولا نَذكُرُ الصَّحابةَ إلَّا بخَيرٍ، ونُجِلُّهم أجمَعينَ). ((حاشية القونوي على تفسير البيضاوي)) (١٨/ ١٠١).

(١) المُدُّ: رُبعُ الصَّاع. والنَّصِيفُ: نِصْفُه. والمعنى: أنَّ جُهْدَ المُقِلِّ منهم واليَسيرَ مِن النَّفَقةِ الَّذي أنفَقوه في سبيلِ الله مع شِدَّةِ العَيشِ والضِّيقِ الَّذي كانوا فيه، أَوْفى عندَ الله وأزكى مِن الكثيرِ الَّذي يُنفِقُه مَن بَعْدَهم. يُنظر: ((غريب الحديث)) لأبي عُبَيْدٍ القاسمِ بنِ سلَّام (١/ ٣٧٩)، ((معالم السنن)) للخَطَّابي (٤/ ٣٠٨)، ((كشف المُشْكِل)) لابن الجوزي (٣/ ١٥٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٠٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٦٧٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٥٤١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ مِن حَقِّ المُسلِمينَ في كُلِّ زَمانٍ أن يُراعُوا هذا التَّذَلُّلَ وهذا التَّعَطُّفَ، فيُشَدِّدوا على مَن ليس مِن دينِهم ويَتحامَوه، ويُعاشِروا إخوانَهم المُؤمِنينَ في الإسلامِ مُتعَطِّفينَ بالبِرِّ والصِّلةِ والمعَونةِ، وكَفِّ الأذى، والاحتِمالِ منهم[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ في بابِ العِبارةِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم علينا أن نُفرِّقَ بيْنَ مُخاطَبتِه وبيْنَ الإخبارِ عنه؛ فإذا خاطَبْناه كان علينا أن نتأدَّبَ بآدابِ اللهِ تعالى؛ حيثُ قال: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾ [النور: ٦٣]، فلا نقولُ: يا محمَّدُ، يا أحمَدُ، كما يَدعو بَعضُنا بعضًا، بل نقولُ: يا رَسولَ اللهِ، يا نبيَّ اللهِ. واللهُ سُبحانَه وتعالى خاطَبَ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بأسمائِهم، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١١، ١٢]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ولَمَّا خاطَبَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [التحريم: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]؛ فنَحن أحَقُّ أن نتأدَّبَ في دُعائِه وخِطابِه، وأمَّا إذا كان في مَقامِ الإخبارِ عنه قُلْنا: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ، وقُلْنا: مُحمَّدٌ رَسولُ اللهِ وخاتَمُ النَّبيِّينَ؛ فنُخبِرُ عنه باسمِه كما أخبَرَ اللهُ سُبحانَه لَمَّا أخبَرَ عنه صلَّى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٧).

اللهُ عليه وسلَّم: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢]؛ فالفَرقُ بيْنَ مَقامِ المُخاطَبةِ ومَقامِ الإخبارِ فَرقٌ ثابِتٌ بالشَّرعِ والعَقلِ(١).

ومِنَ النَّاسِ مَن احتَجَّ على تَفضيلِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على غيرِه مِنَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ بهذه الآيةِ وبغَيرِها مِن الآياتِ؛ يقولُ: ما خاطَبَ اللهُ تعالى مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في القُرآنِ إلَّا باسْمِ الرِّسالةِ والنُّبُوَّةِ، وخاطَبَ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بأسمائِهم؛ وذلك لِفَضلٍ جُعِل له دونَ غَيرِه(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ كلُّ مَنِ اقتَفَى أثَرَ الصَّحابةِ فهو في حُكْمِهم، ولهم الفَضلُ والسَّبقُ والكَمالُ الَّذي لا يَلحَقُهم فيه أحَدٌ مِن هذه الأُمَّةِ، رَضِيَ الله عنهم وأرضاهم، وجَعَل جَنَّاتِ الفِردَوسِ مَأْواهم، وقد فعَل(٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ فمُغايَظةُ الكُفَّارِ غايةٌ مَحبوبةٌ للرَّبِّ، مَطلوبةٌ له؛ فمُوافَقتُه فيها من كَمالِ العُبوديَّةِ، وشَرَعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للمُصَلِّي إذا سَها في صَلاتِه سَجدَتَينِ، وقال: ((إذا شكَّ أحدُكم في صَلاتِه

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٣).

فَلْيُلْقِ الشَّكَّ، ولْيَبْنِ على اليَقينِ، فإنِ استَيْقَنَ التَّمامَ سجَد سجدتَينِ، فإن كانت صَلاتُه تامَّةً كانت الرَّكعةُ نافِلةً والسَّجْدَتانِ، وإن كانت ناقِصةً كانت الرَّكعةُ تمامًا لِصَلاتِه، والسَّجْدَتانِ تُرغِمانِ[١] أنْفَ الشَّيطانِ))[٢]، وفي روايةٍ ((تَرغيمًا[٣] للشَّيطانِ))[٤]؛ فمَن تَعَبَّدَ للهِ بمُراغَمةِ عَدُوِّه فقد أخَذَ مِن الصِّدِّيقيَّةِ بسَهمٍ وافِرٍ، وعلى قَدْرِ مَحبَّةِ العَبدِ لِرَبِّه ومُوالاتِه ومُعاداتِه لِعَدُوِّه يكونُ نَصيبُه مِن هذه المُراغَمةِ[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- يَشْهَدُ القرآنُ بِرِضا اللهِ عنِ الصَّحابةِ، وثنائِه عليهم، كقَولِه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾، وقَوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم

---

(١) أرْغَمَ أنْفَه: أي: ألصَقَه بالرَّغام، وهو التُّرابُ. هذا هو الأصلُ، ثمَّ استُعمِل في الذُّلِّ والعجزِ عن الانتِصافِ، والانقيادِ على كُرهٍ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٢) أخرجه ابن خزيمة (١٠٢٣)، وابن حبان (٢٦٦٤)، والدارقطني (١٣٩٩)، والبيهقي في ((معرفة السنن والآثار)) (٤٥١٢) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضيَ الله عنه.
صحَّحه النَّوويُّ في ((المجموع)) (٤/ ١٠٦)، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٦٣٣)، وقال شعيبٌ في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٢٦٦٧): (إسنادُه قويٌّ على شرطِ مسلمٍ).
وهو في ((صحيح مسلم)) (٥٧١) بمعناه.

(٣) أي: إغاظةً له وإذلالًا. والمعنى: أنَّ الشَّيطانَ لبَّس عليه صلاتَه وتعرَّض لإفسادِها ونقصِها، فجعَلَ اللهُ تعالى للمصلِّي طريقًا إلى جبرِ صَلاتِه، وتَدارُكِ ما لبَسَه عليه، وإرغام الشَّيطانِ وردِّه خاسئًا مُبعَدًا عن مُرادِه، وكمَلَتْ صلاةُ ابنِ آدَمَ، وامتثَل أمْرَ اللهِ تعالى الَّذي عصى به إبليسُ مِن امتِناعِه مِن السُّجودِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ٦٠، ٦١).

(٤) أخرجه مسلم (٥٧١).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٤١).

بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[١] [الحديد: ١٠].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ في الجمْعِ لأصحابِ النَّبيِّ بيْنَ هاتَينِ الخَلَّتَينِ المُتضادَّتَينِ؛ الشِّدَّةِ والرَّحمةِ: إيماءٌ إلى أصالةِ آرائِهم، وحِكمةِ عُقولِهم، وأنَّهم يَتصرَّفونَ في أخلاقِهم وأعمالِهم تَصرُّفَ الحِكمةِ والرُّشدِ، فلا تَغلِبُ على نُفوسِهم مَحمَدةٌ دُونَ أُخرَى، ولا يَندَفِعونَ إلى العَملِ بالجِبِلَّةِ وعدَمِ الرَّوِيَّةِ[٢].

٣- المُبهَمُ[٣] لا يُقبَلُ حَديثُه حتَّى يُعلَمَ مَن هو؛ وذلك لِجَهالَتِنا بحالِه، إلَّا المُبهَمَ مِنَ الصَّحابةِ؛ فإنَّ إبهامَه لا يَضُرُّ؛ لأنَّ الصَّحابةَ كُلَّهم عُدولٌ ثِقاتٌ بشَهادةِ اللهِ تعالى لهم في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]، وتَزكيتِه إيَّاهم في قَولِه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، وقَولِه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[٤] [التوبة: ١٠٠]، فلا تضُرُّ الجهالةُ بعَينِ الصَّحابيِّ بعدَ ثُبوتِ صُحبتِه[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٥).

(٣) المُبهَمُ: هو الرَّاوي الَّذي لم يُسَمَّ، أو مَن سُمِّيَ ولا تُعرَفُ عَيْنُه. يُنظر: ((اختصار علوم الحديث)) لابن كثير (ص: ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((شرح المنظومة البيقونية)) لابن عثيمين (ص: ٧٣).

(٥) يُنظر: ((تحقيق مُنيف الرتبة لمن ثبت له شريف الصحبة)) للعلائي (ص: ٥٧).

إلى آخِرِ السُّورةِ: رَدٌّ على الرَّافِضةِ ومَن يَنتَقِصُ أصحابَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤه وَصَفَهم بهذه الصِّفةِ وَصفًا عامًّا؛ فكُلُّ مَن صَحِبَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وكان معه بعدَ الإسلامِ فقدِ استحَقَّها، وصار مِن أهلِها، ووَجَبَ على النَّاسِ إعظامُهم وتبجيلُهم والرَّحمةُ عليهم، وتَركُ التَّنَقُّصِ لِجَميعِهم، وإنْ فُضِّلَ بعضُهم على بَعضٍ بما فَضَّلَهم اللهُ ورَسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ورحِمَهم أجمعينَ[١].

٥- قَولُه تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ ثَناءٌ عليهم بهما، وإنْ كان ذِكرُهما مُنتظِمًا لِبَقيَّةِ أفعالِ الصَّلاةِ؛ كما في القِراءةِ والقيامِ والتَّسبيحِ والسُّجودِ المُجَرَّدِ، وهو مِن بابِ التَّعبيرِ بالبَعضِ عن الجَميعِ، وهو دَليلٌ على وُجوبِه فيه[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيه لَطيفةٌ، وهو أنَّه تعالى قال في حَقِّ الرَّاكِعينَ والسَّاجِدينَ: إنَّهم يَبتَغونَ فَضلًا مِنَ اللهِ، وقال: لهم أجرٌ، في قَولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾، ولم يَقُلْ: لهم ما يَطلُبونَه مِن ذلك الفَضلِ؛ وذلك لأنَّ المُؤمِنَ عندَ العَمَلِ لم يلتَفِتْ إلى عَمَلِه، ولم يَجعَلْ له أجرًا يَعتَدُّ به، فقال: لا أبتَغي إلَّا فَضْلَك. واللهُ تعالى آتاه ما آتاه مِنَ الفَضلِ، وسَمَّاه أجرًا؛ إشارةً إلى قَبولِ عَمَلِه، ووُقوعِه الموقِعَ، وعَدَمِ كَونِه عندَ اللهِ نَزْرًا لا يَستَحِقُّ عليه المُؤمِنُ أجرًا[٣]!

٧- أنَّ مَقولةَ بَعضِهم: «إنَّ الإخلاصَ حَقيقةً أنْ تَعبُدَ اللهَ للهِ، لا لِثَوابِ اللهِ!»: خَطَأٌ؛ لأنَّه مخالِفٌ لِهَدْيِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٣/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٠).

رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، فهم يَبتَغونَ الفَضلَ والرِّضوانَ، لكِنَّ ذلك القَولَ المشارَ إليه هو قَولُ بَعضِ الصُّوفيَّةِ؛ يَقولونَ: إنَّك إذا لاحَظْتَ الثَّوابَ فقد أشرَكْتَ في العبادةِ! نسألُ اللهَ العافيةَ. واللهُ عزَّ وجَلَّ يُرشِدُنا إلى هذا، ويُبَيِّنُ أنَّ هذا هو طريقُ الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وأصحابِه(١).

٨- عن أبي عُروةَ الزُّبَيْرِيِّ، قال: (كنَّا عندَ مالكٍ فذكروا رجُلًا يَنتقِصُ أصحابَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقرأ مالكٌ هذه الآيةَ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾، فقال مالكٌ: مَن أصبَحَ وفي قلبِه غَيظٌ على أحدٍ مِن أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقد أصابَتْهُ الآيةُ)(٢).

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ لِبَيانِ ترَتُّبِ المَغفِرةِ على الإيمانِ -فإنَّ كُلَّ مُؤمِنٍ يُغفَرُ له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]- وترتُّبِ الأجرِ العَظيمِ على العَمَلِ الصَّالِحِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((السنة)) لأبي بكرٍ الخلَّال (٧٦٠)، ((حلية الأولياء)) لأبي نُعَيم (٦/ ٣٢٧).

قال القرطبي: (لقد أحسَنَ مالكٌ في مَقالَتِه، وأصاب في تأويلِه، فمَنْ نقَصَ واحدًا منهم أو طعَنَ عليه في روايتِه فقد رَدَّ على اللهِ ربِّ العالَمينَ، وأبطَلَ شرائعَ المسلمينَ؛ فالصَّحابةُ كلُّهم عُدولٌ، أولياءُ اللهِ تعالى وأصفياؤُه، وخِيرتُه من خَلقِه بعدَ أنبيائِه ورُسلِه، هذا مَذهبُ أهلِ السُّنَّةِ، والَّذي عليه الجماعةُ من أئمَّةِ هذه الأُمَّةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٧، ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٠).

١٠- قد اجتمَع حُروفُ المُعجَمِ التِّسعةُ والعِشرونَ في هذه الآيةِ الكريمةِ، وهي: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ...﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ، أوَّلُ حُروفِ المُعجمِ فيها (ميم) مِن ﴿مُّحَمَّدٌ﴾، وآخِرُها (صاد) مِن ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فبِه تَكتمِلُ حُروفُ المُعجمِ فيها. وتقدَّم نظيرُ ذلك في سورةِ آلِ عِمْرانَ، في قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ...﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وليس في القرآنِ آيتانِ كلُّ آيةٍ حَوَتْ حُروفَ المُعجَمِ غيرهما[١].

بلاغةُ الآيةِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾

- قَولُه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ...﴾ ليس المقصودُ إفادةَ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وإنَّما المَقصودُ بَيانُ رسولِ اللهِ مَن هو؟ بعْدَ أنْ أجْرى عليه مِن الأخبارِ مِن قولِه: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧] إلى قولِه: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨]، فيُعَدُّ السَّامعُ كالمُشتاقِ إلى بَيانِ مَن هذا المُتحدَّثُ عنه بهذه الأخبارِ، فيُقالُ له: محمَّدٌ رسولُ اللهِ، أي: هو محمَّدٌ رسولُ اللهِ، وهذا مِن العِنايةِ والاهتِمامِ بذِكْرِ مَناقبِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فتُعَدُّ الجُملةُ المَحذوفُ مُبتَدؤُها مُستأنَفةً استِئنافًا بيانيًّا[٢].

وفي هذا أيضًا نِداءٌ على إبطالِ جُحودِ المشركينَ رِسالتَه حِينَ امتَنَعوا مِن أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٣).

يَكتُبَ في صَحيفةِ الصُّلحِ: ((هذا ما قاضَى عليه مُحمَّدٌ رسولُ اللهِ، وقالوا: لو كنَّا نعلَمُ أنَّكَ رسولُ اللهِ ما صَدَدْناك عن البَيتِ))[(١)].

- والمقصودُ مِن قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ الثَّناءُ على أصحابِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَشريفًا لهم وكَرامةً، ومعنى ﴿مَعَهُۥٓ﴾ المُصاحَبةُ الكامِلةُ بالطَّاعةِ والتَّأييدِ[(٢)].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ مِن أُسلوبِ التَّكميلِ؛ فإنَّه لو اكْتَفَى به لَأوْهَمَ الفَظاظةَ والغِلْظةَ، فكمَّلَ بقولِه: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾، يعني أنَّهم معَ كونِهم أشِدَّاءَ على الأعداءِ رُحَماءُ فيما بيْنَهم، أربابُ وَقارٍ وتراحُمٍ[(٣)].

- وفي تَعليقِ ﴿رُحَمَآءُ﴾ مع ظَرْفِ (بيْن) المُفيدِ للمَكانِ الدَّاخلِ وسَطَ ما يُضافُ هو إليه؛ تَنْبيهٌ على انبثاثِ التَّراحُمِ فيهم جميعًا[(٤)].

- قَولُه: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ فيه إيثارُ صِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ ذلك، أي: تَراهم كُلَّما شِئتَ أنْ تَراهم رُكَّعًا سُجَّدًا، وهذا ثَناءٌ عليهم بشِدَّةِ إقبالِهم على أفضَلِ الأعمالِ المُزَكِّيةِ للنَّفْسِ، وهي الصَّلَواتُ مَفروضُها ونافِلَتُها، وأنَّهم يَتطلَّبون بذلك رِضا اللهِ ورِضوانَه. وفي سَوقِ هذا في مَساقِ الثَّناءِ إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ حقَّقَ لهم ما يَبتَغونه[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٣).
والحديث أخرجه البخاري (٢٧٣١) و(٢٧٣٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والإشارةُ في قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ إلى ما سبَقَ مِن نُعوتِهم الجَليلةِ، وما في الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ من مَعنى البُعدِ، معَ قُرْبِ العَهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإيذانِ بعُلوِّ شأْنِه، وبُعدِ مَنزلتِه في الفَضلِ[1].

- وقولُه: ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿مَثَلُهُمۡ﴾، أو حالٌ منه؛ فيَحتمِلُ أنَّ في التَّوراةِ وصْفَ قومٍ سيَأْتون، ووُصِفوا بهذه الصِّفاتِ، فبيَّنَ اللهُ بهذه الآيةِ أنَّ الَّذين معَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هم المَقصودُون بتِلك الصِّفةِ العَجيبةِ الَّتي في التَّوراةِ، أي: إنَّ التَّوراةَ قد جاءتْ فيها بِشارةٌ بمَجيءِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووَصْفُ أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

- قَولُه: ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ هذا مثَلٌ ضرَبَه اللهُ لبَدْءِ أمْرِ الإسلامِ، وتَرقِّيه في الزِّيادةِ إلى أنْ قوِيَ واستَحْكَمَ، ومعنى هذا التَّمثيلِ تَشبيهُ حالِ بَدءِ المُسلِمينَ ونَمائِهم حتَّى كَثُروا، وذلك يَتضمَّنُ تَشبيهَ بَدْءِ دِينِ الإسلامِ ضَعيفًا، وتَقوِّيه يومًا فيومًا حتَّى استَحكَمَ أمْرُه، وتغلَّبَ على أعدائِه. وهذا التَّمثيلُ قابِلٌ لاعتِبارِ تَجزئةِ التَّشبيهِ في أجزائِه؛ بأنْ يُشبَّهَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالزَّارِعِ، ويُشبَّهَ المؤمِنونَ الأوَّلونَ بحَبَّاتِ الزَّرعِ الَّتي يَبذُرُها في الأرضِ، مِثلُ أبي بكرٍ وخديجةَ، وعليٍّ وبِلالٍ وعَمَّارٍ، والشَّطْءُ: مَن أيَّدوا المُسلِمينَ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دعا إلى اللهِ وحْدَه، وانضمَّ إليه نفَرٌ قليلٌ، ثمَّ قَوَّاه اللهُ بمَنْ آمَنَ معَه، كما يُقوِّي الطَّاقةَ الأُولى مِن الزَّرعِ ما يَحتَفُّ بها ممَّا يَتولَّدُ منها حتَّى يُعجِبَ الزُّرَّاعَ، وقولُه: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ تَحسينٌ للمُشَبَّهِ به؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٧).

لِيُفيدَ تحسينَ المُشَبَّهِ[(١)].

- ومعنَى ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ غلُظَ غِلَظًا شَديدًا في نَوعِه؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ، مِثل استجابَ[(٢)].

- قَولُه: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ تَعليلٌ لِمَا دلَّ عليه تَشبيهُهم بالزَّرعِ في زَكائِه واستِحكامِه، ومِن نَمائهم وقُوَّتِهم، كأنَّه قيلَ: إنَّما قوَّاهم وكثَّرَهم؛ لِيَغيظَ بهم الكفَّارَ. ويجوزُ أنْ يُعلَّلَ به ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ الكُفَّارَ إذا سمِعوا بما أُعِدَّ لهم في الآخِرةِ معَ ما يُعِزُّهم به في الدُّنيا، غاظَهم ذلك[(٣)].

- وفي قَولِه في خِتامِ هذه السُّورةِ العَظيمةِ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ أعقَبَ تَنويهَ شأْنِهم والثَّناءَ عليهم بوَعْدِهم بالجَزاءِ على ما اتَّصَفوا به مِن الصِّفاتِ الَّتي لها الأثرُ المَتينُ في نَشْرِ هذا الدِّينِ ونصْرِه[(٤)].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٩، ٢١٠).

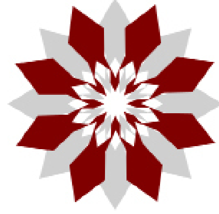
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٩).

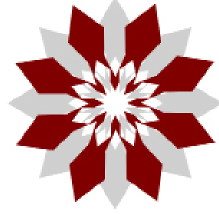
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٠).

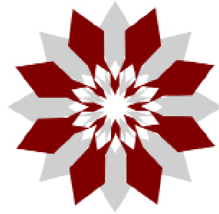
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٠).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الحُجُراتِ







سُورةُ الحُجُراتِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحُجُراتِ)(١).

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الحُجُراتِ مَدَنيَّةٌ(٢)، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ(٣).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ الكريمةِ:

إرشادُ المُؤمِنينَ إلى مَكارِمِ الأخلاقِ مع اللهِ تعالى، ومع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومع المؤمنينَ(٤).

---

(١) سُمِّيت سورةَ (الحُجُراتِ)؛ لأنَّه ذُكِرَ فيها لَفظُ (الحُجُراتِ)، في قَولِ الله تعالى: ﴿يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ [الحجرات: ٤]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٣).

قال ابنُ عاشور: (سُمِّيَت في جميعِ المصاحِفِ وكُتُبِ السُّنَّةِ والتَّفسيرِ سُورةَ الحُجُراتِ، وليس لها اسمٌ غَيرُه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٩).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٠)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٢٩٦).

قال الرازي: (هذه السُّورةُ فيها إرشادُ المؤمنينَ إلى مَكارِمِ الأخلاقِ، وهي إمَّا مع اللهِ تعالى، أو مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو مع غَيرِهم مِن أبناءِ الجِنسِ، وهم على صِنْفَينِ؛ لأنَّهم إمَّا أنْ يَكونوا على طَريقةِ المؤمنينَ وداخِلينَ في رُتبةِ الطَّاعةِ، أو خارجًا عنها وهو الفاسقُ، والدَّاخِلُ في طائفتِهم السَّالكُ لطَريقتِهم إمَّا أنْ يكونَ حاضرًا عندَهم، أو غائبًا عنهم، فهذه خمْسةُ =

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلتْ عليها السُّورةُ:

١- تعليمُ المُؤمِنينَ ما يجِبُ عليهم نحوَ خالِقِهم، ونحوَ نَبيِّهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مِن أدَبٍ.

٢- أمْرُ المُؤمِنينَ بالتَّثبُّتِ مِن صِحَّةِ الأخبارِ الَّتي تَصِلُ إلى مَسامِعِهم.

٣- بيانُ جانبٍ مِن مَظاهِرِ فَضلِ اللهِ على المؤمِنينَ.

٤- بيانُ ما يجِبُ على المؤمِنينَ نحوَ إخوانِهم عندَ حُدوثِ قِتالٍ بيْنَهم؛ مِنَ الإصلاحِ بيْنَهم، ومُقاتَلةِ الفِئةِ الباغيةِ إذا ما أصَرَّتْ على بَغْيِها وأَبَت الصُّلحَ، إلى أن تَفيءَ إلى أمرِ اللهِ تعالى.

٥- نَهيُ المُؤمنينَ عن السُّخْريَةِ، والأمرُ باجتِنابِ الظَّنِّ السَّيِّئِ بالغَيرِ، والنَّهيُ

= أقسام؛ أحدُها: يَتعلَّقُ بجانِبِ اللهِ، وثانيها: بجانبِ الرَّسولِ، وثالثُها: بجانبِ الفُسَّاقِ، ورابعُها: بالمؤمنِ الحاضرِ، وخامسُها: بالمؤمنِ الغائبِ، فذكَرَهم اللهُ تعالى في هذه السُّورةِ خمْسَ مرَّاتٍ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وأرشَدَهم في كلِّ مرَّةٍ إلى مَكرُمةٍ مع قِسمٍ من الأقسامِ الخمْسةِ؛ فقال أوَّلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، وذِكرُ الرَّسولِ كان لبَيانِ طاعةِ اللهِ؛ لأنَّها لا تُعلَمُ إلَّا بقَولِ رسولِ اللهِ، وقال ثانيًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]؛ لبَيانِ وُجوبِ احترامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال ثالثًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾؛ لبَيانِ وُجوبِ الاحترازِ عن الاعتِمادِ على أقوالِهم؛ فإنَّهم يُريدون إلقاءَ الفِتنةِ بيْنَكم، وقال رابعًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ [الحجرات: ١١]، وقال: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ﴾ [الحجرات: ١١]؛ لبَيانِ وُجوبِ ترْكِ إيذاءِ المؤمنينَ في حُضورِهم والازدِراءِ بحالِهم ومَنصِبِهم، وقال خامسًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾؛ لبَيانِ وُجوبِ الاحترازِ عن إهانةِ جانبِ المؤمنِ حالَ غَيبتِه وذِكْرِ ما لو كان حاضرًا لَتَأذَّى، وهو في غايةِ الحُسْنِ مِن التَّرتيبِ)). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٧، ٩٨) بتصرف.

عن التَّجَسُّسِ والغِيبةِ.

٦- تَوجيهُ نِداءٍ إلى النَّاسِ يُبيِّنُ لهم فيه أنَّهم جميعًا قد خُلِقوا مِن ذَكَرٍ وأُنثَى، وأنَّ أكرَمَهم عندَ اللهِ هو أتقاهم له.

٧- الرَّدُّ على الأعرابِ الَّذين قالوا: آمَنَّا، دونَ أن يَستَقِرَّ الإيمانُ في قُلوبِهم، وتوضيحُ صِفاتِ المُؤمِنينَ الصَّادِقينَ.

٨- ذمُّ المَنِّ على اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإيمانِ، وأنَّ المِنَّةَ لله تعالى والفَضلَ في الهدايةِ للإيمانِ.

٩- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بإحاطةِ عِلمِ اللهِ تعالى بغَيبِ السَّمَواتِ والأرضِ، وكَونِه بَصيرًا بالأعمالِ.



الآيات (١-٥)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿تَحْبَطَ﴾: أي: تَبطُلَ؛ فالحَبْطُ: البُطلانُ، وأصلُه مِن الحَبَطِ، وهو: أنْ تُكثِرَ الدَّابَّةُ أكْلًا حتَّى يَنتفِخَ بطْنُها فتَمُوتَ[1].

﴿يَغُضُّونَ﴾: أي: يَخفِضُون ويَكُفُّون، والغضُّ: الكَفُّ في لِينٍ، ومنه: غضُّ البصَرِ، وهو كَفُّه عن النَّظَرِ، وأصلُ (غضض): يدُلُّ على كَفٍّ ونقْصٍ[2].

﴿امْتَحَنَ﴾: أي: اختبَرَ أو أخْلَصَ، والمَحْنُ: الاختبارُ[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٣٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٥).

قولُه تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ فيه وَجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّه مُتعَدٍّ، وحُذِفَ مَفعولُه: إمَّا اقتِصارًا، كقولِهم: هو يُعْطي ويَمنَعُ، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ [البقرة: ١٨٧]، وإمَّا اختِصارًا؛ لِلدَّلالةِ عليه، أي: لا تُقَدِّموا ما لا يَصلُحُ. والثَّاني: أنَّه لازِمٌ، نحْوُ وَجَّه وتَوَجَّه[١].

٢- قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾

قَولُه تَعالى: ﴿كَجَهْرِ﴾ شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ في مَوضِعِ نصْبٍ نَعتٌ لِمَصدرٍ مَحْذوفٍ، تَقديرُه: جَهرًا كجَهْرِ...[٢].

وقولُه: ﴿أَنْ تَحْبَطَ﴾ مَفعولٌ مِن أجْلِه، وهو تَعليلٌ لِما قَبْلَه مِنَ النَّهيَينِ ﴿لَا تَرْفَعُوا﴾ و(لَا تَجْهَرُوا) على طريقِ التَّنازُعِ، بتقديرِ مُضافٍ، أي: مَخافةَ أنْ تَحبَطَ[٣].

٣- قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾

قولُه: ﴿أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ فاعلٌ بفِعلٍ مُقدَّرٍ، أي: ولو ثبَتَ صبْرُهم، واسمُ (كان) ضَميرٌ عائدٌ على هذا الفاعلِ. أو في مَحلِّ رفْعٍ بالابتداءِ، وخبَرُه مَحذوفٌ، ويكونُ اسمُ (كان) ضَميرًا عائدًا على (صَبْرِهم) المفهومِ مِن الفعلِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ أنْ يَتقدَّموا بيْنَ يَدَيِ اللهِ ورسولِه بقولٍ أو فِعلٍ، ويَأمُرُهم أنْ يَتَّقُوه بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهِيه، فإنَّ اللهَ سبحانَه سَميعٌ لِكلِّ

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٨٠).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٨٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٥، ٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٧).

شَيءٍ، ومِن ذلك أقوالُهم، عليمٌ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك أعمالُهم ونيَّاتُهم.

ويَنهاهم كذلك عن أنْ يُعْلوا أصْواتَهم فوقَ صَوتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعن أنْ تكونَ مُناداتُهم له باسمِه كما يكونُ النِّداءُ بيْنَهم بَعضِهم لبعضٍ؛ وذلك مَخافةَ أنْ تَبطُلَ أعمالُهم الصَّالِحةُ وهم لا يَشعُرون بذلك.

ثمَّ بيَّن تعالى أنَّ الَّذين يَخفِضونَ أصواتَهم عندَ رسولِ اللهِ أولئك الَّذين اختبَرَ اللهُ قُلوبَهم فأخلَصَها وطهَّرها؛ لِيَكونوا أتْقياءَ، وأنَّ لهم مَغفرةً مِن اللهِ وثَوابًا عَظيمًا.

ثمَّ قال لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ الَّذين يُنادونَك يا محمَّدُ مِن وَراءِ بُيوتِ نِسائِك، أكثرُهم جاهِلون بدِينِ اللهِ، وما يجبُ تُجاهَك، ولو أنَّهم انتَظَروا حتَّى تَخرُجَ مِنْ بَيتِك مِن تِلْقاءِ نفْسِك، لَكان هذا خيرًا لهم، واللهُ غفورٌ رَحيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ رضِيَ اللهُ عنهما: (أنَّه قَدِمَ رَكْبٌ[1] مِن بني تَميمٍ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال أبو بكرٍ: أمِّرِ القَعْقاعَ بنَ مَعبَدِ بنِ زُرارةَ، قال عُمَرُ: بلْ أمِّرِ الأقرعَ بنَ حابِسٍ، قال أبو بكرٍ: ما أرَدْتَ إلَّا خِلافي! قال عمَرُ: ما أردْتُ خِلافَك، فتَمارَيا[2] حتَّى ارتفَعَت أصواتُهما، فنزَلَ في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) الرَّكْبُ: أصحابُ الإبلِ في السَّفَرِ، وهم العَشَرةُ فما فَوقَها. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٢٧).

(٢) فتَمارَيَا: أي: تجادَلَا وتخاصَمَا. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٩/ ١٨٤).

ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾ حتَّى انقَضَت)[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَعجَلوا بقَولٍ أو فِعلٍ قبْلَ أنْ يَأمُرَ به اللهُ ورسولُه، فكونوا تَبَعًا لِما يَأْمُرانِ به[2].

---

(١) رواه البخاري (٤٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧ - ٩).

قال الشوكاني: (... ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾... فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه مُتعَدٍّ وحُذِفَ مَفعولُه لِقَصدِ التَّعميمِ، أو تُرِكَ المفعولُ للقَصدِ إلى نفْسِ الفِعلِ، كقَولِهم: هو يُعطي ويمنَعُ. والثَّاني: أنَّه لازِمٌ، نحوُ: وَجَّه وتَوَجَّه، ويُعَضِّدُه قِراءةُ ابنِ عبَّاسٍ والضَّحَّاكِ ويَعقوبَ: ﴿تَقَدَّمُوا﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٩).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحَدُها: لا تَتكَلَّموا بأمرٍ قبْلَ أن يَتكلَّمَ هو به، ولا تَقطَعوا في أمرٍ إلَّا بنَظَرِه. والثَّاني: لا تُقَدِّموا الوُلاةَ بمَحضَرِه؛ فإنَّه يُقدِّمُ مَن شاء. والثَّالِثُ: لا تَتَقدَّموا بيْنَ يديه إذا مشَى، وهذا إنَّما يجري على قراءةِ يَعقوبَ: ﴿لَا تَقَدَّمُوا﴾ بفَتحِ التَّاءِ والقافِ والدَّالِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٩٤).

وقال القرطبي: (أي: لا تُقَدِّموا قَولًا ولا فِعلًا بيْنَ يَدَيِ اللهِ وقَولِ رَسولِه وفِعْلِه فيما سَبيلُه أن تأخُذوه عنه مِن أمرِ الدِّينِ والدُّنيا، ومَن قدَّم قَولَه أو فِعْلَه على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقد قدَّمه على الله تعالى؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إنَّما يأمُرُ عن أمْرِ اللهِ عزَّ وجَلَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٠).

وقال ابن القيِّم: (أي: لا تَقولوا حتَّى يقولَ، ولا تأمُروا حتَّى يأمُرَ، ولا تُفْتُوا حتَّى يُفْتيَ، ولا تَقطَعوا أمرًا حتَّى يكونَ هو الَّذي يَحكُمُ فيه ويُمْضيه... والقَولُ الجامعُ في معنى الآيةِ: لا تَعْجَلوا بقَولٍ ولا فِعْلٍ قبْلَ أن يَقولَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو يَفعَلَ). ((إعلام الموقعين)) (١/ ٤١).

ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦٧).

وقال ابن عُثيمين: (أي: لا تَتقدَّموا بيْنَ يَدَيِ اللهِ ورَسولِه، والمرادُ: لا تَسبِقوا اللهَ ورَسولَه بقَولٍ أو بفِعلٍ. وقيل: المعنى: لا تُقدِّموا شيئًا بيْنَ يَدَيِ اللهِ ورَسولِه. وكِلاهما يَصُبَّانِ في مَصَبٍّ =

كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن رغِبَ عن سُنَّتي فليس مِنِّي))[١].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَهى، أمَرَ بالتَّقْوى؛ لأنَّ مِن التَّقوى اجتِنابَ المنْهيِّ عنه[٢].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

أي: واتَّخِذوا بيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه وِقايةً وحاجزًا بفِعلِ أوامِرِه واجتنابِ نَواهِيه، واحْذَروا أنْ تَقولوا أو تَفعَلوا شيئًا لم يَأذَنْ لكم به اللهُ ولا

= واحِدٍ، والمعنى: لا تَسبِقوا اللهَ ورَسولَه بقَولٍ ولا فِعلٍ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات – الحديد)) (ص: ٧).

وقال الشنقيطي: (هذه الآيةُ الكريمةُ فيها التَّصريحُ بالنَّهيِ عن التَّقديمِ بيْنَ يَدَيِ اللهِ ورَسولِه، ويَدخُلُ في ذلك دُخولًا أوَّليًّا تشريعُ ما لم يأذَنْ به اللهُ، وتحريمُ ما لم يُحرِّمْه، وتحليلُ ما لم يُحلِّلْه؛ لأنَّه لا حرامَ إلَّا ما حرَّمه اللهُ، ولا حلالَ إلَّا ما أحلَّه اللهُ، ولا دِينَ إلَّا ما شرَعه اللهُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٠١).

وقال ابن الجوزي: (﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ... عبارةٌ عن الأمامِ؛ لأنَّ ما بيْنَ يَدَيِ الإنسانِ أمامَه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٤٣).

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٧).

رسولِه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سَميعٌ لِكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك أقوالُ عِبادِه، عليمٌ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك أعمالُ عِبادِه وقُلوبُهم ونِيَّاتُهم، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أُمورِهم(٢).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا شُروعٌ في النَّهيِ عنِ التَّجاوُزِ في كَيفيَّةِ القَولِ عندَ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بعْدَ النَّهيِ عنِ التَّجاوُزِ في نفْسِ القولِ والفِعلِ(٣).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ أبي مُلَيكةَ، قال: (كادَ الخَيِّرانِ أنْ يَهلِكَا: أبو بكرٍ وعمَرُ رضِيَ اللهُ عنهما! رفَعَا أصواتَهما عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ قَدِمَ عليه ركْبُ بني تَميمٍ، فأشار أحَدُهما بالأقرَعِ بنِ حابسٍ أخي بَني مُجاشِعٍ، وأشار الآخَرُ برَجُلٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٦).

آخَرَ، فقال أبو بكرٍ لعُمَرَ: ما أردْتَ إلَّا خِلافي، قال: ما أردْتُ خِلافَك، فارتفَعَتْ أصواتُهما في ذلك، فأنزَلَ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾))[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَرْفَعوا أصواتَكم فوقَ صَوتِ نبيِّ اللهِ محمَّدٍ؛ فاخْفِضوا أصواتَكم، وخاطِبوه بأدَبٍ ولِينٍ وتَعظيمٍ واحترامٍ[2].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم افتقَدَ ثابتَ ابنَ قَيسٍ، فقال رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أنا أعلَمُ لكَ عِلْمَه، فأتاهُ فوجَدَه جالسًا في بَيتِه مُنكِّسًا رأْسَه[3]، فقال: ما شأْنُك؟ فقال: شرٌّ، كان يَرفَعُ صَوتَه فوقَ صَوتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقد حبِطَ عمَلُه، وهو مِن أهلِ النَّارِ، فأتى الرَّجُلُ فأخبَرَه أنَّه قال كذا وكذا، فقال مُوسى بنُ أنسٍ: فرجَعَ المرَّةَ الآخِرةَ ببِشارةٍ عَظيمةٍ، فقال: اذهَبْ إليه فقُلْ له: إنَّك لسْتَ مِن أهْلِ النَّارِ، ولكنْ مِن أهْلِ الجنَّةِ))[4].

---

(١) رواه البخاري (٤٨٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٥-٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠١).

قال الشنقيطي: (ما تَضمَّنَته هذه الآيةُ الكريمةُ مِن لُزومِ تَوقيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَعظيمِه واحترامِه؛ جاء مُبيَّنًا في مَواضِعَ أُخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، على القولِ بأنَّ الضَّميرَ في ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وقولِه تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾ [النور: ٦٣]...، وقولِه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٠٢).

(٣) نكَّسَ رأسَه: أي: طأطَأَ وأطرَقَ ونظَرَ إلى الأرضِ كالمُتفكِّرِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٦/ ١٦٦).

(٤) رواه البخاري (٣٦١٣) واللفظ له، ومسلم (١١٩).

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾.

أي: ولا تُنادوا النَّبيَّ باسْمِه حينَ تُخاطِبونه كما يُنادي بعضُكم بعضًا، ولكنْ قُولوا: يا نبيَّ اللهِ، أو: يا رسولَ اللهِ، بصَوتٍ مُنخفِضٍ، مع تَعظيمٍ وإجلالٍ يَليقُ به(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠١، ٤٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّ الجهرَ بالصَّوتِ في المُخاطَبةِ، قاله الأكثرونَ.

والثَّاني: لا تَدْعوه باسمِه: يا محمَّدُ، كما يَدعو بعضُكم بعضًا، ولكنْ قولوا: يا رسولَ الله، ويا نبيَّ الله. وهو معنى قولِ سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، والضَّحَّاكِ، ومُقاتِلٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٤٣).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: السَّمْعانيُّ، والزمخشري، والبيضاوي، وابنُ كثير، والبقاعي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٠).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، ومكِّي، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والخازن، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٢٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٨٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٧١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠١).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: مُجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٨، ٣٣٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٤٣).

وممَّن جمَع بيْنَ القولَينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦).

كما قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

أي: لا تَفعَلوا ذلك؛ لئلَّا تَبطُلَ أعمالُكم الصَّالِحةُ وأنتم لا تَعلَمون بذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

وعن أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبْدَ لَيَتكلَّمُ بالكَلمةِ ما يَتبيَّنُ ما فيها، يَهْوي بها في النَّارِ أبْعَدَ ما بيْنَ المَشرِقِ والمغرِبِ!))[2].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَخفِضونَ أصواتَهم عندَ رسولِ الله؛ أدَبًا معه وتَعظيمًا له: هم الَّذين اختبَرَ اللهُ قُلوبَهم بالأوامرِ والنَّواهي والبَلاءِ، فأخلَصَها وطهَّرها من كلِّ شرٍّ؛ لِيَكونوا أتْقياءَ يَمتثِلونَ الأوامرَ، ويَجتنِبونَ النَّواهيَ؛ حذَرًا من سَخَطِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٧).
قال ابن تَيميَّةَ: (﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، أي: حذَرَ أن تحبَطَ أعمالُكم، أو خشيةَ أن تَحبَطَ أعمالُكم، أو كَراهةَ أن تَحبَطَ، أو مَنْعَ أن تَحبَطَ، هذا تقديرُ البَصريِّينَ، وتقديرُ الكوفيِّينَ: لئلَّا تَحبَطَ). ((الصارم المسلول)) (ص: ٥٤).
(٢) رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) واللَّفظُ له.

وعَذابِه(١).

كما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمةَ، ومَرْوانَ بنِ الحَكَمِ في حديثِ صُلْحِ الحُدَيبيَةِ: ((... قال عُروةُ بنُ مَسعودٍ الثَّقَفيُّ لِقُريشٍ حِينَ رجَعَ مِن عندِ رسولِ اللهِ: أيْ قَومِ، واللهِ لقد وفَدْتُ على الملوكِ، ووفَدْتُ على قَيصرَ، وكِسرى، والنَّجاشيِّ، واللهِ إنْ رأيتُ مَلِكًا قَطُّ يُعظِّمُه أصحابُه ما يُعظِّمُ أصحابُ محمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- محمَّدًا، واللهِ إنْ تَنخَّمَ نُخامةً إلَّا وقَعَت في كفِّ رجُلٍ منهم، فدلَكَ بها وجْهَه وجِلْدَه، وإذا أمَرَهم ابتَدَروا(٢) أمْرَه، وإذا توضَّأَ كادُوا يَقتَتِلون على وَضوئِه(٣)، وإذا تكلَّمَ خَفَضوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّون(٤) إليه النَّظَرَ؛ تَعظيمًا له))(٥).

وعن حُذيفةَ بنِ اليَمانِ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((تُعرَضُ الفِتنُ على القُلوبِ كالحصيرِ عُودًا عُودًا(٦)، فأيُّ قلْبٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٣).
قال ابن الأنباري: (قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ معناه: اختارها وأخلَصها). ((الزاهر في معاني كلمات الناس)) (١/ ٤٠٦).

(٢) ابتَدَروا أمْرَه: أي: أسرَعوا إلى فِعْلِه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٤/ ٤٤٧).

(٣) وَضُوئِه، بفتحِ الواوِ: أي: فَضلةِ الماءِ الَّذي توضَّأَ به صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٤/ ٤٤٧).

(٤) ما يُحِدُّونَ إليه النَّظَرَ: أي: لا يَتأمَّلونَه ولا يُديمونَ النَّظَرَ إليه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٤/ ٤٤٧).

(٥) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٦) أي: تَظهَرُ بها فِتنةٌ بعدَ أخرى، كما يُنسَجُ الحَصيرُ عُودًا عُودًا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٨/ ٣٣٧٨).

أُشرِبَها، نُكِت[١] فيه نُكْتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قلْبٍ أنكَرَها، نُكِت فيه نُكْتةٌ بَيضاءُ، حتَّى تَصيرَ على قَلبَينِ؛ على أبيضَ مِثلِ الصَّفا[٢]، فلا تضُرُّه فِتْنةٌ ما دامَتِ السَّمواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسودُ مُرْبَادًّا[٣]، كالكُوزِ مُجَخِّيًا[٤]، لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلَّا ما أُشرِبَ مِن هَواهُ))[٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: (كان عمَرُ بعْدُ [أي: بعدَ نزولِ قولِه تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ...﴾] إذا حدَّثَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحديثٍ حدَّثَه كأخِي السِّرارِ[٦]، لم يُسْمِعْه حتَّى يَستفهِمَه)[٧].

وعن عمْرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللهُ عنه، قال: (ما كان أحدٌ أحَبَّ إلَيَّ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا أجَلَّ في عَينيَّ منه، وما كنتُ أُطِيقُ أنْ أملأَ عَينيَّ منه؛ إجلالًا له، ولو سُئِلتُ أنْ أصِفَه ما أطقْتُ؛ لأنِّي لم أكُنْ أملأُ عَيْنيَّ منه!)[٨].

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: لهم مِن اللهِ مَغفرةٌ لذُنوبِهم فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها،

(١) نُكِتَ: أي: نُقِطَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٢).
(٢) الصَّفا: أي: الحَجَرِ الأملَسِ الَّذي لا يَعلَقُ به شَيءٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٢).
(٣) مُرْبادًّا: أي: صار كلَونِ الرَّمادِ، مِنَ الرُّبْدةِ: لَونٌ بيْنَ السَّوادِ والغَبَرةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٣٧٨).
(٤) مُجَخِّيًا: أي: مائِلًا مَنكوسًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٣).
(٥) رواه مسلم (١٤٤).
(٦) أي: كصاحِبِ السِّرارِ لا يرفَعُ صَوتَه إذا حدَّثَه، بل يكَلِّمُه كلامًا مِثلَ المُسارَّةِ وشِبْهِها؛ لِخَفضِ صَوتِه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١٠/ ٣١٦).
(٧) رواه البخاري (٧٣٠٢).
(٨) رواه مسلم (١٢١).

ولهم ثوابٌ منه جَزيلٌ(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

المُناسَبةُ أنَّ المُناداةَ مِن وَراءِ الحُجراتِ فيها رفْعُ الصَّوتِ وإساءةُ الأدَبِ، واللهُ قد أمَرَ بتَوقيرِ رَسولِه وتَعظيمِه(٢).

وأيضًا لَمَّا نَهى اللهُ سُبحانه عن الإخلالِ بالأدَبِ، وأمَرَ بالمُحافَظةِ على التَّعظيمِ، وذكَرَ وصْفَ المُطيعِ؛ أتْبَعَ ذلك -على سَبيلِ النَّتيجةِ- وصْفَ مَن أخَلَّ به(٣).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾.

أي: إنَّ الَّذين يُنادونَك مِن وَراءِ بُيوتِ نِسائِك -يا محمَّدُ- أكثَرُهم جاهِلون بدِينِ الله وما يجِبُ عليهم مِن تَعظيمِك، والتَّأدُّبِ معك(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٥).

قال النَّيْسابوري: (أمَّا إخبارُ اللهِ تعالى عنهم بأنَّ أكثَرَهم لا يَعقِلون؛ فإمَّا لأنَّ الأكثَرَ أُقيمَ مُقامَ الكلِّ على عادةِ الفُصحاءِ كَيْلَا يكونَ الكلامُ بصَددِ المنعِ، وإمَّا لأنَّ الحُكمَ بقِلَّةِ العُقَلاءِ فيهم عِبارةٌ عن العدَمِ؛ فإنَّ القِلَّةَ تقَعُ مَوقعَ النَّفْيِ في كلامِهم، وإمَّا لأنَّ فيهم مَن رجَع ونَدِم على صَنيعِه، فاستَثْناه اللهُ تعالى). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٥٩).

وقال الألوسي: (الحُكمُ على الأكثَرِ دُونَ الكلِّ بذلك؛ لأنَّ منهم مَن لم يَقصِدْ ترْكَ الأدبِ، بل نادى لأمرٍ ما على ما قيل. وجُوِّزَ أن يكونَ المرادُ بالقِلَّةِ الَّتي يدُلُّ عليها نفْيُ الكَثرةِ العدَمَ؛ =

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضيَ اللهُ عنهما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، قال: ((فقام رجُلٌ فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ حمْدي زَينٌ، وإنَّ ذمِّي شَينٌ! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ذاك اللهُ))(١).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

= فإنَّه يُكْنى بها عنه، وتعقَّبه أبو حيَّان بأنَّ ذلك في صريحِ القِلَّةِ، لا في المفهومِ مِن نفْيِ الكَثرةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٩٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١١).

وقال القاسمي: (ونسَب إلى الأكثَرِ؛ لأنَّه قد يَتبعُ عاقِلٌ جماعةَ الجهَّالِ، مُوافقةً لهم). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥١٩).

وقال ابن عثيمين: (وقَولُه: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يُفهَمُ منه أنَّ بَعضَهم يَعقِلُ، وأنَّه لم يَحصُلْ منه رفْعُ صَوتٍ، بل هو متأدِّبٌ مع رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١).

قال البقاعي: (﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنَّهم لم يَصبِروا، بل فعَلوا معه صلَّى الله عليه وسلَّم كما يَفعَلُ بعضُهم مع مَن يُماثِلُه! والعَقلُ يَمنعُ مِن مِثلِ ذلك لِمَن اتَّصَف بالرِّئاسةِ، فكيف إذا كانت رِئاسةَ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ عن المَلِكِ الجَبَّارِ، الواحِدِ القَهَّارِ؟!). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٣٦١).

وقال ابن عُثيمين: (المرادُ بالعَقلِ هنا عَقلُ الرُّشدِ؛ لأنَّ العَقلَ عَقلانِ: عَقلُ رُشدٍ، وعَقلُ تكليفٍ؛ فأمَّا عَقلُ الرُّشدِ فضِدُّه السَّفَهُ، وأمَّا عَقلُ التَّكليفِ فضِدُّه الجُنونُ... فالمرادُ بقَولِه هنا: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: عَقْلَ رُشْدٍ؛ لأنَّهم لو كانوا لا يَعقِلونَ عَقْلَ تكليفٍ لم يكُنْ عليهم لَومٌ ولا ذَمٌّ؛ لأنَّ المجنونَ فاقدُ العَقلِ، لا يَلحَقُه لَومٌ ولا ذمٌّ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١).

وقال ابن عاشور: (ونَفيُ العقلِ عنهم مُرادٌ به عقلُ التَّأدُّبِ الواجبِ في مُعامَلةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو عقلُ التَّأدُّبِ المغفولِ عنه في عادَتِهم الَّتي اعتادوها في الجاهِليَّةِ مِن الجفاءِ والغلظةِ والعُنْجُهيَّةِ، وليس فيها تحريمٌ ولا ترَتُّبُ ذَنْبٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٥).

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٦٧) واللَّفظُ له، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١١٥١٥).

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ). وجوَّد إسنادَه ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (٥/ ٤٢)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٦٧).

أي: ولو أنَّهم انتَظَروا خُروجَك مِن بَيتِك -يا محمَّدُ- مِن تِلْقاءِ نفْسِك، ولم يُنادوك مِن وَراءِ حُجُراتِك تَعظيمًا لك؛ لَكان خَيرًا وأصلَحَ لهم في دِينِهم ودُنياهم وآخِرتِهم[(١)].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: واللهُ بالِغُ المغفرةِ لِذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، بالِغُ الرَّحمةِ بهم[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- عن ابنِ مسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: (إذا سمِعتَ اللهَ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرْعِها سمعَك؛ فإنَّه خَيرٌ يَأمُر به، أو شرٌّ يَنهَى عنه)[(٣)].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، مُتضمِّنٌ للأدَبِ مع اللهِ تعالى، ومع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتَّعظيمِ له، واحترامِه، وإكرامِه، فأمَرَ اللهُ عِبادَه المؤمنينَ بما يَقتضيهِ الإيمانُ باللهِ وبرسولِه؛ مِن امتِثالِ أوامرِ اللهِ تعالى، واجتنابِ نَواهيه، وأنْ يَكونوا ماشينَ خلْفَ أوامرِ اللهِ، مُتَّبِعينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٨، ٣٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦١، ٣٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١).

قال ابن عطيَّة: (قَولُه تعالى: ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ يعني: في الثَّوابِ عندَ اللهِ، وفي انبساطِ نَفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقَضائِه لحوائجِهم، ووُدِّه لهم، وذلك كُلُّه خيرٌ، لا مَحالةَ أنَّ بَعضَه انْزَوى بِسَبَبِ جَفائِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (١/ ١٩٦)، وأبو نُعَيم في ((حلية الأولياء)) (١/ ١٣٠)، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٦١٩).

لسُنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في جميعِ أُمورِهم، وألَّا يَتقدَّموا بيْنَ يدَيِ اللهِ ورسولِه، ولا يَقولوا حتَّى يقولَ، ولا يَأمُروا حتَّى يَأمُرَ؛ فإنَّ هذا حقيقةُ الأدبِ الواجبِ مع اللهِ ورسولِه، وهو عُنوانُ سَعادةِ العبْدِ وفَلاحِه، وبِفَواتِه تَفوتُه السَّعادةُ الأبَديَّةُ، والنَّعيمُ السَّرْمَديُّ، وفي هذا النَّهيُ الشَّديدُ عن تَقديمِ قولِ غيرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على قولِه؛ فإنَّه متى استبانَتْ سُنَّةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وجَبَ اتِّباعُها، وتَقديمُها على غَيرِها، كائنًا ما كان[1]، والتَّقدُّمُ بيْنَ يدَيْ سُنَّتِه بعْدَ وَفاتِه كالتَّقدُّمِ بيْن يَدَيْه في حَياتِه، ولا فَرْقَ بيْنَهما عندَ ذي عقْلٍ سليمٍ[2].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾، في ذِكرِ الاسمَينِ الكريمَينِ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ -بعْدَ النَّهيِ عن التَّقدُّمِ بيْن يَدَيِ اللهِ ورسولِه، والأمرِ بتَقْواه- حثٌّ على امتثالِ تلك الأوامرِ الحَسَنةِ، والآدابِ المُستحسَنةِ، وتَرهيبٌ عن عدَمِ الامتثالِ[3].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ استدَلَّ به العُلماءُ على المنْعِ مِن رفْعِ الصَّوتِ بحَضْرةِ قَبرِه الشَّريفِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعندَ قِراءةِ حَديثِه؛ لأنَّ حُرمَتَه ميِّتًا كحُرْمتِه حيًّا[4]، وكلامُه المأثورُ بعدَ مَوتِه في الرِّفْعةِ مِثلُ كَلامِه المَسموعِ من لَفظِه؛ فإذا قُرِئَ كَلامُه وَجَب على كُلِّ حاضِرٍ ألَّا يَرفَعَ صَوتَه عليه، ولا يُعرِضَ عنه، كما كان يَلزَمُه ذلك في مَجلِسِه عندَ تَلَفُّظِه به[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٤٦).

٥- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ دليلٌ أنَّ على النَّاسِ -وإنْ تواضَعَ لهم إمامُهم، وغَضَّ لهم جَناحَه- أنْ يُوَقِّروه، ولا يُنْزِلوه مِن أنْفُسِهم مَنزِلةَ بَعضِهم مِن بَعضٍ، وأنْ يَنتظِروه لحَوائِجِهم -وإنْ رَفَعَ حِجابَه- حتَّى يَخرُجَ إليهم[1].

٦- قولُ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ تأْديبٌ لهم، وتَعليمُهم مَحاسِنَ الأخلاقِ، وإزالةٌ لِعَوائِدِ الجاهليَّةِ الذَّميمةِ[2]، فأدَبُ العبدِ عُنوانُ عقْلِه، وأنَّ اللهَ مُريدٌ به الخيرَ[3].

٧- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾، أي: الَّذي يَتلقَّى عن اللهِ، وتلَقِّيه عنه مُتوقَّعٌ في كلِّ وقتٍ، وهذا يدُلُّ على أنَّ أذى العُلماءِ -الَّذين هيَّأَهم اللهُ لتَلقِّي فَهْمِ دِينِه عنه- شديدٌ جدًّا؛ فإنَّ تَكديرَ أوقاتِهم يَمنَعُهم عن كثيرٍ مِن ذلك[4].

٨- قال ابنُ عَقيلٍ: ما أخْوَفَني أن أُساكِنَ مَعصيةً فتكونَ سَببًا في سُقوطِ عَمَلي، وسُقوطِ مَنزِلةٍ -إن كانت- عندَ اللهِ تعالى، بَعدَما سَمِعتُ قَولَه تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾، وهذا يدُلُّ على أنَّ في بَعضِ التَّسبُّبِ وسُوءِ الأدَبِ على الشَّريعةِ ما يُحبِطُ الأعمالَ، ولا يَشعُرُ العامِلُ أنَّه عِصيانٌ يَنتهي إلى رُتبةِ الإحباطِ، وهذا يَترُكُ الفَطِنَ خائِفًا وَجِلًا مِنَ الإقدامِ على المآثِمِ، ثمَّ خوفًا أن يكونَ تَحتَها مِنَ العُقوبةِ ما يُشاكِلُ هذه[5]!

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٥٦).

(٥) يُنظر: ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٢/ ٣١٧).

٩- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾، فحذَّرَ المؤمِنين مِن حُبوطِ أعمالِهم بالجَهْرِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما يَجهَرُ بعضُهم لبعضٍ، وإنَّ مَعرفةَ ما يُفسِدُ الأعمالَ في حالِ وُقوعِها ويُبطِلُها ويُحبِطُها بعْدَ وُقوعِها؛ مِن أهمِّ ما يَنْبغي أنْ يُفتِّشَ عليه العبدُ، ويَحرِصَ على عمَلِه ويَحذَرَه، فمُحبِطاتُ الأعمالِ ومُفسِداتُها أكثرُ مِن أنْ تُحصَرَ، وليس الشَّأنُ في العمَلِ، إنَّما الشَّأنُ في حِفظِ العمَلِ ممَّا يُفسِدُه ويُحبِطُه؛ فالرِّياءُ وإنْ دقَّ مُحبِطٌ للعمَلِ، وهو أبوابٌ كثيرةٌ لا تُحصَرُ، وكونُ العملِ غيرَ مُقيَّدٍ باتِّباعِ السُّنةِ أيضًا مُوجِبٌ لكَونِه باطلًا، والمَنُّ به على اللهِ تعالى بقلْبِه مُفسِدٌ له، وكذلك المَنُّ بالصَّدقةِ والمعروفِ والبرِّ والإحسانِ والصِّلةِ؛ مُفسِدٌ لها، كما قال سُبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن ترَكَ صلاةَ العصْرِ فقد حَبِطَ عمَلُه))(١)، وأكثَرُ النَّاسِ ما عِندَهم خبَرٌ مِن السَّيِّئاتِ الَّتي تُحبِطُ الحسَناتِ(٢).

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾، فيه دليلٌ على أنَّ اللهَ يَمتحِنُ القلوبَ، بالأمْرِ والنَّهيِ والمِحَنِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٣) مِن حديث بُرَيدةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((الوابل الصيب من الكلم الطيب)) لابن القيم (ص: ١١).

قال ابن القيم: (والحُبوطُ نَوعانِ: عامٌّ وخاصٌّ، فالعامُّ: حُبوطُ الحَسناتِ كلِّها بالرِّدَّةِ، والسَّيِّئاتِ كلِّها بالتَّوبةِ، والخاصُّ: حُبوطُ السَّيِّئاتِ والحَسناتِ بَعضِها ببَعضٍ، وهذا حُبوطٌ مُقيَّدٌ جُزئيٌّ). ((الصلاة وأحكام تاركها)) (ص: ٦٦).

وقال ابن تيميَّةَ: (أمَّا الصَّحابةُ وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ فعلى أنَّ ... الكبيرةَ الواحدةَ لا تُحبِطُ جميعَ الحسَناتِ، ولكنْ قد يُحبَطُ ما يُقابِلُها عندَ أكثَرِ أهلِ السُّنَّةِ، ولا يُحبِطُ جميعَ الحسَناتِ إلَّا الكفرُ، كما لا يُحبِطُ جميعَ السَّيِّئاتِ إلَّا التَّوبةُ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٣٢١، ٣٢٢).

فمَنْ لازَمَ أمْرَ اللهِ، واتَّبَع رِضاهُ، وسارَعَ إلى ذلك، وقدَّمَه على هواهُ؛ تَمحَّضَ وتَمحَّصَ للتَّقْوى، وصار قلْبُه صالحًا لها، ومَن لم يكُنْ كذلك، عُلِمَ أنَّه لا يَصلُحُ للتَّقوى[١]، فالآيةُ فيها أنَّ التَّقوى لا تَظهَرُ إلَّا عندَ المِحَنِ والشَّدائدِ بالتَّكليفِ وغيرِها، ولا تَثبُتُ إلَّا بمُلازَمةِ الطَّاعةِ في المَنشَطِ والمَكرَهِ[٢].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، يُحتَجُّ به في اتِّباعِ الشَّرعِ في كلِّ شَيءٍ[٣]، وهو حُجَّةٌ على مَن يَبْتغي معَ القرآنِ والسُّنَّةِ سِواهما، ويَلْتَمِسُ الحُجَّةَ في غيرِهما[٤]!

٢- تَصديرُ اللهِ الخِطابَ بقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يدُلُّ على أنَّ التِزامَ ما خُوطِبَ به: مِن مُقتَضياتِ الإيمانِ، وأنَّ مخالَفتَه نَقصٌ في الإيمانِ[٥].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يُحتَجُّ به في تَقديمِ النَّصِّ على القِياسِ[٦].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يُؤيِّدُ قولَ الفُقهاءِ: إنَّ المكلَّفَ لا يُقدِمُ على فِعلٍ حتَّى يَعلَمَ حُكْمَ اللهِ فيه[٧].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ذُكِرَ الرَّسولُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٥٩).
(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٨١).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٧٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧).
(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٦).

مع الله؛ للإشارةِ إلى أنَّ طاعةَ اللهِ لا تُعلَمُ إلَّا بقولِ الرَّسولِ، فهذه طاعةٌ للرَّسولِ تابِعةٌ لِطاعةِ اللهِ(١).

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، السَّمعُ الَّذي اتَّصَف به ربُّنا عزَّ وجلَّ يَنقسِمُ إلى قِسمَينِ: سمْعِ إدراكٍ، وسمْعِ إجابةٍ، فسَمْعُ الإدراكِ معْناهُ أنَّ اللهَ يَسمَعُ كلَّ صَوتٍ خَفيَ أو ظهَرَ. أمَّا سمْعُ الإجابةِ فمعْناه: أنَّ اللهَ يَستجِيبُ لِمَن دعاهُ، ومنه قولُ إبراهيمَ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، أي: مُجيبُ الدُّعاءِ، ومنه قولُ المصلِّي: (سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَه)، يعني: استجابَ لِمَن حَمِدَه فأثابَه(٢).

٧- قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾، أي: لا تُنادُوه باسْمِه، كـ: يا محمَّدُ -على قولٍ-. وقد دلَّت آياتٌ مِن كِتابِ اللهِ على أنَّ اللهَ تعالى لا يُخاطِبُه في كِتابِه باسْمِه، وإنَّما يُخاطِبُه بما يدُلُّ على التَّعظيمِ والتَّوقيرِ؛ كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، مع أنَّه يُنادي غيرَه مِن الأنبياءِ بأسْمائِهم؛ كقولِه: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقولِه: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ [الصافات: ١٠٤]، وقولِه: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨]، وقولِه: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقولِه: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقولِه: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ﴾(٣) [ص: ٢٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣، ١٤).
(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠٢).
ويُنظر الفرقُ بينَ مقامِ الإخبارِ ومقامِ المخاطبةِ (ص: ١٨٢).

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ إذا ثبَتَ أنَّ رفْعَ الصَّوتِ فوقَ صَوتِ النَّبيِّ، والجهرَ له بالقَولِ يُخافُ منه أن يَكفُرَ صاحِبُه وهو لا يَشعُرُ، ويَحبَطَ عمَلُه بذلك، وأنَّه مَظِنَّةٌ لذلك، وسببٌ فيه؛ فمِنَ المعلومِ أنَّ ذلك لِما يَنبغي له مِن التَّعزيرِ والتَّوقيرِ، والتَّشريفِ والتَّعظيمِ، والإكرامِ والإجلالِ، ولِما أنَّ رفْعَ الصَّوتِ قد يَشتمِلُ على أذًى له، أو استِخفافٍ به، وإن لم يَقصِدِ الرَّافِعُ ذلك[1].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾، فإذا كان رفعُ أصواتِهم فوقَ صَوتِه سببًا لِحُبوطِ أعمالِهم؛ فكيف تَقديمُ آرائِهم وعُقولِهم، وأذواقِهم وسِياساتِهم ومَعارِفِهم على ما جاء به، ورفْعُها عليه؟! أليس هذا أَولى أنْ يكونَ مُحبِطًا لأعمالِهم[2]؟!

١٠- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ احتجَّ به المعتزلةُ على أهلِ السُّنَّةِ على أنَّ الكبائرَ بمَنزِلةِ الشِّركِ في الإحباطِ، وأنَّ ذلك مُستلزِمٌ الخُلودَ في النَّارِ.

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول على شاتم الرسول)) لابن تيمية (ص: ٥٥).

وقال ابن تيميَّة: (وقولُه تعالى: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾؛ لأنَّ ذلك قد يَتضمَّنُ الكفرَ فيَقتضي الحُبوطَ وصاحِبُه لا يدري...، فنهاهم عن ذلك لأنَّه يُفضي إلى الكفرِ المُقتضِي لِلحُبوطِ. ولا ريبَ أنَّ المعصيةَ قد تكونُ سببًا للكفرِ، كما قال بعضُ السَّلفِ: المعاصي بريدُ الكفرِ؛ فيُنهى عنها خشيةَ أن تُفضي إلى الكفرِ المُحبِطِ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٤١).

والجوابُ أنَّ ذلك مَردودٌ؛ لِوُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّه يجوزُ أن يكونَ الإحباطُ بسببِ تجويزِ الوُقوعِ في الكفرِ بسببِ الاستِهانةِ برسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ومِن أجْلِ أنَّ ذلك قد يؤدِّي إليها على جهةِ التَّجويزِ جاء بأنِ المَصدريَّةِ الَّتي للتَّخويفِ، أي: مخافةَ أن تحبَطَ أعمالُكم، ولو كان ذلك استِهانةً مَحْضةً أو كانت الاستِهانةُ لازِمةً له ولا بُدَّ، لَما جاء بهذه الصِّيغةِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّه فرقٌ واضحٌ بيْن أن يقولَ: «تَحبَط» مِن غيرِ إدخالِ «أنِ» المَصدريَّةِ، ويكونَ مجزومًا في إعرابه، تقديرُه: إن تَفعَلوا ذلك تَحْبَطْ أعمالُكم؛ وبيْنَ إدخالِ «أنِ» المَصدريَّةِ، ولا شكَّ أنَّ الصُّورةَ الأُولى تدُلُّ على الإحباطِ، وأنَّ دُخولَ «أنْ» قد غيَّرَ معناها إلى معنَى التَّخويفِ الَّذي قد يقَعُ وقد لا يقَعُ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّا لو سَلَّمْنا دَلالةَ ذلك على أنَّ في ذُنوبِ المُسلِمينَ ما يُحْبِطُ العملَ، لم يَستَلزِمْ أنَّ الإحباطَ يَستلزِمُ الخُلودَ؛ لأنَّه لا مانعَ مِن أن يَحبَطَ عمَلُ العبدِ ويَدخُلَ الجنَّةَ برَحمةِ الله تعالى؛ فقد دخلَها الصِّبيانُ بغيرِ عمَلٍ، ويَخلُقُ اللهُ لِفُضولِ الجنَّةِ خَلْقًا لم يَعمَلوا، ولم يُكَلَّفوا، كما ثبَت في البُخاريِّ[(١)] وغيرِه[(٢)].

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاريُّ (٤٨٥٠)، ومسلمٌ (٢٨٤٦) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ الله عنه، وما أخرجه البخاريُّ (٧٣٨٤)، ومسلمٌ (٢٨٤٨) مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم)) لابن الوزير (٩/ ٧٥، ٧٦).

وقال ابنُ المُنَيِّرِ في مَعرِضِ ردِّه على الزمخشريِّ: (المرادُ في الآيةِ النَّهيُ عن رفعِ الصَّوتِ على الإطلاقِ، ومعلومٌ أنَّ حُكمَ النَّهيِ الحذَرُ ممَّا يُتوقَّعُ في ذلك مِن إيذاءِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، والقاعدةُ المُختارةُ أنَّ إيذاءَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يَبلُغُ مَبلَغَ الكفرِ المُحبِطِ للعمَلِ باتِّفاقٍ، فورَدَ النَّهيُ عمَّا هو مَظِنَّةٌ لأذى النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، سواءٌ وُجِد هذا المعنى أوْ لا؛ حمايةً لِلذَّريعةِ، وحَسْمًا للمادَّةِ، ثمَّ لَمَّا كان هذا المنهيُّ عنه -وهو رفعُ الصَّوتِ- مُنقسِمًا إلى ما يَبلُغُ ذلك المَبلَغَ أو لا، ولا دليلَ يميِّزُ أحدَ القِسمَينِ عن الآخَرِ؛ لَزِمَ المُكلَّفَ أن يَكُفَّ عن ذلك مُطلَقًا، وخوفَ =

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾، فيه مِن خَصائصِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: تَحريمُ رفْعِ الصَّوتِ عليه، والجَهْرِ له بالقولِ(١).

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾، هذا النَّهيُ مَخصوصٌ بغَيرِ المواضعِ الَّتي يُؤمَرُ بالجَهرِ فيها؛ كالأذانِ، وتَكبيرِ يومِ العيدِ، وبغيرِ ما أذِنَ فيه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذْنًا خاصًّا؛ كقولِه للعبَّاسِ حِينَ انهزَمَ المسلِمونَ يومَ حُنَينٍ: ((أيْ عبَّاسُ، نادِ أصحابَ السَّمُرةِ))(٢)، وكان العبَّاسُ جَهيرَ الصَّوتِ(٣).

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾، فيه سُؤالٌ: ما الفائدةُ مِن قولِه: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾، مع أنَّ الجَهرَ مُستفادٌ مِن قولِه: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ المنْعَ مِن رفْعِ الصَّوتِ هو: ألَّا يَجعَلَ كلامَه أو صَوتَه أعْلى مِن كلامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو صَوتِه، والنَّهيُ عن الجَهرِ منْعٌ مِن المُساواةِ، أي: لا تَجهَروا له بالقولِ كما تَجهَرون لنُظرائِكم، بل اجْعَلوا كَلمتَه عُلْيا(٤).

= أن يقَعَ فيما هو مُحبِطٌ للعمَلِ، وهو البالغُ حدَّ الإيذاءِ؛ إذ لا دليلَ ظاهرٌ يُمَيِّزُه، وإن كان فلا يَتَّفِقُ تمييزُه في كثيرٍ مِن الأحيانِ، وإلى الْتباسِ أحدِ القِسمَينِ بالآخَرِ وقعَتِ الإشارةُ بقولِه: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾. ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنيِّر)) (٤/ ٣٥٤).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٧٥) من حديثِ العبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ رضيَ اللهُ عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٥٢٥).

الوجْهُ الثَّاني: أنَّ فائدةَ ذِكرِ ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾: النَّهيُ عن الجَهرِ في مُخاطَبتِه، وإنْ لم يَتضمَّنْ رفْعَ أصواتِهم على صَوتِه.

الوجْهُ الثَّالثُ: أنَّ المرادَ النَّهيُ عن مُخاطَبتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باسمِه[١].

١٤- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، ظاهرُ هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ الإنسانَ قد يَحبَطُ عمَلُه وهو لا يَشعُرُ، وقد قيل: (إنَّه لا يَحبَطُ عمَلُه بغيرِ شُعورِه)، وظاهرُ الآيةِ يرُدُّ على ذلك[٢].

١٥- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لم يَصِفْهم بكُفْرٍ ولا نِفاقٍ؛ لكنَّ هؤلاء يُخْشى عليهم الكفْرُ والنِّفاقُ؛ ولهذا ارتَدَّ بَعضُهم؛ لأنَّهم لم يُخالِطِ الإيمانُ بَشاشةَ قُلوبِهم[٣].

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ حُرمةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعْدَ وَفاتِه كحُرمتِه في أيَّامِ حَياتِه، وبه تَعلَمُ أنَّ ما جَرَت به العادةُ اليَومَ مِن اجتِماعِ النَّاسِ قُرْبَ قبْرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهمْ في صَخَبٍ ولَغَطٍ، وأصواتُهم مُرتفِعةٌ ارتِفاعًا مُزعِجًا؛ كلُّه لا يَجوزُ، ولا يَليقُ، وإقرارُهم عليه مِن المنكَرِ. وقد شدَّدَ عمَرُ رضِيَ اللهُ عنه النَّكيرِ على رجُلينِ رفَعَا أصواتَهما في مَسجدِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال: (لو كُنتُما مِن أهلِ البلدِ لَأوجَعْتُكما، تَرْفَعانِ أصواتَكما في مسجدِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)[٤].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٧، ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠٣). =

١٧- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ في هذه الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ الصَّلاحَ صَلاحُ القلْبِ؛ لقولِه: ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وكما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الحديثِ الصَّحيحِ[1]: ((التَّقوى هاهنا. ويُشيرُ إلى صَدْرِه))[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تَوطئةٌ للنَّهيِ عن رفْعِ الأصواتِ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والجَهْرِ له بالقولِ، ونِدائِه مِن وَراءِ الحُجراتِ[3].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه تَصْديرُ الخِطابِ بالنِّداءِ؛ لتَنبيهِ المخاطَبينَ على أنَّ ما في حَيِّزِه أمْرٌ خَطيرٌ يَستدعِي مَزيدَ اعتِنائِهم بشَأْنِه، وفرْطِ اهتِمامِهم بتَلقِّيه ومُراعاتِه. ووَصْفُهم بالإيمانِ؛ لتَنشيطِهِمْ، والإيذانِ بأنَّه داعٍ إلى المُحافَظةِ عليهِ، ووازِعٌ عن الإخلالِ به[4].

- وفي تَكريرِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خمْسَ مرَّاتٍ في هذه السُّورةِ فائدةٌ بلاغيَّةٌ لَطيفةٌ؛ وهي إظهارُ الشَّفقةِ على المُسترشِدِ، وإبداءُ المُناصَحةِ له على آكَدِ وجهٍ؛ لِيُقبِلَ على استِماعِ الكلامِ ويُعيرَه بالَه، ولتَحديدِ المُخاطَبينَ بالذَّاتِ، وأنَّهم هم المَعنيُّونَ بالمُناصَحةِ، وفيه أيضًا استدعاءٌ لتَجديدِ الاستِبصارِ، والتَّيقُّظِ والتَّنبُّهِ عندَ كلِّ خِطابٍ[5].

= وأثرُ عمرَ أخرجه البخاري (٤٧٠).

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ اللهُ عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٥).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦١).

- وفي قولِه تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ مِن غَيرِ ذِكرِ مَفعولٍ وَجهانِ؛ أحدُهما: أنْ يُحذَفَ لِيَتناوَلَ كلَّ ما يقَعُ في النَّفْسِ ممَّا يُقدَّمُ[1]، وفي الحذْفِ مِن البلاغةِ ما ليس في الذِّكرِ؛ لأنَّ الخَيالَ يَذهَبُ فيه كلَّ مَذهبٍ. والثَّاني: ألَّا يُقصَدَ مَفْعولٌ ولا حذْفُه، ويُتوجَّهُ بالنَّهيِ إلى نفْسِ التَّقدِمةِ، كأنَّه قِيل: لا تُقْدِموا على التَّلبُّسِ بهذا الفِعلِ، ولا تَجْعلوه منكم بسَبيلٍ[2].

- والنَّهيُ هنا للتَّحذيرِ؛ إذ لم يَسبِقْ صُدورُ فِعلٍ مِن أحدٍ افتياتًا على الشَّرعِ. ويجوزُ أنْ يُجرى مُجرَى قَولِك: سرَّني زَيدٌ وحُسْنُ حالِه، وأُعجِبْتُ بعَمْرٍو وكَرَمِه، فأصلُ الكلامِ: لا تُقدِّموا بيْن يدَيْ رَسولِ اللهِ، وفائدةُ هذا الأسلوبِ: الدَّلالةُ على قُوَّةِ الاختِصاصِ، ولَمَّا كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن اللهِ بالمكانِ الَّذي لا يَخفى، سُلِكَ به ذلك المَسلكُ؛ فالمقصودُ مِن الآيةِ النَّهيُ عن إبرامِ شَيءٍ دونَ إذْنٍ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فذُكِرَ قبْلَه اسمُ اللهِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مُرادَ اللهِ إنَّما يُعرَفُ مِن قِبَلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولتَعظيمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والإيذانِ بجَلالةِ مَحلِّه عندَه عزَّ وجَلَّ[3].

(١) ومِن قواعدِ التَّفسيرِ: أنَّ حذفَ المتعلَّقِ يُفيدُ العمومَ النِّسْبيَّ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (ص: ٥٩٧-٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٦).

- وعطْفُ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تَكملةٌ للنَّهيِ عن التَّقدُّمِ بيْنَ يدَيِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليَدُلَّ على أنَّ ترْكَ إبرامِ شَيءٍ دونَ إذْنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن تَقوى اللهِ وَحْدَه، أي: ضِدُّه ليس مِن التَّقْوى[(١)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ في مَوضعِ العلَّةِ للنَّهيِ عن التَّقدُّمِ بيْنَ يدَيِ اللهِ ورسولِه، وللأمْرِ بتَقوى اللهِ[(٢)].

- وذِكرُ هاتَينِ الصِّفتَينِ كِنايةٌ عن التَّحذيرِ مِن المخالَفةِ؛ ففي ذلك تأْكيدٌ للنَّهيِ والأمرِ[(٣)].

- وجُعِلَت هذه الآيةُ في صَدْرِ السُّورةِ مُقدَّمةً على تَوبيخِ وَفْدِ بني تميمٍ حينَ نادَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن وَراءِ الحُجُراتِ؛ لأنَّ ما صدَرَ مِن بني تَميمٍ هو مِن قَبيلِ رفْعِ الصَّوتِ عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولأنَّ مُماراةَ أبي بكرٍ وعُمرَ، وارتِفاعَ أصواتِهما كانت في قَضيَّةِ بني تَميمٍ، فكانت هذه الآيةُ تمْهيدًا لقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآيةَ؛ لأنَّ مَن خصَّه اللهُ بهذه الحُظْوةِ -أي: جعَلَ إبرامَ العملِ بدُونِ أمْرِه كإبرامِه بدُونِ أمْرِ اللهِ- حَقيقٌ بالتَّهيُّبِ والإجلالِ أنْ يُخفَضَ الصَّوتُ لدَيْه. وإنَّما قُدِّمَ هذا على تَوبيخِ الَّذين نادَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ هذا أَوْلى بالاعتِناءِ؛ إذ هو تأْديبُ مَن هو أَولى بالتَّهذيبِ[(٤)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٧، ٢١٨).

لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ توطئةٌ لقولِه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[1] [الحجرات: ٤].

- وإعادةُ النِّداءِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ثانيًا معَ قُربِ العَهْدِ به؛ لاستِدعاءِ مَزيدِ الاستبصارِ، والمُبالَغةِ في الاتِّعاظِ[2]، والتَّنبيهِ والإيقاظِ، ولِيَكونَ في ذلك بَيانُ زِيادةِ الشَّفقةِ على المُسترشِدِ؛ لأنَّ النِّداءَ لتَنبيهِ المنادَى ليُقبِلَ على استِماعِ الكلامِ، ويَجعَلَ بالَهُ منه، فإعادتُه تُفيدُ ذلك، ولئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ المخاطَبَ ثانيًا غيرُ المخاطَبِ أوَّلًا، ولِيُعلَمَ أنَّ كلَّ واحدٍ مِن الكلامَينِ مَقصودٌ، وليس الثَّاني تأكيدًا للأوَّلِ، ففيه إباستِقلالِ كُلٍّ مِن الكَلامَينِ باستِدعاءِ الاعتِناءِ بشأنِه، وأنَّه غرَضٌ جَديرٌ بالتَّنبيهِ عليه بخُصوصِه؛ حتَّى لا يَنغمِرَ في الغرَضِ الأوَّلِ؛ فإنَّ هذا مِن آدابِ سُلوكِ المؤمنينَ في مُعامَلةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومُقْتَضى التَّأدُّبِ بما هو آكَدُ مِن المُعامَلاتِ[3].

- واللَّامُ في ﴿ لَهُۥ ﴾ لتَعديةِ ﴿ تَجْهَرُوا۟ ﴾؛ لأنَّ ﴿ تَجْهَرُوا۟ ﴾ في معْنى: تَقولوا؛ فدلَّتِ اللَّامُ على أنَّ هذا الجَهرَ يَتعلَّقُ بمُخاطبَتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وزادَه وُضوحًا التَّشبيهُ في قولِه: ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾[4].

- وقولُه: ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ مَنصوبٌ على أنَّه مَفعولٌ له، والعاملُ فيه ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا۟ ﴾ أو ﴿ لَا تَرْفَعُوٓا۟ ﴾، ومعَ ذلِك فمِن حيثُ المعْنى: حُبوطُ العَملِ عِلَّةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢١).

في كُلٍّ مِن الرَّفعِ والجَهرِ. وفي مُتعلَّقِه وَجهانِ؛ أحدُهما: أنْ يَتعلَّقَ بمَعْنى النَّهيِ، فيَكونَ المَعْنى: انتَهُوا عمَّا نُهيتُم عنه؛ لِحُبوطِ أعمالِكم، أي: لِخَشيةِ حُبوطِها، على تَقْديرِ حذْفِ المُضافِ. والثَّاني: أنْ يَتعلَّقَ بنفْسِ الفِعلِ، ويَكونَ المعْنى: أنَّهم نُهُوا عن الفِعلِ الَّذي فَعَلوه مِن أجْلِ الحُبوطِ؛ لأنَّه لَمَّا كان بصَدَدِ الأداءِ إلى الحُبوطِ، جُعِل كأنَّه فُعِلَ مِن أجْلِه، وكأنَّه العِلَّةُ والسَّببُ في إيجادِه على طَريقةِ التَّمثيلِ، أي: تَشبيهِ الحالِ بالحالِ؛ فإنَّ فِعلَهم لَمَّا أدَّى إلى الحُبوطِ، فكأنَّهم قصَدوا مِن أجْلِه، كقولِه تعالَى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[1] [القصص: ٨].

- وفي هذا النَّهيِ ما يَشملُ صَنيعَ الَّذين نادَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن وراءِ الحُجُراتِ؛ فيَكونُ تَخلُّصًا مِن المقدِّمةِ إلى الغرَضِ المقصودِ، ويَظهَرُ حُسْنُ مَوقِعِ قولِه بعدَه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2] [الحجرات: ٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ التَّحذيرَ الَّذي في قولِه: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢] يُثيرُ في النَّفْسِ أنْ يَسأَلَ سائلٌ عن ضِدِّ حالِ الَّذي يرفَعُ صَوتَه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٢٢).

وهو تَرْغيبٌ في الانتِهاءِ عمَّا نُهُوا عنه، بعدَ التَّرهيبِ عن الإخلالِ به[١].

- وافتِتاحُ الكلامِ بحرفِ التأْكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ بمَضمونِه مِن الثَّناءِ عليهم، وجَزاءِ عمَلِهم، وتُفيدُ الجُملةُ تَعليلَ النَّهيَينِ بذِكرِ الجزاءِ عن ضِدِّ المنْهيِّ عنهما، وأكَّدَ هذا الاهتِمامَ باسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾، مع ما في اسمِ الإشارةِ مِن التَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليهم جَديرون بالخبَرِ المذكورِ بعْدَه؛ مِن أجْلِ ما ذُكِرَ مِن الوصْفِ قبْلَ اسمِ الإشارة[٢].

- ومُحصِّلُ معنَى قولِه: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾ وقولِه: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ﴾ [الحجرات: ٢]: الأمْرُ بخفْضِ الصَّوتِ عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبه يتَّضحُ وَجْهُ العُدولِ عن نَوطِ الثَّناءِ هنا بعَدَمِ رفْعِ الصَّوتِ وعدَمِ الجَهرِ عندَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى نَوطِه بَغضِّ الصَّوتِ عندَه[٣].

- وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ الامتحانُ: الاختِبارُ والتَّجرِبةُ، وهو افتِعالٌ مِن مَحَنَه؛ إذا اختبَرَه، وصِيغةُ الافتِعالِ فيه للمُبالَغةِ. واللَّامُ في قَولِه: ﴿لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ لامُ العِلَّةِ، والتَّقديرُ: امتحَنَ قُلوبَهم مِن أجْلِ التَّقْوى، أي: لِتَكونَ فيها التَّقوى، أي: لِيَكونوا أتْقياءَ؛ فيَجوزُ أنْ يُجعَلَ الامتحانُ كِنايةً على تَمكُّنِ التَّقْوى مِن قُلوبِهم وثَباتِهم عليها، بحيثُ لا يُوجَدون في حالٍ ما غيرَ مُتَّقينَ، وهي كِنايةٌ تَلويحيَّةٌ[٤] لِكَونِ الانتقالِ بعِدَّةِ لَوازِمَ؛ فالامتِحانُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٢٢، ٢٢٣).

(٤) تَنقسِمُ الكِنايةُ باعتِبارِ الوسائطِ (اللَّوازِمِ) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريضٍ، وتلويحٍ، ورمْزٍ، وإيماءٍ؛ فالتَّعريضُ: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ ويُشارَ به إلى معنًى آخَرَ يُفهَمُ مِن السِّياقِ؛ نحو =

والتَّجرِبةُ يُوجِبانِ مُزاوَلةَ الأمرِ ومُعالَجتَه مرَّةً بعْدَ أُخرَى، وذلك يُوجِبُ التَّمرُّنَ فيه، والمُتمَرِّنُ مُضطلِعٌ فيه. ويجوزُ أنْ يكونَ الامتحانُ مِن إطلاقِ السَّببِ على المُسبَّبِ؛ فإنَّ الامتحانَ سَببُ المعرفةِ[1].

- فإنْ قيل: اختِصاصُ (النَّبيِّ) بالذِّكرِ في الآيةِ الثَّانيةِ كان لتَبْجيلِ جانبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذِكْرُ (رَسولِه) في الأُولى كان من أجْلِ الاحتِذاءِ على أمثلةِ الكِتابِ والسُّنَّةِ؛ فلِمَ خُولِفَ ورجَعَ في هذه الآيةِ إلى ما بُدِئَ به؟

فالجوابُ: ليُؤذِنَ بأفضالِ اللهِ في حقِّ أولئك الكَمَلةِ، وتأْديبِه إيَّاهم، وأنَّهم إنَّما غضُّوا أصواتَهم عندَ رسولِ اللهِ، ولم يَرفَعوا بها مِثلَ أولئك؛ لأنَّ اللهَ زيَّنَ باطنَهم باكتِساءِ لِباسِ التَّقْوى، حتَّى سَرى إلى ظاهرِهم بالتَّأدُّبِ بيْنَ يدَيِ المولى، ومَن أرسلَه إليهم وأكْرَمَهم بِه، ومِن ثَمَّ نُسِبَ ﴿ٱمۡتَحَنَ﴾ إلى اللهِ تعالى، وجِيءَ به ماضيًا، وأُسْنِدَ ﴿يَغُضُّونَ﴾ إليهم، وأُتِيَ به بمُضارِعِه دالًّا به على الاستِمرارِ، كأنَّه قيلَ: إنَّ الَّذين دَأْبُهم وعادتُهم التَّأدُّبُ في حضْرةِ

= قولك للمؤْذي: «المُسلِمُ مَن سَلِمَ المسلمونَ مِن لِسانِه ويَدِه»؛ تعريضًا بنَفيِ صِفةِ الإسلامِ عن المؤذي. والتَّلويحُ: هو الَّذي كثُرَتْ وسائطُه بلا تعريضٍ، ويُنتقَلُ فيه إلى الملزومِ بواسطةِ لَوازِمَ؛ نحو قولِ المرأةِ في حديثِ أمِّ زَرْعٍ: (زوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرَّمادِ)، فقولُها: (عظيمُ الرَّمادِ) يدُلُّ على كثرةِ الجَمرِ، وهي تدلُّ على كثرةِ إحراقِ الحطَبِ، وهي تدلُّ على كثرةِ الطَّبائخِ، وهي تدلُّ على كثرةِ الأكَلةِ، وهي تدلُّ على كثرةِ الضِّيفانِ، وهي تدلُّ على أنَّه مِضْيافٌ؛ فانتقل الفكرُ إلى جملةِ وسائطَ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (١٤٥-١٥٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦- ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٣).

الرِّسالةِ إنَّما اختُصُّوا به؛ لأنَّه تعالى هو الَّذي أدَّبَهم بإرسالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنزالِ الكتابِ والحِكمةِ، حتَّى هُذِّبوا هذا التَّهذيبَ(١).

- وجُملةُ ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ خبَرُ (إنَّ)، وهو المَقصودُ مِن هذه الجُملةِ المستأنَفةِ، وما بيْنَهما اعتِراضٌ؛ للتَّنويهِ بشأْنِه. أو خبَرٌ آخَرُ لحرفِ (إنَّ)، أو استِئنافٌ لبيانِ جزائِهم(٢).

- وهذه الآيةُ بنظْمِها الَّذي رُتِّبت عليه؛ مِن إيقاعِ الغاضِّين أصواتَهم اسمًا لـ (إنَّ) المؤكِّدةِ، وتَصييرِ خبَرِها جُملةً مِن مُبتَدأٍ وخبرٍ مَعْرِفتَين مَعًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾، واستِئنافِ الجُملةِ المُستودَعةِ ما هو جَزاؤُهم على عمَلِهم، وإيرادِ الجَزاءِ نَكِرةً مُبهَمًا أمْرُه -ناظرةٌ في الدَّلالةِ على غايةِ الاعتِدادِ والارتِضاءِ لِمَا فعَلَ الَّذين وقَّروا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن خَفضِ أصواتِهم، وفيها الإعلامُ بمَبلَغِ عِزَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقَدْرِ شَرَفِ مَنزلَتِه، وفيها تَعريضٌ بعظيمِ ما ارتكَبَ الرَّافِعون أصواتَهم، واستِيجابِهم ضدَّ ما استوجَبَ هؤلاء(٣).

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ [الحجرات: ٢] بَيانًا بالمثالِ، وهو سَبَبُ النُّزولِ؛ فهذا شُروعٌ في الغرَضِ، والَّذي نشَأَ عنه ما أوجَبَ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٥٣، ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣، ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣، ١٣٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٣).

نُزولَ صدْرِ السُّورةِ فافتُتِحَ به؛ لأنَّ التَّحذيرَ والوعدَ -اللَّذَينِ جُعِلَا مِن أجْلِه- صالِحانِ لأنْ يَكونَا مُقدِّمةً للمقصودِ؛ فحصَلَ بذلك نسْجٌ بَديعٌ، وإيجازٌ جليلٌ، وإنْ خالَفَ تَرتيبُ ذِكرِه تَرتيبَ حُصولِه في الخارجِ، وقد صادَفَ هذا التَّرتيبُ المَحَزَّ أيضًا؛ إذْ كان نداؤُهم مِن وَراءِ الحُجُراتِ مِن قَبيلِ الجَهرِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقَولِ كجَهْرِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان النَّهيُ عن الجَهْرِ له بالقولِ تخلُّصًا لذِكرِ نِدائِه مِن وراءِ الحُجُراتِ[1].

- والمرادُ بـ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ رِجالُ وفْدِ بني تميمٍ، وإسنادُ فِعلِ النِّداءِ إلى ضَميرِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لأنَّ جميعَهم نادَوْه، أو ناداهُ بعضُهم وكان الباقون راضِينَ، فكأنَّهم تَولَّوه جميعًا[2].

- والتَّعبيرُ بصِيغةِ المضارعِ في ﴿يُنَادُونَكَ﴾؛ لاستِحضارِ حالةِ ندائِهم[3].

- قولُه: ﴿مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ كِنايةٌ عن مَوضِعِ خَلوتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَقيلِه مع بعضِ نِسائِه، وقد ازدادَتِ الكِنايةُ بإيقاعِ الحُجُراتِ مُعرَّفةً بالألِفِ واللَّامِ دونَ الإضافةِ إليه، وفي ذلك مِن حُسنِ الأدبِ ما لا يَخفى[4]. وكذلك فتَعريفُ ﴿ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ باللَّامِ تَعريفُ العهْدِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿يُنَادُونَكَ﴾ مُؤذِنٌ بأنَّ الحُجراتِ حُجراتُه؛ فلذلك لم تُعرَّفْ بالإضافةِ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

- قولُه: ﴿مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ مُناداةُ مَن نادَوْه مِن وَرائِها يَحتمِلُ أنَّهم قد تَفرَّقوا على الحُجراتِ مُتطلِّبينَ له، فناداهُ بعضٌ مِن وَراءِ هذه، وبعضٌ مِن وَراءِ تلك؛ فأُسنِدَ فِعلُ الأبعاضِ إلى الكلِّ. أو أنَّهم قد أَتَوها حُجرةً حُجرةً، فنادَوه مِن وَرائها. أو أنَّهم نادَوه مِن وَراءِ الحُجْرةِ الَّتي كان فيها، ولكنَّها جُمِعَت ﴿ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ إجلالًا لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولِمَكانِ حُرمَتِه، كأنَّ الجمْعَ يُبطِلُ خُصوصيَّةَ حُجرةٍ دونَ حُجرةٍ[1].

- وإنَّما ذُكِرَ ﴿ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ دونَ البُيوتِ؛ لأنَّ البيتَ كان بيتًا واحدًا مُقسَّمًا إلى حُجُراتٍ تِسْعٍ[2].

- وفي وُرودِ الآيةِ على النَّمَطِ الَّذي ورَدَتْ عليه: ما لا يَخفى على النَّاظرِ مِن بيِّناتِ إكبارِ مَحَلِّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وإجلالِه؛ منها: مَجيئُها على النَّظمِ المُسجَّلِ على الصَّائحِينَ به بالسَّفَهِ والجهلِ؛ لِمَا أقدَموا عليه. ومنها: المرورُ على لَفظِ الحُجُراتِ بالاقتِصارِ على القَدْرِ الَّذي تبيَّنَ به ما استَنكَرَ عليهم، فقال: ﴿ٱلْحُجُرَٰتِ﴾، وما زادَ عليه، فلم يَقُلْ: حُجُراتِ نسائِكَ، بلِ اكتَفى بالقدْرِ مِن الكِنايةِ لئلَّا تُوحِشَه؛ لأنَّها تكفي لِمَن يَقِفُ على الرَّمزِ والإشارةِ الخَفيَّةِ في أنَّ النِّداءَ في هذه الآيةِ أمْرٌ مُنكَرٌ. ومنها: التَّعريفُ باللَّامِ دونَ الإضافةِ. ومنها: أنْ شفَعَ ذَمَّهم في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ باستِجفائِهم، واستِركاكِ عُقولِهم، وقلَّةِ ضَبطِهم لِمَواضعِ التَّمييزِ في المُخاطَباتِ، فقَرَنَ ذمَّهم ذلك بقولِه: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، الواقع خبرًا لـ (إنَّ)، واسمُها المَوصولةُ المُشتمِلةُ على الصِّلةِ المشعِرةِ بأنَّ خبرَها

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

ممَّا يُستهجَنُ منه، وأنَّ مَن صدَرَ منه النِّداءُ مِن وَراءِ الحُجُراتِ مَوصوفٌ بالجافي الغليظِ، وقِلَّةِ العَقلِ، وإنَّما فعَلَ ذلك تَهوينًا للخَطْبِ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتسليةً له، وإماطةً لِما تَداخَلَه مِن إيحاشِ تَعجرُفِهم، وسُوءِ أدَبِهم، فقيلَ له: هوِّنْ عليك، واعفُ عنهم؛ فإنَّ أكثَرَهم لا يَعقِلون؛ إذ العقلُ يَقتَضي حُسنَ الأدبِ، ومراعاةَ الحِشمةِ، لا سِيَّما لِمَن كان بهذا المَنصِبِ(١).

- وأيضًا في هذه الآياتِ بلاغةٌ ظاهرةٌ؛ فتأمَّلْ كيف ابتُدِئَت بإيجابِ أنْ تكونَ الأمورُ الَّتي تَنتمي إلى اللهِ ورسولِه مُتقدِّمةً على الأمورِ كُلِّها مِن غيرِ حَصرٍ ولا تقييدٍ، ثمَّ أرْدَفَ ذلك النَّهيَ عمَّا هو مِن جِنسِ التَّقديمِ من رفْعِ الصَّوتِ والجهْرِ، كأنَّ الأوَّلَ بِساطٌ للثَّاني ووِطاءٌ لِذِكْرِه ما هو ثناءٌ على الَّذين تحامَوا ذلك فغَضُّوا أصواتَهم؛ دَلالةً على عظيمِ مَوقعِه عندَ اللهِ، ثم جِيءَ على عَقِبِ ذلك بما هو أطَمُّ، وهُجنَتُه أتَمُّ مِن الصِّياحِ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حالِ خَلوتِه ببَعضِ حُرُماتِه مِن وَراءِ الجُدُرِ، كما يُصاحُ بأهونِ النَّاسِ قَدْرًا؛ لِيُنبِّهَ على فَظاعةِ ما سبَقوا إليه، وجَسَرُوا عليه؛ لأنَّ مَن رفَعَ اللهُ قَدْرَه عن أنْ يُجهَرَ له بالقولِ حتَّى خاطَبَه جِلَّةُ المهاجِرينَ والأنصارِ بأخِي السِّرارِ(٢)، كان صَنيعُ هؤلاء مِن المُنكَرِ الَّذي بلَغَ مِن التَّفاحُشِ مَبلَغًا(٣)!

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

- قال تعالى: ﴿حَتَّى تَخْرُجَ﴾، ولم يقُلْ: (إلى أنْ تَخرُجَ)؛ لأنَّ (حتَّى) أفادتْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٦٠، ٤٦١).

(٢) يُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٢).

بوَضْعِها أنَّ خُروجَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهم غايةٌ قد ضُرِبَت لصَبرِهم، فما كان لهم أنْ يَقطَعوا أمرًا دونَ الانتهاءِ إليه، فـ (حتَّى) نَصٌّ في بَيانِ الغايةِ، وبَتٌّ للحُكْمِ، وأنْ لا رُخصةَ لهم دونَ هذه الغايةِ، بخلافِ (إلى)؛ فإنَّها مُطلَقةٌ تَحتمِلُ أُمورًا؛ فقد يَدخُلُ ما بعْدَها في حُكْمِ ما قبْلَها، وقد لا يَدخُلُ(١).

أو يكونُ إيثارُ حرْفِ (حتَّى) دونَ حرْفِ (إلى) مِن أجْلِ الإيجازِ بحذْفِ حرفِ (أنْ)؛ فإنَّه مُلتزَمٌ حَذفُه بعدَ (حتَّى)، بخلافِه بعدَ (إلى)؛ فلا يجوزُ حَذفُه(٢).

- وفي قولِه: ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ إشعارٌ بأنَّه لو خرَجَ ولم يكُنْ خُروجُه إليهم ومِن أجْلِهم، لَلَزِمَهم أنْ يَصبِروا إلى أنْ يَعلَموا أنَّ خروجَه إليهم، فيُفاتِحَهم بالكلامِ، أوْ يَتوجَّهَ إليهم(٣).

- وفي تَعقيبِ هذا اللَّومِ بقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه تعالى لم يُحْصِ عليهم ذَنْبًا فيما فعَلوا، ولا عرَّضَ لهم بتَوبةٍ، والمعْنى: واللهُ شأنُه التَّجاوُزُ عن مِثلِ ذلك رَحمةً بالنَّاسِ؛ لأنَّ القَومَ كانوا جاهِلينَ(٤).



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

قال ابن عُثيمين: (في قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ غفَرَ لهم ورحِمَهم، وهذا مِن كرَمِه جلَّ وعلا؛ أنَّه يَغفِرُ ويَرحَمُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١).

الآيات (٦-٨)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَاسِقُۢ﴾ ﴿وَٱلۡفُسُوقَ﴾: الفِسقُ: الخروجُ عن طاعةِ الله، وقد يكونُ بأعظمِ أنواعِ الخروجِ، وهو الكفرُ، أو بما هو دونَ ذلك مِن المعاصي، وأصلُ الفِسقِ: الخروجُ عن الشَّيءِ، يُقالُ منه: فَسَقتِ الرُّطَبةُ، إذا خَرَجتْ مِن قِشْرِها[1].

﴿بِنَبَإٖ﴾: النَّبأُ: خبَرٌ فيه خطَرٌ، أو: خبَرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يَحصُلُ به عِلمٌ أو غَلَبةُ ظَنٍّ، وأصلُ (نبأ): الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، والخبرُ يَأْتي مِن مكانٍ إلى مكانٍ[2].

﴿لَعَنِتُّمۡ﴾: أي: لَوقَعْتُم في ضَررٍ وفسادٍ، ولَنالَكُم مَشقَّةٌ وشِدَّةٌ وإثمٌ، وأصْلُ (عنت): يدُلُّ على مَشقَّةٍ[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٦، ٨١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٤).

قولُه: ﴿أَن تُصِيبُواْ﴾ مفعولٌ من أجْلِه، أي: مَخافةَ أنْ تُصيبوا، أو لئلَّا تُصيبوا[1].

٢- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ * فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾

قولُه: ﴿فَضۡلٗا﴾ يَجوزُ أنْ يَنتصِبَ على المفعولِ مِن أجْلِه، وناصبُه قولُه: ﴿حَبَّبَ﴾، وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ اعتراضٌ بيْنَهما. ويَجوزُ أنْ يَنتصِبَ بفِعلٍ مُقدَّرٍ، أي: جَرى ذلك. ويَجوزُ أنْ يَنتصِبَ على المصدَرِ المؤكِّدِ لمَضمونِ الجُملةِ السَّابِقةِ؛ لأنَّها فضلٌ أيضًا، أي: تَفضَّلَ فضْلًا[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَأمُرُ اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ أنْ يَتبيَّنوا إنْ جاءهم فاسقٌ بأيِّ خبَرٍ؛ لئلَّا يُصيبوا قومًا جهْلًا منهم وخطَأً بسَببِ تَصديقِهم لِخبَرِه بدونِ تَثبُّتٍ، فيَندَموا على ذلك.

ويأمُرُ اللهُ عزَّ وجلَّ أصحابَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَعلَموا أنَّ فيهم رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لو يُطِيعهم ويَعمَلُ بآرائِهم في كثيرٍ مِن الأمورِ، لَوقَعوا في شِدَّةٍ ومَشقَّةٍ، ولكنَّ اللهَ حبَّبَ إليهمُ الإيمانَ، وحسَّنَه في قُلوبِهم، وبغَّضَ إليهم الكفرَ والفُسوقَ وارتكابَ المعاصي، فلْيَشكروا اللهَ على ذلك، ولا يَتقدَّموا اللهَ ورسولَه بأمرٍ؛ إذ يَكفيهم الاتِّباعُ والالتزامُ، وأولئك هم أُولو الرُّشدِ والاستِقامة. فعَلَ اللهُ ذلك بهم تَفضُّلًا منه عليهم ونِعمةً منه، واللهُ عليمٌ حكيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٨٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٧).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٧١)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٨)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٧/ ١٢١٨).

فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إنْ جاءكم أيُّ فاسِقٍ كان بأيِّ خبَرٍ، فتَمهَّلوا وتوَقَّفوا عن قَبولِ خَبرِه، حتَّى تَتيقَّنوا منه، فتَتبيَّنوا صِدقَه أو كَذِبَه، وتَظهَرَ لكم الحقيقةُ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٣، ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١١).

قال ابنُ عطيَّةَ: (الفِسقُ: الخُروجُ عن نهْجِ الحَقِّ، وهو مراتِبُ مُتباينةٌ، كُلُّها مَظِنَّةٌ للكَذِبِ، ومَوضِعُ تثَبُّتٍ وتبَيُّنٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٧).

وقال ابنُ عاشور: (الفاسِقُ: المتَّصِفُ بالفُسوقِ، وهو فِعْلُ ما يُحرِّمُه الشَّرعُ مِنَ الكبائِرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٩).

قال ابنُ عبدِ البَرِّ: (ولا خِلافَ بيْنَ أهلِ العِلمِ بتأويلِ القُرآنِ فيما عَلِمتُ أنَّ قولَه عزَّ وجَلَّ: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ نزَلت في الوليدِ بنِ عُقْبةَ، وذلك أنَّه بعَثه رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى بني الْمُصْطَلِق مصدِّقًا [أي: عاملًا على الزكاةِ]، فأخبَر عنهم أنَّهم ارتدوا، وأبَوْا مِن أداءِ الصَّدقةِ، وذلك أنَّهم خرَجوا إليه فهابهم، ولم يعرِفْ مَا عندَهم، فانصَرَف عنهم، وأخبَر بما ذكَرْنا). ((الاستيعاب في معرفة الأصحاب)) (٤/ ١٥٥٣). ويُنظر: ((الإصابة)) لابن حجر (٦/ ٤٨١، ٤٨٢).

وقال النيسابوري: (وقد أجمَع المفسِّرونَ على أنَّها نزَلَتْ في الوليدِ بنِ عُقبةَ). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٦٠).

قال البِقاعي: (الفاسِقُ المذكورُ في الآيةِ المرادُ به الجِنسُ، والَّذي نزَل ذلك بسَبَبِه هو الوليدُ بنُ عُقْبةَ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٣٦٥، ٣٦٦).

وقال الألوسي: (ليس مُرادُنا مِن كَونِ الصَّحابةِ -رضيَ الله تعالى عنهم- جميعِهم عُدولًا أنَّهم لم يَصدُرْ عن أحدٍ منهم مُفَسِّقٌ أصلًا، ولا ارتكَب ذنْبًا قَطُّ؛ فإنَّ دُونَ إثباتِ ذلك خَرْطَ القَتادِ، فقد كانت تَصدُرُ منهم الهَفَواتُ، ويَرتَكِبونَ ما يُحَدُّون عليه، وإنكارُ ذلك مُكابَرةٌ صِرفةٌ، وعِنادٌ مَحْضٌ، وجهلٌ بمَوارِدِ الآياتِ والأحاديثِ؛ بل مُرادُنا أنَّهم لم يَنتَقِلوا مِن هذه الدَّارِ إلى دارِ القَرارِ إلَّا وهم طاهِرونَ مُطَهَّرونَ، تائِبونَ آيِبونَ بِبَرَكةِ صُحبتِهم لِلنَّبيِّ صلَّى الله تعالى عليه =

﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾.

أي: إنْ جاءكم فاسقٌ بنَبأٍ فتَبيَّنوا؛ لئلَّا تُصِيبوا -خطَأً وجهْلًا منكم- قومًا بُرآءَ ممَّا قُذِفوا به بسَببِ تَصديقِكم الفاسِقَ في خبَرِه الكاذِبِ[(١)].

= وسلَّم، ونُصرتِهم إيَّاه، وبَذْلِ أنفُسِهم وأموالِهم في محَبَّتِه، وتعظيمِهم له أشدَّ التَّعظيمِ سرًّا وعلانيةً، كما يدُلُّ على ذلك الكِتابُ، وتَشهَدُ له الآثارُ). ((الأجوبة العراقية على الأسئلة اللاهورية)) (ص: ٢٢).

وقال ابن عاشور: (اعلَمْ أنْ ليس في الآيةِ ما يَقتَضي وصْفَ الوَليدِ بالفاسِقِ تصريحًا ولا تلويحًا. وقد اتَّفَق المفسِّرون على أنَّ الوليدَ ظنَّ ذلك، كما في «الإصابة» عن ابنِ عبدِ البَرِّ، وليس في الرِّواياتِ ما يَقتضي أنَّه تعمَّد الكذِبَ. قال الفخرُ: «إنَّ إطلاقَ لَفظِ «الفاسق» على الوليدِ شَيءٌ بعيدٌ؛ لأنَّه توهَّمَ وظنَّ فأخطأَ، والمُخطِئُ لا يُسمَّى فاسِقًا». قلتُ: ولو كان الوليدُ فاسقًا لَما ترَك النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَعنيفَه واستتابتَه... وقد اتَّفَق مَن ترجموا للوليدِ بن عُقْبةَ على أنَّه كان شُجاعًا جَوَادًا، وكان ذا خُلُقٍ ومُروءةٍ. واعلَمْ أنَّ جُمهورَ أهلِ السُّنَّةِ على اعتبارِ أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عُدولًا، وأنَّ كلَّ مَن رأى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وآمَنَ به فهو مِن أصحابِه... وعلى تَسليمِ أن تكون الآيةُ إشارةً إلى فاسقٍ مُعَيَّنٍ فلماذا لا يُحمَلُ على إرادةِ الَّذي أعلَمَ الوليدَ بأنَّ القَومَ خرَجوا له لِيَصُدُّوه عن الوُصولِ إلى دِيارِهم؛ قصْدًا لإرجاعِه؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٩، ٢٣٠). وينظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٨).

وذكر ابنُ العربي أنَّ القصَّةَ فيها اختلافٌ، ثمَّ قال: (وبهذا الاختلافِ يُسقِطُ العُلماءُ الأحاديثَ القَويَّةَ. وكيف يُفسَّقُ رجُلٌ بمِثلِ هذا الكلام؟ فكيف برَجُلٍ مِن أصحابِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؟!). ((العواصم من القواصم)) (ص: ٩٢).

وقال محبُّ الدِّينِ الخطيب بعدَ أن سرَد الرِّواياتِ الواردةَ في نُزولِ الآيةِ في الوليدِ بن عُقْبَةَ، قال: (كلُّ هذه الأخبارِ مِن أوَّلِها إلى آخِرِها لا يجوزُ أن يؤاخَذَ بها مُجاهِدٌ كان مَوضِعَ ثِقةِ أبي بكرٍ وعُمَرَ، وقام بخِدْماتٍ للإسلامِ يُرجى له بها أعظَمُ المَثوبةِ إن شاء الله. أضِفْ إلى كلِّ ما تقدَّم أنَّه في الوقتِ الَّذي حدثَتْ فيه لِبَني المُصْطَلِقِ الحادثةُ الَّتي نزلَتْ فيها الآيةُ كان الوليدُ صغيرَ السِّنِّ). من تعليقِه على ((العواصم من القواصم)) لابن العربي (ص: ٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١١). =

﴿فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.

أي: فتَنْدَموا -أيُّها المؤمنونَ- على إصابتِكم القَومَ البُرآءَ بأذًى وضَررٍ؛ بسَببِ تَعجُّلِكم في قَبولِ خبَرِ الفاسِقِ، وتَرْكِكم التَّبيُّنَ والتَّثبُّتَ[1].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾.

أي: واعْلَموا -يا أصحابَ النَّبيِّ- أنَّ رسولَ اللهِ بيْنَ أظْهُرِكم[2].

= قال الشنقيطي: (قولُه: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا﴾، أي: لئلَّا تُصيبوا قومًا، أو كراهةَ أن تُصيبوا قومًا بجهالةٍ، أي: لِظَنِّكم النَّبأَ الَّذي جاء به الفاسِقُ حقًّا). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

قيل: المقصودُ: اتَّقُوا أن تَكذِبوا أو تقولوا باطلًا؛ فإنَّ اللهَ تعالى يُخبِرُه بأنبائِكم، ويُعرِّفُه أحوالَكم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، وابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والخازن، وأبو حيَّان، وجلال الدين المحلِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٨٦).

وقيل: إنَّ الله تعالى لَمَّا قال: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ قال بَعْدَه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾، أي: الكشْفُ سهْلٌ عليكم بالرُّجوعِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّه فيكم مُبيِّنٌ مُرشِدٌ. قاله الرَّازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠١). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٦).

وقيل: المعنى: اعلَموا أنَّ بيْنَ أظهُرِكم رسولَ اللهِ؛ فعظِّموه ووقِّروه، وتأدَّبوا معه، وانقادوا =

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾.

أي: لو أنَّ رسولَ اللهِ يَعمَلُ بآرائِكم -أيُّها المؤمنونَ- في كثيرٍ مِن الأمورِ، لَوقَعْتُم في مَشقَّةٍ وشِدَّةٍ(١).

عن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خطَبَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: أيُّها النَّاسُ، قد فرَضَ اللهُ عليكم الحجَّ، فحُجُّوا، فقال رجُلٌ: أكُلَّ عامٍ يا رسولَ اللهِ؟ فسَكَتَ حتَّى قالَها ثلاثًا، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو قلْتُ: نعمْ، لَوجَبَتْ، ولَما استطَعْتُم، ثمَّ قال: ذَرُوني ما ترَكْتُكم؛ فإنَّما هلَكَ مَن كان قبْلَكم بكَثرةِ سُؤالِهم، واختِلافِهم على أنْبيائِهم، فإذا أمَرْتُكم بشَيءٍ فأْتُوا منه ما استطَعْتُم، وإذا نهَيْتُكم عن شَيءٍ فدَعُوه))(٢).

= لأمْرِه؛ فإنَّه أعلَمُ بمَصالِحِكم، وأشفَقُ عليكم منكم، ورأيُه فيكم أتَمُّ مِن رأيِكم لأنفُسِكم. قاله ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٢).

قال ابنُ عاشور: (فالمقصودُ تعليمُ المُسلِمينَ باتِّباعِ ما شرَعَ لهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الأحكامِ، ولو كانت غيرَ مُوافِقةٍ لرَغَباتِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٤).

وقال ابنُ عُثيمين: (سَبَبُ ما سبَق أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بلَغَه عن قَومٍ ما ليس فيهم، فأمَر اللهُ تعالى بالتَّأكُّدِ مِن الأخبارِ إذا جاء بها مَن لا تُعرَفُ عدالتُه، وكأنَّ بعضَ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم أرادوا مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُعاقِبَ هؤلاء الَّذين بلَغه عنهم ما بلَغه، ولكِنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَفعَلْ بعدَ أن نزَلَت عليه الآيةُ: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٥).

قال ابن جرير: (كما لو قَبِلَ مِنَ الوَليدِ بنِ عُقْبةَ قَولَه في بَني المُصْطَلِقِ: إنَّهم قد ارتَدُّوا، ومَنَعوا الصَّدَقةَ، وجَمَعوا الجُموعَ لغَزْوِ المُسلِمينَ، فغزاهم فقتَلَ منهم، وأصاب مِن دمائِهم وأموالِهم؛ كان قد قتَلَ وقتَلْتُم مَن لا يحِلُّ له ولكم قتْلُه، وأخَذَ وأخَذْتُم مِن المالِ ما لا يَحِلُّ له ولكم أخْذُه مِن أموالِ قَومٍ مُسلِمينَ، فنالَكُم مِنَ اللهِ بذلك عَنَتٌ!). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٤).

(٢) رواه مسلم (١٣٣٧).

وعن أبي ذَرٍّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((صُمْنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رمضانَ، فلم يَقُمْ بنا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى بقِيَ سبْعٌ مِن الشَّهرِ، فقام بنا حتَّى ذهَبَ نحْوٌ مِن ثُلُثِ اللَّيلِ، ثمَّ كانت سادسةٌ فلم يَقُمْ بنا، فلمَّا كانت الخامسةُ قام بنا حتَّى ذهَبَ نحوٌ مِن شَطرِ اللَّيلِ، قُلْنا: يا رسولَ اللهِ، لو نفَّلْتَنا(١) قِيامَ هذه اللَّيلةِ، قال: إنَّ الرَّجُلَ إذا صلَّى مع الإمامِ حتَّى يَنصرِفَ حُسِب له قِيامُ لَيلةٍ))(٢).

وعن عائشةَ رضي الله عنها: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، خَرَج مِن جوفِ اللَّيلِ فصلَّى في المسجدِ، فصلَّى رجالٌ بصلاتِه، فأصْبَح النَّاسُ يتحَدَّثونَ بذلك، فاجْتَمَع أكثرُ منهم، فخَرَج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في اللَّيلةِ الثَّانيةِ، فصَلَّوْا بصلاتِه، فأصْبَح النَّاسُ يَذْكُرونَ ذلك، فكَثُر أهلُ المسجدِ مِن اللَّيلةِ الثَّالثةِ، فخَرَج فصَلَّوْا بصلاتِه، فلمَّا كانت اللَّيلةُ الرَّابعةُ عَجَز المسجدُ عن أهلِه، فلم يَخْرُجْ إليهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فطَفِق رِجالٌ منهم يقولونَ: الصَّلاةَ، فلم يخرُجْ إليهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم حَتَّى خَرَج لصلاةِ الفجرِ، فلمَّا قضَى الفجرَ أقْبَل على النَّاسِ، ثُمَّ تَشَهَّد، فقال: أمَّا بعدُ، فإنَّه لم يَخْفَ علَيَّ شَأْنُكم اللَّيلةَ، ولكنِّي خَشيتُ أنْ تُفْرَضَ عليكم صلاةُ اللَّيلِ فتَعْجِزوا عنها))(٣).

---

(١) نَفَّلْتَنا: أي: زِدْتَنا مِن صَلاةِ النَّافلةِ. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطيبي (٤/ ١٢٣٤).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١٣٧٥)، والترمذيُّ (٨٠٦)، والنسائيُّ (١٣٦٤) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (١٣٢٧)، وأحمد (٢١٤٤٧).

قال الترمذي: (حَسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّحه الطَّحاويُّ في ((شرح معاني الآثار)) (١/ ٣٤٩)، وابنُ حِبَّان في ((الصحيح)) (٢٥٤٧)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢٥/ ١٧٨)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٣٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (٩٢٤)، مسلم (٧٦١) واللفظ له.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

أي: ولكنَّ اللهَ هو الَّذي حبَّب إليكم -يا أصحابَ النَّبيِّ- الإيمانَ، فآثَرْتُموه ورَضِيتُموه، فأنتم تُطيعون اللهَ ورسولَه، ولا تُقدِّمونَ بيْنَ يدَي اللهِ ورَسولِه وإنْ خالَفَ رأْيَكم، فيَقيكم الله بذلك مِن الشِّدَّةِ والمَشقَّةِ[1].

﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

أي: وحسَّن اللهُ في قُلوبِكم الإيمانَ؛ فهو وحْدَه مَن وفَّقَكم إليه، وحبَّبه إلى نُفوسِكم[2].

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾.

أي: وبغَّض اللهُ إليكم الكفْرَ به وبرَسولِه، والخُروجَ عن طاعتِهما، وارتِكابَ المعاصي[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٥)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيميَّة (٩/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩، ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

قال ابنُ القيِّم: (تَحبيبُه سُبحانَه الإيمانَ إلى عبادِه المؤمنينَ هو إلقاءُ محبَّتِه في قُلوبِهم، وهذا لا يَقدِرُ عليه سِواه، وأمَّا تَحبيبُ العبدِ الشَّيءَ إلى غيرِه فإنَّما هو بتَزْيينِه، وذِكْرِ أوصافِه، وما يَدعو إلى محبَّتِه؛ فأخبَرَ سُبحانَه أنَّه جعَل في قُلوبِ عبادِه المؤمِنينَ الأمْرَينِ: حُبَّه، وحُسْنَه الدَّاعيَ إلى حُبِّه). ((شفاء العليل)) (ص: ٥٧).

وقال أيضًا: (ولا تَظُنُّوا أنَّ نُفوسَكم تُريدُ لكم الرُّشدَ والصَّلاحَ كلَّما أرَدْتُم الإيمانَ؛ فلولا أنِّي حبَّبْتُه إليكم وزيَّنْتُه في قُلوبِكم، وكرَّهتُ إليكم ضِدَّه؛ لَما وقَعَ منكم، ولا سمَحَتْ به أنفُسُكم). ((مدارج السالكين)) (١/ ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٢، ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - =

عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن سَرَّتْه حسَنَتُه وساءَتْه سَيِّئَتُه، فهو مُؤمِنٌ))(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

أي: الَّذين حبَّبَ اللهُ إليهم الإيمانَ، وزيَّنَه في قُلوبِهم، وكَرَّه إليهم الكفْرَ والفُسوقَ والعِصيانَ؛ أولئك هم السَّالِكون طَريقَ الحقِّ، المستَقيمون عليه، الموفَّقونَ للصَّوابِ(٢).

﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ التَّحبيبَ والتَّزيينَ والتَّكريهَ، وما أنتَجَه مِن الرَّشادِ- ذكَرَ عِلَّتَه؛

= الحديد)) (ص: ٣٠).

قال ابن عثيمين: (الكفرُ أعظَمُ مِن الفِسقِ، والفِسقُ أعظَمُ مِن العِصيانِ؛ فالكفرُ هو الخروجُ مِن الإسلام بالكُلِّيَّةِ...، وأمَّا الفِسقُ فهو دونَ الكفرِ، لكنَّه فِعلُ كبيرةٍ، ... ولم يَتُبْ منها؛ كالزِّنا، وشُربِ الخَمرِ، والسَّرِقةِ، والقَذفِ، وما أشْبَهَ ذلك، والعِصيانُ: هو الصَّغائرُ الَّتي تُكَفَّرُ بالأعمالِ الصَّالِحةِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠).

وقال الشوكاني: (أصلُ الفِسقِ الخروجُ على الطَّاعةِ، والعِصيانُ جِنْسُ ما يُعصَى اللهُ به. وقيلَ: أراد بذلك الكذِبَ خاصَّةً. والأوَّلُ أَوْلَى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧١).

(١) أخرجه الترمذيُّ (٢١٦٥)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٩٢٢٥)، وأحمدُ (١١٤) مطوَّلًا.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ غريبٌ مِن هذا الوجهِ). وصَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٧٢٥٤)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (٤/ ٩٢)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢١٦٥)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((العواصم والقواصم)) (٩/ ٤٧)، وقال ابن كثير في ((مسند الفاروق)) (٢/ ٥٥٤): (رُويت هذه الخُطبةُ عن عُمَرَ مِن وُجوهٍ عديدةٍ إذا تُتُبِّعَت بلَغَت حَدَّ التَّواتُرِ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

إعلامًا بأنَّه تعالى لا يَجِبُ عليه شَيءٌ؛ حثًّا على الشُّكرِ(١).

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾.

أي: فعَلَ اللهُ بهم ذلك تفضُّلًا منه عليهم، ونِعمةً أنعَمَ بها عليهم؛ حيثُ حبَّبَ إليهم الإيمانَ، وزيَّنَه في قُلوبِهم، وكرَّه إليهم الكفْرَ والفُسوقَ والعِصيانَ، فلمْ يَكِلْهم إلى أنفُسِهم، بلْ تولَّى سُبحانَه ذلك مِن غيرِ حَولٍ منهم ولا قوَّةٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

ختْمُ الآيةِ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فيه مُناسَباتٌ عِدَّةٌ:

منها: أنَّه تعالى لَمَّا ذكَرَ نبَأَ الفاسِقِ، قال: إنْ يَشتبِهْ على المؤمِنِ كذِبُ الفاسِقِ، فلا تَعتمِدوا على تَرويجِه عليكم الزُّورَ؛ فإنَّ اللهَ عليمٌ، ولا تَقولوا -كما كان عادةُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٧، ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١، ٣٢).

قال الرازي: (فَضْلُ اللهِ إشارةٌ إلى ما عِندَه مِنَ الخَيرِ وهو مُستَغنٍ عنه، والنِّعمةُ إشارةٌ إلى ما يَصِلُ إلى العبدِ وهو محتاجٌ إليه؛ لأنَّ الفَضلَ في الأصلِ يُنبِئُ عن الزِّيادةِ، وعندَه خزائنُ مِنَ الرَّحمةِ لا لِحاجةٍ إليها، ويُرسِلُ منها على عبادِه ما لا يَبْقَونَ معه في ورْطةِ الحاجةِ بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ، والنِّعمةُ تُنبئُ عن الرَّأفةِ والرَّحمةِ، وهو من جانبِ العبدِ، وفيه معنًى لطيفٌ، وهو تأكيدُ الإعطاءِ...، فإذَنْ قولُه: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى ما هو مِن جانبِ اللهِ الغَنيِّ، والنِّعمةُ إشارةٌ إلى ما هو مِن جانبِ العبدِ مِن اندِفاعِ الحاجةِ، وهذا ممَّا يؤكِّدُ قولَنا: ﴿فَضْلًا﴾ مَنصوبٌ بفِعْلٍ مُضمَرٍ، وهو الابتِغاءُ والطَّلَبُ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٣، ١٠٤).

المنافِقِ-: لولا يُعذِّبُنا اللهُ بما نقولُ؛ فإنَّ اللهَ حكيمٌ لا يَفعَلُ إلَّا على وَفْقِ حِكمتِه.

وثانيها: لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧]، بمعْنى: لا يُطيعكم، بل يتَّبِعُ الوحْيَ، قال: فإنَّ اللهَ مِن كَونِه عَليمًا يُعلِّمُه، ومِن كَونِه حَكيمًا يَأمُرُه بما تَقتضِيه الحِكمةُ؛ فاتَّبِعوه.

ثالثُها: المُناسَبةُ الَّتي بيْنَ قولِه تعالى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وبيْنَ قولِه: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾، أي: حبَّبَ بعِلمِه الإيمانَ لأهلِ الإيمانِ، واختارَ له مَن يَشاءُ بحِكمتِه.

رابعُها: أنَّه سُبحانه وتعالى قال: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾، ولَمَّا كان الفضْلُ هو ما عندَ اللهِ مِن الخَيرِ المسْتَغنَى عنه، قال تعالى: هو عليمٌ بما في خَزائنِ رحْمتِه مِن الخَيرِ، وكانت النِّعمةُ هو ما يُدفَعُ به حاجةُ العبْدِ، قال: هو حَكيمٌ يُنزِلُ الخَيرَ بقَدَرٍ ما يَشاءُ على وَفْقِ الحِكمةِ[1].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ بالغُ العِلمِ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلْمُه التَّامُّ بالمحْسِنينَ مِن المسيئينَ، ومَن هم أهلٌ لفضْلِ اللهِ ونِعمتِه ممَّن لا يَصلُحُ لذلك، وهو بالغُ الحِكمةِ؛ فيَضَعُ كلَّ شَيءٍ في مَوضعِه اللَّائقِ به، ومِن ذلك إيتاؤُه فضْلَه لِمَن يَصلُحُ له[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢، ٣٣).

بِجَهَٰلَةٍ ﴾، هذا مِن الآدابِ الَّتي على أُولي الألبابِ التَّأدُّبُ بها واستِعمالُها؛ وهو أنَّه إذا أخبَرَهم فاسِقٌ بخبَرٍ أنْ يَتثبَّتوا في خبرِه، ولا يأْخُذوه مُجرَّدًا؛ فإنَّ في ذلك خطَرًا كبيرًا، ووُقوعًا في الإثمِ؛ فإنَّ خبَرَه إذا جُعِلَ بمَنزِلةِ خبَرِ الصَّادِقِ العدْلِ، حُكِمَ بمُوجَبِ ذلك ومُقتضاهُ، فحصَلَ مِن تلَفِ النُّفوسِ والأموالِ بغيرِ حقٍّ بسَببِ ذلك الخبَرِ ما يكونُ سَببًا للنَّدامةِ، بلْ الواجبُ عندَ خبَرِ الفاسِقِ التَّثبُّتُ والتَّبيُّنُ، فإنْ دلَّت الدَّلائلُ والقرائنُ على صِدقِه عُمِلَ به وصُدِّقَ، وإنْ دلَّت على كذِبِه كُذِّبَ ولم يُعمَلْ به(١).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾، فيه تَحذيرٌ مِن الوُقوعِ فيما يُوجِبُ النَّدَمَ شرْعًا(٢).

٣- ليس حُسنُ النِّيَّةِ بالرَّعيَّةِ والإحسانُ إليهم: أنْ يَفعَلَ ما يَهْوَوْنه، ويَترُكَ ما يَكرَهونَه؛ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وقال تعالى للصَّحابةِ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾، وإنَّما الإحسانُ إليهم فِعْلُ ما يَنفَعُهم في الدِّينِ والدُّنيا ولو كَرِهَه مَن كَرِهَه؛ لكنْ يَنْبغي له أنْ يَرفُقَ بهم فيما يَكرَهونه؛ ففي الصَّحيحِ(٣) عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلَّا زانَه، ولا يُنزَعُ مِن شيءٍ إلَّا شانَه))(٤).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٩٤) من حديث عائشةَ رَضيَ الله عنها.

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٨/ ٣٦٤).

﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾، فيه إشارةٌ إلى لَطيفةٍ؛ وهي أنَّ المؤمنَ كان مَوصوفًا بأنَّه شَديدٌ على الكافرِ، غليظٌ عليه، فلا يَتمكَّنُ الفاسِقُ مِن أنْ يُخبِرَه بنَبأٍ، فإنْ تَمكَّنَ منه يكونُ نادرًا، فقال: ﴿إِن جَآءَكُمۡ﴾ بحرْفِ الشَّرطِ الَّذي لا يُذكَرُ إلَّا مع التَّوقُّعِ؛ إذ لا يَحسُنُ أنْ يُقالَ: (إنِ احمَرَّ البُسرُ)، و(إنْ طلَعَتِ الشَّمسُ)(١).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على قَبولِ خبرِ الواحدِ إذا كان عدْلًا؛ لأنَّه إنَّما أمَرَ فيها بالتَّثبُّتِ عند نقْلِ خبرِ الفاسِقِ(٢)، فقولُه تعالَى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ يدُلُّ بدَليلِ خِطابه -أي: مفهومِ مخالَفَتِه- أنَّ الجائيَ بنَبأٍ إنْ كان غيرَ فاسِقٍ بل عدلًا لا يَلزَمُ التَّبيُّنُ في نَبَئِه(٣)، والسِّياقُ مُرشِدٌ إلى أنَّ خبَرَ العدْلِ لا وَقفةَ فيه، وإلَّا لَاسْتوى مع الفاسِقِ، فالتَّثبُّتُ مُعلَّلٌ بالفِسقِ، فإذا انْتفَى ولم تُوجَدْ عِلَّةٌ أُخرى تُوجِبُ التَّثبُّتَ؛ وجَبَ القَبولُ(٤).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾، فيه أنَّ شَهادةَ الفاسِقِ لا تُقبَلُ؛ فإنَّ اللهَ تعالَى أمَر بالتَّبيُّنِ في الخَبرِ والنَّبأِ، وبابُ الشَّهادةِ أضيَقُ مِن بابِ الخَبرِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٢٩)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٩).

وقال ابن القيِّم: (مَدارُ قَبولِ الشَّهادةِ ورَدِّها على غَلَبةِ ظنِّ الصِّدقِ وعدَمِه. والصَّوابُ المقطوعُ به أنَّ العدالةَ تَتبعَّضُ؛ فيكونُ الرَّجُلُ عدلًا في شَيءٍ، فاسِقًا في شَيءٍ، فإذا تبيَّنَ للحاكمِ أنَّه عدْلٌ فيما شهِدَ به، قَبِلَ شَهادتَه، ولم يَضُرَّه فِسقُه في غَيرِه). ((الطرق الحكمية)) (ص: ١٤٨).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾، فيه دَليلٌ على أنَّ خبرَ الصَّادِقِ مَقبولٌ، وخبرَ الكاذبِ مَردودٌ، وخبرَ الفاسِقِ مُتوقَّفٌ فيه؛ ولهذا كان السَّلَفُ يَقبَلون رِواياتِ كثيرٍ مِن الخَوارِجِ المعْروفينَ بالصِّدقِ، ولو كانوا فُسَّاقًا[١]. فنَبأُ الفاسِقِ ليس بمَردودٍ، بل هو مُوجِبٌ للتَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ، كما قال تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، وفي القِراءةِ الأُخرى: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾[٢]، فعلَينا التَّبيُّنُ والتَّثبُّتُ عندَ خبرِ الفاسِقِ الواحِدِ، ولم نُؤمَرْ به عندَ خبرِ الفاسِقينَ؛ وذلك أنَّ خبرَ الاثنَينِ يُوجِبُ مِن الاعتقادِ ما لا يُوجِبُه خبرُ الواحدُ، أمَّا إذا عُلِمَ أنَّهما لم يَتواطَآ فهذا قد يَحصُلُ به العِلمُ[٣]، وقولُه تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ يَتناوَلُ خبرَ كلِّ فاسقٍ وإنْ كان كافرًا لا يَجوزُ تَكذيبُه إلَّا ببَيِّنةٍ، كما لا يَجوزُ تَصديقُه إلَّا ببَيِّنةٍ[٤].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ فيه وُجوبُ البَحثِ عن عَدالةِ مَن كان مَجهولَ الحالِ في قَبولِ الشَّهادةِ، أو الرِّوايةِ عندَ القاضي وعندَ الرُّواةِ[٥]، وفي الآيةِ دَليلٌ على فَسادِ قَولِ مَن قال: إنَّ المسلِمينَ كلَّهم عُدولٌ حتَّى تَثبُتَ الجرْحةُ[٦]؛ فالمجهولُ الحالِ يحتَمِلُ أن يكونَ فاسِقًا، فالاحتياطُ لازِمٌ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩).

(٢) قَرَأها حَمْزَةُ وَالكِسائيُّ وخَلَفٌ ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ مِن التَّثبُّتِ، وقَرَأها الباقونَ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ مِن التَّبيُّنِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٥/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٣).

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ هاهنا فائدةٌ لَطيفةٌ؛ وهي أنَّه سُبحانه لم يَأمُرْ برَدِّ خبَرِ الفاسِقِ وتكذيبِه ورَدِّ شَهادتِه جُملةً، وإنَّما أمَرَ بالتَّبيُّنِ، فإنْ قامت قَرائِنُ وأدِلَّةٌ مِن خارجٍ تدُلُّ على صِدقِه، عُمِلَ بدَليلِ الصِّدقِ، ولو أخبَرَ به مَن أخبَرَ، فهكذا يَنْبغي الاعتِمادُ في رِوايةِ الفاسِقِ وشَهادتِه، وكثيرٌ مِن الفاسِقينَ يَصدُقون في أخبارِهم ورِواياتِهم وشَهاداتِهم، بل كثيرٌ منهم يَتحرَّى الصِّدقَ غايةَ التَّحرِّي، وفِسقُه مِن جِهاتٍ أُخَرَ، فمِثلُ هذا لا يُرَدُّ خبَرُه ولا شَهادتُه، ولو رُدَّتْ شَهادةُ مِثلِ هذا ورِوايتُه، لَتعطَّلَت أكثرُ الحُقوقِ، وبطَلَ كثيرٌ مِن الأخبارِ الصَّحيحةِ، ولا سيَّما مَن فِسقُه مِن جِهةِ الاعتِقادِ والرَّأيِ، وهو مُتحَرٍّ للصِّدقِ، فهذا لا يُرَدُّ خبَرُه ولا شَهادتُه. وأمَّا مَن فِسقُه مِن جِهةِ الكذِبِ؛ فإنْ كثُرَ منه وتَكرَّرَ، بحيث يَغلِبُ كذِبُه على صِدقِه، فهذا لا يُقبَلُ خَبرُه ولا شَهادتُه، وإنْ نَدَرَ منه مرَّةً ومرَّتَينِ، ففي رَدِّ شَهادتِه وخبَرِه بذلك قَولانِ للعُلماءِ[1].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ يأمُرُ تعالى بالتَّثبُّتِ في خبَرِ الفاسِقِ ليُحتاطَ له؛ لئلَّا يُحكَمَ بقولِه فيكون -في نفْسِ الأمرِ- كاذبًا أو مُخطئًا، فيَكونَ الحاكمُ بقولِه قد اقتَفى وَراءَه، وقدْ نَهى اللهُ عن اتِّباعِ سَبيلِ المفسِدين، ومِن هاهنا امتنَعَ طوائفُ مِن العُلماءِ مِن قَبولِ رِوايةِ مَجهولِ الحالِ؛ لاحتِمالِ فِسقِه في نفْسِ الأمْرِ، وقَبِلَها آخَرونَ؛ لأنَّا إنَّما أُمِرْنا بالتَّثبُّتِ عندَ خبَرِ الفاسِقِ، وهذا ليس بمُحقَّقِ الفِسقِ؛ لأنَّه مَجهولُ الحالِ[2].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾، أصْلٌ عَظيمٌ في تَصرُّفاتِ وُلاةِ الأُمورِ، وفي تَعامُلِ النَّاسِ بَعضِهم مع

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٠).

بَعضٍ؛ مِن عدَمِ الإصغاءِ إلى كلِّ ما يُرْوَى ويُخبَرُ به(١).

٩- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الأمْرُ بالتَّبيُّنِ أصلٌ عَظيمٌ في وُجوبِ التَّثبُّتِ في القضاءِ، وألَّا يَتتبَّعَ الحاكمُ القِيلَ والقالَ، ولا يَنصاعَ إلى الجَوَلانِ في الخَواطِرِ مِن الظُّنونِ والأوهامِ(٢).

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾، فيه لَطيفةٌ؛ وهي أنَّ الإصابةَ تُستعمَلُ في السَّيِّئةِ والحَسَنةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾(٣) [النساء: ٧٩].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾، أي: فتَصِيروا، ولكنَّه عبَّرَ بذلك؛ لأنَّ أشنَعَ النَّدَمِ ما استقبَلَ الإنسانَ صباحًا، وقْتَ انتباهِه وفَراغِه، وإقبالِه على لَذَّاتِه(٤).

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾، عبَّرَ بـ﴿كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّه قدْ يُوافِقُهم، ويَفعَلُ بمُقْتضَى مَصلحتِهم؛ تَحقيقًا لفائدةِ قولِه تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾(٥) [آل عمران: ١٥٩].

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾، استدلَّ به عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ في الرَّدِّ على القدَريَّةِ(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٠، ٢٣١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٣١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٩).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٢).
(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).
والأثرُ الواردُ عن عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ في ذلك أخرجه أبو نُعَيمٍ في ((الحلية)) (٥/ ٣٤٦).

١٤- يَجِبُ على المسلمِ أنْ يَتبرَّأَ مِن كلِّ عمَلٍ لا يُرْضي اللهَ ورسولَه وإنْ لم يكُنْ كُفْرًا، كالفُسوقِ والعِصيانِ، كما قال سُبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[1].

١٥- قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ إلى قولِه سُبحانه: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾، يُبيِّنُ أنَّ ما يَحْصُلُ في القلوبِ مِن الإيمانِ هو مِن اللهِ تعالى بفضْلِه ورَحمتِه[2].

١٦- الفُسوقُ في عُرْفِ الشَّرْعِ أشدُّ مِن العِصيانِ؛ قال تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾[3].

١٧- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ فيه معنًى لَطيفٌ؛ وهو أنَّ اللهَ تعالى في أوَّلِ الأمرِ قال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، أي: هو مُرشِدٌ لكم، فخِطابُ المؤمنينَ للتَّنبيهِ على شَفَقتِه بالمؤمنينَ، فقال في الأوَّلِ: كفَى النَّبيُّ مُرشِدًا لكم ما تَستَرشِدونَه، فأشفَقَ عليهم وأرشَدَهم، وعلى هذا قولُه: ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي: الموافِقونَ للرُّشدِ؛ يأْخُذونَ ما يأتِيهم، ويَنتهونَ عمَّا يَنهاهُم[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ هذا نِداءٌ ثالثٌ ابتُدِئَ به غرَضٌ آخَرُ، وهو آدابُ جماعاتِ المؤمنينَ بَعضِهم معَ بعضٍ، وإعادةُ الخِطابِ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١١).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٣).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وفَصْلُه بدونِ عاطفٍ؛ لتَخْصيصِ هذا الغرَضِ بالاهتِمامِ؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا[(١)].

- وأفاد حرْفُ التَّنبيهِ (يا)، وإيقاعُ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ صِلةً للمَوصولِ، وجَعْلُها سببًا لِمَا بعْدَه مِن الحرْفِ الموضوعِ لنِداءِ البعيدِ، وقد نُودِيَ به القريبُ المُقاطِنُ- أنَّ على المؤمنينَ أنْ يَكونوا على تثبُّتٍ مِن الأمرِ؛ لئلَّا يطمَعَ فاسقٌ في مخاطبَتِهم بكلمةِ زُورٍ[(٢)].

- قولُه: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أُوثِرَ في الشَّرطِ حرْفُ (إنْ) الَّذي الأصلُ فيه أنْ يكونَ للشَّرطِ المشكوكِ في وُقوعِه؛ للتَّنبيهِ على أنَّ شأنَ فِعلِ الشَّرطِ أنْ يكونَ نادرَ الوُقوعِ، لا يُقدِمُ عليه المسلِمونَ[(٣)].

- وتَنكيرُ (فاسقٍ) و(نَبأٍ) في سِياقِ الشَّرطِ يُفيدُ العُمومَ في الفُسَّاقِ بأيِّ فِسقٍ اتَّصَفوا، وفي الأنباءِ كيف كانتْ، كأنَّه قِيل: أيُّ فاسقٍ جاءَكم بأيِّ نبأٍ، فتوقَّفوا فيه، وتَطَلَّبوا بَيانَ الأمْرِ وانكشافَه[(٤)]. والتَّبيُّنُ: قُوَّةُ الإبانةِ، وهو مُتعدٍّ إلى مَفعولٍ بمعْنى أبانَ، أي: تأمَّلوا وأبِينوا. والمَفعولُ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿بِنَبَإٖ﴾، أي: تَبيَّنوا ما جاء به[(٥)].

- والجَهالةُ: تُطلَقُ بمعنى ضِدِّ العِلمِ، وتُطلَقُ بمعنى ضِدِّ الحِلمِ، مِثلُ قولِهم: جَهْلٌ كجَهلِ السَّيفِ؛ فعلَى الأوَّلِ -أنَّ الجهالةَ ضِدُّ العِلمِ- فالباءُ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٩). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣١).

﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ للمُلابَسةِ، وهو ظَرفٌ مُستقَرٌّ[١] في مَوضعِ الحالِ، أي: مُتلبِّسين أنتُم بعدَمِ العِلمِ بالواقعِ؛ لتَصديقِكم الكاذِبَ، ومُتعلَّقُ ﴿تُصِيبُواْ﴾ على هذا الوجْهِ مَحذوفٌ دلَّ عليه السِّياقُ سابقًا ولاحِقًا، أي: أنْ تُصيبوهم بضُرٍّ، وأكثرُ إطلاقِ الإصابةِ على إيصالِ الضُّرِّ. وعلى الإطلاقِ الثَّاني -أنَّ الجهالةَ ضِدُّ الحِلْمِ- فالباءُ للتَّعديةِ، أي: أنْ تُصيبوا قومًا بفِعلٍ مِن أثَرِ الجَهالةِ، أي: بفِعلٍ مِن الشِّدَّةِ والإضرارِ[٢].

- ودلَّ قولُه: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ أنَّه تَحذيرٌ مِن الوُقوعِ فيما يُوجِبُ التَّوبةَ مِن تلك الإصابةِ؛ فكان هذا كِنايةً عن الإثمِ في تلك الإصابةِ[٣].

- وتَقديمُ المَجرورِ على مُتعلَّقِه في قَولِه: ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾؛ للاهتِمامِ بذلك الفِعلِ -وهو الإصابةُ بدُونِ تثبُّتٍ-، والتَّنبيهِ على خطَرِ أمْرِه[٤].

- وقدَّمَ اللهُ في هذه السُّورةِ الكريمةِ ما هو الأهمُّ على ما دُونَه؛ فذكَرَ جانبَ

---

(١) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ «استقرَّ»، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبَرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عامِلُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّيَ ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لَغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولُك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زَيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زَيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهِ، ثمَّ ذكَرَ جانبَ الرَّسولِ، ثمَّ ذكَرَ ما يُفْضي إلى الاقتِتالِ بيْنَ طوائفِ المسلِمينَ بسَببِ الإصغاءِ إلى كَلامِ الفاسِقِ والاعتِمادِ عليه؛ فإنَّه يَذكُرُ كلَّ ما كان أشدَّ نِفارًا للصُّدورِ. وأمَّا المؤمنُ الحاضرُ أو الغائبُ، فلا يُؤذِي المؤمنَ إلى حدٍّ يُفْضي إلى القتْلِ، ولذا لمْ يَذكُرِ المؤمنَ قبْلَ الفاسقِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: ٦] عطْفَ تَشريعٍ على تَشريعٍ، وليس مَضمونُها تَكملةً لِمَضمونِ ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ ...﴾ إلخ، بلْ هي جُملةٌ مُستقِلَّةٌ. وابتداءُ الجُملةِ بقولِه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾؛ للاهتِمامِ(٢).

- قولُه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ تَوبيخٌ لِمَن يُكذِّبُ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ووعيدٌ بالفضيحةِ، ولا يَصدُرُ ذلك إلَّا ممَّن هو شاكٌّ في الرِّسالةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يَترُكُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعتمِدُ على خبَرِ الفاسِقِ، بل بيَّنَ له ذلك. وقولُه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ قيل: هو كلامٌ تامٌّ، أمَرَهم بأنْ يَعلَموا أنَّ الَّذي هو بيْنَ ظَهرانَيْكم هو رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلا تُخبِروه بما لا يَصِحُّ؛ فإنَّه رسولُ اللهِ يُطلِعُه على ذلك(٣).

- قولُه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في الإيقاظِ والتَّحذيرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٣).

على وجْهِ الكِنايةِ؛ فإنَّ كَونَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بيْنَ ظَهرانَيْهم أمْرٌ مَعلومٌ لا يُخبَرُ عنه، فالمَقصودُ تَعليمُ المسلمينَ اتِّباعَ ما شَرَعَ لهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الأحكامِ، ولو كانت غيرَ مُوافِقةٍ لرغَباتِهم[(١)].

- وتَقديمُ خبَرِ (إنَّ) على اسمِها في قولِه: ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾؛ للاهتِمامِ بهذا الكَونِ فيهم، وتنْبيهًا على أنَّ واجِبَهم الاغتِباطُ به، والإخلاصُ له؛ لأنَّ كَونَه فيهم شرَفٌ عظيمٌ لِجَماعتِهم، وصَلاحٌ لهم. وأيضًا القصدُ مِن تَقديمِ الخبَرِ على الاسمِ: التَّوبيخُ والتَّشدُّدُ على بعضِ المؤمنينَ؛ لِتَحاشي ما استهجَنَه اللهُ مِن مُحاوَلتِهم استِتْباعَ رأيِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لآرائِهم؛ فوجَبَ تَقديمُه لانصِبابِ الغرَضِ إليه[(٢)].

- وجُملةُ ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا ابتدائيًّا؛ فضَميرَا الجمْعِ في قولِه: ﴿يُطِيعُكُمْ﴾ وقولِه: ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ عائدانِ إلى الَّذين آمَنوا على تَوزيعِ الفعلِ على الأفرادِ؛ فالمُطاعُ بعضُ الَّذين آمنوا، وهم الَّذين يَبتَغون أنْ يَعمَلَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما يَطلُبونَ منه، والعانتُ بعضٌ آخَرُ، وهم جُمهورُ المؤمنينَ الَّذين يَجري عليهم قَضاءُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحسَبِ رَغبةِ غَيرِهم. ويجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿فِيكُمْ﴾؛ لأنَّ مَضمونَ الجُملةِ يَتعلَّقُ بأحوالِ المخاطَبينَ، مِن جِهةِ أنَّ مَضمونَ جوابِ (لو) عَنَتٌ يَحصُلُ للمُخاطَبينَ. ومآلُ الاعتِبارَينِ في مَوقعِ الجُملةِ واحدٌ، والكلامُ على كِلَا التَّقديرَينِ مُنتظِمٌ أحسَنَ انتِظامٍ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٤، ٢٣٥).

- وصِيغةُ المُضارِعِ في قولِه: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾ مُستعمَلةٌ في الماضي؛ لأنَّ حرْفَ (لو) يُفيدُ تَعليقَ الشَّرطِ في الماضي، وإنَّما عُدِلَ إلى صِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على أنَّه كان في إرادتِهم استِمرارُ عمَلِه على ما يَستَصوِبونَه، وأنَّه كلَّما عَنَّ لهم رأيٌ في أمْرٍ كان مَعمولًا عليه؛ بدليلِ قولِه: ﴿فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾، كقولِك: فلانٌ يَقْري الضَّيفَ، ويَحمي الحريمَ، تُريدُ أنَّه ممَّا اعتادَه ووُجِدَ منه مُستمِرًّا، والمعْنى: لو أطاعَكم في قَضيَّةٍ مُعيَّنةٍ، ولو أطاعكم كُلَّما رَغِبتُم منه أو أشَرْتُم عليه، لَعَنِتُّم؛ لأنَّ بعضَ ما يَطلُبونه مُضِرٌّ بالغَيرِ أو بالرَّاغبِ نفْسِه؛ فإنَّه قد يُحِبُّ عاجِلَ النَّفعِ العائدَ عليه بالضُّرِّ[١].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾ تَعريفُ الجنسِ شامِلٌ لجميعِ الأمورِ؛ ولذلك جِيءَ معه بلفظِ ﴿كَثِيرٖ مِّنَ﴾، أي: في أحداثٍ كثيرةٍ ممَّا لكم رَغبةٌ في تَحصيلِ شَيءٍ منها فيه مُخالَفةٌ لِما شرَعَه، وهذا احترازٌ عن طاعتِه إيَّاهم في بَعضِ الأمْرِ ممَّا هو غيرُ شُؤونِ التَّشريعِ، كما أطاعَهم في نُزولِ الجيشِ يومَ بَدْرٍ على جِهةٍ يَستأثِرونَ فيها بماءِ بدْرٍ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ الاستِدراكُ المُستفادُ من حرْفِ (لكنَّ) ناشئٌ عن قولِه: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾؛ لأنَّه اقتَضَى أنَّ لِبَعضِهم رغبةً في أنْ يُطيعَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يَرغَبونَ أنْ يَفعلَه ممَّا يَبتَغون ممَّا يَخالونَه صالحًا بهم في أشياءَ كثيرةٍ تَعرِضُ لهم. وفي هذا تَحريضٌ على التَّسليمِ لِمَا يأمُرُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦١، ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٥).

به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ولذا فكَونُه حبَّبَ إليهم الإيمانَ إدماجٌ[١] وإيجازٌ، والتَّقديرُ: ولكنَّ اللهَ شرَعَ لكم الإسلامَ، وحبَّبَه إليكم، أي: دَعاكم إلى حُبِّه والرِّضا به فامْتَثَلْتُم[٢].

- وذِكرُ اسمِ اللهِ في صَدْرِ جُملةِ الاستدراكِ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ دونَ ضَميرِ المتكلِّمِ (وَلَكِنِّي)؛ لِمَا يُشعِرُ به اسمُ الجَلالةِ مِن المَهابةِ والرَّوعةِ، وما يَقتضيهِ مِن واجبِ اقتبالِ ما حَبَّبَ إليه، ونبْذِ ما كَرَّهَ إليه[٣].

- في قولِه: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ تَعريضٌ بأنَّ الَّذين لا يُطيعون الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيهم بَقيَّةٌ مِن الكُفرِ والفُسوقِ، والمقصودُ من هذا أنْ يَترُكوا ما ليس مِن أحكامِ الإيمانِ؛ تَحذيرًا لهم مِن الحِيادِ عن طريقِ الإيمانِ، وتَجْنيبًا لهم عمَّا هو مِن شأنِ أهلِ الكُفرِ؛ فالخبَرُ في قولِه: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلْعِصْيَانَ﴾ مُستعمَلٌ في الإلهابِ، وتَحريكِ الهِمَمِ لمُراعاةِ مَحبَّةِ الإيمانِ، وكراهةِ الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الاندِفاعَ إلى تَحصيلِ المَرغوبِ مِن الهوى دونَ تَمييزٍ بيْنَ ما يُرضي اللهَ وما لا يُرضيه؛ أثَرٌ مِن آثارِ الجاهليَّةِ مِن آثارِ الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ[٤].

- وعُدِّي فِعلَا ﴿حَبَّبَ﴾ ﴿وَكَرَّهَ﴾ بحرْفِ (إلى)؛ لتَضْمينِهما معْنى (بلَّغَ)، أي: بلَّغَ إليكم حُبَّ الإيمانِ وكُرْهَ الكُفرِ، ولم يُعَدَّ فِعلُ ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾ بحرْفِ (إلى) مِثلَ فِعلَيْ ﴿حَبَّبَ﴾ ﴿وَكَرَّهَ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّه لَمَّا رغَّبهم في الإيمانِ

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٣٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٣٦، ٢٣٧).

وكرَّهَهم الكُفرَ، امتَثَلوا فأحَبُّوا الإيمانَ وزانَ في قُلوبِهم[(١)].

- وجمَعَ بيْنَ الفِسقِ والعِصيانِ في قولِه: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾؛ قيل: لأنَّ الفِسقَ هو الكذِبُ، والعِصيانَ بقيَّةُ المَعاصي، وإنَّما أفرَدَ الكَذِبَ بالذِّكرِ؛ لأنَّه سَببُ نُزولِ الآيةِ. وقيلَ: الفُسوقُ الكبيرةُ، والعِصيانُ: الصَّغيرةُ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ مُعترِضةٌ للمَدحِ[(٣)].

- وأفادَ ضَميرُ الفَصلِ (هُم) القَصرَ، وهو قصْرُ إفرادٍ؛ إشارةً إلى أنَّ بيْنَهم فَريقًا ليسوا براشِدينَ، وهم الَّذين تَلبَّسوا بالفِسقِ حينَ تلبُّسِهم به، فإنْ أقْلَعوا عنه الْتَحقوا بالرَّاشِدينَ[(٤)].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، وفي تَغييرِ النَّظمِ الكريمِ والالتِفاتِ مِن الجَزالةِ ما لا يَخفَى[(٥)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

- انتصَبَ قولُه: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ على المفعولِ المُطلَقِ المبيِّنِ للنَّوعِ مِن أفعالِ (حبَّبَ) و(زيَّنَ) و(كرَّهَ)؛ لأنَّ ذلك التَّحبيبَ والتَّزيينَ والتَّكريهَ مِن نَوعِ الفَضلِ والنِّعمةِ[(٦)]. وقيلَ: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾، أيْ: وإنعامًا، تَعليلٌ لـ (حبَّبَ) أو (كرَّهَ)، وما بيْنَهما اعتِراضٌ. وقيل: نَصبُهما بفِعلٍ مُضمَرٍ، أيْ:

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٢، ٨/ ١٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٨).

جَرَى ذلكَ فضْلًا. وقيل: يَبتغونَ فضْلًا[١].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ...﴾ إلى آخِرِها؛ إشارةً إلى أنَّ ما ذُكِرَ فيها مِن آثارِ عِلْمِ اللهِ وحِكمتِه، والواوُ اعتِراضيَّةٌ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٠).

ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٨).

الآيتان (٩-١٠)

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَغَتۡ﴾: أي: تعَدَّتْ، أو لم تَرْضَ بحُكْمِ رسولِ اللهِ؛ فالبَغْيُ: التَّطاوُلُ والفسادُ، وأصلُ (بغي) هنا: جِنْسٌ مِن الفسادِ(١).

﴿تَفِيٓءَ﴾: أي: ترجِعَ، والفَيءُ والفَيئةُ: الرُّجوعُ إلى حالةٍ مَحمودةٍ، وأصْلُ (فيأ): يدُلُّ على رُجوعٍ(٢).

﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾: أي: اعْدِلوا، و﴿ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾: العادِلينَ، وأصْلُ القِسطِ يدُلُّ على مَعنيَينِ مُتضادَّينِ: العدْلُ، والجَوْرُ؛ يُقال: أقسَطَ: إذا عدَلَ. وقَسَطَ: إذا جارَ(٣).

المعنى الإجماليُّ:

يَأمُرُ اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ بأنْ يُصلِحوا بيْنَ أيِّ طائفتَينِ مِن المؤمنينَ اقتَتَلوا، فإنْ رَفَضَت إحْدى الطَّائفتَينِ الصُّلحَ وأجابَتِ الأُخرى، فلْيُقاتِلوا الطَّائفةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٧، ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٦).

الَّتي رفَضَت الصُّلحَ وبغَتْ واعتدَتْ، حتَّى تَعودَ إلى شرْعِ اللهِ، فإنْ عادت فلْيُصلِحوا بيْنَهما بالعدْلِ، ولْيَحْكُموا بيْنَهما بالحقِّ والإنصافِ؛ إنَّ اللهَ يُحِبُّ مَن يَحكُمُ بذلك.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّ المؤمنينَ إخوةٌ في الدِّينِ، فلْيُصلِحوا بيْنَ كِلْتا الطَّائفتَينِ المؤْمِنتَينِ إذا اقْتَتَلَتا، ولْيَتَّقوا اللهَ؛ لَعلَّهم تَنالُهم رَحمتُه.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا حذَّرَ اللهُ المؤمنينَ مِن النَّبأِ الصَّادِرِ مِن الفاسِقِ، أشار إلى ما يَلزَمُ منه؛ استِدراكًا لِما يَفوتُ، فقال: فإنِ اتَّفَق أنَّكم تَبْنون على قولِ مَن يُوقِعُ بيْنَكم، وآلَ الأمْرُ إلى اقتِتالِ طائفتَينِ مِن المؤمنينَ، فأَزيلوا ما أثبَتَه ذلك الفاسِقُ، وأصْلِحوا بيْنَهما(١).

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٤).

وقال البِقاعي: (لَمَّا كانت النَّميمةُ ونقْلُ الأخبارِ الباطلةِ الذَّميمةِ، رُبَّما جرَّت فِتَنًا وأوصَلَت إلى القِتالِ، وكان العليمُ الحكيمُ لا يَنصِبُ سببًا إلَّا ذكَرَ مُسبَّبَه وأشار إلى دَوائِه، وكان لا يَنْهى عن الشَّيءِ إلَّا مَن كان مُتهيِّئًا له لِما في جِبلَّتِه مِن الدَّاعي إليه، فكان قد يُواقِعُه ولو في وقْتٍ؛ قال تعالى معلِّمًا لنا طَريقَ الحكمةِ في دفْعِ ما جرَّتْ إليه الأخبارُ الباطلةُ مِن القِتالِ...: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾ ...). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٣٧٠).

أي: وإنْ طائفتانِ مِن أهلِ الإيمانِ تَقاتَلوا فيما بيْنَهم، فاسْعَوا -أيُّها المؤمنونَ- إلى الإصلاحِ بيْنَهما(١).

كما قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قِيلَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو أتيتَ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ، فانطلَقَ إليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وركِبَ حِمارًا، فانطلَقَ المسلِمون يَمْشُون معه، وهي أرضٌ سَبِخةٌ(٢)، فلمَّا أتاهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: إليكَ عنِّي، واللهِ لقد آذاني نَتْنُ حِمارِك، فقال رجُلٌ مِن الأنصارِ منهم: واللهِ لَحِمارُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أطيَبُ رِيحًا منك، فغضِبَ لعبدِ اللهِ رجُلٌ مِن قَومِه، فشَتَمَه، فغضِبَ لِكُلِّ واحدٍ منهما أصحابُه، فكان بيْنَهما ضرْبٌ بالجريدِ والأيدي والنِّعالِ، فبَلَغنا أنَّها أُنزِلَت: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤).

قال البخاري: (يُسمَّى الرَّجُلُ طائفةً؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾، فلو اقتتَل رجُلانِ دخَل في معنى الآيةِ). ((صحيح البخاري)) (٩/ ٨٦).

(٢) سَبِخةٌ: أي: ذاتُ سِباخٍ، وهي الأرضُ الَّتي تَعْلوها المُلوحةُ، ولا تكادُ تُنبِتُ إلَّا بعضَ الشَّجرِ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعَيني (١٣/ ٢٦٧).

ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾))(١).

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((رأيْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على المِنْبَرِ والحسَنُ بنُ عليٍّ إلى جنْبِه، وهو يُقبِلُ على النَّاسِ مرَّةً، وعليه أُخرى، ويقولُ: إنَّ ابْني هذا سيِّدٌ، ولَعلَّ اللهَ أنْ يُصلِحَ به بيْنَ فِئتَينِ عَظيمتَينِ مِن المسلِمينَ))(٢).

﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

أي: فإنْ أبَتْ إحْدى الطَّائفتَينِ المقْتَتِلتَينِ الإجابةَ إلى الصُّلحِ وأجابَت الأُخرى، فقاتِلوا -أيُّها المؤمنونَ- الطَّائفةَ المعْتديةَ المُقاتِلةَ حتَّى تَرجِعَ إلى شرْعِ اللهِ، وتَسمَعَ للحقِّ وتُطيعَه(٣).

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٧٩٩).

قال ابنُ عاشور: (يُناكِدُ هذا [أي: كَوْنَ الآيةِ نزلَت في هذه الحادثةِ] أنَّ تلك الوَقعةَ كانت في أوَّلِ أيَّامِ قُدومِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المدينةَ. وهذه السُّورةُ نزَلت سنةَ تِسعٍ مِن الهِجرةِ، وأنَّ أنَسَ بنَ مالكٍ لم يَجزِمْ بنُزولِها في ذلك؛ لِقَولِه: فبَلَغنا أنْ نزَلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، اللَّهُمَّ [إلَّا] أن تكونَ هذه الآيةُ أُلحِقَت بهذه السُّورةِ بعدَ نُزولِ الآيةِ بمدَّةٍ طويلةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٨). ويُنظر: ((المحرر في أسباب نزول القرآن)) لخالد المزيني (٢/ ٩٢٤).

(٢) رواه البخاري (٢٧٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٦، ٣١٧)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٣٢-٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤).

قال ابن عطية: (ومدافعةُ الفئةِ الباغيةِ مُتَوجِّهٌ في كلِّ حالٍ، وأمَّا التَّهيُّؤُ لِقِتالِها فمَعَ الوُلاةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٨).

وقال ابن عاشور: (لا يَجوزُ أنْ يَلِيَ قِتالَ البُغاةِ إلَّا الأئمَّةُ والخُلفاءُ، فإذا اختلَّ أمْرُ الإمامةِ فلْيَتولَّ قِتالَ البُغاةِ السَّوادُ الأعظمُ مِن الأُمَّةِ وعُلماؤُها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤١).

عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((انصُرْ أخاك ظالِمًا أو مَظلومًا، فقال رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أنْصُرُه إذا كان مَظلومًا، أفرَأَيتَ إذا كان ظالِمًا؛ كيف أنصُرُه؟! قال: تَحجُزُه -أو: تَمنَعُه- مِن الظُّلْمِ؛ فإنَّ ذلك نَصْرُه))[1].

﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾.

أي: فإنْ رجَعَت الطَّائفةُ الباغيةُ إلى الرِّضا بحُكْمِ اللهِ، فأصْلِحوا -أيُّها المؤمنونَ- بيْنَها وبيْنَ الطَّائفةِ الأُخرى بالعدْلِ[2].

﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾.

أي: واحْكُموا -أيُّها المؤمنونَ- بيْنَ الطَّائفتَينِ المُتقاتِلَتَينِ بالحقِّ والإنصافِ بلا جَورٍ[3].

(١) رواه البخاري (٦٩٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

قال ابنُ عاشور: (العدْلُ: هو ما يقَعُ التَّصالُحُ عليه بالتَّراضي والإنصافِ، وألَّا يُضَرَّ بإحدى الطَّائفَتينِ؛ فإنَّ المَتالِفَ الَّتي تَلحَقُ كِلْتا الطائفتَينِ قد تَتفاوَتُ تَفاوُتًا شديدًا، فتَجِبُ مُراعاةُ التَّعديلِ... يجِبُ العَدْلُ في صورةِ الإصلاحِ، فلا يُضيِّعوا بصُورةِ الصُّلحِ مَنافِعَ عن كِلا الفريقَينِ إلَّا بقَدْرِ ما تَقتَضيه حقيقةُ الصُّلحِ مِن نُزولٍ عن بَعضِ الحَقِّ بالمعروفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٢). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٨٥-٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٣)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٥/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٢).

قال ابنُ عثيمين: (هذا غيرُ الإصلاحِ الأوَّلِ؛ الإصلاحُ الأوَّلُ لوقْفِ القِتالِ، وهذا الإصلاحُ بالتَّقديرِ، فنَنظُرُ ماذا تَلِفَ على كلِّ طائفةٍ، ثمَّ نسوِّي بيْنَهما، فمَثَلًا: إذا كانت إحدى الطَّائفتَينِ أتلَفَتْ على الأخرى ما قِيمتُه مليون ريال، والثَّانيةُ أتلَفَت على الأخرى ما قِيمته مليون ريال، فحينَئذٍ تَعادَلَ الطَّائفَتانِ، فإن كانت إحداهما أتلَفَت على الأخرى ما قِيمتُه ثمانمئةِ ألْفِ ريال، =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ الحاكِمينَ بالحقِّ والإنصافِ[1].

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمْرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ المُقسِطينَ عندَ اللهِ على مَنابرَ مِن نُورٍ، عن يَمينِ الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ، وكِلْتا يَدَيْه يَمينٌ؛ الَّذين يَعدِلون في حُكْمِهم وأهْلِيهم وما وَلُوا[2]))[3].

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾.

أي: إنَّما المؤمِنون إخوةٌ في الدِّينِ، يَجِبُ عليهم التَّوادُدُ والتَّناصُرُ فيما بيْنَهم[4].

= والأخرى أتلفَت ما قيمتُه مليون، فالفرْقُ مِئتا ألْفِ ريال تحمِلُها على الأخرى الَّتي أتلفَت ما قِيمتُه مليون). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥).

وقال ابن عاشور: (﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ هذا إصلاحٌ ثانٍ بعْدَ الإصلاحِ المأمورِ به ابتِداءً، ومعْناه: أنَّ الفئةَ الَّتي خضَعَت للقوَّة، وألْقَتِ السِّلاحَ؛ تكونُ مَكسورةَ الخاطِرِ، شاعِرةً بانتصارِ الفئةِ الأُخرى عليها، فأوجَبَ على المسلمينَ أنْ يُصلِحوا بيْنَهما، بتَرغيبِهما في إزالةِ الإحَنِ، والرُّجوعِ إلى أُخوَّةِ الإسلامِ؛ لئلَّا يَعودَ التَّنكُّرُ بيْنَهما). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٢) وَلُوا -بفَتحِ الواوِ وضَمِّ اللَّامِ المُخَفَّفةِ- أي: مَن كانت لهم عليه وِلايةٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٢١١).

(٣) رواه مسلم (١٨٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٥)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠، ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٣).

كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال سُبحانه: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تَباغَضوا، ولا تَحاسَدوا، ولا تَدابَروا، وكُونوا -عِبادَ اللهِ- إخوانًا، ولا يَحِلُّ لِمُسلِمٍ أنْ يَهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثِ لَيالٍ))[1].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المُسلِمُ أخو المسلمِ، لا يَظلِمُه، ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخِيه كان اللهُ في حاجتِه، ومَن فرَّجَ عن مُسلمٍ كُرْبةً فرَّجَ اللهُ عنه كُربةً مِن كُرُباتِ يومِ القيامةِ، ومَن ستَرَ مُسلِمًا ستَرَه اللهُ يومَ القيامةِ))[2].

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلُ المؤمنينَ في تَوادِّهم، وتَراحُمِهم، وتَعاطُفِهم؛ مَثَلُ الجسَدِ إذا اشْتَكى منه عُضْوٌ تَداعى له سائرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى))[3].

وعن أبي مُوسى رضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ المؤمنَ للمؤمنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا. وشبَّكَ أصابعَه))[4].

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٧٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٥٥٨).
(٢) رواه البخاري (٢٤٤٢) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٥٨٠).
(٣) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللَّفظُ له.
(٤) رواه البخاري (٤٨١) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٥).

وعن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يُؤمِنُ أحَدُكم حتَّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفْسِه))[١].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَنْ نَفَّسَ عن مُؤمنٍ كُرْبةً مِن كُرَبِ الدُّنيا نفَّسَ اللهُ عنه كُربةً مِن كُرَبِ يوم القيامةِ، ومَن يسَّر على مُعسِرٍ يسَّر اللهُ عليه في الدُّنيا والآخرةِ، ومَن ستَرَ مُسلمًا ستَرَه اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ، واللهُ في عَونِ العبْدِ ما كان العبدُ في عَونِ أخيهِ))[٢].

وعن أمِّ الدَّرْداءِ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ: ((دَعوةُ المرْءِ المسلم لأخيه بظَهْرِ الغيبِ مُستجابةٌ، عندَ رأْسِه مَلَكٌ مُوكَّلٌ كلَّما دعا لأخيهِ بخَيرٍ، قال المَلَكُ الموكَّلُ به: آمِينَ، ولك بمِثْلٍ))[٣].

﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾.

أي: فأصْلِحوا بيْنَ كِلْتا الطَّائفتَينِ المؤمِنتَينِ إذا اقتَتَلَتا، بحَمْلِهما على حكْمِ اللهِ ورسولِه[٤].

عن سَهلِ بنِ سعدٍ رضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ أهلَ قُباءٍ اقتَتَلوا حتَّى تَرامَوا بالحجارةِ، فأُخبِرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلك، فقال: اذْهَبوا بنا نُصلِحْ بيْنَهم))[٥].

---

(١) رواه البخاري (١٣) واللفظ له، ومسلم (٤٥).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٣) رواه مسلم (٢٧٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦).

قال الشوكاني: (يعني كلَّ مُسلِمَينِ تَخاصَما وتقاتَلا، وتخصيصُ الاثنَينِ بالذِّكرِ لإثباتِ وُجوبِ الإصلاحِ فيما فوقَهما بطريقِ الأَولى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٨).

(٥) رواه البخاري (٢٦٩٣) واللفظ له، ومسلم (٤٢١).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

أي: واجْعَلوا بيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه وِقايةً وحاجزًا -أيُّها المؤمنونَ- بامتِثالِ ما أمَرَ اللهُ تعالى به، واجتِنابِ ما نَهى عنه؛ لعلَّكم تَنالُون رحمةَ اللهِ تعالى[1].

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ [الطلاق: ٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- المؤمِنُ عليه أنْ يُعاديَ في اللهِ، ويُواليَ في اللهِ، فإنْ كان هناك مؤمنٌ فعلَيه أنْ يُواليَه وإنْ ظلَمَه؛ فإنَّ الظُّلمَ لا يَقطعُ المُوالاةَ الإيمانيَّةَ؛ قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ * إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾، فجعَلَهم إخوةً معَ وُجودِ القتالِ والبغْيِ والأمْرِ بالإصلاحِ بيْنَهم. فلْيَتدبَّرِ المؤمنُ الفرْقَ بيْنَ هذَينِ النَّوعَينِ، فما أكثَرَ ما يَلتبِسُ أحدُهما بالآخَرِ! ولْيَعلَمْ أنَّ المؤمنَ تجِبُ مُوالاتُه وإنْ ظلَمَك واعْتَدى عليك، والكافرَ تجِبُ مُعاداتُه وإنْ أعْطاكَ وأحسَنَ إليك؛ فإنَّ اللهَ سُبحانه بعَثَ الرُّسلَ وأنزَلَ الكُتبَ لِيَكونَ الدِّينُ كلُّه للهِ، فيَكونَ الحُبُّ لأوليائِه، والبُغضُ لأعدائِه، والإكرامُ لأوليائِه، والإهانةُ لأعدائِه، والثَّوابُ لأوليائِه، والعِقابُ لأعدائِه. وإذا اجتمَعَ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦).

الرَّجُلِ الواحدِ خيرٌ وشَرٌّ وفُجورٌ، وطاعةٌ ومَعصيةٌ، وسُنَّةٌ وبِدْعةٌ؛ استحَقَّ مِن الموالاةِ والثَّوابِ بقدْرِ ما فيه مِن الخَيرِ، واستحقَّ مِن المُعاداةِ والعِقابِ بحسَبِ ما فيه مِن الشَّرِّ، فيَجتمِعُ في الشَّخصِ الواحدِ مُوجِباتُ الإكرامِ والإهانةِ، فيَجتمِعُ له مِن هذا وهذا، كاللِّصِّ الفقيرِ؛ تُقطَعُ يَدُه لسَرِقَتِه، ويُعطَى مِن بَيتِ المالِ ما يَكْفيه لحاجتِه[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ رَتَّب على القيامِ بحُقوقِ المُؤمِنينَ وبتَقْوى اللهِ الرَّحمةَ، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وإذا حصَلَت الرَّحمةُ حَصَل خيرُ الدُّنيا والآخِرةِ، ودَلَّ ذلك على أنَّ عدَمَ القيامِ بحُقوقِ المُؤمنينَ مِن أعظَمِ حواجِبِ الرَّحمةِ[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ يدُلُّ على وُجوبِ الإصلاحِ بيْنَ المؤمِنينَ بالعدْلِ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، أي: العادِلينَ في حُكْمِهم بيْنَ النَّاسِ وفي جَميعِ الولاياتِ الَّتي تَولَّوها، حتَّى إنَّه قد يَدخُلُ في ذلك عدْلُ الرَّجُلِ في أهْلِه وعِيالِه في أدائِه حُقوقَهم، وفي الحديثِ الصَّحيحِ: ((إنَّ المُقسِطينَ عندَ اللهِ على مَنابرَ مِن نُورٍ، عن يَمينِ الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ، وكِلْتا يَدَيْه يَمينٌ؛ الَّذين يَعدِلون في حُكْمِهم وأهْلِيهم وما وَلُوا))[٤].

٥- مَن كان قائمًا بواجبِ الإيمانِ كان أخًا لِكلِّ مؤمنٍ، ووَجَبَ على كلِّ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث تقدَّم تخريجُه.

مؤمنٍ أنْ يقومَ بحُقوقِه -وإنْ لم يَجْرِ بيْنَهما عقدٌ خاصٌّ-؛ فإنَّ اللهَ تعالى قد عَقَد الأُخُوَّةَ بيْنَهما بقولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[١]. فإذا وُجِد مِن أيِّ شَخصٍ كان في مَشرِقِ الأرضِ ومَغرِبِها الإيمانُ باللهِ، ومَلائكتِه، وكُتبِه، ورُسلِه، واليَومِ الآخِرِ؛ فإنَّه أخٌ للمؤمنينَ أُخَوَّةً تُوجِبُ أنْ يُحِبَّ له المؤمنونَ ما يُحِبُّون لأنفُسِهم، ويَكرَهوا له ما يَكرَهون لأنفُسِهم[٢].

٦- الواجبُ على المسلمِ نحْوَ أخيهِ أنْ يُزِيلَ ما بيْنَه وبيْنَ أخيه مِن الأحقادِ، وأنْ يَجعَلَ بدَلَ هذه الأحقادِ أُلْفَةً ومَحبَّةً؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، والأُخُوَّةُ يُنافيها الحِقْدُ والعَداوةُ والبَغضاءُ[٣].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فيه أنَّ الاقتِتالَ بيْنَ المؤمنينَ مُنافٍ للأُخُوَّةِ الإيمانيَّة؛ ولهذا كان مِن أكبَرِ الكبائرِ[٤].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، أمَّا شرْطُ الأُخُوَّة: فمِن حقِّ الأُخُوَّةِ في الدِّينِ ألَّا تُحوِجَ أخاك إلى الاستِعانةِ بكَ، أو الْتِماسِ النُّصرةِ منك، وألَّا تُقصِّرَ في تَفقُّدِ أحوالِه بحيث يُشكِلُ عليك مَوضِعُ حاجتِه، فيَحتاجُ إلى مُساءلَتِك.

ومِن حقِّهِ ألَّا تُلجِئَه إلى الاعتِذارِ لك، بل تَبسُطُ عُذْرَه، فإنْ أشكَلَ عليك وجْهُه، عُدْتَ باللَّائمةِ على نفْسِك في خَفاءِ عُذْرِه عليك.

ومِن حقِّه أنْ تستغفِرَ له إذا أذنَبَ، وتَعودَه إذا مرِضَ، وإذا أشار عليك بشَيءٍ فلا تُطالِبْه بالدَّليلِ عليه، وإبرازِ الحُجَّة، كما قالوا[٥]:

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٥/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٥) البيت لِوَدَّاك بنِ ثُمَيْل المازني. يُنظر: ((حماسة الخالديين)) لمحمد بن هاشم وسعيد بن =

إذا استُنْجِدوا لم يَسْألوا مَن دَعاهم لِأيَّـــةِ حَـــرْبٍ أمْ لأيِّ مَـــكانِ

ومِن حقِّه أنْ تَحفَظَ عهْدَه القديمَ، وأنْ تُراعِيَ حقَّه في أهْلِه المتَّصِلينَ به في المَشهَدِ والمَغيبِ، وفي حالِ الحَياةِ وبعْدَ المماتِ[1].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ الإصلاحَ مِن أعظَمِ الطَّاعاتِ[2]، ومِن أوكَدِ عَزائمِ الدِّينِ، وإذا كان ذلك واجبًا فإنَّه يدُلُّ على عِظَمِ وِزرِ الواشي والنَّمَّامِ في إفسادِ ذاتِ البَينِ[3].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ فيه أنَّ الإيمانَ والأُخُوَّةَ الإيمانيَّةَ لا تَزولُ معَ وُجودِ القِتالِ، كغَيرِه مِن الذُّنوبِ الكِبارِ الَّتي دونَ الشِّركِ، وعلى ذلك مَذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ[4]، ففيه دَليلٌ لقولِهم: إنَّ فاعلَ الكبيرةِ لا يَخرُجُ مِن الإيمانِ؛ فهاتانِ الطَّائفتانِ من المؤمنينَ اقتَتَلوا، وحمَلَ السِّلاحَ بعْضُهم على بَعضٍ، ومع هذا قال اللهُ تعالى بعْدَ أنْ أمرَ بالصُّلحِ بيْنَهما للطَّائفةِ الثَّالثةِ الَّتي لم تَدخُلِ القِتالَ: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾؛ فجعَلَ اللهُ تعالى الطَّائفةَ المُصلِحةَ إخْوةً للطَّائفتَينِ المُقتَتِلتَينِ.

= هاشم الخالديين (ص: ٤٦)، ((التنبيه على أوهام أبي عليٍّ في أماليه)) للبكري (ص: ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

وعلى هذا؛ ففي الآيةِ دليلٌ على أنَّ الكبائرَ لا تُخرِجُ مِن الإيمانِ[(١)].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، فالواجبُ الإصلاحُ بيْنَهما، وإنْ لم تكُنْ واحدةٌ منهما مأمورةً بالقتالِ، فإذا بغَتِ الواحدةُ بعْدَ ذلك قُوتِلت؛ لأنَّها لم تَترُكِ القتالَ، ولم تُجِبْ إلى الصُّلحِ؛ فلم يَندفِعْ شَرُّها إلَّا بالقتالِ، فصار قِتالُها بمَنزِلةِ قِتالِ الصَّائلِ الَّذي لا يَندفِعُ ظُلْمُه عن غَيرِه إلَّا بالقتالِ[(٢)].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، لم يقُلْ: (وإنْ فِرقتانِ)؛ تَحقيقًا لمعْنى التَّقليلِ؛ لأنَّ الطَّائفةَ دونَ الفِرقةِ، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾[(٣)] [التوبة: ١٢٢].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، فيه سُؤالٌ: (إنْ) إشارةٌ إلى نُدرةِ وُقوعِ القتالِ بيْن طَوائفِ المسلمينَ، ونحن نَرى أكثَرَ الاقتِتالِ بيْن طَوائفِهم؟

والجوابُ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَإِن﴾ إشارةٌ إلى أنَّه يَنْبغي ألَّا يقَعَ إلَّا نادرًا، غايةُ ما في البابِ أنَّ الأمْرَ على خِلافِ ما يَنْبغي[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٧٨).

واصطلحَ الفقهاءُ على تسميةِ الدِّفاعِ الشَّرعيِّ بدفعِ الصَّائلِ، وعلى تسميةِ المُعتدي بالصَّائلِ، والصَّائلُ هو الظَّالمُ بلا تأويلٍ ولا وِلايةٍ، وتتعلَّقُ به أحكامٌ متعدِّدةٌ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣١٩)، ((الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم)) للهرري (١٨/ ٣٥٣)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٨/ ١٠٣- ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ هذا في التَّقاتُلِ بيْنَ الجماعاتِ والقبائلِ، فأمَّا خُروجُ فِئةٍ عن جَماعةِ المسلمينَ فهو أشدُّ، وليس هو مَوردَ هذه الآيةِ، ولكنَّها أصلٌ له في التَّشريعِ(١).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ مُتضَمِّنٌ لِنَهيِ المُؤمِنينَ عن أن يَبغيَ بَعضُهم على بَعضٍ، ويُقاتِلَ بَعضُهم بَعضًا، وأنَّه إذا اقتَتَلت طائِفتانِ مِن المؤمِنينَ فإنَّ على غَيرِهم مِن المُؤمِنينَ أنْ يَتلافَوا هذا الشَّرَّ الكبيرَ بالإصلاحِ بيْنَهم، والتَّوسُّطِ بذلك على أكمَلِ وجْهٍ يَقَعُ به الصُّلحُ، ويَسلُكوا الطَّريقَ الموصِلةَ إلى ذلك(٢).

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ لم يَأمُرْ بقتالِ الباغيةِ ابتداءً؛ فالاقتِتالُ ابتداءً ليس مأمورًا به، ولكنْ إذا اقتَتَلوا أُمِرَ بالإصلاحِ بيْنَهم، ثمَّ إنْ بَغَت الواحدةُ قُوتِلَت؛ ولهذا قال مَن قال مِن الفُقهاءِ: إنَّ البُغاةَ لا يُبتَدؤون بقِتالِهم حتَّى يُقاتِلوا. وأمَّا الخوارِجُ فقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيهم: ((فإذا لَقِيتُموهم فاقْتُلوهم؛ فإنَّ في قتْلِهم أجرًا لِمَن قتَلَهم عندَ اللهِ يومَ القيامةِ))(٣)، وقال: ((لَئِنْ أدْرَكْتُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦) واللَّفظُ له مِن حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه.

لَأقتُلَنَّهم قتْلَ عادٍ))[١]. وكذلك مانِعو الزَّكاةِ؛ فإنَّ الصِّدِّيقَ والصَّحابةَ رَضيَ اللهُ عنهم ابتَدؤوا قِتالَهم، قال الصِّدِّيقُ: (واللهِ لو مَنَعوني عَناقًا[٢] كانوا يُؤدُّونَها إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَقاتَلْتُهم على مَنعِها)[٣]. وهم يُقاتَلون إذا امتَنَعوا مِن أداءِ الواجباتِ، وإنْ أقَرُّوا بالوُجوبِ[٤].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، لم يقُلْ: (منْكم)، معَ أنَّ الخطابَ معَ المؤمنينَ؛ لسَبْقِ قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: ٦]؛ تنْبيهًا على قُبْحِ ذلك، وتَبعيدًا لهم عنهم، كما يقولُ السَّيِّدُ لعبْدِه: إنْ رأيتَ أحدًا مِن غِلماني يَفعَلُ كذا فامْنَعْه، فيَصيرُ بذلك مانعًا للمُخاطَبِ عن ذلك الفِعلِ بالطَّريقِ الحسَنِ، كأنَّه يقولُ: أنت حاشاكَ أنْ تَفعَلَ ذلك، فإنْ فعَلَ غيرُك فامْنَعْه، كذلك هاهنا[٥].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، جعَلَ حكْمَ قِتالِ الباغيةِ أنْ تكونَ طائفةً؛ لأنَّ الجَماعةَ يَعسُرُ الأخذُ على أيْدي ظُلْمِهم بأفرادٍ مِن النَّاسِ وأعوانِ الشُّرطةِ، فَتعيَّنَ أنْ يكونَ كَفُّهم عن البَغْيِ بالجَيشِ والسِّلاحِ[٦].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يَتحقَّقُ وصْفُ البَغْيِ بإخبارِ أهلِ العِلمِ أنَّ الفئةَ بَغَت على الأُخرى،

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤) مطوَّلًا من حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضيَ الله عنه.
(٢) العَناقُ: الأُنثَى مِن أولادِ المَعْزِ ما لم يَتِمَّ له سَنَةٌ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣١١).
(٣) أخرجه البخاري (١٤٠٠) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٠) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٥٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٠).

أو بحكْمِ الخليفةِ العالمِ العدْلِ، وبالخُروجِ عن طاعةِ الخليفةِ وعن الجماعةِ بالسَّيفِ إذا أمَرَ بغَيرِ ظُلمٍ ولا جَورٍ ولم تُخْشَ مِن عِصيانِه فِتنةٌ؛ لأنَّ ضُرَّ الفتنةِ أشدُّ مِن ضُرِّ الجَورِ في غيرِ إضاعةِ المصالِحِ العامَّةِ مِن مَصالحِ المسلمينَ؛ وذلك لأنَّ الخُروجَ عن طاعةِ الخليفةِ بَغْيٌ على الجماعةِ الَّذين معَ الخَليفةِ[١].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، فيه سُؤالٌ: كيف يصِحُّ في هذا الموضعِ كلمةُ (إنْ)، مع أنَّها تُستعمَلُ في الشَّرطِ الَّذي لا يُتوقَّعُ وُقوعُه، وبَغْيُ أحدِهما عندَ الاقتِتالِ لا بُدَّ منه؛ إذ كلُّ واحدٍ منهما لا يكونُ مُحسِنًا، فقولُه: (إنْ) تكونُ مَن قَبيلِ قولِ القائلِ: (إنْ طلَعَت الشَّمسُ)؟

الجوابُ مِن وَجهَين:

الوجْهُ الأوَّلُ: فيه معْنًى لطيفٌ؛ وهو أنَّ اللهَ تعالى يقولُ: الاقتِتالُ بيْنَ طائفتَينِ لا يكونُ إلَّا نادرَ الوُقوعِ، وهو كما تظُنُّ كلُّ طائفةٍ أنَّ الأُخرَى فيها الكفْرُ والفسادُ، فالقتالُ واجبٌ، أو يقَعُ لِكلِّ واحدٍ أنَّ القتالَ جائزٌ بالاجتِهادِ، وهو خطَأٌ، فقال تعالى: الاقتِتالُ لا يقَعُ إلَّا كذا، فإنْ بانَ لهما أو لأحَدِهما الخطأُ واستمَرَّ عليه، فهو نادرٌ، وعندَ ذلك يكونُ قدْ بَغى، فقال: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾، يعني: بعْدَ استبانةِ الأمْرِ، وحينَئذٍ فقولُه: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ﴾ في غايةِ الحُسنِ؛ لأنَّه يُفيدُ النُّدرةَ، وقِلَّةَ الوُقوعِ[٢].

الوجْهُ الثَّاني: أنَّه لَمَّا كان البَغْيُ مِن أشنَعِ الأمورِ، فكان يَنْبغي ألَّا يُلِمَّ به أحدٌ؛ عُبِّرَ بأداةِ الشَّكِّ إرشادًا إلى ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧١).

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾، يَتضمَّنُ نهْيَ المؤمنينَ عن أنْ يَبْغيَ بعضُهم على بعضٍ، ويُقاتِلَ بعضُهم بعضًا[١].

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ فيه وُجوبُ قِتالِ البُغاةِ[٢] حتَّى يَرجِعوا إلى أمرِ اللهِ[٣].

١٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، يدُلُّ على وُجوبِ نصْرِ المظلومِ؛ لأنَّ القتالَ لا يُباحُ بدُونِ الوُجوبِ[٤].

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾، يدُلُّ على جَوازِ قتالِ الصَّائلِ؛ لأنَّ القتالَ لَمَّا كان للفِيئةِ، فإذا حصَلَت لم يُوجَدِ المعْنى الَّذي مِن أجْلِه القتالُ[٥].

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، لَمَّا كان القتالُ لا يَجوزُ إلَّا بالاستِمرارِ على البَغْيِ، عُبِّرَ بالمُضارِعِ، فقال: ﴿تَبۡغِي﴾؛ إفهامًا لأنَّه متى زال البغْيُ، ولو بالتَّوبةِ مِن غَيرِ شَوكةٍ، حَرُمَ القِتالُ[٦].

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٥٤١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٥).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧١).

﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ يدُلُّ على أنَّ أموالَ البُغاةِ مَعصومةٌ؛ لأنَّ اللهَ أباح دِماءَهم وقْتَ استِمرارِهم على بَغْيِهم خاصَّةً، دونَ أموالِهم[1].

١٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾، فيه أنَّ مَن رجَعَ وأدبَرَ، لا يُقاتَلُ؛ لقولِه: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾[2].

١٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾، فيه إشارةٌ إلى أنَّ القتالَ ليس جَزاءً للباغي، كحدِّ الشُّربِ الَّذي يُقامُ وإنْ ترَكَ الشُّربَ، بلِ القتالُ إلى حدِّ الفَيئةِ، فإنْ فاءتِ الفئةُ الباغيةُ حَرُمَ قِتالُهم[3].

٢٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، يدُلُّ على أنَّهم لو رَجَعوا لغيرِ أمْرِ اللهِ -بأنْ رَجَعوا على وجْهٍ لا يجوزُ الإقرارُ عليه والْتِزامُه- أنَّه لا يَجوزُ ذلك[4].

٢١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾، فيه وُجوبُ الصُّلحِ بيْن أهلِ العدْلِ والبَغْيِ[5].

٢٢- أنَّه ليس كلَّما جازتِ المقاتَلةُ جاز القتْلُ؛ فالقتلُ أضيَقُ، ولا يَجوزُ إلَّا بشُروطٍ معروفةٍ، والمقاتَلةُ أوسعُ؛ قال اللهُ تَبارك وتَعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، فأَمَر بقِتالِها، وهي مُؤمِنةٌ؛ لا يَحِلُّ قَتْلُها، ولا يُباحُ دمُها، لكنْ مِن أجْلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).

الإصلاحِ[١].

٢٣- في قولِه تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ أنَّ لَفظَ البَغْيِ إذا أُطْلِقَ فهو الظُّلمُ[٢].

٢٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ هذا أمْرٌ بالصُّلحِ، وبالعدْلِ في الصُّلحِ؛ فإنَّ الصُّلحَ قد يُوجَدُ ولكنْ لا يكونُ بالعدْلِ، بل بالظُّلمِ والحَيفِ على أحَدِ الخَصمَينِ! فهذا ليس هو الصُّلحَ المأمورَ به، فيجِبُ ألَّا يُراعى أحدُهما لِقَرابةٍ أو وطَنٍ، أو غيرِ ذلك مِن المقاصدِ والأغراضِ الَّتي تُوجِبُ العُدولَ عن العدْلِ[٣].

٢٥- قال الله تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾، لَمَّا كان الخِصامُ يَجُرُّ -في الغالبِ- مِن القولِ والفعلِ ما يُورِثُ للمُصلِحينَ إحْنةً[٤] على بعْضِ المُتخاصِمينَ، فيَحمِلُ ذلك على المَيلِ مع بعْضٍ على بعْضٍ، قال: ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾، ولا يَحمِلْكم القتالُ على الحقْدِ على المُتقاتِلينَ فتَحِيفوا[٥].

٢٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾، فيه سُؤالٌ: قال: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾، فأيَّةُ فائدةٌ في قولِه: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾؟

الجوابُ مِن وَجهينِ:

الوجْهُ الأوَّلُ: قولُه: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ كان فيه تَخصيصٌ بحالٍ دونَ حالٍ، فعُمِّمَ الأمْرُ بقولِه: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾، أي: في كلِّ أمْرٍ مُفضٍ إلى أشرَفِ دَرجةٍ

(١) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٤) الإحْنة: الحِقْد، وجمعُها: إِحَنٌ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) لزين الدِّين الرازي (ص: ١٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٢).

وأرفَعِ مَنزِلةٍ، وهي مَحبَّةُ اللهِ[(١)].

الوجْهُ الثَّاني: لَمَّا كان العدْلُ في مِثلِ ذلك شَديدًا على النُّفوسِ؛ لِما تَحمَّلَت مِن الضَّغائنِ، قال تعالى: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾، أي: افْعَلوا العدْلَ العظيمَ الَّذي لا جَورَ فيه، في ذلك وفي جَميعِ أُمورِكم[(٢)].

٢٧- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ أُخُوَّةُ الدِّينِ أثبَتُ مِن أُخُوَّةِ النَّسَبِ؛ فإنَّ أُخُوَّةَ النَّسبِ تَنقطِعُ بمُخالَفةِ الدِّينِ، وأُخُوَّةَ الدِّينِ لا تَنقطِعُ بمُخالَفةِ النَّسبِ[(٣)].

٢٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، (إنَّما) للحصْرِ، أي: لا أُخُوَّةَ إلَّا بيْنَ المؤمنينَ، وأمَّا بيْنَ المؤمنِ والكافرِ فلا؛ لأنَّ الإسلامَ هو الجامعُ[(٤)].

٢٩- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ ردٌّ على الرَّافِضةِ -خانِقٌ لهم- فيما يُكفِّرون مُقاتِلي عليٍّ رضِيَ اللهُ عنه وعنهم، وردٌّ على الشُّراةِ[(٥)] فيما يَعُدُّون الذُّنوبَ كُفرًا، وقد سَمَّى اللهُ كُلًّا مُؤمنًا، كما تَرى[(٦)]، ففيه دَليلٌ على أنَّ البَغْيَ لا يُزِيلُ اسمَ الإيمانِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى سمَّاهم إخْوةً مؤمنينَ مع كَونِهم باغِينَ[(٧)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٧).

(٥) الشُّراةُ: الخوارجُ، الواحدُ: شَارٍ، سُمُّوا بذلك لِقَولِهم: إنَّا شَرَيْنا أنفُسَنا في طاعةِ اللهِ، أي: بِعْناها بالجنَّةِ حينَ فارَقْنا الأئمَّةَ الجائرةَ! يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٣٩٢).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٧٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٣).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ...﴾ لَمَّا جَرَى قولُه: ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ﴾ [الحجرات: ٦] الآيةَ، كان ممَّا يَصدُقُ عليه إصابةُ قَومٍ أنْ تقعَ الإصابةُ بيْنَ طائفتَينِ مِن المؤمنينَ؛ لأنَّ مِن الأخبارِ الكاذبةِ أخبارَ النَّميمةِ بيْنَ القَبائلِ، وخطَرُها أكبرُ ممَّا يَجري بيْنَ الأفرادِ، والتَّبيُّنُ فيها أعسَرُ، وقد لا يَحصُلُ التَّبيُّنُ إلَّا بعدَ أنْ تَستَعِرَ نارُ الفِتنةِ، ولا تُجدي النَّدامةُ[(١)].

- قولُه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ لم يقُلْ: (وإنِ اقتتَلَ طائفتانِ من المؤْمِنينَ)، معَ أنَّ كَلمةَ (إنْ) اتِّصالُها بالفِعلِ أَولى؛ وذلك لِيَكونَ الابتِداءُ بما يَمنَعُ مِن القِتالِ، فيَتأكَّدَ معْنى النَّكرةِ المدلولِ عليها بكَلمةِ (إنْ)؛ وذلك لأنَّ كَونَهما طائفتَينِ مُؤمنتَينِ يَقْتضي ألَّا يقعَ القِتالُ منهما[(٢)].

- و(إنْ) حرْفُ شَرطٍ يُخلِّصُ الماضيَ ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ للاستِقبالِ؛ فيَكونُ في قوَّةِ المُضارِعِ، ولكنْ عُدِلَ عن المُضارِعِ (يَقتتلون) معَ كَونِه الألْيَقَ بالشَّرطِ؛ لأنَّه لَمَّا أُريدَ تقديمُ الفاعِلِ ﴿طَآئِفَتَانِ﴾ على فِعلِه ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ -للاهتِمامِ بالمُسنَدِ إليه-، جُعِلَ الفِعلُ ماضيًا على طَريقةِ الكلامِ الفَصيحِ في مِثلِه ممَّا أُولِيَت فيه (إنْ) الشَّرطيَّةُ الاسمَ[(٣)]. وقيل: لم يقُلْ: (يَقتَتِلوا)؛ لأنَّ صيغةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٤، ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٩).

الاستِقبالِ تُنبِئُ عن الدَّوامِ والاستِمرارِ، فيُفهَمُ منه أنَّ طائفتَينِ مِن المؤمنينَ إنْ تَمادى الاقتِتالُ بيْنَهما فأصْلِحوا؛ وهذا لأنَّ صِيغةَ المستقبَلِ تُنبِئُ عن ذلك، يُقال: فلانٌ يَتهجَّدُ ويَصومُ[1].

- وإنَّما قال: ﴿ٱقْتَتَلُواْ﴾ ولم يقُلْ: (اقتتَلَتا)، حَمْلًا على المعنى؛ لأنَّ الطَّائفتَينِ في مَعنى القَومِ والنَّاسِ، ثمَّ حمَلَ على اللَّفظِ فقال: ﴿بَيْنَهُمَا﴾؛ فضَميرُ ﴿ٱقْتَتَلُواْ﴾ يعودُ على ﴿طَآئِفَتَانِ﴾ باعتِبارِ المعْنى؛ لأنَّ طائفةً ذاتُ جمْعٍ، والوجْهُ أنْ يكونَ فِعلُ ﴿ٱقْتَتَلُواْ﴾ مُستعمَلًا في إرادةِ الوُقوعِ، أي: يُريدون العَودَ؛ لأنَّ الأمرَ بالإصلاحِ بيْنهما واجبٌ قبْلَ الشُّروعِ في الاقتِتالِ، وذلك عند ظُهورِ بَوادِرِه، وهو أَولى مِن انتِظارِ وُقوعِ الاقتِتالِ؛ لِيُمكِنَ تَدارُكُ الخَطبِ قبْلَ وُقوعِه، وبذلك يَظهَرُ وجْهُ تَفريعِ قولِه: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ على جُملةِ ﴿ٱقْتَتَلُواْ﴾، أي: فإنِ ابتدأَتْ إحدى الطَّائفتَينِ قِتالَ الأُخرى، ولم تَنْصَعْ إلى الإصلاحِ؛ فقاتِلوا الباغيةَ[2]. ولأنَّه عندَ الاقتِتالِ تكونُ الفِتنةُ قائمةً، وكلُّ أحدٍ برأْسِه يكونُ فاعِلًا فِعْلًا، فقال: ﴿ٱقْتَتَلُواْ﴾، وعندَ العَودِ إلى الصُّلحِ تَتَّفِقُ كلمةُ كلِّ طائفةٍ، وإلَّا لم يكُنْ يَتحقَّقُ الصُّلحُ، فقال: ﴿بَيْنَهُمَا﴾؛ لِكَونِ الطَّائفتَينِ حينَئذٍ كنَفْسَينِ[3]. وأيضًا لأنَّه لَمَّا كانت الشَّناعةُ والفسادُ في قِتالِ الجماعةِ أكثَرَ، عُبِّرَ بضَميرِ الجمْعِ دونَ التَّثْنيةِ؛ تَصويرًا لذلك بأقبَحِ صُورةٍ، فقال: ﴿ٱقْتَتَلُواْ﴾، ولَمَّا كانت العِبرةُ في الصُّلحِ إذا وقَعَ بيْنَ الطَّائفتَينِ ما يُسكَنُ به الشَّرُّ، وإنْ تَخلَّفَ شُذَّانٌ[4] من الجانبَينِ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٥).

(٤) شُذَّانُ القَومِ: مَن شَذَّ منهم، وخرَجَ عن جَماعتِهم. يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (٢/ ٦٠٦).

يُعبَأُ بهم -عُبِّرَ بالتَّثنيةِ دونَ الجمْعِ، فقال: ﴿بَيْنَهُمَا﴾[١].

- قولُه: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ قرَنَ بالإصلاحِ الثَّاني العدْلَ دونَ الأوَّلِ؛ لأنَّ المُرادَ بالاقتِتالِ في أوَّلِ الآيةِ: أنْ تقتتِلَا باغيتَينِ معًا، أو راكبتَيْ شُبهةٍ، وأيَّتُهما كانتْ فالَّذي يجِبُ على المسلمينَ أنْ يأْخُذوا به في شأْنِهما: إصلاحُ ذاتِ البَينِ، وتَسكينُ الدَّهماءِ[٢] بإراءةِ الحقِّ والمَواعظِ الشَّافيةِ، ونفْيِ الشُّبهةِ، إلَّا إذا أصَرَّتا، فحينَئذٍ تجِبُ المُقاتَلةُ[٣].

أو يكونُ تَقْييدُ الإصلاحِ بالعدْلِ هاهنا؛ لأنَّه مَظِنَّةُ الحَيفِ مِن حيثُ إنَّه بعدَ المُقاتَلةِ، وقدْ أكَّد ذلك حيثُ قيلَ: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾، أيْ: واعدِلُوا في كلِّ ما تأْتونَ وما تَذَرونَ[٤].

أو قُيِّدَ الإصلاحُ المأمورُ به ثانيًا بعدَ أنْ تَفيءَ الباغيةُ بقَيدِ العدْلِ، وهذا القيدُ يُقيَّدُ به أيضًا الإصلاحُ المأمورُ به أوَّلًا؛ لأنَّ القيدَ مِن شأْنِه أنْ يَعودَ إليه؛ لاتِّحادِ سَببِ المُطلَقِ والمُقيَّدِ، أي: يجِبُ العدْلُ في صُورةِ الإصلاحِ، فلا يُضيِّعوا بصُورةِ الصُّلحِ مَنافعَ عن كِلَا الفَريقينِ إلَّا بقْدرِ ما تَقتضيهِ حَقيقةُ الصُّلحِ مِن نُزولٍ عن بَعضِ الحقِّ بالمعروفِ[٥].

- وفي قولِه: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ أمَرَ المسلمينَ بالعدْلِ أمرًا عامًّا، تَذْييلًا للأمرِ بالعدْلِ الخاصِّ في الصُّلحِ بيْنَ الفريقَينِ، فشَمِلَ هذا الأمرُ العامُّ أنْ يَعدِلوا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٢) الدَّهْماءُ: الفِتْنةُ المُظلِمةُ، ودَهْماءُ النَّاسِ: جَماعتُهم. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٩٢٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٢).

في صُورةِ ما إذا قاتَلوا الَّتي تَبْغي. أو هو مِن عطْفِ العامِّ على الخاصِّ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تَعليلٌ وتَقريرٌ لإقامةِ الإصلاحِ بيْنَ المؤمنينَ إذا استَشْرى الحالُ بيْنَهم؛ فالجُملةُ مَوقِعُها مَوقعُ العِلَّةِ، وقد بُنِيَ هذا التَّعليلُ على اعتِبارِ حالِ المسلِمينَ بَعضِهم مع بَعضٍ كحالِ الإخوةِ[٢].

- وجِيءَ بصِيغةِ القَصرِ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ المفيدةِ لِحَصرِ حالِهم في حالِ الأُخوَّةِ؛ مُبالَغةً في تَقْريرِ هذا الحُكمِ بيْنَ المُسلِمينَ، فهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ، أو هو قَصرٌ إضافيٌّ[٣]؛ للرَّدِّ على أصحابِ الحالةِ المفروضةِ الَّذين يَبْغون على غَيرِهم مِن المؤمنينَ[٤].

- وهذه الآيةُ فيها دَلالةٌ قويَّةٌ على تَقرُّرِ وُجوبِ الأخوَّةِ بيْنَ المسلِمينَ؛ لأنَّ شأنَ (إنَّما) أنْ تَجيءَ لخبَرٍ لا يَجهَلُه المخاطَبُ، ولا يَدفَعُ صِحَّتَه، أو لِمَا يُنزَّلُ مَنزِلةَ ذلك[٥].

- والفاءُ في قولِهِ تعالَى: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ للإيذانِ بأنَّ الأُخوَّةَ الدِّينيَّةَ مُوجِبةٌ للإصلاحِ[٦]؛ فقولُه: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فيه تَفريعُ الأمرِ بالإصلاحِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٣).

(٣) تقدَّم تعريفُ القصر الادعائي والإضافي (ص: ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٠).

بيْنَ الأخَوَينِ، على تَحقيقِ كَونِ المؤمنينَ إخوةً؛ تأكيدًا لِما دلَّت عليه (إنَّما) مِن التَّعليلِ، فصار الأمرُ بالإصلاحِ الواقعِ ابتِداءً دونَ تعليلٍ في قولِه: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، وقولِه: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ [الحجرات: ٩]، قد أُرْدِفَ بالتَّعليلِ، فحصَلَ تقريرُه، ثمَّ عُقِّبَ بالتَّفريعِ فزادَه تقْريرًا، وقد حصَلَ مِن هذا النَّظمِ ما يُشبِهُ الدَّعوى، وهي كمَطلوبِ القياسِ، ثمَّ ما يُشبِهُ الاستِدلالَ بالقياسِ، ثمَّ ما يُشبِهُ النَّتيجةَ[1].

- وخَصَّ الاثنَينِ بالذِّكرِ في قولِه: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ دونَ الجمْعِ؛ لأنَّ أقَلَّ مَن يقَعُ منهم الشِّقاقُ اثنانِ، فإذا التُزِمتِ المُصالَحةُ بيْنَ الأقَلِّ كانتْ بيْنَ الأكثَرِ ألزَمَ؛ لأنَّ الفَسادَ والشَّرَّ المُترتِّبَينِ على شِقاقِ الجمْعِ أكثَرُ منهما في شِقاقِ الاثنَينِ[2]. أوْ أُوثِرَت صِيغةُ التَّثنيةِ في قولِه: ﴿أَخَوَيْكُمْ﴾؛ مُراعاةً لِكَونِ الكَلامِ جاريًا على طائفتَينِ مِن المؤمنينَ، فجُعِلَت كلُّ طائفةٍ كالأخِ للأُخرَى[3].

- قولُه: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ على القِراءةِ بلَفظِ تَثْنيةِ (الأخِ)، أي: بيْنَ الطَّائفةِ والأُخرى؛ مُراعاةً لِجَرَيانِ الحَديثِ على اقتِتالِ طائفتَينِ، وعلى قِراءةِ ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ﴾ -بتاءٍ فوقيَّةٍ بعدَ الواوِ، على أنَّهُ جمْعُ أخٍ[4]-؛ فيَكونُ باعتِبارِ كُلِّ فَردٍ مِن الطَّائفتَينِ كالأخِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٥).

(٤) قرأ بها يعقوبُ، وقرأ الباقونَ: ﴿أَخَوَيْكُمْ﴾. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٥).

- وفي قولِه: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وضْعُ الظَّاهِرِ مَوضِعَ المضمَرِ مُضافًا إلى المأمورينَ بالإصلاحِ؛ للمُبالَغةِ في التَّقريرِ في تأْكيدِ وُجوبِ الإصلاحِ والتَّحضيضِ عليه(١). أو لَمَّا تقرَّرَ معْنى الأُخوَّةِ بيْنَ المؤمنينَ كَمالَ التَّقرُّرِ، عُدِلَ عن أنْ يقولَ: (فَأَصْلِحُوا بينَ الطَّائفتَينِ)، إلى قولِه: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، فهو وصْفٌ جَديدٌ نشَأَ عن قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾؛ فتعيَّنَ إطلاقُه على الطَّائفتَينِ، فليس هذا مِن وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوضِعَ الضَّميرِ(٢).

- والمُخاطَبُ بقولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ جميعُ المؤمنينَ؛ فيَشملُ الطَّائفتَينِ: الباغيةَ والمَبْغيَّ عليها، ويَشملُ غيرَهما ممَّن أُمِروا بالإصلاحِ بيْنَهما ومُقاتَلةِ الباغيةِ؛ فتَقْوى كُلٍّ بالوُقوفِ عندَ ما أمَرَ اللهُ به كُلًّا ممَّا يَخُصُّه، وهذا يُشبِهُ التَّذييلَ(٣).

- وإنَّما اختيرتِ الرَّحمةُ في قولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ لأنَّ الأمْرَ بالتَّقْوى واقعٌ إثْرَ تَقريرِ حَقيقةِ الأُخوَّةِ بيْنَ المؤمنينَ، وشأنَ تَعامُلِ الإخوةِ الرَّحمةُ؛ فيَكونُ الجَزاءُ عليها مِن جِنسِها(٤).



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١-١٣)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَلۡمِزُوٓاْ﴾: أي: تَعِيبوا، واللَّمْزُ: العيبُ[(١)].

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾: أي: لا تَتَداعَوْا بالألقابِ الَّتي يَسوءُ الشَّخصَ سَماعُها، تَقولُ: نَبَزَه يَنْبِزُه نَبْزًا، أي: لَقَّبَه، والألقابُ جمعُ لَقَبٍ: وهو اسمٌ يُسمَّى به الإنسانُ سِوى اسمِه الأوَّلِ، ويُراعَى فيه المعنى[(٢)].

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾: أي: لا تَتَبَّعُوا عَوْراتِ المسلمينَ، أو: لا تَبْحثوا عن الأخبارِ، والتَّجسُّسُ: البحثُ، أو: التَّفْتيشُ عن بواطِنِ الأُمورِ، وأكثرُ ما يُقالُ ذلك في الشَّرِّ، والجسُّ أصلُه: مَسُّ العِرقِ، وتَعَرُّفُ نَبْضِه للحُكمِ به على الصِّحةِ والسَّقَمِ، وأصلُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٤، ٧٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

(جسس): تَعرُّفُ الشَّيءِ بمَسٍّ لطيفٍ[١].

﴿وَلَا يَغْتَب﴾: الغِيبةُ: أنْ يُذكَرَ الإنْسانُ في غَيْبَتِه بسُوءٍ وإنْ كانَ فيه، وأصْلُ (غيب): يدُلُّ على تَستُّرِ الشَّيءِ عن العُيونِ، والغِيبةُ مِن هذا؛ لأنَّها لا تُقالُ إلَّا في غَيْبَةٍ[٢].

﴿شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾: الشُّعُوبُ: جَمعُ شَعْبٍ، وهو الحَيُّ العَظيمُ، أو: رُؤوسُ القبائِلِ؛ سُمِّيَت بذلك لأنَّ القبائِلَ تتشعَّبُ منها، أو سُمِّيَ الشَّعبُ بذلك؛ للاجتِماعِ والائتِلافِ. ولـ (شعب) أصْلانِ مختَلِفانِ: أحَدُهما يدُلُّ على الافتِراقِ، والآخَرُ على الاجتِماعِ.

والقبائِلُ: جَمعُ قَبيلةٍ، وهي دونَ الشَّعبِ، والقَبيلةُ: بنو أبٍ واحِدٍ، وأصلُ (قبل): يدُلُّ على مُواجَهةِ شَيءٍ لشَيءٍ؛ وسُمِّيت القبائِلُ بذلك لإقبالِ كُلِّ واحِدةٍ منها على الأُخرى[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يَنْهى اللهُ عِبادَه المؤمنينَ أنْ يَسخَرَ قومٌ منهم مِن قومٍ آخَرينَ مؤمنينَ؛ عَسى أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤١٤)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٠) و(٥/ ٥١، ٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٦٥).

يكونوا خَيرًا منهم، وأعظَمَ قدْرًا، ولا يَسخَرْ كذلك نِساءٌ مِن نِساءٍ؛ عَسى أنْ يكُنَّ خيرًا منهنَّ، وأعظَمَ قدْرًا، ويَنْهاهم أنْ يَطعُنَ بعضُهم بعضًا ويَعيبَه، ويَنهاهم أنْ يَتنادَوا بالألقابِ القَبيحةِ الَّتي يَكرَهُها المُنادَى بها، بِئسَ الاسمُ الَّذي تَنالونَه اسمُ الفسوقِ بعْدَ اتِّصافِكم بالإيمانِ، ومَن لم يَتُبْ مِن ذلك فأولئك هم الظَّالِمون.

ويأمُرُ اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ أنْ يَجتنِبوا كثيرًا مِن الظَّنِّ؛ وذلك لأنَّ بعضَ الظَّنِّ ذنْبٌ وإثْمٌ، ويَنهاهم عن التَّجسُّسِ، وعن غِيبةِ بعضِهم بعضًا، ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى تشبيهًا يُنفِّرُ مِن الغِيبةِ أكمَلَ تنفيرٍ، فيقولُ: أيُحِبُّ أحدُكم أنْ يَأكُلَ لَحْمَ أخيهِ بعْدَ مَوتِه؟! فإذا كَرِهْتُم ذلك فعلَيكم أنْ تَكرَهوا غِيبةَ المسلمِ كذلك، ثمَّ يأمُرُهم أنْ يتَّقُوا اللهَ؛ إنَّ اللهَ توَّابٌ رَحيمٌ.

ثمَّ يوجِّهُ تعالى الخِطابَ إلى النَّاسِ كافَّةً، ويخبِرُهم أنَّه بدَأَ خلْقَهم مِن ذكَرٍ -هو آدَمُ- وأُنثَى -هي حوَّاءُ-، وجعَلَهم شُعوبًا وقَبائلَ مِن أجْلِ أنْ يَحصُلَ بيْنَهم التَّعارُفُ، وأخبَرَهم أنَّ أكْرَمَهم عِندَه الأتْقَى، إنَّه عليمٌ خَبيرٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا اقتَضَت الأُخُوَّةُ أنْ تَحسُنَ المعامَلةُ بيْنَ الأخَوينِ، كان ما تقرَّرَ مِن إيجابِ مُعامَلةِ الأخوةِ بيْنَ المسلمينَ يَقْتضي حُسْنَ المعامَلةِ بيْنَ آحادِهم، فجاءتْ هذه الآياتُ مُنبِّهةً على أُمورٍ مِن حُسْنِ المعامَلةِ قد تقَعُ الغَفلةُ عن مُراعاتِها لكثرةِ

تَفشِّيها في الجاهليَّةِ لهذه المُناسَبةِ(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا يَستهزِئْ قَومٌ مؤمِنونَ مِن قَومٍ آخَرينَ مُؤمنينَ، ويَستخِفُّوا بهم؛ عَسى أنْ يكونَ المُستهزَأُ بهم خَيرًا مِن الهازِئينَ، وأعظَمَ قدْرًا منهم(٢).

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((المسلِمُ أخو المسلِمِ، لا يَظلِمُه، ولا يَخذُلُه، ولا يَحقِرُه))(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٤، ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٢).
قال ابن جرير: (واختَلَف أهلُ التَّأويلِ في السُّخْريةِ الَّتي نَهى اللهُ المؤمنينَ عنها في هذه الآيةِ؛ فقال بعضُهم: هي سُخريةُ الغنيِّ مِن الفقيرِ، نُهِيَ أن يُسخَرَ مِن الفقيرِ لِفَقْرِه... وقال آخَرونَ: بل ذلك نَهْيٌ مِن اللهِ مَن سَتَر عليه مِنْ أهلِ الإيمانِ أنْ يَسْخَرَ ممَّنْ كُشِف في الدُّنيا سِترُه منهم... والصَّوابُ مِن القولِ في ذلك عندي أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ عَمَّ بنَهْيِه المؤمنينَ أنْ يَسْخَرَ بعضُهم من بعضٍ جميعَ معاني السُّخريةِ، فلا يَحِلُّ لمؤمنٍ أنْ يَسخَرَ من مؤمِنٍ؛ لا لِفَقْرِه، ولا لِذَنْبٍ رَكِبه، ولا لغيرِ ذلِكَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٤-٣٦٦).
وقال ابنُ عثيمين: (والسُّخريةُ قد تكونُ في هَيئتِه، وقد يكونُ كذلك في خِلْقَتِه؛ قِصَرًا أو طولًا، أو ضخامةً أو نَحافةً، أو ما أشْبَهَ ذلك، ويكونُ كذلك سخريةً بكلامِه، وتقليدًا له استِهزاءً وسُخريةً، ويكونُ كذلك في المُعامَلةِ، يَسخَرُ به في مُعامَلتِه النَّاسَ، وكذلك بالمِشْيَةِ، وكلُّ ما كان فيه سُخريةٌ مِن أخيك فإنَّه داخلٌ في هذه الآيةِ). ((شرح رياض الصالحين)) (٦/ ٢٥٧) بتصرف.
وقال الغزالي: (ومعنَى السُّخريةِ الاستهانةُ والتَّحقيرُ، والتَّنبيهُ على العيوبِ والنَّقائصِ على وَجْهٍ يُضْحَكُ منه، وقد يَكونُ ذلك بالمُحاكاةِ في الفعلِ والقولِ، وقد يكونُ بالإشارةِ والإيماءِ، وإذا كان بحضرةِ المُستهزَأِ به لم يُسَمَّ ذلك غِيبةً، وفيه معنى الغِيبةِ). ((إحياء علوم الدين)) (٣/ ١٣١).

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٤).

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

أي: ولا يَستهزِئْ نِساءٌ مُؤمناتٌ مِن نِساءٍ أُخْرياتٍ مُؤمناتٍ، ويَسْتخفِفْنَ بهنَّ؛ عَسى أنْ يكونَ المسْتهزَأُ بهنَّ خيرًا مِن المُسْتهزِئاتِ، وأعظَمَ قدْرًا منهنَّ(١).

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

أي: ولا يَطعُنْ بعضُكم على بعضٍ، فيَعيبَه ويَقدَحَ فيه(٢).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٨).

قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾... قال ابنُ عبَّاسٍ والمفسِّرونَ كلُّهم: لا يَطْعنْ بعضُكم على بعضٍ. والمعنى: لا تَلمِزوا إخوانَكم الَّذين هم كأنفُسِكم). ((البسيط)) (٢٠/ ٣٥٦).

وقال الرازي: (قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ فيه وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ عيبَ الأخِ عائدٌ إلى الأخِ، فإذا عاب عائبٌ نفْسًا فكأنَّما عاب نفْسَه. وثانيهما: هو أنَّه إذا عابه وهو لا يَخلو من عَيبٍ يُحارِبُه المَعيبُ، فيَعيبُه؛ فيَكونُ هو بعَيبِه حاملًا للغَيرِ على عَيبِه، وكأنَّه هو العائبُ نفْسُه ... ويحتمِلُ وجهًا آخَرَ ثالثًا، وهو أن تقولَ: لا تَعيبوا أنفُسَكم، أي: كلَّ واحدٍ منكم، فإنَّكم إن فَعَلْتُم فقد عِبْتُم أنفُسَكم، أي: كلُّ واحدٍ عاب كلَّ واحدٍ، فصِرتُم عائبينَ مِن وجْهٍ، مَعيبينَ من وجهٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٩).

وقال ابن عاشور: (﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾. اللَّمزُ: ذِكرُ ما يَعُدُّه الذَّاكرُ عَيبًا لأحدٍ مُواجَهةً، فهو المباشَرةُ بالمكروهِ؛ فإن كان بحقٍّ فهو وقاحةٌ واعتداءٌ، وإن كان باطلًا فهو وقاحةٌ وكَذِبٌ، ... ويكونُ بحالةٍ بيْنَ الإشارةِ والكلامِ بتحريكِ الشَّفَتَين بكلامٍ خَفيٍّ يَعرِفُ منه المواجَهُ به أنَّه يُذَمُّ أو يُتَوعَّدُ، أو يُتنقَّصُ باحتِمالاتٍ كثيرةٍ، وهو غيرُ النَّبْزِ، وغيرُ الغِيبةِ. وللمُفَسِّرينَ وكُتبِ اللُّغةِ اضْطِرابٌ في شرحِ معنَى اللَّمزِ، وهذا الَّذي ذكَرْتُه هو المَنخولُ مِن ذلك. ومعنَى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ لا يَلمِزْ بعضُكم بعضًا، فنُزِّل البعضُ المَلْمُوزُ نفْسًا لِلَامِزِه؛ لِتَقرُّرِ معنَى الأُخُوَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٨).

فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((مَن قال في مُؤمنٍ ما ليس فيه أسكَنَه اللهُ رَدْغةَ الخَبالِ[1] حتَّى يَخرُجَ ممَّا قال))[2].

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾.

أي: ولا يُنادِ بعضُكم بعضًا -أيُّها المؤمنونَ- بالأسماءِ والصِّفاتِ القَبيحةِ الَّتي يَكرَهُها المنادَى بها[3].

سَببُ النُّزولِ:

عن أبي جَبِيرةَ بنِ الضَّحَّاكِ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((فِينا نزَلَت هذه

---

(١) رَدْغةُ الخَبالِ: أي: عُصارةُ أهلِ النَّارِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢١٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٩٧)، وأحمد (٥٣٨٥) مطوَّلًا.

صحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٧/ ٢٠٤)، وشعيبُ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٩/ ٢٨٣)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٥٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٧، ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٨-٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٨، ٢٤٩).

قال النووي: (اتَّفَقَ العُلَماءُ على تحريم تلقيب الإنسانِ بما يكرهُ، سواءٌ كان صِفةً له؛ كالأعمَش، والأجلَح، والأعمى، والأعرَج، والأحوَل، والأبرَص، والأشَجِّ، والأصفر، والأحدَب، والأصَمِّ، والأزرَق، والأفطَس، والأشتَر، والأثرَم، والأقطَع، والزَّمِن، والمُقعَد، والأشَلِّ؛ أو كان صِفةً لأبيه أو لأُمِّه، أو غيرَ ذلك ممَّا يكرَهُ، واتَّفقوا على جوازِ ذِكْره بذلك على جِهةِ التَّعريفِ لِمَن لا يَعرِفُه إلَّا بذلك). ((الأذكار)) (ص: ٤٧٥). ويُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ١٣٦).

الآيةُ في بني سَلِمةَ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ قال: قدِمَ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وليس مِنَّا رجُلٌ إلَّا وله اسمانِ أو ثلاثةٌ، فجعَلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: يا فُلانُ، فيقولونَ: مَهْ يا رسولَ اللهِ؛ إنَّه يَغضَبُ مِن هذا الاسمِ! فأُنزِلَت هذه الآيةُ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾))[(١)].

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾.

أي: بِئسَ الاسمُ الَّذي تَنالونَه اسمُ الفسوقِ بعْدَ اتِّصافِكم بالإيمانِ[(٢)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٦٢) واللفظ له، والترمذي (٣٢٦٨)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٥١٦)، وابن ماجه (٣٧٤١)، وأحمد (١٨٢٨٨).

قال الترمذي: (حسنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٥٧٠٩)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (٣٧٢٤) وقال: (على شرطِ مُسلمٍ)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٩٦٢)، وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٩٦٢): (إسنادُه صحيحٌ إنْ صحَّت صُحبةُ أبي جَبِيرةَ بنِ الضَّحَّاكِ، وإلَّا فمُرسَلٌ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٢)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٩، ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١).

قيل: المرادُ: أنَّ مَن فعَل ما نهَيْتُ عنه مِن السُّخريةِ، واللَّمزِ والنَّبزِ، فهو فاسقٌ؛ فلا تَفعلوا ذلك فتَستَحِقُّوا إنْ فَعَلْتُموه أن تُسَمَّوا فُسَّاقًا، وبِئسَ ذلك بعدَ الإيمانِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والنسفي، وابن تيميَّة، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٨٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٠٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٥٤)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤١).

وقيل: المرادُ: بِئسَ الاسمُ هذا، أن يُسَمِّيَه باسمِ الكُفرِ بعدَ الإيمانِ، يقولُ له: يا يهوديُّ، ويا نصرانيُّ! وممَّن اختار هذا القولَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والقرطبي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧٥).

وزاد الخازنُ أن يُقالَ له أيضًا: يا فاسِقُ بعدَ ما تاب، وزاد القرطبيُّ أن يُسَمَّى زانيًا بعدَ توبتِه. =

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: ومَن لم يَتُبْ مِن السُّخريةِ بإخوانِه المؤمنينَ، أو لَمْزِهم، أو مُنابزِتِهم بالألقابِ؛ فإنَّهم هم الظَّالِمونَ لأنفُسِهم بتَعريضِها لِعِقابِ اللهِ، والظَّالِمونَ لغيرِهم بالاعتداءِ عليهم[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ في الجملةِ: الحسَنُ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥٦٤).

قال الزَّجَّاجُ: (ويحتملُ أن يكونَ في كلِّ لقَبٍ يَكرَهُه الإنسانُ؛ لأنَّه إنَّما يجبُ أن يُخاطِبَ المؤمنُ أخاه بأحَبِّ الأسماءِ إليه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٣٦).

وقال ابن كثير: (بِئسَ الصِّفةُ والاسمُ الفُسُوقُ، وهو التَّنابُزُ بالألقابِ، كما كان أهلُ الجاهِليَّةِ يَتَناعَتونَ، بَعْدَما دخَلْتُم في الإسلامِ وعَقَلْتُموه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٣، ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ومَن لم يَتُبْ مِن نَبْزِه أخاه بما نهى اللهُ عنه؛ مِن نَبزِه بالألقابِ، أو لَمْزِه إيَّاه، أو بسخريتِه منه- فأولئك هم الَّذين ظلَموا أنفُسَهم بما كَسَّبوها عِقابَ الله، برُكوبِهم ما نَهاهم عنه). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٣).

وقال العُلَيمي: (﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بوَضعِ العِصيانِ مَوضِعَ الطَّاعةِ). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٧٠).

وقال الشوكاني: (﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لارتكابِهم ما نَهَى اللهُ عنه، وامْتِناعِهم مِن التَّوبةِ، فظَلَموا مَن لَقَّبوه، وظُلْمِهم أنفسَهم بما لزِمها مِن الإثْمِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧٦).

وقال ابن عاشور: (فمَن لم يَتُبْ فهو ظالمٌ: لأنَّه ظلَمَ النَّاسَ بالاعتِداءِ عليهم، وظلَمَ نفْسَه بأنْ رَضيَ لها عِقابَ الآخرةِ معَ التَّمكُّنِ مِن الإقلاعِ عن ذلك؛ فكان ظُلْمُه شديدًا جدًّا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٠).

تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان الإنسانُ رُبَّما دعا صاحِبَه بلقَبٍ له سيِّئٍ، غيرَ قاصدٍ به عَيْبَه، أو فعَلَ فِعلًا يَتنزَّلُ على الهُزْءِ، غيرَ قاصدٍ به الهُزْءَ- نَهَى تعالى عن المُبادَرةِ إلى الظَّنِّ مِن غيرِ تَثبُّتٍ؛ لأنَّ ذلك مِن وضْعِ الأشياءِ في غيرِ مَواضِعِها، الَّذي هو معْنى الظُّلمِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان الظَّنُّ هو السَّببَ فيما تقدَّم وعليه تُبنَى القبائحُ، ومنه يظهرُ العدوُّ المُكاشِحُ، والقائلُ إذا أوقف أمورَه على اليقينِ فقلَّما يتيقَّنُ في أحدٍ عَيبًا فيَلمِزُه به؛ فإنَّ الفعلَ في الصُّورةِ قد يكونُ قبيحًا وفي نفْسِ الأمرِ لا يكونُ كذلك؛ لِجَوازِ أن يكونَ فاعلُه ساهيًا، أو يكونَ الرَّائي مخطئًا[(٢)]، لذا قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَقرَبوا كثيرًا مِن الظَّنِّ، فتتَّهِموا النَّاسَ بالسُّوءِ ظنًّا منكم بلا بُرهانٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٧).

قال ابن جرير في معنَى الآيةِ: (لا تقرَبوا كثيرًا من الظَّنِّ بالمؤمنينَ، وذلك أن تَظُنُّوا بهم سوءًا؛ فإنَّ الظَّانَّ غيرُ مُحقٍّ.

وقال جلَّ ثَناؤُه: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ولم يقلْ: اجتنِبوا الظَّنَّ كلَّه؛ إذ كان قد أَذِنَ للمؤمنينَ أن يظُنَّ بعضُهم ببعضٍ الخيرَ، فقال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، فأذِنَ اللهُ جلَّ ثناؤُه للمؤمنينَ أن يظُنَّ بعضُهم ببعضٍ الخيرَ، وأن يَقولوه، وإن لم يَكونوا من قِيلِه فيهم على يقينٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٣، ٣٧٤). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحديثِ، ولا تَحَسَّسوا، ولا تَجسَّسوا[1]، ولا تَنافَسوا، ولا تَحاسَدوا، ولا تَباغَضوا، ولا تَدابَروا، وكُونوا -عِبادَ اللهِ- إخوانًا))[2].

﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾.

أي: إنَّ ظَنَّ المؤمنِ بغَيرِه السُّوءَ مِن غيرِ دليلٍ ذَنْبٌ[3].

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾.

= وقال ابن عطية: (حكَم على بعضِه بأنه إثْمٌ؛ إذ بعضُه ليس بإثم، ولا يَلزَمُ اجتِنابُه، وهو ظَنُّ الخَيرِ بالنَّاسِ، وحُسْنُه بالله تعالى، والمَظنونُ مِن شَهاداتِ الشُّهودِ، والمظنونُ به مِن أهلِ الشَّرِّ؛ فإنَّ سقوطَ عدالتِه وغير ذلك هو مِن حُكمِ الظَّنِّ به. وظنُّ الخَيرِ بالمؤمنِ محمودٌ. والظَّنُّ المَنهيُّ عنه: هو أنْ يظُنَّ سوءًا برجُلٍ ظاهِرُه الصَّلاحُ، بل الواجبُ أنْ يُزيلَ الظَّنَّ وحُكمَه، ويَتأوَّلَ الخيرَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥١).

وقال ابن عطيَّةَ أيضًا: (هذه الآياتُ والَّتي بعْدَها نزلتْ في خُلقِ أهلِ الجاهليَّةِ؛ وذلك لأنَّهم كانوا يجرونَ مع شهَواتِ نُفوسِهم، لم يُقَوِّمْهم أمْرٌ مِن الله ولا نهْيٌ، فكان الرَّجُلُ يَسْطو ويَهمِزُ ويَلمِزُ ويَنبِزُ بالألقابِ، ويَظُنُّ الظُّنونَ فيَتكلَّمُ بها، ويَغتابُ، ويَفتخِرُ بنسَبِه، إلى غيرِ ذلك مِن أخلاقِ النُّفوسِ البطَّالةِ؛ فنزلتْ هذه الآيةُ تأديبًا لأمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وذكَر بعضُ النَّاسِ لهذه الآياتِ أسبابًا... والقويُّ عندي أنَّ هذه الآياتِ نزلتْ تقويمًا [لسائرِ الخَلقِ] كسائرِ أمرِ الشَّرعِ، ولو تُتبِّعَتِ الأسبابُ لَكانت أكثرَ مِن أن تُحصى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٩).

(١) قال النَّوَوي: (قال بعضُ العلماءِ: التَّحسُّسُ بالحاءِ: الاستِماعُ لِحَديثِ القَومِ، وبالجيمِ: البحثُ عن العَوْراتِ. وقيل: بالجيمِ: التَّفتيشُ عن بَواطِنِ الأمورِ، وأكثَرُ ما يُقالُ في الشَّرِّ، والجاسوسُ: صاحِبُ سِرِّ الشَّرِّ، والنَّاموسُ: صاحبُ سرِّ الخَيرِ. وقيل: بالجيم: أن تَطلُبَه لغَيرِك، وبالحاءِ: أن تَطلُبَه لِنَفْسِك. قاله ثعلبٌ. وقيل: هما بمعنًى، وهو طلَبُ معرفةِ الأخبارِ الغائبةِ والأحوالِ). ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١١٩).

(٢) رواه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلمٌ (٢٥٦٣) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥١، ٢٥٢).

مُناسَبتُها لِمَا قبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بصَونِ عِرضِ المسلِمِ غايةَ الصِّيانةِ؛ فنهى عن الخَوضِ فيه بالظَّنِّ؛ فإنْ قال الظَّانُّ: أبحَثُ لِأتحقَّقَ، قيل له[(١)]:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.

أي: ولا تتَّبِعوا -أيُّها المؤمنونَ- عُيوبَ النَّاسِ وتُنَقِّبوا عنها، بلِ اترُكوهم، وعامِلوهم بحسَبِ ظَواهِرِهم[(٢)].

عن ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((صَعِدَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المِنبرَ، فنادَى بصَوتٍ رفيعٍ، فقال: يا مَعْشَرَ مَنْ أسلَمَ بلِسانِه، ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلْبِه، لا تُؤذوا المسلمينَ، ولا تُعَيِّروهم، ولا تتَّبِعوا عَوْراتِهم؛ فإنَّه مَن تتَبَّعَ عَورةَ أخيه المسلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرتَه، ومَن تَتبَّعَ اللهُ عَورتَه يَفضَحْه ولو في جَوفِ رَحْلِه))[(٣)].

وعن مُعاويةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّك إنِ اتَّبَعْت عَوْراتِ النَّاسِ أفسَدْتَهم، أو كِدْتَ أنْ تُفسِدَهم))، فقال أبو الدَّرْداءِ: (كلمةٌ سمِعَها مُعاويةُ مِن رسولِ اللهِ نفَعَه اللهُ تعالى بها)[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٨١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٥٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٣٢) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (٥٧٦٣).

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ). وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وصحَّح إسنادَه الزَّيْلَعيُّ في ((تخريج الكشاف)) (٣/ ٣٤٤)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٠٣٢): (حسَنٌ صحيحٌ). وقوَّى إسنادَه شعيبُ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٥٧٦٣).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٨٨٨) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (٥٧٦٠)، والطَّبَرانيُّ (١٩/ ٣٧٩) (٨٩٠). =

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾؛ فإنْ قال الظَّانُّ: تحقَّقْتُ مِن غيرِ تجسُّسٍ، قيل له[١]:

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾.

أي: ولا يَذكُرْ -أيُّها المؤمنونَ- بعضُكم بعضًا في حالِ غَيبتِه بما يَكرَهُ سَماعَه مِن عَيبٍ وقدْحٍ فيه[٢].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أتَدْرون ما الغِيبةُ؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: ذِكرُك أخاكَ بما يَكرَهُ. قِيل: أفرأَيْتَ إنْ كان في أخي ما أقولُ؟ قال: إنْ كان فيه ما تقولُ فقدِ اغتَبْتَه، وإنْ لم يكُنْ فيه فقدْ بَهَتَّه))[٣].

= صحَّحه ابنُ حِبان، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٨٨)، وصحَّح إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (٢/ ٢٥٠)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٨٨٨).

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٤، ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٥٠).

قال النووي: (الغِيبةُ: ذِكْرُك الإنسانَ بما يَكرَهُ؛ سواءٌ ذكَرْتَه بلَفظِك، أو في كِتابِك، أو رمزتَ أو أشرتَ إليه بعَينِك أو يدِك أو رأسِك. وضابِطُه: كلُّ ما أفهَمْتَ به غيرَك نُقْصانَ مُسلِمٍ فهو غِيبةٌ مُحرَّمةٌ). ((الأذكار)) (ص: ٣٣٨).

وقال ابنُ عثيمين: (سواءٌ كان ذلك في خِلْقتِه، أو خُلُقِه، أو في أحوالِه، أو في عَقلِه، أو في ذَكائِه، أو في غيرِ ذلك). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٥٢).

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٩).

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ دِماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حَرامٌ، كحُرمةِ يَومِكم هذا، في شَهرِكم هذا، ألَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ منكم الغائبَ))[(١)].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بحَسْبِ امْرِئٍ مِن الشَّرِّ أنْ يَحقِرَ أخاه المُسلِمَ، كلُّ المسلمِ على المسلمِ حَرامٌ: دَمُه، ومالُه، وعِرضُه))[(٢)].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((قلْتُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: حَسْبُكَ مِن صَفيَّةَ كذا وكذا -تَعني: قصيرةً-، فقال: لَقد قلْتِ كلمةً لو مُزِجَت بماءِ البحْرِ لَمَزجَتْه!))[(٣)].

وعن أبي بَرْزَةَ الأسْلَميِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يا مَعشرَ مَن آمَنَ بلِسانِه، ولم يَدخُلِ الإيمانُ قلْبَه، لا تَغتابُوا المسلمين، ولا تتَّبِعوا عَوْراتِهم؛ فإنَّه مَنِ اتَّبَعَ عَوْراتِهم يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرتَه، ومَن يتَّبِعِ اللهُ عَورتَه يَفضَحْه في بَيتِه))[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (١٠٥) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٩).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٣) أخرجه أبو داودَ (٤٨٧٥) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (٢٥٠٢)، وأحمدُ (٢٥٥٦٠).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (١١٨)، والشوكاني في ((الفتح الرباني)) (١١/ ٥٥٩٣)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٧٥)، وصحَّح إسنادَه على شرط مسلم شُعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٢/ ٣٦١).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٨٨٠) واللَّفظُ له، وأحمد (١٩٧٧٦).

جوَّد إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (٢/ ٢٥٠)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٨٠): (حسَنٌ صحيحٌ). وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٨٨٠).

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

أي: أيُحِبُّ أحدُكم -أيُّها المؤمنونَ- أنْ يَأكُلَ لَحمَ أخيهِ بعْدَ مَماتِه؟ فإنْ كَرِهْتُم ذلك واشْمَأْزَزْتُم منه -لِحُرْمتِه وبَشاعتِه- فاكْرَهوا كذلك غِيبةَ المسلمِ، وتَقذَّروا منها[١].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

أي: واجْعَلوا بيْنَكم -أيُّها المؤمنونَ- وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه وِقايةً بامتِثالِ أوامرِه، واجتنابِ نَواهِيه، ومِن ذلك تَجنُّبُ ظَنِّ السُّوءِ بالمؤمنِ، وتَتبُّعِ عَوْراتِه، والتَّجسُّسِ عمَّا خَفِيَ مِن أمْرِه، واغتيابِه بما يَكرَهُه[٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُوفِّقُ عِبادَه للتَّوبةِ ويَقبَلُها منهم، رَحيمٌ بهم فيَدْعوهم إلى ما يَنفَعُهم، ويُغدِقُ عليهم نِعَمَه، ولا يُؤاخِذُهم بذُنوبِهم بعْدَ تَوبتِهم منها[٣].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٥).

قال القرطبي: (مثَّل اللهُ الغِيبةَ بأكلِ المَيتةِ؛ لأنَّ المَيِّتَ لا يَعلَمُ بأكْلِ لحْمِه، كما أنَّ الحيَّ لا يَعلَمُ بغِيبةِ مَن اغتابَه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانه الأُخُوَّةَ الدِّينيَّةَ؛ تَذكيرًا بالعاطِفِ الموجِبِ للإكرامِ، المانِعِ مِن الانتِقامِ، ونَهَى عن أُمورٍ يَجُرُّ إليها الإعجابُ بالنَّفْسِ مِن جِهةِ التَّعظيمِ بالآباءِ، والعَراقةِ في النَّسبِ العالي- أسقَطَ ذلك مُبيِّنًا أنْ لا نسَبَ إلَّا ما يُثمِرُه الإيمانُ الَّذي بدَأَ به مِن التَّقْوى[١].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ بأنْ يكونوا إخْوةً، وأنْ يُصلِحوا بيْنَ الطَّوائفِ المُتقاتِلةِ، ونَهاهم عمَّا يَثْلِمُ الأُخوَّةَ وما يُغَطِّي على نُورِها في نُفوسِهم؛ مِن السُّخريةِ، واللَّمْزِ، والتَّنابُزِ، والظَّنِّ السُّوءِ، والتَّجسُّسِ، والغِيبةِ -ذكَّرَهم بأصْلِ الأُخوَّةِ في الأنسابِ الَّتي أكَّدَتْها أُخوَّةُ الإسلامِ ووَحدةُ الاعتِقادِ؛ لِيَكونَ ذلك التَّذكيرُ عَونًا على تَبصُّرِهم في حالِهم[٢].

وأيضًا فهو انتقالٌ مِن واجباتِ المعامَلاتِ، إلى ما يجِبُ أنْ يُراعِيَه المرْءُ في نفْسِه[٣].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّا بدَأْنا خلْقَكم مِن أبيكم آدَمَ وأُمِّكم حوَّاءَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٧).

قال ابنُ عطيَّة: (يَحتَمِلُ أن يُريدَ آدمَ وحوَّاءَ، فكأنَّه قال: إنَّا خلَقْنا جميعَكم مِن آدمَ وحوَّاءَ، ويَحتملُ أن يُريدَ بالذَّكرِ والأُنثى اسمَ الجِنسِ، فكأنَّه قال: إنَّا خلَقْنا كلَّ واحدٍ منكم مِن ماءِ ذكَرٍ وماءِ أُنثى، وقصْدُ هذه الآيةِ التَّسويةُ بيْنَ النَّاسِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٢). =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾.

أي: وجعَلْناكم -أيُّها النَّاسُ- راجِعينَ في أنسابِكم إلى شُعوبٍ وقَبائلَ؛ مِن أجْلِ أنْ يَحصُلَ التَّعارُفُ بيْنَكم بالانتِسابِ إليها، لا مِن أجْلِ أنْ يَفخَرَ بها بعضُكم على بعضٍ[1].

= وممَّن ذهَب إلى الاحتمالِ الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمعاني، وابنُ كثير، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٧).

وممَّن قال بالاحتمالِ الثَّاني: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٢).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٣، ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٧).

قال السعدي: (لو استقلَّ كلُّ واحدٍ منهم بنفْسِه لم يحصُلْ بذلك التَّعارُفُ الَّذي يترتَّبُ عليه التَّناصُرُ والتَّعاوُنُ، والتَّوارُثُ، والقيامُ بحُقوقِ الأقارِبِ، ولكِنَّ اللهَ جعَلهم شُعوبًا وقبائلَ؛ لأجْلِ أن تَحصُلَ هذه الأمورُ وغَيرُها مِمَّا يتوقَّفُ على التَّعارُفِ، ولُحوقِ الأنسابِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢).

وقال القَلْقَشَنْدي: (قد عدَّ أهلُ اللُّغةِ طبَقاتِ الأنسابِ ستَّ طبَقاتٍ:

الطَّبقةُ الأولى: الشَّعبُ، بفتحِ العَينِ، وهو النَّسبُ الأبعَدُ؛ كعَدْنانَ مثلًا...

الطَّبقةُ الثَّانيةُ: القَبيلةُ، وهي ما انقسَمَ فيه الشَّعبُ؛ كرَبيعةَ ومُضَرَ...

الطَّبقةُ الثَّالثةُ: العِمارةُ، بكسرِ العَينِ المُهمَلةِ، وهي ما انقسَم فيه أنسابُ القَبيلةِ؛ كقُرَيشٍ وكِنانةَ. وتُجمَعُ على عِماراتٍ، وعَمائرَ. =

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

أي: إنَّ أفضَلَكم وأشرَفَكم -أيُّها النَّاسُ- عندَ اللهِ تعالى أكثَرُكم تَقْوى له بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهيه، لا أشرَفُكم نَسَبًا، ولا أعظَمُكم عَشيرةً[١].

عن أبي هريرةَ رضِيَ الله عنه قال: ((سُئِلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ النَّاسِ أكْرَمُ؟ قال: أكرمُهم عندَ الله أتْقاهم))[٢].

وعن أبي هريرةَ أيضًا، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الله لا يَنظرُ إلى صُورِكم وأموالِكم، ولكنْ ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم))[٣].

وعن أبي هُرَيرةَ أيضًا، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لَيَدَعَنَّ رِجالٌ

= الطَّبقةُ الرَّابعةُ: البَطنُ، وهي ما انقسَم فيه أقسامُ العِمارةِ؛ كبَني عبدِ مَنافٍ، وبَني مَخزومٍ. ويُجمعُ: على بُطونٍ، وأبْطُنٍ.

الطَّبقةُ الخامِسةُ: الفَخِذُ، وهي ما انقسَم فيه أقسامُ البَطنِ؛ كبَني هاشمٍ، وبني أُمَيَّةَ. وتُجمعُ على: أفخاذٍ.

الطَّبقةُ السَّادسةُ: الفَصيلةُ، بالصَّادِ المُهمَلةِ، وهي ما انقسَم فيه أقسامُ الفَخِذِ؛ كبَني العبَّاسِ... وبالجُملةِ فالفَخِذُ يَجمَعُ الفصائلَ، والبطنُ يجمعُ الأفخاذَ، والعِمارةُ يجمعُ البُطونَ، والقبيلةُ تَجمعُ العَمائرَ، والشَّعبُ يجمعُ القبائلَ... وزاد بعضُهم العَشيرةَ قبْلَ الفَصيلةِ). ((قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان)) (ص: ١٤). ويُنظر: ((الأحكام السلطانية)) للماوَرْدي (ص: ٣٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٤).

وقال الشنقيطي: (ولم يُذكَرْ من هذه السِّتِّ في القرآنِ إلَّا ثلاثٌ: الشُّعوبُ والقَبائلُ كما في هذه الآيةِ، والفَصيلةُ في المَعارِجِ، في قولِه: ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ [المعارج: ١٣]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

فَخْرَهم بأقوامٍ؛ إنَّما هم فَحْمٌ مِن فحم جهنَّمَ، أو لَيَكونُنَّ أهْوَنَ على اللهِ مِن الجِعْلانِ[(١)] الَّتي تَدفَعُ بأنْفِها النَّتْنَ))، وقال: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أذهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ[(٢)] الجاهليَّةِ وفَخْرَها بالآباءِ؛ مُؤمِنٌ تقِيٌّ، وفاجرٌ شقِيٌّ، النَّاسُ بنو آدَمَ، وآدَمُ مِن تُرابٍ))[(٣)].

وعن سَهلِ بنِ سعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((مَرَّ رجُلٌ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ما تَقولون في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إنْ خطَبَ أنْ يُنكَحَ، وإنْ شَفَع أنْ يُشَفَّعَ، وإنْ قال أنْ يُستمَعَ. قال: ثمَّ سكَتَ، فمرَّ رجُلٌ مِن فُقراءِ المسلمينَ، فقال: ما تَقولونَ في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إنْ خطَبَ ألَّا يُنكَحَ، وإنْ شفَعَ ألَّا يُشَفَّعَ، وإنْ قال ألَّا يُستمَعَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هذا خَيرٌ مِن مِلْءِ الأرضِ مِثلَ هذا))[(٤)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو عِلمٍ تامٍّ بعِبادِه، ذو خِبرةٍ كاملةٍ ببَواطنِهم وسَرائرِهم، لا يَخْفَى عليه شَيءٌ مِن أُمورِهم الظَّاهرةِ والباطِنةِ[(٥)].

---

(١) الجِعْلانُ: واحِدُه جُعَلٌ، وهي دُوَيْبَّةٌ سَوداءُ تكونُ في المواضِعِ النَّدِيَّة يُقالُ لها: الخُنفُساءُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٣٠٧٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٨/ ٢١٠).

(٢) عُبِّيَّةَ الجاهِليَّةِ: أي: نَخْوَتَها وكِبْرَها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٣٠٧٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥)، وأحمد (١٠٧٨١) واللَّفظُ له.

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ)، وصحَّح الحديثَ ابنُ تيميَّةَ في ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٢٤٧)، وحسَّنَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥١١٦)، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٥١١٦)، وحسَّن إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٦٢).

(٤) رواه البخاري (٥٠٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٥٩).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ وتَوجيهُ الخِطابِ للمؤمنِ يدُلُّ على أنَّ ما يُتلى عليه فهو مِن مُقْتضياتِ الإيمانِ، وأنَّ فَقْدَه ومُخالَفتَه نقْصٌ في الإيمانِ[1].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ هذا مِن حُقوقِ المؤمنينَ بَعضِهم على بعضٍ؛ ألَّا يَسخَرَ قومٌ مِن قومٍ بكلِّ كلامٍ، وقولٍ، وفِعلٍ دالٍّ على تَحقيرِ الأخِ المسلمِ؛ فإنَّ ذلك حَرامٌ لا يَجوزُ، وهو دالٌّ على إعجابِ السَّاخرِ بنفْسِه، وعَسَى أنْ يكونَ المسخورُ به خَيرًا مِن السَّاخِرِ، كما هو الغالِبُ والواقعُ؛ فإنَّ السُّخريةَ لا تقعُ إلَّا مِن قلْبٍ مُمتلئٍ مِن مَساوي الأخلاقِ، مُتحَلٍّ بكلِّ خُلقٍ ذَميمٍ؛ ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بِحَسْبِ امْرِئٍ مِن الشَّرِّ أنْ يَحقِرَ أخاهُ المسلمَ))[2]، ومِنْ أقبَحِ القبيحِ استِخفافُ الدَّنيءِ الأرذَلِ بالأكرَمِ الأفضَلِ، واسْتِهْزاؤُه به[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ فيه وُجوبُ أنْ يَعتقِدَ كلُّ أحدٍ أنَّ المسخورَ منه رُبَّما كان عندَ اللهِ خَيرًا مِن السَّاخرِ؛ لأنَّ النَّاسَ لا يَطَّلِعونَ إلَّا على ظَواهرِ الأحوالِ، ولا عِلمَ لهم بالخَفيَّاتِ، وإنَّما الَّذي يَزِنُ عندَ اللهِ: خُلوصُ الضَّمائرِ، وتَقْوى القلوبِ، وعِلمُهم مِن ذلك بمَعزِلٍ؛ فيَنْبغي ألَّا يَجترِئَ أحدٌ على الاستِهزاءِ بمَن تَقتَحِمُه عَينُه إذا رآهُ رثَّ الحالِ، أو ذا عاهةٍ في بَدَنِه، أو غيرَ

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

والحديث تقدَّم تخريجُه.

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٣).

لَبِقٍ في مُحادثَتِه؛ فلَعلَّه أخلَصُ ضَميرًا، وأتْقى قلبًا ممَّن هو على ضِدِّ صِفتِه، فيَظلِمُ نفْسَه بتَحقيرِ مَن وقَّره اللهُ، والاستِهانةِ بمَن عظَّمَه اللهُ[١].

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ تَحريمُ عَيبِ المؤمنينَ بَعضِهم بَعضًا[٢]، وفيه تنبيهٌ على أنَّ العاقِلَ لا يعيبُ نفْسَه، فلا ينبغي أن يعيبَ غيرَه؛ لأنَّه كنَفْسِه[٣].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾ فيه تَحريمُ المُنابَزةِ بالألقابِ، وهي الوصْفُ بلقَبٍ يَكرَهُه الشَّخصُ[٤].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فيه أنَّ التَّوبةَ فرْضٌ على العِبادِ[٥]، فالواجبُ على العبْدِ أنْ يَتوبَ إلى اللهِ تعالى، ويَخرُجَ مِن حقِّ أخيه المسلمِ؛ باستِحلالِه، والاستِغفارِ، والمدْحِ له، مُقابَلةً على ذَمِّه[٦].

٧- قال بَعضُ السَّلَفِ: (أصبِحُوا تائِبينَ، وأمْسُوا تائِبينَ). يُشيرُ إلى أنَّ المُؤمِنَ لا يَنبغي أن يُصبِحَ ويُمسيَ إلَّا على تَوبةٍ؛ فإنَّه لا يدري متى يُفاجِئُه الموتُ صَباحًا أو مَساءً؛ فمَن أصبَحَ أو أمسى على غيرِ توبةٍ فهو على خَطَرٍ؛ لأنَّه يَخشى أن يَلقَى اللهَ غيرَ تائبٍ، فيُحشَرَ في زُمرةِ الظَّالِمينَ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

(٧) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣٤٤).

٨- في قوله تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ تَحضيضٌ على الظَّنِّ الحَسَنِ[١]، وتَحريمُ ظَنِّ السُّوءِ بأهْلِ الخَيرِ، وإباحتُه بأهْلِ الشَّرِّ؛ لأنَّه لم يُنْهَ عن كلِّ الظَّنِّ[٢].

٩- في قولِه تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: اجتَنِبوا الظَّنَّ كلَّه؛ لأنَّ الظَّنَّ يَنقسِمُ إلى قِسمينِ:

القِسمِ الأولِ: ظَنِّ خَيرٍ بالإنسانِ، وهذا مَطلوبٌ أنْ تَظُنَّ بإخوانِك خيرًا ما داموا أهْلًا لذلك، وهو المسلمُ الَّذي ظاهِرُه العدالةُ؛ فإنَّ هذا يُظَنُّ به خيرًا، ويُثْنى عليه بما ظَهَرَ لنا مِن إسلامِه وأعمالِه.

القِسمِ الثاني: ظَنِّ السُّوءِ، وهذا يَحرُمُ بالنِّسبةِ لِمُسلمٍ ظاهِرُه العدالةُ؛ فإنَّه لا يَحِلُّ أنْ يُظَنَّ به ظَنُّ السُّوءِ، كما صَرَّحَ بذلك العُلماءُ، أمَّا ظنُّ السُّوءِ بمَن قامتِ القرينةُ على أنَّه أهلٌ لذلك؛ فهذا لا حَرَجَ على الإنسانِ أنْ يَظُنَّ السُّوءَ به[٣].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، فيه تَحريمُ التَّجسُّسِ، قال ابنُ عبَّاسٍ: (وهو تَتبُّعُ عَوْراتِ النَّاسِ)، وقال الأوزاعيُّ: (منه الاستِماعُ إلى حَديثِ القومِ وهم له كارِهون)[٤].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾، فيه وُجوبُ حِفظِ عِرضِ المؤمنِ في غَيبتِه[٥]، وتَحريمُ الغِيبةِ، وهي ذِكرُ الشَّخصِ بما يَكرَهُه ممَّا هو فيه[٦]، ودلَّ قولُه تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾ على التَّحذيرِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٣١).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٩).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠).
(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٢).

الشَّديدِ مِن الغِيبةِ، وأنَّ الغِيبةَ مِن الكبائرِ؛ لأنَّ اللهَ شبَّهَها بأكْلِ لحْمِ الميِّتِ، وذلك مِن الكبائرِ[(١)].

١٢- قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾، قولُه: ﴿خَلَقْنَاكُم﴾ و﴿وَجَعَلْنَاكُمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى عدَمِ جَوازِ الافتخارِ؛ لأنَّ ذلك ليس بسَعْيِكم، ولا قُدْرةَ لكم على شَيءٍ مِن ذلك، فكيفَ تفتخِرونَ بما لا مَدخَلَ لكم فيه[(٢)]؟!

١٣- تَعليقُ الشَّرفِ في الدِّينِ بمُجرَّدِ النَّسبِ هو حكْمٌ مِن أحكامِ الجاهليَّةِ الَّذين اتَّبَعَتْهم عليه الرَّافضةُ وأشباهُهُم مِن أهلِ الجهْلِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، ولهذا ليس في كِتابِ اللهِ آيةٌ واحدةٌ يَمدَحُ فيها أحدًا بنَسَبِه، ولا يَذُمُّ أحدًا بنَسَبِه؛ وإنَّما يَمدَحُ بالإيمانِ والتَّقوى، ويَذُمُّ بالكفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ[(٣)].

١٤- أنَّ ثَوابَ اللهِ عزَّ وجلَّ لا يَنْبني على حَسَبٍ ولا نَسَبٍ، وإنَّما يَنْبني على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[(٤)].

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فيه إثباتُ كَونِ التَّقوى مُتقدِّمةً على كلِّ فَضيلةٍ[(٥)].

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ الفضْلَ والكرَمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٤).

إنَّما هو بتَقْوى اللهِ، لا بغيرِه مِن الانتِسابِ إلى القَبائلِ[١]، وأنَّ كلَّ مَن كان أتْقى فهو أكرَمُ عندَ اللهِ، وأرفَعُ مَنزِلةً[٢].

١٧- رُبَّ مَن يَحقِرُه النَّاسُ لضَعْفِه، وقِلَّةِ حظِّه مِن الدُّنيا، وهو أعظَمُ قدْرًا عندَ اللهِ تعالى ممَّن له قدْرٌ في الدُّنيا؛ فإنَّما النَّاسُ يَتفاوَتون بحسَبِ التَّقْوى، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٣] [الحجرات: ١٣].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾، ولم يقُلْ: (نفْسٌ مِن نفْسٍ)؛ لأنَّ هذا فيه إشارةٌ إلى منْعِ التَّكبُّرِ، والمتكبِّرُ في أكثَرِ الأمْرِ يُري جَبروتَه على رُؤوسِ الأشهادِ، وإذا اجتمَعَ في الخَلَواتِ مع مَن لا يَلتفِتُ إليه في الجامعِ، يَجعَلُ نفْسَه مُتواضِعًا، فذكَرَهم بلَفظِ القومِ؛ منْعًا لهم عمَّا يَفعَلونه[٤].

٢- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ هذه الآيةُ تَقْتضي اختِصاصَ القَومِ بالذُّكرانِ، وقد يكونُ مع الذُّكْرانِ نِساءٌ فيُقالُ لهم: قومٌ، على تَغليبِ حالِ الذُّكورِ[٥].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ سُمِّيَ الأخُ المؤمنُ نفْسًا لأخيهِ؛ لأنَّ المؤمنينَ يَنْبغي أنْ يكونَ هكذا حالُهم كالجسَدِ الواحِدِ، ولأنَّه إذا همَزَ غيرَه أوجَبَ للغَيرِ أنْ يَهمِزَه، فيكونُ هو المتسبِّبَ لذلك[٦].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٨، ١٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾، لم يقُلْ: (لا تَنْبزوا)؛ وذلك لأنَّ اللَّمَّازَ إذا لَمَزَ، فالملْموزُ قد لا يَجِدُ فيه في الحالِ عَيبًا يَلمِزُه به، وإنَّما يَبحَثُ ويَتتبَّعُه؛ لِيَطَّلِعَ منه على عَيبٍ، فيُوجَدُ اللَّمزُ مِن جانبٍ. وأمَّا (النَّبزُ) فلا يَعجِزُ كلُّ واحدٍ عن الإتيانِ به؛ فإنَّ مَن نبَزَ غيرَه بالحِمارِ، وهو يَنبِزُه بالثَّورِ وغيرِه، فالظَّاهرُ أنَّ النَّبْزَ يُفْضي في الحالِ إلى التَّنابُزِ، ولا كذلك اللَّمزُ[1].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾، اللَّقبُ إنْ دلَّ على ما يَكرَهُه المدْعوُّ به كان مَنهيًّا عنه، وأمَّا إذا كان حَسنًا فلا يُنْهَى عنه. وما زالت الألقابُ الحَسَنةُ في الأُمَمِ كلِّها مِن العرَبِ والعجَمِ، تَجْري في مُخاطَباتِهم ومُكاتَباتِهم مِن غيرِ نَكيرٍ[2].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾، خُصِّصَ النَّهيُ في الآيةِ بالألقابِ الَّتي لم يَتقادَمْ عَهْدُها حتَّى صارتْ كالأسماءِ لأصحابِها، وتُنوسِيَ منها قصْدُ الذَّمِّ والسَّبِّ، كما وقَعَ في كثيرٍ مِن الأحاديثِ؛ كقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أصدَقَ ذُو اليدَينِ؟))[3]، وقولِه لأبي هُريرةَ: ((يا أبا هِرٍّ))[4]. وكقولِ المحدِّثينَ: (الأعرَجُ) لعبْدِ الرَّحمنِ بنِ هُرْمُزَ، و(الأعمشُ) لِسُلَيمانَ بنِ مِهْرانَ[5].

٧- قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ قولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا﴾، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ إشارةٌ إلى الأخْذِ بالأحوطِ، كما أنَّ الطَّريقَ المَخُوفةَ لا يتَّفِقُ كلَّ مرَّةٍ فيها قاطعُ طَريقٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٤)، ومسلم (٥٧٣) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٢٨٥) و(٥٣٧٥) و(٦٤٥٢) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٩).

لكنَّك لا تَسلُكُ لاتِّفاقِ ذلك فيها مرَّةً ومرَّتين، إلَّا إذا تعيَّن فتَسلُكُها مع رُفقةٍ، كذلك الظَّنُّ يَنْبغي بعْدَ اجتهادٍ تامٍّ، ووُثوقٍ بالغٍ(١).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ إخراجٌ للظُّنونِ الَّتي عليها تُبْنى الخَيراتُ، وبالجُملةِ كلُّ أمْرٍ لا يكونُ بناؤُه على اليقينِ فالظَّنُّ فيه غيرُ مُجتنَبٍ، مِثالُه: حكْمُ الحاكمِ على قَولِ الشُّهودِ، وبَراءةُ الذِّمَّةِ عندَ عدَمِ الشُّهودِ، إلى غيرِ ذلك(٢).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، أفاد قولُه: ﴿كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾، وتَبْيينُه بأنَّ ﴿بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾؛ أنَّ بَعضًا من الظَّنِّ ليس إثمًا، وأنَّا لم نُؤمَرْ باجتنابِ الظَّنِّ الَّذي ليس بإثمٍ؛ لأنَّ ﴿كَثِيرٗا﴾ وصْفٌ، فمَفهومُ المُخالَفةِ منه يدُلُّ على أنَّ كَثيرًا مِن الظَّنِّ لم نُؤمَرْ باجتنابِه، وهو الَّذي يُبيِّنُه ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، أي: إنَّ بَعضَ الظَّنِّ ليس إثمًا، فعلى المسلمِ أنْ يكونَ مِعيارُه في تَمْييزِ أحدِ الظَّنَّينِ مِن الآخَرِ أنْ يَعرِضَه على ما بيَّنَتْه الشَّريعةُ في تَضاعيفِ أحكامِها مِن الكتابِ والسُّنَّةِ، وما أجمَعَت عليه عُلماءُ الأُمَّةِ، وما أفادهُ الاجتهادُ الصَّحيحُ، وتَتبُّعُ مَقاصِدِ الشَّريعةِ، فمنْه ظنٌّ يجِبُ اتِّباعُه؛ كالحَذَرِ مِن مَكايدِ العدُوِّ في الحرْبِ، وكالظَّنِّ المستنِدِ إلى الدَّليلِ الحاصلِ مِن دَلالةِ الأدِلَّةِ الشَّرعيَّةِ؛ فإنَّ أكثَرَ التَّفريعاتِ الشَّرعيَّةِ حاصِلةٌ مِن الظَّنِّ المستنِدِ إلى الأدِلَّةِ(٣).

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ الظَّنُّ على أربعةِ أضرُبٍ: مَحظورٍ، ومأمورٍ به، ومُباحٍ، ومَندوبٍ إليه؛ فأمَّا المحظورُ فهو سُوءُ الظَّنِّ باللهِ تعالى، والواجبُ حُسْنُ الظَّنِّ باللهِ، وكذلك سُوءُ الظَّنِّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٣).

بالمسلمينَ الَّذين ظاهِرُهم العدالةُ مَحظورٌ، وأمَّا الظَّنُّ المأمورُ به فهو ما لم يُنصَبْ عليه دليلٌ يُوصِلُ إلى العِلمِ به، وقد تُعُبِّدْنا بتَنفيذِ الحكْمِ فيه، والاقتِصارِ على غالبِ الظَّنِّ، وإجراءُ الحكْمِ عليه واجبٌ، وذلك نحْوُ ما تُعبِّدْنا به مِن قَبولِ شَهادةِ العُدولِ، وتَحرِّي القِبلةِ، وتَقويمِ المستهَلكاتِ، وأُروشِ الجِناياتِ الَّتي لم يَرِدْ بمَقاديرِها تَوقيفٌ، فهذا وما كان مِن نَظائرِه قد تُعبِّدْنا فيه بأحكامِ غالبِ الظُّنونِ. فأمَّا الظَّنُّ المباحُ فكالشَّاكِّ في الصَّلاةِ إذا كان إمامًا، أمَرَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتَّحرِّي والعمَلِ على ما يَغلِبُ في ظَنِّه، وإنْ فَعَلَه كان مُباحًا، وإنْ عدَلَ عنه إلى البِناءِ على اليقينِ كان جائزًا[1].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ أنكَرَت جماعةٌ مِن المبتدِعةِ التَّعبُّدَ لله تعالى بالظَّنِّ، وجوازَ العمَلِ به؛ تَحكُّمًا في الدِّينِ، ودَعوى في المعقولِ! وليس في ذلك أصلٌ يُعوَّلُ عليه؛ فإنَّ البارئَ تعالى لم يَذُمَّ جَميعَه، وإنَّما أورَدَ الذَّمَّ في بَعضِه. ورُبَّما تَعلَّقوا بحديثِ أبي هُريرةَ: ((إيَّاكم والظَّنَّ))[2]، فإنَّ هذا لا حُجَّةَ فيه؛ لأنَّ الظَّنَّ في الشَّريعةِ قِسمانِ: مَحمودٌ، ومَذمومٌ؛ فالمحمودُ منه ما سَلِمَ معه دِينُ الظَّانِّ والمظنونِ به عندَ بُلوغِه. والمذمومُ ضِدُّه؛ بدَلالةِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾[3].

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، للظَّنِّ حالتانِ: حالةٌ تُعرَفُ وتَقْوَى بوجْهٍ مِن وُجوهِ الأدِلَّةِ، فيَجوزُ الحكْمُ بها، وأكثَرُ أحكامِ الشَّريعةِ مَبْنيَّةٌ على غَلَبةِ الظَّنِّ؛ كالقِياسِ، وخبَرِ الواحِدِ، وغيرِ ذلك مِن قِيَمِ المتْلَفاتِ، وأُروشِ الجِناياتِ. والحالةُ الثَّانيةُ: أنْ يقَعَ في النَّفْسِ شَيءٌ

(١) هذه الفائدةُ مِن كلامِ أبي يَعلى نسَبَها إليه ابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٥١).
(٢) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣) مطوَّلًا.
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٢).

مِن غيرِ دَلالةٍ، فلا يكونُ ذلك أَولى مِن ضِدِّه، فهذا هو الشَّكُّ، فلا يَجوزُ الحكْمُ به، وهو المنْهيُّ عنه(١).

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ ما نجَمَت العقائدُ الضَّالَّةُ والمذاهبُ الباطلةُ إلَّا مِن الظُّنونِ الكاذبةِ(٢).

١٤- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ الَّذي يُميِّزُ الظُّنونَ الَّتي يجِبُ اجتِنابُها عمَّا سِواها: أنَّ كلَّ ما لم تُعرَفْ له أَمارةٌ صَحيحةٌ وسبَبٌ ظاهرٌ؛ كان حَرامًا واجبَ الاجتنابِ؛ وذلك إذا كان المظنونُ به ممَّن شُوهِدَ منه السَّترُ والصَّلاحُ، وأُونِسَت منه الأمانةُ في الظَّاهرِ، فظَنُّ الفسادِ والخيانةِ به مُحرَّمٌ، بخِلافِ مَن اشتهرَ بيْنَ النَّاسِ بتَعاطي الرِّيَبِ والمُجاهَرةِ بالخَبائثِ(٣)، كمَنْ يَدخُلُ ويَخرُجُ إلى حاناتِ الخمْرِ، فمِثلُ هذا يَقْوى الظَّنُّ فيه أنَّه ليس مِن أهلِ الصَّلاحِ -ولا إثمَ في هذا الظَّنِّ- وإنْ كنَّا لا نَراه يَشرَبُ الخمْرَ، بخِلافِ مَن ظاهِرُه الصَّلاحُ، فلا يُظَنُّ به السُّوءُ فهذا هو المنْهيُّ عنه، ويجِبُ أنْ يُزيلَه(٤).

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾، لم يقُلْ: (اجتَنِبوا تَقولوا أمرًا على خِلافِ ما تَعلَمونه)، ولا قال: (اجتَنِبوا الشَّكَّ)، بلْ أوَّلُ ما نَهى عنه هو القولُ بالظَّنِّ؛ وذلك لأنَّ القولَ على خِلافِ العِلمِ كذِبٌ وافتراءٌ، والقولَ بالشَّكِّ والرَّجمَ بالغَيبِ سَفَهٌ وهُزْءٌ، وهما في غايةِ القبْحِ، فلمْ يَنْهَ عنه اكتِفاءً بقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ وصْفَهم بالإيمانِ يَمنَعُهم مِن الافتراءِ والارتيابِ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧١، ٣٧٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٩٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٩).

الَّذي هو دأْبُ الكافرِ، وإنَّما منَعَهم عمَّا يَكثُرُ وُجودُه في المسلمينَ؛ لذلك قال في الآيةِ: ﴿لَا يَسۡخَرۡ﴾(١).

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، أمَرَ تعالى باجتنابِ الظَّنِّ؛ لئلَّا يَجترِئَ أحدٌ على ظنٍّ إلَّا بعْدَ نظَرٍ وتأمُّلٍ وتَمييزٍ بيْن حقِّه وباطِلِه(٢).

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، لَمَّا جاء الأمْرُ في هذه الآيةِ باجتنابِ كثيرٍ مِن الظَّنِّ، عُلِمَ أنَّ الظُّنونَ الآثمةَ غيرُ قليلةٍ، فوجَبَ التَّمحيصُ والفحْصُ؛ لتَمييزِ الظَّنِّ الباطلِ مِن الظَّنِّ الصَّادقِ(٣).

١٨- مَنَع اللهُ تعالى مِنَ الظَّنِّ في ثلاثةِ مواضِعَ، وفي جميعِ تلك المواضِعِ كان المَنعُ عَقِيبَ التَّسميةِ والدُّعاءِ باسمٍ؛ مَوضِعانِ منها في سورةِ (النَّجمِ)، أحَدُهما: قَولُه تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٣]، والثَّاني: قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [النجم: ٢٧، ٢٨]، والثَّالِثُ: في (الحُجُراتِ)، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ عَقيبَ الدُّعاءِ باللَّقَبِ، وكُلُّ ذلك دليلٌ على أنَّ حِفظَ اللِّسانِ أَولى مِن حِفظِ غيرِه مِنَ الأركانِ، وأنَّ الكَذِبَ أقبَحُ مِنَ السَّيِّئاتِ الظَّاهِرةِ مِن الأيدي والأرجُلِ، وهذه المواضِعُ الثَّلاثةُ أحَدُها: مَدحُ مَن لا يَستَحِقُّ المدحَ، كاللَّاتِ والعُزَّى مِنَ العِزِّ. وثانيها:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥١).

ذَمُّ مَن لا يَستَحِقُّ الذَّمَّ، وهم الملائكةُ الَّذين هم عِبادُ الرَّحمنِ، يُسَمُّونَهم تَسمية الأُنثى. وثالِثُها: ذَمُّ مَن لم يُعلَمْ حالُه، وأمَّا مَدحُ مَن حالُه لا يُعلَمُ فلم يَقُلْ فيه: لا يتَّبِعونَ إلَّا الظَّنَّ، بل الظَّنُّ فيه مُعتَبَرٌ، والأخذُ بظاهِرِ حالِ العاقِلِ واجِبٌ(١).

١٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ التَّجسُّسُ غالبًا يُطلَقُ في الشَّرِّ، ومنه الجاسوسُ. وأمَّا التَّحسُّسُ فيكونُ غالبًا في الخيرِ، كما قال تعالى إخبارًا عن يَعقوبَ عليه السَّلامُ أنَّه قال: ﴿يَبَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَايْئَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَايْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقد يُستعمَلُ كلٌّ منهما في الشَّرِّ، كما ثبَتَ في الصَّحيحِ(٢) أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تجسَّسوا، ولا تحسَّسوا))(٣).

٢٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ النَّهيُ عن التَّجسُّسِ مِن فُروعِ النَّهيِ عن الظَّنِّ، فهو مُقيَّدٌ بالتَّجسُّسِ الَّذي هو إثمٌ، أو يُفْضي إلى الإثمِ، فالمنهيُّ عنه هو التَّجسُّسُ الَّذي لا يَنجَرُّ منه نفْعٌ للمُسلمينَ، أو دفْعُ ضُرٍّ عنهم، فلا يَشملُ التَّجسُّسَ على الأعداءِ، ولا تَجسُّسَ الشُّرَطِ على الجُناةِ واللُّصوصِ(٤).

٢١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ الغِيبةُ مُحرَّمةٌ بالإجماعِ(٥)، ولا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلمٌ (٢٥٦٣) مطوَّلًا من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٤).

(٥) قال النووي: (اعلَمْ أنَّ الغيبةَ كما يَحرُمُ على المُغتابِ ذِكرُها، يَحرُمُ على السَّامعِ استِماعُها وإقرارُها، فيَجِبُ على مَن سمِع إنسانًا يَبتدئُ بغِيبةٍ مُحرَّمةٍ أن يَنهاهُ إن لم يَخَفْ ضررًا ظاهرًا، فإنْ خافَه وجَب عليه الإنكارُ بقلبِه ومُفارَقةُ ذلك المَجلسِ إن تمكَّن مِن مُفارَقتِه، فإنْ قدَر على الإنكار بلِسانِه، أو على قطْعِ الغِيبةِ بكلامٍ آخَرَ؛ لَزِمَه ذلك، إن لم يَفعَلْ عصَى). ((الأذكار)) (ص: ٣٣٩).

يُسْتثنَى مِن ذلك إلَّا ما رجَحَت مَصلحَتُه، كما في الجرحِ والتَّعديلِ والنَّصيحةِ[(١)].

٢٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، فيه دليلٌ على أنَّ الاغتيابَ الممنوعَ اغتيابُ المؤمنِ، لا ذِكرُ الكافرِ؛ وذلك لأنَّه شبَّهَه بأكْلِ لَحمِ الأخِ، وقال مِن قبْلُ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فلا أُخُوَّةَ إلَّا بيْنَ المؤمنينَ، ولا منعَ إلَّا مِن شَيءٍ يُشبِهُ أكْلَ لَحمِ الأخِ، ففي هذه الآيةِ نهْيٌ عن اغتيابِ المؤمنِ دونَ الكافرِ[(٢)].

٢٣- في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ قِياسٌ مِن أحسَنِ القياسِ التَّمثيليِّ؛ فإنَّه شَبَّهَ تَمزيقَ عِرْضِ الأخِ بتَمزيقِ لحْمِه، ولَمَّا كان المغتابُ يُمَزِّقُ عِرْضَ أخيهِ في غَيبتِه كان بمَنزلةِ مَن يَقْطَعُ لحْمَه في حالِ غَيبةِ رُوحِه عنه بالموتِ، ولَمَّا كان المُغتابُ عاجزًا عن دَفْعِه عن نفْسِه بكَونِه غائبًا عن ذَمِّه، كان بمَنزلةِ الميِّتِ الَّذي يُقطَعُ لَحْمُه ولا يَستطيعُ أنْ يَدفَعَ عن نفْسِه، ولَمَّا كان مُقْتضى الأُخُوَّةِ: التَّراحُمُ والتَّواصُلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٠).

قال النووي: (اعلَمْ أنَّ الغِيبةَ تُباحُ لِغَرَضٍ صَحيحٍ شَرعيٍّ لا يُمْكِنُ الوُصولُ إليه إلَّا بها، وهو سِتَّةُ أسْبَابٍ) فذكرها، وهي: التَّظَلُّمُ - الاسْتِعانةُ على تَغييرِ المنكرِ، ورَدِّ العاصي إلى الصَّوابِ - الاسْتِفْتاءُ - تَحذيرُ المسلمينَ مِن الشَّرِّ ونَصيحَتُهم (كجَرْحِ المجروحينَ مِن الرُّواةِ والشُّهودِ- والمُشاوَرةُ في مُصاهَرةِ إنْسانٍ، أو مُشارَكتِه، أو مُعامَلتِه، أو مُجاوَرتِه، وغيرِ ذلك) - أنْ يَكونَ مُجاهِرًا بفِسْقِه أو بِدْعَتِه - التَّعريفُ.

ثمَّ قال: (فهذه ستَّةُ أسبابٍ ذَكَرها العُلماءُ، وأكثرُها مُجمَعٌ عليه، ودَلائِلُها مِن الأحاديثِ الصَّحيحةِ مشهورةٌ). ((رياض الصالحين)) (ص: ٤٣٢، ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠).

أمَّا الحربيُّ فلا تحرمُ غِيبتُه، لكنْ تُكرَهُ إذا اشتملَتْ على تنقيصِ خِلقتِه، وأمَّا الذِّمِّيُّ فكالمسلِمِ فيما يرجعُ إلى المنعِ مِن الإيذاءِ؛ لأنَّ الشَّرعَ عصَمَ عِرضَه ودمَه ومالَه. يُنظر: ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) للهَيْتَمي (٢/ ٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣١١).

والتَّناصُرُ، فعَلَّقَ عليها المُغتابُ ضِدَّ مُقتضاها مِن الذَّمِّ والعَيبِ والطَّعْنِ، وكان ذلك نَظيرَ تَقطيعِ لحْمِ أخيهِ، والأُخُوَّةُ تَقْتضي حِفْظَه وصِيانتَه والذَّبَّ عنه، ولَمَّا كان المُغتابُ مُتمتِّعًا بعِرْضِ أخيهِ، مُتَفَكِّهًا بغِيبتِه وذَمِّه، مُتحلِّيًا بذلك؛ شُبِّهَ بآكِلِ لحْمِ أخيهِ بعْدَ تَقطيعِه، ولَمَّا كان المغتابُ مُحِبًّا لذلك مُعجَبًا به؛ شُبِّهَ بمَن يُحِبُّ أكْلَ لحْمِ أخيه مَيْتًا، ومَحبَّتُه لذلك قَدْرٌ زائدٌ على مُجرَّدِ أكْلِه، كما أنَّ أَكْلَه قدْرٌ زائدٌ على تَمزيقِه، فتَأمَّلْ هذا التَّشبيهَ والتَّمثيلَ، وحُسْنَ مَوقعِه، ومُطابَقَةَ المعقولِ فيه المحسوسَ، وتأمَّلْ إخبارَه عنهم بكَراهةِ أكْلِ لحْمِ الأخِ مَيتًا، ووَصْفَهم بذلك في آخِرِ الآيةِ، والإنكارَ عليهم في أوَّلِها أنْ يُحِبَّ أحُدُهم ذلك، فكما أنَّ هذا مَكروهٌ في طِباعِهم؛ فكيفَ يُحِبُّونَ ما هو مِثْلُه ونَظيرُه؟! فاحتجَّ عليهم بما كَرِهوه على ما أَحَبُّوه، وشَبَّه لهم ما يُحِبُّونَه بما هو أكْرَهُ شَيءٍ إليهم، وهم أشَدُّ شَيءٍ نفْرةً عنه؛ فلهذا يُوجِبُ العقلُ والفِطرةُ والحكمةُ أنْ يكونوا أشَدَّ شَيءٍ نفْرةً عمَّا هو نَظيرُه ومُشْبِهُه[1].

٢٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، فيه سُؤالٌ: ما الحكمةُ في هذا التَّشبيهِ؟

الجوابُ: هو إشارةٌ إلى أنَّ عِرضَ الإنسانِ كدَمِه ولَحْمِه، وهذا مِن بابِ القِياسِ الظَّاهِرِ؛ وذلك لأنَّ عِرضَ المرْءِ أشرَفُ مِن لَحْمِه، فإذا لم يَحسُنْ مِن العاقلِ أكْلُ لُحومِ النَّاسِ، لم يَحسُنْ منه قرْضُ عِرْضِهم بالطَّريقِ الأَولى؛ لأنَّ ذلك آلَمُ[2].

٢٥- في قولِه تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ جعَلَ سُبحانه جِهةَ التَّحريمِ كونَه أخًا أُخُوَّةَ الإيمانِ؛ ولذلك تَغَلَّظَتِ الغِيبةُ بحسَبِ حالِ المؤمنِ،

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠).

فكلَّما كان أعظَمَ إيمانًا كان اغتيابُه أشدَّ[(١)].

٢٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، استُدِلَّ بهذه الآيةِ على أنَّه لا يَجوزُ أكْلُ لحمِ ابنِ آدَمَ مَيتًا لِمَن اضْطُرَّ إليه؛ لأنَّه تعالى ضرَبَ به المثَلَ في تَحريمِ الغِيبةِ، ولم يَضرِبْ بمَيتةِ سائرِ الحَيوانِ؛ فدلَّ ذلك على أنَّه في التَّحريمِ فوقَها[(٢)].

٢٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، كَلمةُ (مَيتًا) إشارةٌ إلى دفْعِ وهْمٍ؛ وهو أنْ يُقالَ: القولُ في الوجْهِ يُؤلِمُ فيَحرُمُ، وأمَّا الاغتيابُ فلا اطِّلاعَ عليه للمُغتابِ، فلا يُؤلِمُ، فقال: أكْلُ لحْمِ الأخِ وهو مَيتٌ أيضًا لا يُؤلِمُ، ومع هذا هو في غايةِ القبْحِ؛ لِما أنَّه لو اطَّلَعَ عليه لَتألَّمَ، كما أنَّ الميتَ لو أحسَّ بأكْلِ لَحمِه لآلَمَه[(٣)].

٢٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، فيه معْنًى لَطيفٌ؛ وهو أنَّ الاغتيابَ كأكْلِ لحْمِ الآدميِّ مَيتًا، ولا يَحِلُّ أكْلُه إلَّا للمُضطَرِّ بقدْرِ الحاجةِ -على قولِ مَن أجاز ذلك للضَّرورةِ-، والمضطَرُّ إذا وَجَدَ لحْمَ الشَّاةِ الميتةِ ولحْمَ الآدميِّ الميتِ فلا يَأكُلُ لحْمَ الآدميِّ، فكذلك المغتابُ: إنْ وجَدَ لِحاجَتِه مَدْفعًا غيرَ الغِيبةِ، فلا يُباحُ له الاغتيابُ[(٤)].

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٠٠).

وتحريمُ أكْلِ الآدميِّ المَيتِ على المُضطَرِّ هو مذهبُ الجمهورِ: الحَنَفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والحنابلةِ، وهو مذهبُ الظَّاهريَّةِ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٦/ ٣٣٨)، ((التاج والإكليل)) للمَوَّاق (٢/ ٢٥٤)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (١٠/ ٢٨٣)، ((المحلى)) لابن حزم (٦/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠، ١١١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١١).

٢٩- قال اللهُ تعالى لَمَّا نَهى عن الغِيبةِ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾، فعُلِمَ أنَّ المُغْتابَ له سَبيلٌ إلى التَّوبةِ بكلِّ حالٍ، وإنْ كان الَّذي اغْتِيبَ مَيتًا أو غائبًا(١).

٣٠- قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، فقسَّمَ العِبادَ إلى تائبٍ وظالمٍ، وما ثَمَّ قِسمٌ ثالثٌ البتَّةَ، وأوقعَ اسمَ الظَّالمِ على مَن لم يَتُبْ، ولا أظلَمَ منه؛ لِجَهْلِه بربِّه وبحقِّه، وبعَيبِ نفْسِه وآفاتِ أعمالِه(٢).

٣١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ خلْقَ النَّاسِ ابتداؤُه مِن ذكَرٍ وأُنثى. وقد دلَّت آياتٌ أُخَرُ على خلْقِهم مِن غيرِ ذلك؛ كقولِه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [غافر: ٦٧]، وقولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]؟

والجوابُ: هو أنَّ التُّرابَ هو الطَّورُ الأوَّلُ، وقد قال تَعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، وقد بيَّنَ اللهُ أطوارَ خلْقِ الإنسانِ مِن مَبدئِه إلى مُنتهاهُ بقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٤٩٣).

ويجبُ على مَن وقَع في الغِيبةِ: التَّوبةُ بالإقلاعِ عن الغِيبةِ، والنَّدمِ على فِعلِها، والعزمِ ألَّا يَعودَ إليها، وأن يَستحِلَّ مَن اغتابه ويَطلُبَ عفوَه عنها، والإبراءَ منها. ومِن أهلِ العِلمِ مَن فصَّل؛ فقال: إن كان مَنِ اغتابه قد عَلِم بذلك فلا بُدَّ مِن أن يَستحِلَّه، أمَّا إذا لم يَعلَمْ فيَكفي أنْ يَستغفِرَ له، وأن يُثنيَ عليه في المجالِسِ الَّتي كان يَغتابُه فيها.

فإن كان صاحبُ الغِيبةِ مَيتًا أو غائبًا فقد تعذَّر تحصيلُ البراءةِ منها، لكنْ قال العلماءُ: يَنبغي أن يُكثِرَ مِن الاستِغفارِ له والدُّعاءِ، ويُكثِرَ مِن الحسَناتِ. يُنظر: ((الأذكار)) للنووي (ص: ٣٤٦)، ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٥).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٩٦).

[المؤمنون: ١٢-١٣]، إلى آخِرِه[(١)].

٣٢- مَقولةُ: «إنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خُلِقَ مِن نُورٍ، وإنَّ آدَمَ عليه السَّلامُ خُلِقَ مِن نُورِ محمَّدٍ» مِن أبطَلِ الباطِلِ، وهو كذِبٌ مُخالِفٌ للقرآنِ؛ كقولِه تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[(٢)] [المؤمنون:١٢، ١٣].

٣٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، فيه سُؤالٌ: هذا مَبنيٌّ على عدَمِ اعتبارِ النَّسَبِ، وليس كذلك؛ فإنَّ للنَّسبِ اعتبارًا عُرفًا وشرْعًا.

الجوابُ: إذا جاء الأمرُ العظيمُ، لا يَبْقى الأمرُ الحقيرُ مُعتبَرًا؛ وذلك في الحسِّ والشَّرعِ والعُرفِ؛ أمَّا الحسُّ: فلأنَّ الكواكبَ لا تُرى عندَ طُلوعِ الشَّمسِ، ولِجَناحِ الذُّبابِ دَوِيٌّ، ولا يُسمَعُ عندَما يكونُ رعْدٌ قوِيٌّ. وأمَّا في العُرفِ: فلأنَّ مَن جاء معَ الملِكِ لا يَبقى له اعتبارٌ، ولا إليه التِفاتٌ. إذا عُلِمَ هذا فيهما ففي الشَّرعِ كذلك، إذا جاء الشَّرفُ الدِّينيُّ الإلهيُّ لا يَبْقَى هناك اعتِبارٌ؛ لا لنَسَبٍ ولا لنَشَبٍ[(٣)]، فالكافرُ وإنْ كان مِن أعلَى النَّاسِ نَسبًا، والمؤمنُ وإنْ كان مِن أدْونِهم نَسبًا؛ لا يُقاسُ أحَدُهما بالآخَرِ، وكذلك ما هو مِن الدِّينِ معَ غيرِه؛ ولهذا يَصلُحُ للمَناصبِ الدِّينيَّةِ -كالقضاءِ والشَّهادةِ- كلُّ شَريفٍ ووَضيعٍ إذا كان دَيِّنًا عالِمًا صالحًا، ولا يَصلُحُ لشَيءٍ منها فاسقٌ وإنْ كان قُرَشيَّ النَّسَبِ، وقارُونيَّ النَّشَبِ، ولكنْ إذا اجتمَعَ في اثنَينِ الدِّينُ المتينُ، وأحَدُهما نَسيبٌ، ترجَّح بالنَّسبِ عند

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٢١١).

(٣) النَّشَب: المالُ والعَقارُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣١٠).

النَّاسِ لا عندَ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩]، وشرَفُ النَّسبِ ليس مُكتسَبًا، ولا يَحصُلُ بسَعْيٍ[(١)].

٣٤- قولُه تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ النَّسَبَ لا اعتبارَ به في كَفاءةِ النِّكاحِ[(٢)].

٣٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾، فيه سُؤالٌ: ما الحكمةُ في اختيارِ النَّسَبِ مِن جُملةِ أسبابِ التَّفاخُرِ، ولم يُذكَرِ المالُ؟

الجوابُ: الأمورُ الَّتي يُفتخَرُ بها في الدُّنيا وإنْ كانت كثيرةً، لكنَّ النَّسبَ أعْلاها؛ لأنَّ المالَ قد يَحصُلُ للفقيرِ، فيَبطُلُ افتخارُ المفتخِرِ به، والحُسْنَ والسِّنَّ وغيرَ ذلك غيرُ ثابتٍ دائمٍ، والنَّسَبُ ثابتٌ مُستمِرٌّ، غيرُ مَقدورِ التَّحصيلِ لِمَن ليس له، فاختارَهُ اللهُ للذِّكْرِ، وأبطَلَ اعتبارَه بالنِّسبةِ إلى التَّقْوى؛ ليُعلَمَ منه بُطلانُ غيرِه بالطَّريقِ الأَولى[(٣)].

٣٦- في قولِه تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ أنَّ مَن زَعَمَ أنَّ أحدًا يَنفَعُه قَرابتُه مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بغيرِ طاعةِ اللهِ؛ فقد خالَفَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٢، ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٤/ ١٥٨).

وعدَمُ اشتراطِ الكَفاءةِ في النَّسَبِ هو مذهَبُ المالِكيَّة. يُنظر: ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٢٤٩). واختاره ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القَيِّمِ، والشَّوكانيُّ، وابنُ باز، وابنُ عثيمينَ، وبه أفتَتِ اللَّجنةُ الدَّائمةُ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٢٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ١٤٥)، ((السيل الجرار)) للشوكاني (ص: ٣٧٧)، ((الحلل الإبريزية)) لابن باز (٣/ ٦٨)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٢/ ١٠١)، ((فتاوى اللجنة الدائمة - المجموعة الأولى)) (١٨/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٣).

الكِتابَ والسُّنَّةَ(١).

٣٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، فيه سُؤالٌ: الْخِطَابُ معَ النَّاسِ، والأكْرَمُ يَقْتضي اشتِراكَ الكلِّ في الكرامةِ، ولا كَرامةَ للكافرِ؛ فإنَّه أضَلُّ مِن الأنعامِ، وأذَلُّ مِن الهَوامِّ؟

الجوابُ: ذلك غيرُ لازمٍ، معَ أنَّه حاصلٌ؛ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]؛ لأنَّ كلَّ مَن خُلِقَ فقدِ اعترَفَ بربِّه، كأنَّه تعالى قال: مَنِ استمَرَّ عليه لو زاد، زِيدَ في كَرامتِه، ومَن رجَعَ عنه، أُزِيلَ عنه أثَرُ الكرامةِ(٢).

٣٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾، فيه ذَمُّ التَّفاخُرِ بالأنسابِ(٣).

٣٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾، فيه أنَّ التَّقيَّ غيرَ النَّسيبِ يُقدَّمُ على النَّسيبِ غيرِ التَّقيِّ، فيُقدَّمُ العدْلُ والأورَعُ في الإمامةِ على النَّسيبِ غيرِهما(٤).

٤٠- ليس لأحدٍ أنْ يُعلِّقَ الحمْدَ والذَّمَّ، والحُبَّ والبُغضَ، والمُوالاةَ والمُعاداةَ، والصَّلاةَ واللَّعنَ؛ بغيرِ الأسماءِ الَّتي علَّقَ اللهُ بها ذلك، مثلُ أسماءِ القبائلِ، والمدائنِ، والمذاهبِ، والطَّرائقِ المُضافةِ إلى الأئمَّةِ والمشايخِ، ونحْوِ ذلك ممَّا يُرادُ به التَّعريفُ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٤، ١١٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، وقال: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ٦٣]، وقد قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ألَا إنَّ آلَ أبي -يعني فُلانًا- لَيسوا لي بأولياءَ؛ إنَّما وَلِيِّيَ اللهُ وصالِحُ المؤمنينَ))(١)، وقال: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أذهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليَّةِ وفخْرَها بالآباءِ؛ مؤمنٌ تقيٌّ، وفاجرٌ شقيٌّ، أنتم بنو آدَمَ، وآدَمُ من تُرابٍ))(٢)، وقال: ((ألَا لا فضْلَ لعَربيٍّ على عَجَميٍّ، ولا لعَجَميٍّ على عربيٍّ، ولا أحمرَ على أسْوَدَ، ولا أسودَ على أحمرَ؛ إلَّا بالتَّقْوى))(٣)، فالحمْدُ والذَّمُّ، والحُبُّ والبُغضُ، والموالاةُ والمعاداةُ؛ إنَّما تكونُ بالأشياءِ الَّتي أنزَلَ اللهُ بها سُلطانَه، وسُلطانُه كِتابُه، فمَن كان مؤمنًا وجَبَت مُوالاتُه مِن أيِّ صِنفٍ كان، ومن كان كافرًا وجَبَت مُعاداتُه مِن أيِّ صِنفٍ كان؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾(٤) [التوبة: ٧١].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٩٩٠)، ومسلمٌ (٢١٥) واللَّفظُ له مِن حديثِ عَمرِو بنِ العاصِ رضيَ اللهُ عنه.

(٢) تقدَّم تخريجه (ص: ٣٠١).

(٣) أخرجه -مِن طُرقٍ- أحمدُ (٢٣٤٨٩) واللَّفظُ له، وعبدُالله بنُ المبارَكِ في ((المسند)) (٢٣٩)، والحارث كما في ((بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث)) للهيثمي (٥١) مِن حديثِ رجُلٍ مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

صحَّح إسنادَه ابنُ تيميَّةَ في ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٤١٢)، والألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٦/ ١٩٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٨/ ٤٧٤)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٣/ ٢٦٨): (رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٢٧، ٢٢٨).

٤١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾، يدُلُّ على أنَّ دِينَ الإسلامِ سَماويٌّ صَحيحٌ، لا نظَرَ فيه إلى الألوانِ، ولا إلى العناصرِ، ولا إلى الجهاتِ، وإنَّما المُعتبَرُ فيه تَقْوى اللهِ جلَّ وعلا وطاعتُه، فأكرَمُ النَّاسِ وأفضَلُهم أتقاهُم للهِ، ولا كرَمَ ولا فضْلَ لغيرِ المتَّقي، ولو كان رَفيعَ النَّسبِ[1].

٤٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾، فيه دَليلٌ على أنَّ مَعرفةَ الأنسابِ مَطلوبةٌ مَشروعةٌ؛ لأنَّ اللهَ جَعَلهم شُعوبًا وقَبائلَ مِن أجْلِ ذلك[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هذا نداءٌ رابعٌ أُريدَ بما بعْدَه أمْرُ المسلِمينَ بواجِبِ بَعضِ المُجامَلةِ بيْن أفرادِهم[3].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ افتُتِحَتْ هذه الآيةُ بإعادةِ النِّداءِ؛ للاهتِمامِ بالغرَضِ، فيَكونُ مُستقِلًّا غيرَ تابعٍ[4].

- وإنَّما عبَّرَ بالجَمْعِ في قولِه: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾، ولم يقُلْ: (رجُلٌ مِن رجُلٍ، ولا امرأةٌ مِن امرأةٍ)؛ إيذانًا بإقدامِ غيرِ واحدٍ مِن رجالِهم وغيرِ واحدةٍ مِن نِسائِهم على السُّخريةِ، واستِفظاعًا

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للشَّأْنِ الَّذي كانوا عليه، ولأنَّ مَشهَدَ السَّاخرِ لا يَكادُ يَخلو ممَّن يَتلهَّى ويَستضْحِكُ على قولِه، ولا يأْتي ما عليه مِن النَّهيِ والإنكارِ؛ فيكونُ شَريكَ السَّاخرِ وتِلْوَه في تحمُّلِ الوِزرِ، وكذلك كلُّ مَن يُطرِقُ سمْعَه فيَستطْيِبُه ويَضحَكُ منه، فيُؤدِّي ذلك -وإنْ أوجَدَه واحدٌ- إلى تَكثيرِ السُّخريةِ وانقلابِ الواحدِ جَماعةً[1]. أو لأنَّ السُّخريةَ تَغلِبُ في المجامعِ[2]. أو إنَّما أُسنِدَ ﴿يَسْخَرْ﴾ إلى ﴿قَوْمٌ﴾ دونَ أنْ يَقولَ: لا يَسخَرْ بعضُكم مِن بعضٍ، كما قال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]؛ للنَّهيِ عمَّا كان شائعًا بيْنَ العرَبِ مِن سُخريةِ القبائلِ بعضِها مِن بعضٍ؛ فوُجِّهَ النَّهيُ إلى الأقوامِ، ويُفهَمُ منه النَّهيُ عن أنْ يَسخَرَ أحدٌ مِن أحَدٍ بطَريقِ لَحنِ الخِطابِ[3].

- وتَنكيرُ (قومٍ) و(نِساءٍ) في الموضعَينِ يَحتَمِلُ مَعنيَينِ؛ أنْ يُرادَ: لا يَسْخَرْ بعضُ المؤمنينَ والمؤمناتِ مِن بعضٍ، أو يُقصَدُ إفادةُ العُمومِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ نَهْيُ قَومٍ مُعيَّنينَ سَخِروا مِن قومٍ مُعيَّنينَ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٧).

ولحنُ الخِطابِ: هو أنْ يكونَ المَسْكوتُ عَنه مُوافقًا للمَنطوقِ فى الحُكم، ويُسمَّى أيضًا فحوى الخطابِ. وقيل: إنْ كان أَوْلى بالحُكمِ مِن المنطوقِ به فيُسَمَّى فَحْوى الخِطابِ، وإن كان مساويًا فيُسَمَّى لحنَ الخطابِ. وقيل: هو مفهومُ المُخالَفةِ. وقيل: هو دَلالةُ الاقتِضاءِ. يُنظر: ((نفائس الأصول)) للقرافي (٢/ ٦٤١)، ((المختصر في أصول الفقه)) لابن اللحام (ص: ١٣٢)، ((إرشاد الفحول)) للشوكاني (٢/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٦، ٣٦٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٠).

- وخَصَّ النِّساءَ بالذِّكرِ مع أنَّ القومَ يَشملُهم بطَريقِ التَّغليبِ العُرْفيِّ في الكلامِ؛ دفْعًا لتَوهُّم تَخصيصِ النَّهيِ بسُخريةِ الرِّجالِ؛ إذ كان الاستِسخارُ مُتأصِّلًا في النِّساءِ[(١)].

- وجُملةُ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ، وهي مُستأنَفةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ الجُملتَينِ المُتعاطفتَينِ، تُفيدُ المُبالَغةَ في النَّهيِ عن السُّخريةِ بذِكْرِ حالةٍ يَكثُرُ وُجودُها في المَسخورِ به؛ فتكونُ سُخريةُ السَّاخرِ أفظَعَ، ولأنَّه يُثيرُ انفعالَ الحياءِ في نفْسِ السَّاخرِ بيْنَه وبيْنَ نفْسِه[(٢)].

- قولُه: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تَذْييلٌ للمَنْهيَّاتِ المتقدِّمةِ، وهو تَعريضٌ قويٌّ بأنَّ ما نُهوا عنه فُسوقٌ وظُلْمٌ؛ إذ لا مُناسَبةَ بيْن مَدلولِ هذه الجُملةِ وبيْن الجُمَلِ الَّتي قبْلَها لولا مَعْنى التَّعريضِ بأنَّ ذلك فُسوقٌ، وذلك مَذمومٌ ومُعاقَبٌ عليه؛ فدلَّ قولُه: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ على أنَّ ما نُهوا عنه مَذْمومٌ؛ لأنَّه فُسوقٌ يُعاقَبُ عليه، ولا تُزيلُه إلَّا التَّوبةُ، فوقَعَ إيجازٌ بحذْفِ جُملتَينِ في الكلامِ؛ اكتِفاءً بما دلَّ عليه التَّذييلُ، وهذا دالٌّ على أنَّ اللَّمزَ والتَّنابُزَ مَعصيتانِ؛ لأنَّهما فُسوقٌ[(٣)].

- وإيثارُ لفْظِ ﴿ٱلِٱسۡمُ﴾ هنا مِن الرَّشاقةِ بمكانٍ؛ لأنَّ السِّياقَ تَحذيرٌ مِن ذِكرِ النَّاسِ بالأسماءِ الذَّميمةِ؛ إذ الألقابُ أسماءٌ؛ فكان اختيارُ لفظِ الاسمِ للفُسوقِ مُشاكَلةً مَعنويَّةً[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٥٠).

- قولُه: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لَمَّا كان كلٌّ من السُّخريةِ واللَّمْزِ والتَّنابُزِ مَعاصيَ، فقد وجَبَت التَّوبةُ منها، فمَن لم يَتُبْ فهو ظالمٌ؛ لأنَّه ظلَمَ النَّاسَ بالاعتداءِ عليهم، وظلَمَ نفْسَه بأنْ رضِيَ لها عِقابَ الآخِرةِ مع التَّمكُّنِ مِن الإقلاعِ عن ذلك، فكان ظُلمُه شديدًا جدًّا؛ فلذلك جِيءَ له بصِيغةِ قصْرِ الظالِمينَ عليهم، كأنَّه لا ظالمَ غيرُهم؛ لعَدَمِ الاعتدادِ بالظالِمينَ الآخَرينَ في مُقابَلةِ هؤلاء على سَبيلِ المُبالَغةِ؛ لِيَزدَجِروا[(١)].

- وتَوسيطُ اسمِ الإشارةِ (أُولَئِكَ) لزِيادةِ تَمْييزِهم؛ تَفظيعًا لحالِهم، وللتَّنبيهِ على أنَّهم استحقُّوا قَصْرَ الظُّلمِ عليهم مِن أجْلِ ما ذُكِرَ مِن الأوصافِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ أُعِيدَ النِّداءُ خامسَ مرَّةٍ؛ لاختِلافِ الغرَضِ والاهتِمامِ به؛ وذلك أنَّ المَنهيَّاتِ المذكورةَ بعدَ هذا النِّداءِ مِن جِنسِ المُعامَلاتِ السَّيِّئةِ الخفيَّةِ الَّتي لا يَتفطَّنُ لها مَن عُومِلَ بها، فلا يَدْفَعُها، فما يُزيلُها من نفْسِ مَن عامَلَه بها؛ ففي قولِه تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ تأْديبٌ عظيمٌ يُبطِلُ ما كان فاشيًا في الجاهليَّةِ مِن الظُّنونِ السَّيِّئةِ والتُّهَمِ الباطلةِ، وأنَّ الظُّنونَ السَّيِّئةَ تَنشَأُ عنها الغَيرةُ المُفرِطةُ والمكايدُ والاغتيالاتُ، والطَّعنُ في الأنسابِ، والمُبادَأةُ بالقِتالِ؛ حذَرًا مِن اعتِداءِ مَظنونٍ ظنًّا باطلًا، كما قالوا:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

خُذِ اللِّصَّ قبْلَ أنْ يأخُذَك(١).

- والسِّرُّ في تَنكيرِ قَولِه: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ وإبهامِه: إفادةُ مَعنى البَعضيَّةِ؛ للإيذانِ بأنَّ في الظُّنونِ ما يجِبُ أنْ يُجتنَبَ مِن غيرِ تَبْيينٍ لذلك ولا تَعْيينٍ؛ لئلَّا يَجترئَ أحدٌ على ظنٍّ إلَّا بعدَ تأمُّلٍ، وبُعدِ نَظرٍ، وتَمحيصٍ، واستِشعارٍ للتَّقْوى، والحذَرِ مِن أنْ يكونَ الظَّنُّ طائشَ السَّهمِ، بعيدًا عن الإصابةِ، وما أكثَرَ الَّذين تُسَوِّلُ لهم ظُنونُهم ما ليس واقعًا، ولا يَستنِدُ إلى شَيءٍ مِن اليَقينِ(٢)!

- والمُرادُ بالظَّنِّ هنا: الظَّنُّ المُتعلِّقُ بأحوالِ النَّاسِ، وحُذِفَ المُتَعلَّقُ؛ لتَذهَبَ نفْسُ السَّامعِ إلى كلِّ ظنٍّ مُمكنٍ هو إثمٌ(٣).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ يَستوقِفُ السَّامعَ ليَتطلَّبَ البيانَ، فأُعلِموا أنَّ بَعضَ الظَّنِّ جُرمٌ، وهذا كِنايةٌ عن وُجوبِ التَّأمُّلِ في آثارِ الظُّنونِ؛ لِيَعرِضوا ما تُفضي إليه الظُّنونُ على ما يَعلَمونَه مِن أحكامِ الشَّريعةِ، وليس هذا البيانُ تَوضيحًا لأنواعِ الكثيرِ مِن الظَّنِّ المأمورِ باجتِنابِه؛ لأنَّها أنواعٌ كثيرةٌ، فنبَّهَ على عاقِبَتِها وترَكَ التَّفصيلَ؛ لأنَّ في إبهامِه بَعثًا على مَزيدِ الاحتِياطِ(٤).

- وإنَّما قالَ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ دونَ أنْ يقولَ: (اجتنِبوا الغِيبةَ)؛ لقَصْدِ التَّوطئةِ للتَّمثيلِ الواردِ في قولِه: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٠، ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٩٧، ٤٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥١).

لأنَّه لَمَّا كان ذلك التَّمثيلُ مُشتمِلًا على جانبِ فاعلِ الاغتيابِ ومَفعولِه، مهَّدَ له بما يدُلُّ على ذاتَينِ؛ لأنَّ ذلك يَزيدُ التَّمثيلَ وُضوحًا(١).

- ومُثِّلَتِ الغِيبةُ بأكْلِ لَحمِ الأخِ المَيتِ، وهو يَستلزِمُ تَمثيلَ المَولوعِ بها بمَحبَّةِ أكْلِ لحمِ الأخِ المَيتِ، والتَّمثيلُ مَقصودٌ منه استِفظاعُ المُمثَّلِ وتَشويهُه؛ لإفادةِ الإغلاظِ على المُغتابِينَ؛ لأنَّ الغِيبةَ مُتفشِّيةٌ في النَّاسِ، وخاصَّةً في أيَّامِ الجاهليَّةِ، فشُبِّهَت حالةُ اغتيابِ المسلمِ مَن هو أخوه في الإسلامِ وهو غائبٌ، بحالةِ أكْلِ لَحمِ أخيه وهو مَيتٌ، لا يُدافِعُ عن نفْسِه، وهذا التَّمثيلُ للْهيئةِ قابلٌ للتَّفريقِ؛ بأنْ يُشبَّهَ الَّذي اغتابَ بآكِلِ لَحمٍ، ويُشبَّهَ الَّذي اغتِيبَ بأخٍ، وتُشبَّهَ غِيبتُه بالموتِ(٢).

وفي هذا التَّمثيلِ مُبالَغاتٌ شتَّى؛ منها: الاستِفهامُ التَّقريريُّ الَّذي لا يَقَعُ إلَّا على أمْرٍ مُسلَّمٍ عندَ المُخاطَبِ، فجَعْلُك الشَّيءَ في حيِّزِ الاستِفهامِ التَّقريريِّ يَقْتضي أنَّك تدَّعي أنَّه لا يُنكِرُه المُخاطَبُ، وإنَّما لم يَرِدِ الاستِفهامُ على نفْيِ مَحبَّةِ ذلك بأنْ يُقالَ: ألَا يُحِبُّ أحدُكُم -كما هو غالبُ الاستِفهامِ التَّقريريِّ- إشارةً إلى تَحقُّقِ الإقرارِ المُقرَّرِ عليه؛ بحيثُ يُترَكُ للمُقرَّرِ مَجالًا لعدَمِ الإقرارِ، ومع ذلك لا يَسَعُه إلَّا الإقرارُ.

ومنها: جَعْلُ ما هو شَديدُ الكراهةِ للنَّفْسِ مَفعولًا لِفعْلِ المحبَّةِ؛ للإشعارِ بتَفْظيعِ حالةِ ما شُبِّهَ به وحالةِ مَنِ ارْتضاهُ لنفْسِه؛ فلذلك لم يقلْ: أيَتحمَّلُ أحَدُكم أنْ يأكُلَ لَحمَ أخيه مَيتًا؟ بل قالَ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٥).

ومنها: إسنادُ الفِعلِ إلى (أَحَد)؛ للإشعارِ بأنَّ أحدًا مِن الأحَدِينَ لا يُحِبُّ ذلك.

ومنها: أنَّه لم يَقتصِرْ على تَمثيلِ الاغتيابِ بأكْلِ لحمِ الإنسانِ حتَّى جعَلَ الإنسانَ أخًا.

ومنها: أنَّه لم يَقتصِرْ على كَونِ المأكولِ لحمَ الأخِ حتَّى جعَلَ الأخَ مَيْتًا.

ومنها: إخراجُ تَماثُلِها مُخرَجَ أمْرٍ بَيِّنٍ غنِيٍّ عنِ الإخبارِ به[1].

- ولَمَّا قرَّرَهم عزَّ وجلَّ بأنَّ أحدًا منهم لا يُحِبُّ أكْلَ جِيفةِ أخيه؛ عقَّبَ ذلك بقولِه تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، والفاءُ في قَولِه: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فاءُ الفَصيحةِ. وفاءُ الفصيحةِ تُفيدُ الإلزامَ بما بعْدَها، أي: تدُلُّ على أنْ لا مَناصَ للمُواجَهِ بها مِنِ الْتزامِ مَدلولِ جَوابِ شرْطِها المَحذوفِ. والمعْنى: فتَعيَّنَ إقرارُكم بما سُئِلْتم عنه مِن المُمثَّلِ به -إذ لا يُستطاعُ جَحْدُه- وتَحقَّقتْ كَراهتُكم له وتَقذُّرُكم منه، فلْيَتحقَّقْ أنْ تَكرَهوا نَظيرَه المُمثَّلَ، وهو الغِيبةُ، فكأنَّه قِيلَ: فاكْرَهوا المُمثَّلَ كما كَرِهْتُم المُمثَّلَ به[2].

- قولُه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ عطْفٌ على جُمَلِ الطَّلبِ السَّابقةِ، ابتداءً مِن قولِه: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾، وهذا كالتَّذييلِ لها؛ إذ أمَرَ بالتَّقْوى، وهي جِماعُ الاجتِنابِ والامتثالِ، فمَن كان سالِمًا مِن التَّلبُّسِ بتلك المَنهيَّاتِ، فالأمْرُ بالتَّقْوى يُجنِّبُه التَّلبُّسَ بشَيءٍ منها في المُستقبَلِ، ومَن كان مُتلبِّسًا بها أو ببعضِها، فالأمْرُ بالتَّقْوى يَجمَعُ الأمْرَ بالكفِّ عمَّا هو مُتلبِّسٌ به منها[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٤ - ٢٥٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٧).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ تَذْييلٌ للتَّذييلِ؛ لأنَّ التَّقْوى تكونُ بالتَّوبةِ بعدَ التَّلبُّسِ بالإثمِ، فقيلَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾، وتكونُ التَّقوى ابتِداءً، فيَرحَمُ اللهُ المُتَّقيَ، فالرَّحيمُ شاملٌ للجميعِ(١).

- والمُبالَغةُ في (التوَّاب)؛ للدَّلالةِ على كَثرةِ مَن يَتوبُ عليه مِن عِبادِه، أو لأنَّه ما مِن ذَنْبٍ يَقترِفُه المُقترِفُ إلَّا كان مَعفوًّا عنه بالتَّوبةِ، أو لأنَّه بَليغٌ في قَبولِ التَّوبةِ، مُنزِّلٌ صاحبَها مَنزِلةَ مَن لم يُذنِبْ قطُّ؛ لِسَعةِ كَرَمِه(٢).

- وما أحسَنَ ما جاء التَّرتيبُ في الآيةِ! حيثُ جاء الأمْرُ أوَّلًا باجتِنابِ الطَّريقِ الَّتي لا تؤدِّي إلى العِلم -وهو الظَّنُّ-، ثمَّ نهَى -ثانيًا- عن طلَبِ تَحقُّقِ ذلك الظَّنِّ، فيَصيرُ عِلْمًا بقولِه: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، ثمَّ نهَى -ثالثًا- عن ذِكْرِ ذلك إذا عَلِم، فهذه أُمورٌ ثلاثةٌ مُترتِّبةٌ: ظنٌّ، فعِلمٌ بالتَّجسُّسِ، فاغتِيابٌ(٣)؛ لأنَّه إنْ ظَنَّ الإنسانُ بأخيه شَيئًا تجَسَّسَ عليه، فإذا تجَسَّس صار يَغتابُه(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أُعِيدَ النِّداءُ للاهتمامِ بهذا الغرَضِ؛ إذ كان إعجابُ كلِّ قَبيلةٍ بفَضائلِها، وتَفضيلُ قَومِها على غيرِهم؛ فاشيًا في الجاهليَّةِ، فجاءتْ هذه الآيةُ لتَأديبِ المؤمنينَ على اجتِنابِ ما كان في الجاهليَّةِ؛ لاقتِلاعِ جُذورِه الباقيةِ في النُّفوسِ بسَببِ اختلاطِ طَبَقاتِ المؤمنينَ بعْدَ سَنةِ الوُفودِ؛ إذ كثُرَ الدَّاخِلون في الإسلامِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٨).

- قولُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نُودُوا بعُنْوانِ النَّاسِ دونَ (المُؤمنين)؛ رَعْيًا للمُناسَبةِ بيْنَ هذا العُنوانِ وبيْن ما صُدِّرَ به الغرَضُ مِن التَّذكيرِ بأنَّ أصلَهم واحدٌ، أي: إنَّهم في الخِلقةِ سَواءٌ؛ لِيُتوصَّلَ بذلك إلى أنَّ التَّفاضُلَ والتَّفاخُرَ إنَّما يكونُ بالفضائلِ، وإلى أنَّ التَّفاضلَ في الإسلامِ بزِيادةِ التَّقْوى، فقيل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ اقتُصِرَ على ذِكْرِ الشُّعوبِ والقَبائلِ؛ لأنَّ ما تحتَها داخلٌ بطَريقِ لَحْنِ الخِطابِ[2]. وتجاوَزَ القرآنُ عن ذِكرِ الأُمَمِ جرْيًا على المُتداوَلِ في كَلامِ العرَبِ في تَقسيمِ طبَقاتِ الأنسابِ؛ إذ لا يُدرِكون إلَّا أنسابَهم[3]، وأيضًا لأنَّهما أقْصى ما يَسهُلُ على الآدميِّ مَعرِفتُه، فما دُونَه أَولى[4].

- والخبَرُ في قولِه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ مُستعمَلٌ كِنايةً عن المُساواةِ في أصلِ النَّوعِ الإنسانيِّ؛ لِيُتوصَّلَ مِن ذلك إلى إرادةِ اكتِسابِ الفضائلِ والمَزايا الَّتي تَرفَعُ بعضَ النَّاسِ على بَعضٍ كِنايةً بمَرْتبتَينِ. والمعْنى المَقصودُ من ذلك هو مَضمونُ جُملةِ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾؛ فتلك الجُملةُ تَتنزَّلُ مِن جُملةِ ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ مَنزِلةَ المَقصدِ من المقدِّمةِ، والنَّتيجةِ من القياسِ؛ ولذلك فُصِّلَت؛ لأنَّها بمَنزِلةِ البيانِ. وأمَّا جُملةُ ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ فهي مُعترِضةٌ بيْن الجُملتَينِ الأُخْرَيَينِ، والمقصودُ من اعتِراضِها: إدماجُ تأْديبٍ آخَرَ من واجبِ بثِّ التَّعارُفِ والتَّواصُلِ بيْنَ القبائلِ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٨).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٢).

والأمَمِ، وأنَّ ذلك مُرادُ اللهِ منهم[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا، وإنَّما أُخِّرتْ في النَّظمِ عن جُملةِ ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾؛ لتَكونَ تلك الجُملةُ السَّابِقةُ كالتَّوطئةِ لهذه، وتتنزَّلَ منها مَنزِلةَ المُقدِّمةِ؛ لأنَّهم لَمَّا تَساوَوْا في أصْلِ الخِلقةِ مِن أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدةٍ، كان الشَّأنُ ألَّا يَفضُلَ بعضُهم بعضًا إلَّا بالكَمالِ النَّفسيِّ، وهو الكمالُ الَّذي يَرْضاه اللهُ لهم، والَّذي جعَلَ التَّقوى وسِيلتَه؛ ولذلك ناطَ التَّفاضُلَ في الكرَمِ بـ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ إذْ لا اعتِدادَ بكرَمٍ لا يَعبأُ اللهُ به[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عنِ التَّفاخُرِ بالأنسابِ المُستفادِ مِن الكلامِ بطَريقِ الاستِئنافِ التَّحقيقيِّ، كأنَّه قيلَ: إنَّ الأكرمَ عندَه تعالَى هو الأتْقى، فإنْ فاخَرْتُم ففاخِروا بالتَّقْوى[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ تَعليلٌ لِمَضمونِ ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾، أي: إنَّما كان أكرَمُكم أتْقاكم؛ لأنَّ اللهَ عليمٌ بالكرامةِ الحقِّ الَّتي هي التَّقوى؛ خَبيرٌ بمِقدارِ حُظوظِ النَّاسِ مِن التَّقْوى، فهي عِندَه حُظوظُ الكرامةِ؛ فلذلك الأكرمُ هو الأتقَى. وهي تَذْييلٌ، وهو كِنايةٌ عن الأمْرِ بتَزْكيةِ نِيَّاتِهم في مُعامَلاتِهم وما يُريدون مِن التَّقوى بأنَّ اللهَ يَعلَمُ ما في نُفوسِهم، ويُحاسِبُهم عليه[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٢، ٢٦٣).

الآيات (١٤-١٨)

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ
وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ
ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَلِتْكُم﴾: أي: يَنقُصْكم، ويَظلِمْكم، مِن: لاتَ يَليتُ، واللَّيتُ: النَّقصُ، وفيه لُغةٌ أخرَى: ألَتَ يألَتُ[1].

﴿يَرْتَابُوا۟﴾: أي: يَشُكُّوا؛ وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شكٍّ، أو شكٍّ وخَوفٍ[2].

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾: أي: يَعدُّونَ إسلامَهم مِنَّةً عليك، والمِنَّةُ تُطلَقُ على العَطيَّةِ، وعلى قَدْرِ العطيَّةِ عندَ مُعطيها، واعتِدادِه بها، والمَنُّ: تَعدادُ المُعطِي على المعطَى ما أعطاه، أو الاعتِدادُ بالصَّنيعةِ، وذِكرُها الَّذي يُكَدِّرُها. والمَنُّ: النَّقصُ مِن الحقِّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

والبَخسُ له، ومِن هذا: المِنَّةُ المذمومةُ؛ لأنها تَنقُصُ النِّعمةَ وتُكَدِّرُها[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه: ﴿أَنْ أَسْلَمُوا﴾ يَجوزُ فيه وَجهانِ:

أحدُهما: أنَّه مَفعولٌ به؛ لأنَّه ضُمِّنَ (يَمُنُّون) معْنى يَعتَدُّون، كأنَّه قِيل: يَعتَدُّون عليك إسلامَهم مانِّينَ به عليك؛ ولهذا صُرِّحَ بالمفعولِ به في قولِه: ﴿لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾، أي: لا تَعْتدُّوا علَيَّ إسلامَكم.

الوجْهُ الثَّاني: أنَّه مَفعولٌ مِن أجْلِه، أي: يَمُنُّون عليك مِن أجْلِ أنْ أسْلَموا[٢].

وقولُه: ﴿أَنْ هَدَاكُمْ﴾ كقولِه: ﴿أَنْ أَسْلَمُوا﴾[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ سُكَّانَ الباديةِ مِن العرَبِ الَّذين لم يَتمكَّنِ الإيمانُ مِن قلوبِهم قالوا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: آمَنَّا بما جِئتَ به، فأمَرَ اللهُ نَبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يقولَ لهم: إنَّكم لم تُؤمِنوا الإيمانَ الكاملَ، ولكنْ قُولوا: أسْلَمْنا، والسَّببُ في ذلك أنَّه لم يَدخُلِ الإيمانُ الكاملُ في قُلوبِكم بعدُ.

ثمَّ يُرشِدُهم اللهُ سبحانَه إلى ما يُكمِلُ إيمانَهم، فيقولُ: وإنْ تُطِيعوا اللهَ ورسولَه لا يَنقُصْكم اللهُ تعالى مِن ثَوابِ عمَلِكم الصَّالِحِ شيئًا، إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى صِفاتِ المؤمنينَ الصَّادِقينَ، فيقولُ: إنَّما المؤمنونَ حقًّا هم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٧٨٠)، ((البسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧، ٧٧٨)، ((تفسير الراغب)) (١/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الَّذين آمَنوا باللهِ ورسولِه، ثمَّ لَمْ يَشُكُّوا في ذلك، وجاهَدوا بأمْوالِهم وأنفُسِهم في سَبيلِ اللهِ تعالى، أولئك هم الصَّادِقون في إيمانِهم حقًّا.

ثمَّ يَأمُرُ اللهُ تعالى نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يقولَ للأعرابِ: أتُخْبِرونَ اللهَ بما تَدِينونَ به، والحالُ أنَّ اللهَ يَعلَمُ جَميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ؟! فهو لا يَخْفَى عليه حالُكم، فلا داعِيَ لِأنْ تُخبِروه بما في قُلوبِكم، واللهُ بكلِّ شَيءٍ عليمٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى لنَبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: يَمُنُّ عليك هؤلاء الأعرابُ أنْ أسْلَموا، فقُلْ لهم: لا تَمُنُّوا علَيَّ بذلك، بلِ المِنَّةُ للهِ أنْ هَداكم للإيمانِ إنْ كُنتم صادِقينَ في ادِّعائِكم الإيمانَ.

ثمَّ يختِمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ ببيانِ سَعةِ علمِه سبحانَه، وبصَرِه بجميعِ الأعمالِ، فيقولُ: إنَّ اللهَ يَعلَمُ كلَّ ما غابَ في السَّمواتِ والأرضِ، واللهُ بَصيرٌ بجَميعِ أعْمالِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ سُبحانه بإجلالِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وإعظامِه، ونَهى عن أذاهُ في نفْسِه، أو في أُمَّتِه، ونَهَى عن التَّفاخُرِ الَّذي هو سَببُ التَّقاطُعِ والتَّداحُرِ، وختَمَ بصِفتِه (الخَبير) -دلَّ عليها بقولِه[1]:

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّا﴾.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٥).

أي: قال الأعرابُ -وهم سُكَّانُ الباديةِ مِن العرَبِ- للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: آمَنَّا بما وجَبَ علينا الإيمانُ به(١).

﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾.

أي: قلْ -يا محمَّدُ- لأولئك الأعرابِ الَّذين ادَّعَوُا الإيمانَ: لم تُؤمِنوا بعْدُ إيمانًا كاملًا، فلا تَدَّعوا لأنفُسِكم هذا المقامَ، ولكنْ قُولوا: دخَلْنا في الإسلامِ، واقتَصِرُوا على هذا القولِ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٨، ٣٩٢)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيميَّة (٧/ ٤٣٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩، ٣٩٠)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٠٩، ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٠).

قال الشنقيطي: (وقولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ المرادُ به بعضُ الأعرابِ... وإنَّما قُلْنا: إنَّ المرادَ بعضُ الأعرابِ في هذه الآيةِ؛ لأنَّ اللهَ بيَّنَ في موضعٍ آخَرَ أنَّ مِنهم مَن ليس كذلك، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ٩٩]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٢٠).

قيل: إنَّ هؤلاء الأعرابَ لم يَكونوا منافِقينَ، استظهَر ذلك ابنُ تيميَّةَ، ونسَبه للأكثَرينَ، وذهَب إليه ابنُ القيِّم، وابنُ كثير، وابنُ رجب. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٤)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٤٣٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٠٩، ١١٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والزُّهْريُّ، وابنُ زَيدٍ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٩)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩).

قال ابنُ القيِّم: (هؤلاء مُسلِمونَ، وليسوا بمؤمِنينَ؛ لأنَّهم لَيسوا ممَّن باشَر الإيمانُ قلْبَه، فذاق =

عن سَعدِ بن أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قسَمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَسْمًا، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أعْطِ فُلانًا؛ فإنَّه مُؤمنٌ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أوْ مُسلِمٌ. أقولُها ثلاثًا، ويُرَدِّدُها علَيَّ ثلاثًا: أوْ مُسلمٌ، ثمَّ قال: إنِّي لَأُعْطي الرَّجُلَ وغيرُه أحَبُّ إلَيَّ منه؛ مَخافةَ أنْ يَكُبَّه اللهُ في النَّارِ))(١).

= حلاوتَه وطَعْمَه، وهذا حالُ أكثرِ المُنتَسِبينَ إلى الإسلامِ، وليس هؤلاء كُفَّارًا؛ فإنَّه سبحانه أثبَت لهم الإسلامَ بقَولِه: ﴿وَلَكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾، ولم يُرِدْ: قُولُوا بألسِنَتِكم من غيرِ مُواطأةِ القَلبِ؛ فإنَّه فرَّق بيْنَ قَولِهم: آمَنَّا، وقَولِهم: أسْلَمْنا، ولكِنْ لَمَّا لمْ يَذوقوا طعْمَ الإيمانِ قال: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾، ووعَدَهم سُبحانَه وتعالى -مع ذلك- على طاعتِهم ألَّا يَنقُصَهم مِن أُجورِ أعمالِهم شَيئًا). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٩١). ويُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٢٩٥).

وقيل: إنَّ هؤلاء الأعرابَ كانوا مُنافِقينَ. وممَّن ذهب إلى ذلك: البُخاريُّ، ومحمَّدُ بنُ نصرٍ المروزيُّ، والقرطبي، والشنقيطي. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (١/ ١٤)، ((تعظيم قدر الصلاة)) للمروزي (٢/ ٥٥٤- ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٩، ٤٢٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومُجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩١)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩).

قال القرطبي: (معنى ﴿وَلَكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾، أي: استَسْلَمْنا خَوفَ القَتلِ والسَّبْيِ، وهذه صِفةُ المنافِقينَ؛ لأنَّهم أسْلَموا في ظاهِرِ إيمانِهم، ولم تُؤمِنْ قُلوبُهم). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٤٨).

وقال الشِّنقيطي: (اللهُ نفى عنهم الإيمانَ دونَ الإسلامِ، ولذلك وَجهانِ مَعروفانِ عند العُلَماءِ؛ أظهَرُهما عندي: أنَّ الإيمانَ المنفيَّ عنهم في هذه الآيةِ هو مُسَمَّاه الشَّرعيُّ الصَّحيحُ، والإسلامَ المُثبَتَ لهم فيها هو الإسلامُ اللُّغَويُّ الَّذي هو الاستِسلامُ والانقيادُ بالجَوارحِ دونَ القَلبِ... وإذا حُمِلَ الإسلامُ في قَولِه: ﴿وَلَكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ انقَدْنا واستَسْلَمْنا بالألسِنةِ والجوارحِ، فلا إشكالَ في الآيةِ، وعلى هذا القَولِ فالأعرابُ المذكورونَ مُنافِقونَ؛ لأنَّهم مُسلِمونَ في الظَّاهِرِ، وهم كُفَّارٌ في الباطِنِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بنَفْيِ الإيمانِ في قَولِه: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ نفْيُ كَمالِ الإيمانِ، لا نَفْيُه مِن أصلِه، وعليه فلا إشكالَ أيضًا؛ لأنَّهم مُسلِمونَ مع أنَّ إيمانَهم غيرُ تامٍّ، وهذا لا إشكالَ فيه عندَ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ القائلينَ بأنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقُصُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤١٩).

(١) رواه البخاريُّ (٢٧)، ومسلمٌ (١٥٠) واللَّفظُ له.

﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾.

أي: ولمْ يَدخُلِ الإيمانُ الكاملُ وحَقائقُ مَعانِيه بعْدُ في قُلوبِكم، أيُّها المُدَّعونَ بُلوغَ مَنزِلةِ الإيمانِ[1].

﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا﴾.

أي: وإنْ تُطِيعوا اللهَ ورسولَه لا يَنقُصْكم اللهُ مِن ثَوابِ أعمالِكم الصَّالِحةِ أيَّ شَيءٍ منها[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ غَفورٌ لِذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، رَحيمٌ بهم، ومِن رَحمتِه قَبولُه تَوبَتَهم، وإكرامُهم بنِعَمِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٠٥، ٣٧٧، ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩).

قال ابنُ عاشور: («لَمَّا» هذه أختُ «لَمْ»، وتدُلُّ على أنَّ النَّفيَ بها متَّصِلٌ بزمانِ التَّكلُّمِ، وذلك الفارِقُ بيْنَها وبيْنَ «لَمْ» أختِها، وهذه الدَّلالةُ على استِمرارِ النَّفيِ إلى زمَنِ التَّكَلُّمِ تُؤذِنُ غالبًا بأنَّ المنفيَّ بها مُتوقَّعُ الوُقوعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٥).

وقال السعدي: (في قولِه: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ أي: وَقْتَ هذا الكلامِ الَّذي صدَر منكم، فكان فيه إشارةٌ إلى أحوالِهم بعدَ ذلك؛ فإنَّ كثيرًا منهم مَنَّ اللهُ عليهم بالإيمانِ الحقيقيِّ، والجهادِ في سَبيلِ اللهِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٦).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها إرشادٌ للأعرابِ الَّذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ إلى حَقيقةِ الإيمانِ[1].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾.

أي: إنَّما المؤمِنون حقًّا همُ الَّذين آمَنوا باللهِ ورسولِه، ثمَّ لم يشُكُّوا في وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وصِدقِ نُبوَّةِ نَبيِّه، ووُجوبِ طاعتِهما، وثَبَتوا على ذلك، ولم يَتزلْزَلوا[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وهمْ أيضًا مَنْ جاهَدُوا أعداءَ اللهِ بإنفاقِ أموالِهم، وبَذْلِ أرواحِهم في قِتالِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٤٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٣).

مُخلِصينَ للهِ تعالى؛ لِتَكونَ كَلمتُه هي العُلْيا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال: ٧٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

أي: أولئك الَّذين يُؤمِنونَ باللهِ ورسولِه بلا ارتيابٍ، ويُجاهِدونَ في سَبيلِ الله بأمْوالِهم وأنفُسِهم؛ همُ الصَّادِقونَ في إيمانِهم حقًّا، لا الَّذين يَدَّعونَ الإيمانَ من غَيرِ تَحقيقٍ(٢).

﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قال هؤلاءِ الأعرابُ: ﴿ءَامَنَّا﴾، وأمَرَ اللهُ نَبيَّه أنْ يُكذِّبَهم في قولِه: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾، وقولِه: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾؛ أمَرَ نَبيَّهم أنْ يقولَ لهم بصِيغةِ الإنكارِ: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾؟! وذلك بادِّعائِكم أنَّكم مُؤمِنونَ، واللهُ لا يَخْفَى عليه شَيءٌ مِن حالِكم، وهو عالِمٌ بأنَّكم لم تُؤمِنوا، وعالِمٌ بكلِّ ما في السَّمواتِ والأرضِ، وعالِمٌ بكلِّ شَيءٍ(٣).

﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٦، ٦٧).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢١).

أي: قُل -يا محمَّدُ- للأعرابِ الَّذين ادَّعَوُا الإيمانَ: أتُخْبِرونَ اللهَ بما في قُلوبِكم مِن الإيمانِ حِينَ قُلْتُم: آمَنَّا، والحالُ أنَّه يَعلَمُ جميعَ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِن الأشياءِ الظَّاهرةِ والباطنةِ؟! فاللهُ لا يَخْفَى عليه حالُكم، وليس بحاجةٍ لإخبارِه بما في قُلوبِكم(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

أي: واللهُ ذو عِلمٍ بكلِّ شيءٍ، فاحْذَروا أنْ تَقولوا خِلافَ ما في قُلوبِكم؛ فاللهُ يَعلَمُ ما فيها مِن الإيمانِ أو غَيرِه(٢).

﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْ﴾.

أي: يَمُنُّ هؤلاءِ الأعرابُ عليك -يا محمَّدُ- إسلامَهم، فيَذْكُرونه لك ذِكرَ مَن قدَّم لك مَعروفًا، وأسْدى إليك خَيرًا(٣)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦١)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٠، ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٨).

﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

أي: قُل لهم -يا محمَّدُ-: لا تَمُنُّوا علَيَّ إسلامَكم؛ فليس لكم مِنَّةٌ علَيَّ في ذلك، ونفْعُ إسلامِكم يَعودُ عليكم، وإنَّما للهِ المِنَّةُ عليكم بالتَّوفيقِ للإيمانِ إنْ كُنتم صادِقينَ في ادِّعائِكمُ الإيمانَ(١).

عن عبدِ اللهِ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا فتَحَ حُنَيْنًا قسَمَ الغنائمَ، فأعْطى المؤلَّفةَ قُلوبُهم، فبلَغَه أنَّ الأنصارَ يُحِبُّون أنْ يُصِيبوا ما أصاب النَّاسُ، فقام رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فخطَبَهم؛ فحمِدَ اللهَ وأثْنى عليه، ثمَّ قال: يا مَعشرَ الأنصارِ، ألَمْ أجِدْكم ضُلَّالًا فهَداكُم اللهُ بي؟ وعالةً فأغْناكم اللهُ بي؟ ومُتفرِّقينَ فجمَعَكُم اللهُ بي؟ ويَقولون: اللهُ ورسولُه أمَنُّ(٢)))(٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٨﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَعلمُ كلَّ ما غاب في السَّمواتِ وفي الأرضِ، ومِن ذلك عِلْمُه بالصَّادقِ مِن الكاذبِ، وعِلْمُه بما تُخفِيه السَّرائرُ والضَّمائرُ، فلا يَخْفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٧)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٨).

(٢) أمَنُّ: أفعَلُ تفضيلٍ مِنَ المَنِّ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٠).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٣٣٠)، ومسلمٌ (١٠٦١) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٩). =

كما قال تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ ذو بَصرٍ بأعمالِكم كلِّها؛ خَيرِها وشَرِّها، ظاهِرِها وباطِنِها، ويُجازيكم عليها بما تَستحِقُّونه مِن ثَوابٍ أو عِقابٍ(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا﴾ فيه تَحريضٌ على الإيمانِ الصَّادقِ؛ لأنَّ مَن أتى بفِعلٍ مِن غَيرِ صِدقِ نيَّةٍ يَضيعُ عمَلُه، ولا يُعطَى عليه أجرًا(٢).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، شرَطَ تعالى في الإيمانِ عدَمَ الرَّيبِ -وهو الشَّكُّ-؛ لأنَّ الإيمانَ النَّافعَ هو الجزْمُ اليَقينيُّ بما أمَرَ اللهُ بالإيمانِ به، الَّذي لا يَعْتريه شَكٌّ بوجْهٍ مِن الوُجوهِ(٣).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ

= قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: إنَّ اللهَ -أيُّها الأعرابُ- لا يَخفَى عليه الصَّادِقُ منكم مِنَ الكاذِبِ، ومَنِ الدَّاخِلُ منكم في مِلَّةِ الإسلامِ رَغبةً فيه، ومَن الدَّاخِلُ فيه رَهبةً مِن رَسولِنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وجُندِه؛ فلا تُعلِّمونا دِينَكم وضَمائِرَ صُدورِكم؛ فإنَّ اللهَ يَعلَمُ ما تُكِنُّه ضَمائِرُ صُدورِكم، وتحَدِّثونَ به أنفُسَكم، ويَعلَمُ ما غاب عنكم فاستَسَرَّ في خَبايا السَّمواتِ والأرضِ، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢).

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾، فيه أنَّ مَن جاهَدَ الكُفَّارَ، دلَّ ذلك على الإيمانِ التَّامِّ في القلْبِ؛ لأنَّ مَن جاهَدَ غيرَه على الإسلامِ، والقيامِ بشَرائعِه، فجِهادُه لنفْسِه على ذلك مِن بابِ أَولَى وأَحرَى، ولأنَّ مَن لم يَقْوَ على الجهادِ فإنَّ ذلك دليلٌ على ضعفِ إيمانِه[١].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ ذكَرَ أهلَ الإيمانِ الَّذين ذاقُوا طَعْمَه، وهم الَّذين آمَنوا به وبرسولِه، ثمَّ لم يَرتابُوا في إيمانِهم، وإنَّما انْتَفَى عنهم الرَّيبُ؛ لأنَّ الإيمانَ قد باشَرَ قُلوبَهم، وخالطَتْها بَشاشتُه، فلمْ يَبْقَ للرَّيبِ فيه مَوضعٌ، وصدَّقَ ذلك الذَّوقَ بَذْلُهم أَحَبَّ شَيءٍ إليهم في رِضا ربِّهم تعالى، وهو أموالُهم وأنفُسُهم! ومِن الممتنِعِ حُصولُ هذا البذْلِ مِن غيرِ ذَوقِ طَعْمِ الإيمانِ، ووُجودِ حَلاوتِه؛ فإنَّ ذلك إنَّما يَحصُلُ بصِدْقِ الذَّوقِ والوجْدِ، كما قال الحسَنُ: (ليس الإيمانُ بالتَّمنِّي ولا بالتَّحلِّي، ولكِنْ ما وقَرَ في القلْبِ، وصدَّقَه العمَلُ)، فالذَّوقُ والوجْدُ أمْرٌ باطنٌ، والعمَلُ دَليلٌ عليه، ومُصدِّقٌ له، كما أنَّ الرَّيبَ والشَّكَّ والنِّفاقَ أمْرٌ باطنٌ، والعمَلُ دليلٌ عليه، ومُصدِّقٌ له؛ فالأعمالُ ثَمراتُ العلومِ والعقائدِ، فاليقينُ يُثمِرُ الجِهادَ، ومَقاماتِ الإحسانِ، فعلى حسَبِ قُوَّتِه تكونُ ثَمرتُه ونَتيجتُه، والرَّيبُ والشَّكُّ يُثمِرُ الأعمالَ المناسبةَ له[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾، فيه إشارةٌ إلى أنَّ الدِّينَ يَنْبغي أنْ يكونَ للهِ، والأعرابُ قد أظْهَروا الإيمانَ للمسلمينَ لا للهِ، فلا يُقبَلُ منهم ذلك[٣].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٧).

فِي ٱلْأَرْضِ﴾، تَضمَّنَتْ هذه الآيةُ الكريمةُ تَقبيحَ تَزكيةِ النَّفْسِ بالكذِبِ[1].

٧- العبْدُ بيْنَ مِنَّةٍ مِن اللهُ عليه، وحُجَّةٍ منْه عليه، ولا يَنفَكُّ عنهما، فالحكْمُ الدِّينيُّ مُتضمِّنٌ لِمِنَّتِه وحُجَّتِه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾، وقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]. والحكْمُ الكونيُّ أيضًا مُتضمِّنٌ لِمِنَّتِه وحُجَّتِه، فإذا حكَمَ له -كَونًا- حكْمًا مَصحوبًا باتِّصالِ الحكْمِ الدِّينيِّ به، فهو مِنَّةٌ عليه، وإنْ لم يَصحَبْه الدِّينيُّ فهو حُجَّةٌ منْه عليه. وكذلك حكْمُه الدِّينيُّ إذا اتَّصَل به حكْمُه الكونيُّ، فتَوفيقُه للقيامِ به مِنَّةٌ منْه عليه، وإنْ تَجرَّدَ عن حكْمِه الكونيِّ صار حُجَّةً منْه عليه، فالمِنَّةُ باقترانِ أحَدِ الحُكْمينِ بصاحِبِه، والحُجَّةُ في تَجرُّدِ أحدِهما عن الآخَرِ، فكلُّ عِلمٍ صَحِبَه عَمَلٌ يُرْضي اللهَ سُبحانه فهو مِنَّةٌ، وإلَّا فهو حُجَّةٌ، وكلُّ قُوَّةٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ صَحِبَها تَنفيذٌ لِمَرْضاتِه وأوامِرِه؛ فهي مِنَّةٌ، وإلَّا فهي حُجَّةٌ، وكلُّ حالٍ صَحِبَه تأثيرٌ في نُصرةِ دِينِه، والدَّعوةِ إليه؛ فهو مِنَّةٌ منْه، وإلَّا فهو حُجَّةٌ، وكلُّ مالٍ اقترَنَ به إنفاقٌ في سَبيلِ اللهِ وطاعتُه، لا لطلَبِ الجزاءِ ولا الشُّكورِ؛ فهو مِنَّةٌ مِن اللهِ عليه، وإلَّا فهو حُجَّةٌ، وكلُّ فراغٍ اقترَنَ به اشتِغالٌ بما يُريدُ الرَّبُّ مِن عبْدِه، فهو مِنَّةٌ عليه، وإلَّا فهو حُجَّةٌ، وكلُّ قَبولٍ في النَّاسِ، وتَعظيمٍ ومَحبَّةٍ له، اتَّصَل به خُضوعٌ للرَّبِّ، وذُلٌّ وانكسارٌ، ومَعرفةٌ بعَيبِ النَّفْسِ والعمَلِ، وبذْلُ النَّصيحةِ للخلْقِ؛ فهو مِنَّةٌ، وإلَّا فهو حُجَّةٌ، وكلُّ بَصيرةٍ ومَوعظةٍ، وتَذكيرٍ وتَعريفٍ مِن تَعريفاتِ الحقِّ سُبحانه إلى العبْدِ، اتَّصَل به عِبرةٌ ومَزيدٌ في العقْلِ، ومَعرفةٌ في الإيمانِ؛ فهي مِنَّةٌ، وإلَّا فهي حُجَّةٌ، وكلُّ حالٍ مع اللهِ تعالى، أو مَقامٍ اتَّصل به السَّيرُ إلى اللهِ، وإيثارُ مُرادِه على مُرادِ العبْدِ؛ فهو مِنَّةٌ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢١).

مِن اللهِ، وإنْ صَحِبَه الوُقوفُ عِندَه والرِّضا به، وإيثارُ مُقتضاهُ؛ مِن لذَّةِ النَّفْسِ به، وطُمأنينَتِها إليه، ورُكونِها إليه، فهو حُجَّةٌ مِن اللهِ عليه. فلْيتأمَّلِ العبْدُ هذا الموضعَ العظيمَ الخطَرِ، ويُميِّزْ بيْنَ مَواقعِ المِنَنِ والمِحَنِ، والحُجَجِ والنِّعَمِ، فما أكثَرَ ما يَلتبِسُ ذلك على خواصِّ النَّاسِ وأربابِ السُّلوكِ! واللهُ يَهْدي مَن يَشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ(١).

٨- في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مَسألةٌ عظيمةٌ في سُلوكِ الإنسانِ وعمَلِه؛ وهي أنْ يَعلَمَ بأنَّ اللهَ تعالى بَصيرٌ بعمَلِه، مُحيطٌ به، فيَخْشَى اللهَ ويَتَّقِيه، وفيها التَّرغيبُ في الأعمالِ الصَّالِحةِ؛ فإنَّها لنْ تَضيعَ، وفيها التَّرهيبُ مِن العملِ السَّيِّئِ؛ لأنَّ العبدَ سيُجازَى عليه؛ لأنَّ الكلَّ مَعلومٌ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ(٢).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ هذه الآيةُ ممَّا احتَجَّ بها أحمدُ بنُ حَنبلٍ وغيرُه، على أنَّه يُسْتثنى في الإيمانِ دونَ الإسلامِ، وأنَّ أصحابَ الكبائرِ يَخرُجون مِن الإيمانِ إلى الإسلامِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٨٩، ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٩).

(٣) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٨).

أمَّا الاستِثناءُ في الإيمانِ فإنَّه (يجوزُ الاستِثناءُ باعتِبارٍ وتَرْكُه باعتِبارٍ؛ فإذا كان مقصودُه أنِّي لا أعلَمُ أنِّي قائمٌ بكلِّ ما أوجَب اللهُ علَيَّ، وأنَّه يَقبَلُ أعمالي، ليس مقصودُه الشَّكَّ فيما في قلبِه؛ فهذا استِثْناؤُه حسَنٌ، وقصْدُه ألَّا يُزكِّيَ نفْسَه، وألَّا يَقطَعَ بأنَّه عَمِل عمَلًا كما أُمِر فقُبِل منه، والذُّنوبُ كثيرةٌ، والنِّفاقُ مَخوفٌ على عامَّةِ النَّاسِ). ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٤٠).

أمَّا الاستِثناءُ في الإسلامِ فهو كالاستثناءِ في الإيمانِ، فيُستثنى فيه إذا أُريدَ به فِعلُ الواجباتِ الظَّاهرةِ كلِّها، أمَّا إذا أُريدَ بالإسلامِ الشَّهادتانِ باللِّسانِ فقطْ فلا استِثناءَ فيه، فلمَّا كان كلُّ مَن أتى بالشَّهادتَينِ صار مُسلِمًا مُتميِّزًا عن اليهودِ والنَّصارى، تجري عليه أحكامُ الإسلامِ الَّتي =

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾، فيه سُؤالٌ: قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ [النساء: ٩٤]، وقال هاهنا: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾، مع أنَّهم ألْقَوا إليهم السَّلامَ؟

الجوابُ: أنَّ هذا إشارةٌ إلى أنَّ عمَلَ القلبِ غيرُ مَعلوم، واجتنابَ الظَّنِّ واجبٌ، وإنَّما يُحكَمُ بالظَّاهِرِ، فلا يُقالُ لِمَن يَفعَلُ فِعلًا: هو مُراءٍ، ولا لِمَن أسلَمَ: هو مُنافِقٌ، ولكنَّ اللهَ خَبيرٌ بما في الصُّدورِ، إذا قال: فُلانٌ ليس بمُؤمنٍ، حصَلَ الجزْمُ، وقولُه تعالى: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ فهو الَّذي جوَّزَ لنا ذلك القولَ، وكان مُعجزةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيث أطْلَعَه اللهُ على الغَيبِ وضَميرِ قُلوبِهم، فقال لنا: أنتُم لا تَقولوا لِمَن ألْقَى إليكم السَّلامَ: لَستَ مُؤمنًا؛ لعدَمِ عِلمِكم بما في قلْبِه(١).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾، فيه سُؤالٌ: لِمَ لَمْ يَجُزْ أنْ يُصدَّقوا في إسلامِهم، والإسلامُ هو الانقيادُ، وقد وُجِدَ منهم قولًا وفِعلًا، وإنْ لم يُوجَدْ اعتقادًا وعِلمًا، وذلك القدْرُ كافٍ في صِدْقِهم؟

الجوابُ: التَّكذيبُ يقَعُ على وَجهينِ:

أحدُهما: ألَّا يُوجَدَ نفْسُ المُخبَرِ عنه.

وثانيهما: ألَّا يُوجَدَ كما أخبَرَ في نفْسِه؛ فقد يقولُ: ما جِئتَنا، بلْ جاءَتْ بك الحاجةُ، فاللهُ تعالى كذَّبَهم في قولِهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ على الوجْهِ الأوَّلِ، أي: ما آمنْتُم أصْلًا، ولم يُصدَّقوا في الإسلامِ على الوجْهِ الثَّاني؛ فإنَّهم انقادوا للحاجةِ، وأخْذِ

= تجري على المسلمينَ؛ كان هذا ممَّا يُجزَمُ به بلا استِثْناءٍ فيه، فلا زيادةَ فيهما ولا نُقصانَ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٥٩، ٤١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٥).

الصَّدقةِ[١]. وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ استُفيدَ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّ الإيمانَ أخصُّ مِن الإسلامِ، كما هو مَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ[٢]، وأنَّه أكمَلُ مِن الإسلامِ[٣]، فكلُّ مؤمنٍ مسلمٌ، وليس كلُّ مُسلمٍ مؤمنًا؛ فالمؤمنُ أفضَلُ مِن المسلمِ[٤].

٥- في قولِه تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ دَلالةٌ على الفرْقِ بيْنَ الإسلامِ والإيمانِ؛ فالإيمانُ يكونُ في القلْبِ، ويَلزَمُ مِن وُجودِه في القلْبِ صَلاحُ الجَوارحِ؛ لقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أَلَا وإنَّ في الجسَدِ مُضْغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه؛ أَلَا وهِيَ القلبُ))[٥]، بخِلافِ الإسلامِ؛ فإنَّه يكونُ في الجَوارحِ، وقد يَصدُرُ مِن المؤمنِ حقًّا، وقد يكونُ مِن ناقصِ الإيمانِ، هذا هو الفرْقُ بيْنَهما، ولا يُفرَّقُ بيْنَهما إلَّا إذا اجتَمَعا في سِياقٍ واحدٍ، وأمَّا إذا انفرَدَ أحَدُهما في سِياقٍ فإنَّه يَشملُ الآخَرَ[٦].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، فيه سُؤالٌ: قولُهُ: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، بعْدَ قولِه تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾، يُشبِهُ التَّكريرَ مِن غيرِ استقلالٍ بفائدةٍ مُتجدِّدةٍ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (١/ ١٢٨).

(٥) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديثِ النُّعمانِ بنِ بَشِيرٍ رضيَ الله عنهما.

(٦) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٥٠).

الجوابُ: ليس كذلك؛ فإنَّ فائدةَ قولِه: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ هو تكذيبُ دَعواهم، وقول: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ توقيتٌ لِما أُمِروا به أنْ يَقولوه، كأنَّه قِيل لهم: (ولكنْ قُولوا أسْلَمْنا حِينَ لم تَثبُتْ مُواطأةُ قُلوبِكم لِألسِنَتِكم) -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لأنَّه كلامٌ واقعٌ مَوقِعَ الحالِ مِن الضَّميرِ في ﴿قُولُوٓا﴾، و(ما) في (لَمَّا) مِن معْنى التَّوقُّعِ، دالٌّ على أنَّ هؤلاء قدْ آمَنوا فيما بعْدُ[1].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، فيه الرَّدُّ على الكَرَّاميَّةِ[2] في قولِهم: إنَّ الإيمانَ هو الإقرارُ باللِّسانِ دونَ عقْدِ القلْبِ[3]!

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾، لم يقُلْ: (لا يَلِتَاكم) بضَميرِ التَّثنيةِ؛ لأنَّ اللهَ هو مُتولِّي الجزاءِ، دونَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[4].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فيه دَليلٌ على أنَّ الأعمالَ مِن الإيمانِ[5]، وفيه حُجَّةٌ واضحةٌ على المُرْجِئةِ -المنكِرِينَ أنَّ العمَلَ مِن الإيمانِ-؛ إذْ هم مُقِرُّون بأنَّ مَن لم يكُنْ له صِدْقُ الإيمانِ فليس بمُؤمنٍ، وقد جَعَلَ اللهُ الجهادَ مِن صِدْقِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٧)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ١٣).

(٢) الكَرَّامِيَّةُ: هم أصحابُ محمَّدِ بنِ كَرَّام، يَزعُمونَ أنَّ الإيمانَ هو الإقرارُ والتَّصديقُ باللِّسانِ دونَ القَلبِ، وأنكَروا أن تكونَ مَعرِفةُ القَلبِ أو شَيءٌ غيرُ التَّصديقِ باللِّسانِ إيمانًا. يُنظر: ((الإيمان الأوسط)) لابن تيمية (ص: ٤٣٩).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٦).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٣).

الإيمانِ، كما تَرى[١].

١٠- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أخبَرَ تعالى أنَّ هؤلاء هم الصَّادِقونَ في قولِهم: آمَنَّا، ودلَّ ذلك على أنَّ النَّاسَ في قولِهم: (آمَنَّا) صادقٌ وكاذبٌ، والكاذبُ فيه نِفاقٌ بحسَبِ كذِبِه[٢].

١١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ يُبيِّنُ أنَّ الجِهادَ واجبٌ، وترْكَ الارتيابِ واجبٌ[٣].

١٢- أنَّ النِّيَّةَ مَحْضُ عَمَلِ القلبِ، فلمْ يُشْرَعْ إظهارُها باللِّسانِ؛ لقولِه سُبحانه: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وفاعِلُ ذلك يُعَلِّمُ اللهَ بدِيْنِه الَّذي في قلْبِه[٤]! فالآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّ النُّطقَ بالنِّيَّةِ في العِباداتِ ليس مشروعًا؛ لأنَّ الإنسانَ الَّذي يقولُ: «أُريدُ أنْ أُصلِّيَ» كأنَّه يُعَلِّمُ اللهَ سُبحانه وتعالى بما يُريدُ مِن العملِ! واللهُ يَعلَمُ، والَّذي يقولُ: «أُريدُ أنْ أَصومَ» كذلك، والَّذي يقولُ: «نَويتُ أنْ أتصَدَّقَ» كذلك، والَّذي يقولُ: «نَويتُ أنْ أَحُجَّ» كذلك أيضًا، ولهذا لا يُسَنُّ النُّطقُ بالنِّيَّةِ في العِباداتِ كلِّها؛ لا في الحجِّ، ولا في الصَّدَقةِ، ولا في الصَّومِ، ولا في الوُضوءِ، ولا الصَّلاةِ، ولا في غيرِ ذلك؛ لأنَّ النِّيَّةَ مَحلُّها القلبُ، واللهُ عالمٌ بذلك، ولا حاجةَ إلى أنْ تُخبِرَ اللهَ بها[٥]!

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((شرح العمدة لابن تيمية - كتاب الصلاة)) (ص: ٥٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٧).

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾، لم يقلْ: (يمُنُّ عليكم أنْ أسلَمْتُم)؛ لأنَّ إسلامَهم كان ضَلالًا، حيث كان نِفاقًا، فما مَنَّ به عليهم[1]، وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾، فيه سُؤالٌ: كيف مَنَّ عليهم بالهدايةِ إلى الإيمانِ، مع أنَّه بيَّنَ أنَّهم لم يُؤمِنوا؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجْهُ الأوَّلُ: أنَّه تعالى لم يقُلْ: (بلِ اللهُ يمُنُّ عليكم أنْ رزَقَكم الإيمانَ)، بل قال: ﴿أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾، وإرسالُ الرُّسلِ بالآياتِ البيِّناتِ هِدايةٌ.

الوجْهُ الثَّاني: أنَّه تعالى يَمُنُّ عليهم بما زَعَموا، فكأنَّه قال: أنتُم قُلْتُم: آمَنَّا، فذلك نِعمةٌ في حقِّكم، حيثُ تخلَّصْتُم مِن النَّارِ، فقال: هَداكم في زَعْمِكم.

الوجْهُ الثَّالثُ: أنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ بعْدَ ذلك شَرْطًا، فقال: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[2].

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾، فيه رَدٌّ على القَدَريَّةِ والمُعتزلةِ القائلين: إنَّ العبْدَ يَهْدي نفْسَه[3]!

١٦- في قولِه تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ أنَّ أعْظَمَ نِعمةٍ هي نِعمةُ الإسلامِ[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٦٩).

ﭐلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾

- إنَّما قال: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾؛ تَعليمًا لهم بالفرْقِ بيْنَ الإيمانِ والإسلامِ، وكان مُقْتضَى ظاهرِ نظْمِ الكلامِ أنْ يُقالَ: (قُل لم تُؤمِنوا ولكنْ أسْلَمْتم)، أو أنْ يُقالَ: (قُل لا تَقولوا: آمنَّا، ولكنْ قُولوا: أسْلَمْنا)؛ ليَتوافَقَ المُستدرَكُ عنه والاستِدراكُ بحسَبِ النَّظْمِ المُتعارَفِ في المُجادَلاتِ، فعُدِلَ عن الظَّاهرِ إلى هذا النَّظْمِ؛ لأنَّ فيه صراحةً بنفْيِ الإيمانِ عنهم، فلا يَحسَبوا أنَّهم غالَطوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. واستُغنِيَ بقولِه: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ عن أنْ يُقالَ: (لا تَقولوا: آمنَّا)؛ لاستِهجانِ أنْ يُخاطَبوا بلفظٍ مُؤدَّاه النَّهيُ عن الإعلانِ بالإيمانِ؛ لأنَّهم مُطالَبونَ بأنْ يُؤمنوا ويَقولوا: آمنَّا، قَولًا صادقًا لا كاذبًا، فقيل لهم: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾؛ تَكذيبًا لهم، معَ عدمِ التَّصريحِ بلفظِ التَّكذيبِ، ولكنْ وقَعَ التَّعريضُ لهم بذلك بعْدُ في قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ [الحجرات: ١٥] إلى قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، أي: لا أنتُم؛ ولذلك جِيءَ بالاستدراكِ مَحمولًا على المعنى، وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (ولكنْ أسلَمْتُم) إلى ﴿قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾؛ تَعريضًا بوُجوبِ الصِّدقِ في القولِ ليُطابِقَ الواقعَ، فهم يَشعُرونَ بأنَّ كذِبَهم قد ظهَرَ، وذلك ممَّا يُتعيَّرُ به، أي: الشَّأنُ أنْ تقولوا قولًا صادقًا[1].

- وقولُه: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ واقعٌ مَوقِعَ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾، وهو مُبيِّنٌ لمَعنى نفْيِ الإيمانِ عنهم في قَولِه: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ بأنَّه ليس انتِفاءَ وُجودِ تَصديقٍ باللِّسانِ، ولكنِ انتفاءُ رُسوخِه وعقْدِ القلْبِ عليه؛ إذ كان فيهم بَقيَّةٌ مِن ارتيابٍ، كما أشعَرَ به مُقابَلتُه بقولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٥، ٢٦٥).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾[1] [الحجرات: ١٥].

- قولُه: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ ليس تَكريرًا مع قَولِه: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾؛ وذلك لِمَا في (لَمَّا) مِن مَعنى التَّوقُّعِ الدَّالِّ على أنَّ هؤلاء قدْ آمَنوا فيما بعدُ[2].

- وفي الآيةِ احتِباكٌ[3]: ذكَرَ عدَمَ الإيمانِ أوَّلًا، دَليلًا على إثباتِه ثانيًا، وذكَرَ تَوفيرَ الأعمالِ ثانيًا، دَليلًا على بَخْسِها أو إحباطِها أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه نَفى أساسَ الخَيرِ أوَّلًا، ورغَّبَ في الطَّاعةِ بحِفظِ ما تَعِبوا عليه مِن الأعمالِ ثانيًا[4].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ استِئنافُ تَعليمٍ لهم بأنَّ اللهَ يَتجاوَزُ عن كذِبِهم إذا تابوا، وترْغيبٌ في إخلاصِ الإيمانِ؛ لأنَّ الغَفورَ كثيرُ المغفرةِ شَديدُها، ومِن فَرْطِ مَغفرتِه أنَّه يُجازي على الأعمالِ الصَّالحةِ الواقِعةِ في حالةِ الكُفرِ غيرَ مُعتدٍّ بها، فإذا آمَنَ عامِلُها جُوزيَ عليها بمُجرَّدِ إيمانِه، وذلك مِن فَرْطِ رَحمتِه بعِبادِه[5].

- وترْتيبُ ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعدَ ﴿غَفُورٞ﴾؛ لأنَّ الرَّحمةَ أصلٌ للمَغفرةِ، وشأنُ العلَّةِ أنْ تُورَدَ بعدَ المُعلَّلِ بها[6].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ قيل: هذا تَعليلٌ لقولِه: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ إلى قولِه: ﴿فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٤]، وهو مِن جُملةِ ما أُمِر

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٦٥، ٢٦٦).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٦٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٦).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يقولَه للأعرابِ، أي: ليس المؤمِنونَ إلَّا الَّذين آمَنوا، ولم يُخالِطْ إيمانَهم ارتيابٌ أو تَشكُّكٌ[1].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...﴾ (إنَّما) للحصْرِ، و(إنَّ) الَّتي هي جُزْءٌ منها مُفيدةٌ أيضًا للتَّعليلِ، وقائمةٌ مَقامَ فاءِ التَّفريعِ، أي: إنَّما لم تكونوا مُؤمنينَ؛ لأنَّ الإيمانَ يُنافيه الارتيابُ، والقصْرُ إضافيٌّ[2]، أي: المؤمنونَ الَّذين هذه صِفاتُهم غيرُ هؤلاء الأعرابِ؛ فأفادَ أنَّ هؤلاء الأعرابَ انْتَفى عنهم الإيمانُ؛ لأنَّهم انتَفَى عنهم مَجموعُ هذه الصِّفاتِ. وإذ قد كان القصرُ إضافيًّا لم يكُنِ الغرَضُ منه إلَّا إثباتَ الوصْفِ لغيرِ المَقصورِ؛ لإخراجِ المُتحدَّثِ عنهم عن أنْ يكونوا مُؤمِنينَ، وليس بمُقْتضٍ أنَّ حقيقةَ الإيمانِ لا تَتقوَّمُ إلَّا بمَجموعِ تلك الصِّفاتِ؛ لأنَّ عَدَّ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ مع صِفتَيِ الإيمانِ وانتِفاءِ الرَّيبِ فيه يَمْنعُ مِن ذلك؛ لأنَّ الَّذي يَقعُدُ عن الجِهادِ لا يَنتفي عنه وصْفُ الإيمانِ؛ إذ لا يَكفُرُ المسلمُ بارتكابِ الكبائرِ عندَ أهلِ الحقِّ، وما عداهُ خطأٌ واضحٌ[3].

- وجِيءَ بـ(ثُم) الَّتي تُفيدُ التَّراخيَ في قولِه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾، مع أنَّ عدَمَ الارتيابِ يجِبُ أنْ يكونَ مُقارنًا للإيمانِ؛ لأنَّ مَن وُجِد منه الإيمانُ رُبَّما اعترَضَه الشَّيطانُ أو بعضُ المُضلِّين بعْدَ ثَلَجِ الصَّدْرِ، فشَكَّكه، وقذَفَ في قلْبِه ما يَثلِمُ يَقينَه، أو نظَرَ هو نظَرًا غيرَ سَديدٍ يَسقُطُ به على الشَّكِّ، ثمَّ يَستمِرُّ على ذلك راكبًا رأْسَه لا يَطلُبُ له مَخرجًا، فوُصِفَ المؤمنونَ حقًّا بالبُعدِ عن هذه المُوبِقاتِ. أو أنَّ الإيقانَ وزَوالَ الرَّيبِ لَمَّا كان مِلاكَ الإيمانِ، وكان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٧).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٧).

هذا عظيمًا، والثَّباتُ عليه أعظَمَ -وهو عَينُ الحِكمةِ-؛ أشارَ إلى عظيمِ مَزيَّةِ الثَّباتِ بقولِه: ﴿ثُمَّ﴾، أي: بعدَ امتِطاءِ هذه الرُّتبةِ العظيمةِ ﴿لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾، أي: يُنازِعوا الفِطرةَ الأُولى في تعمُّدِ التَّسبُّبِ إلى الشَّكِّ، ولم يُوقِعوا الشَّكَّ في وقتٍ مِن الأوقاتِ الكائنةِ بعدَ الإيمانِ؛ فأُفرِدَ بالذِّكْرِ بعدَ تَقدُّمِ الإيمانِ؛ تَنبيهًا على مَكانِه، وعُطِفَ على الإيمانِ بكلمةِ التَّراخي؛ إشعارًا باستِقرارِه في الأزمنةِ المتراخيةِ المتطاوِلةِ غضًّا جديدًا. أو هو مِن تَرتيبِ الكلامِ لا مِن تَرتيبِ الزَّمانِ، أي: ثُمَّ أقولُ: لم يَرْتابوا[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ إيماءٌ إلى بَيانِ قولِه: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: ١٤]، أي: مِن أجْلِ ما يُخالِجُكم ارتيابٌ في بَعضِ ما آمَنْتُم به ممَّا اطَّلَع اللهُ عليه[2]، وهذا بِناءً على كونِهم منافقين.

- قولُه: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المقصودُ مِن إدْماجِ ذِكْرِ الجِهادِ التَّنويهُ بفضْلِ المؤمنينَ المجاهِدينَ، وتَحريضُ الَّذين دخَلوا في الإيمانِ على الاستعدادِ إلى الجِهادِ[3].

- وفي قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ قصْرٌ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ أيضًا[4]، أي: هم الصَّادقونَ لا أنتُم في قَولِكم: ﴿ءَامَنَّا﴾[5].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) ١٤/ ٥١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٦٧).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٨).

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أُعيدَ فِعلُ ﴿قُلْ﴾؛ لِيَدُلَّ على أنَّ المَقولَ لهم هذا هُمُ الأعرابُ الَّذين أُمِرَ أنْ يقولَ لهم: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ إلى آخِرِه، فأُعِيدَ لَمَّا طالَ الفصلُ بيْنَ القولَينِ بالجُمَلِ المُتتابِعةِ؛ فهذا مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] اتِّصالَ البيانِ بالمُبيَّنِ؛ ولذلك لم تُعطَفْ جُملةُ الاستِفهامِ. وجُملةُ (قُلْ) مُعترِضةٌ بيْنَ الجُملتينِ المُبيَّنةِ والمُبيِّنةِ[(١)].

- قولُه: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قولُه: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾، أيْ: أتُخبِرونَه بذلك بقولِكم: ﴿آمَنَّا﴾؟! والتَّعبيرُ عَنْه بالتَّعليمِ؛ لغايةِ تَشنيعِهم[(٢)]، والتَّعليمُ مُبالَغةٌ في إيصالِ العِلمِ إلى المُعلَّمِ؛ لأنَّ صِيغةَ التَّفعيلِ تَقتضي قوَّةً في حُصولِ الفِعلِ، وهذا يُفيدُ أنَّهم تَكلَّفوا وتَعسَّفوا في الاستِدلالِ على خُلوصِ إيمانِهم؛ لِيُقنِعوا به الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذي أبلَغَهم أنَّ اللهَ نَفَى عنْهم رُسوخَ الإيمانِ، فمُحاوَلةُ إقناعِه تَدَلٍّ إلى مُحاوَلةِ إقناعِ اللهِ بما يَعلَمُ خِلافَه[(٣)]!

- والاستِفهامُ في ﴿أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والإنكارِ، وقد أيَّدَ التَّوبيخَ والإنكارَ بجُملةِ الحالِ في قولِه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: أتُخبِرونَه به بقولِكم: آمَنَّا، واللهُ يعلمُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يَخفَى عليه خافيةٌ؟! وفي هذا تَجْهيلٌ لهم وتَوبيخٌ؛ إذ حاوَلوا إخفاءَ باطِنِهم عن المُطَّلِعِ على كلِّ شيءٍ[(٤)]! وذلك على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور))

قولٍ في التَّفسيرِ.

- وباءُ ﴿بِدِينِكُمْ﴾ صِلةٌ؛ لتأكيدِ لُصوقِ الفِعلِ بمَفعولِه(١).

- وجُملةُ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تَذْييلٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، أيْ: مبالِغٌ في العِلمِ بجميعِ الأشياءِ الَّتي مِن جُملتِها ما أخفَوهُ مِن الكُفرِ عندَ إظهارِهم الإيمانَ، وفيه مَزيدُ تَجْهيلٍ وتوبيخٍ لهم(٢). وذلك على القولِ بأنَّهم كانوا منافِقينَ.

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ(٣).

- وجِيءَ بالمُضارعِ في ﴿يَمُنُّونَ﴾، معَ أنَّ مَنَّهم بذلك حصَلَ فيما مَضَى؛ لاستِحضارِ حالةِ مَنِّهم؛ كيف يَمُنُّون بما لم يَفعَلوا؟! وجِيءَ بالمُضارعِ في قولِه: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾؛ لأنَّه مَنٌّ مَفروضٌ؛ لأنَّ المَمْنونَ به لَمَّا يَقعْ، وفيه مِن الإيذانِ بأنَّه سيَمُنُّ عليهم بالإيمانِ ما في قولِه: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، وهذا مِن التَّفنُّنِ البَديعِ في الكلامِ؛ ليَضَعَ السَّامعُ كلَّ فنٍّ منه في قَرارِه(٤).

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ في قولِه: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾؛ لإفادةِ التَّقويةِ(٥).

- وقد أُضِيفَ الإسلامُ إلى ضَميرِهم ﴿أَنْ أَسْلَمُوا﴾؛ لأنَّهم أتَوا بما يُسمَّى

(٢٦/ ٢٦٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إسلامًا؛ لقولِه: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات: ١٤]. وأُتِي بالإيمانِ مُعرَّفًا بلامِ الجنسِ ﴿هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾؛ لأنَّه حقيقةٌ في حدِّ ذاتِه، وأنَّهم مُلابِسوها[(١)].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ جوابُ الشَّرطِ محذوفٌ؛ لدَلالةِ ما قَبْلَه عليه، تَقديرُه: إنْ كنتُم صادِقينَ في ادِّعائِكم الإيمانَ، فلِلَّهِ المِنَّةُ عليكم[(٢)].

- وفي سِياقِ الآيةِ لُطفٌ ورَشاقةٌ؛ وهو أنَّهم لَمَّا قالوا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿ءَامَنَّا﴾ كما حكاهُ اللهُ آنِفًا، سمَّاهُ هُنا إسلامًا؛ لقولِه: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، أي: إنَّ الَّذي مَنُّوا به عليك إسلامٌ لا إيمانٌ. وأثبَتَ بحرْفِ (بل) أنَّ ما مَنُّوا به إنْ كان إسلامًا حقًّا مُوافِقًا للإيمانِ؛ فالمِنَّةُ للهِ لأنْ هَداهُم إليه، فأسْلَموا عن طَواعيةٍ. وسمَّاهُ إيمانًا مُجاراةً لزَعْمِهم؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ كَونِ المِنَّةِ للهِ؛ فمُناسَبةُ مُسايَرةِ زَعْمِهم أنَّهم آمَنوا، أي: لو فُرِضَ أنَّكم آمنْتُم كما تَزْعمون، فإنَّ إيمانَكم نِعمةٌ أنعَمَ اللهُ بها عَليكم؛ ولذلك ذيَّلَه بقَولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ فنَفى أوَّلًا أنْ يكونَ ما يَمُنُّون به حقًّا، ثمَّ أفادَ ثانيًا أنْ يكونَ الفضْلُ فيما ادَّعَوه لهم لو كانوا صادِقينَ، بل هو فضْلُ اللهِ[(٣)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تَذييلٌ؛ ذُيِّلَ تَقويمُهم على الحقِّ بهذا التَّذييلِ ليَعلَموا أنَّ اللهَ لا يُكتَمُ، وأنَّه لا يُكذَبُ؛ لأنَّه يَعلَمُ كلَّ غائبةٍ في السَّماءِ والأرضِ؛ فإنَّهم كانوا في الجاهليَّةِ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٠).

تَخطُرُ ببالِ كثيرٍ منهم أُصولُ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ، ورُبَّما عَلِمَها بعضُهم[١]. فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ما غابَ فيهما، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ في سرِّكم وعلانيتِكم، فكيفَ يخفَى عليه ما في ضَمائرِكم[٢]؟!

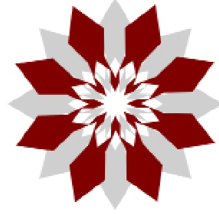
- وتأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إِنَّ)؛ لأنَّهم بحالِ مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ يَعلَمُ الغيبَ، فكذَبوا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع عِلمِهم أنَّه مُرسَلٌ مِن اللهِ، فكان كَذِبُهم عليه مِثلَ الكذِبِ على اللهِ[٣]. وذلك بِناءً على أنَّهم كانوا مُنافقينَ.

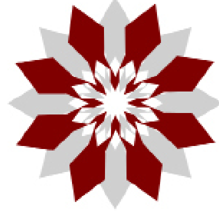
- وقد أفادتْ هذه الجُملةُ تأْكيدَ مَضمونِ جُملتَي ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات: ١٦]، ولكنَّ هذه زادَتْ بالتَّصريحِ بأنَّه يَعلَمُ الأمورَ الغائبةَ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ العُمومَينِ في الجُملتَينِ قَبْلَها عُمومانِ عُرفيَّانِ قياسًا على عِلمِ البشرِ[٤].

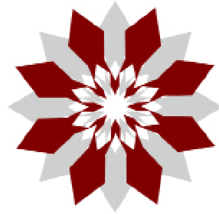
- وخِتامُ سُورةِ الحُجراتِ بهذِه الآيةِ الجليلةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مع الْتِئامِه بما قبْلَه: فيه تَقريرُ ما في أوَّلِ السُّورةِ، وهو قولُه تعالَى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحجرات: ١]؛ فإنَّه لا يخفَى عليه سِرٌّ؛ فلا تَتْرُكوا خَوفَه في السِّرِّ، ولا يَخفَى عليه علَنٌ؛ فلا تأْمَنوه في العَلانيةِ[٥].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٨).

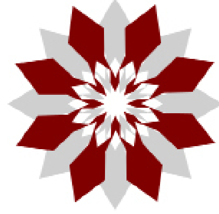


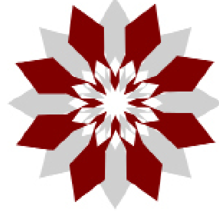


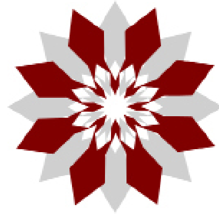


تَفْسِيرُ

سُورَةِ ق







سُورةُ ق

أسماءُ السُّورة:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ ﴿قٓ﴾، و﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾(١)، وممَّا يدُلُّ على ذلك:

١- أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ سَألَ أبا واقِدٍ اللَّيثيَّ: ((ما كان يَقرَأُ به رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الأَضحَى والفِطرِ، فقال: كان يَقرَأُ فيهما بـ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، و﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]))(٢).

٢- عن أمِّ هِشامٍ بِنتِ حارِثةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: ((لقدْ كان تَنُّورُنا(٣) وتَنُّورُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ واحِدًا سَنَتينِ أو سَنةً وبَعضَ سَنةٍ، وما أَخَذْتُ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلَّا عن لِسانِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ يَقرَؤُها كُلَّ يومِ جُمُعةٍ(٤) على المِنبَرِ إذا خَطَبَ النَّاسَ))(٥).

---

(١) سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بـ﴿قٓ﴾، أو: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾؛ لافتِتاحِها بهما. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٧).

قال ابنُ عاشور: (وهي مِنَ السُّوَرِ التي سُمِّيَت بأسماءِ الحُروفِ الواقِعةِ في ابتدائِها، مِثلُ: ﴿طه﴾، و﴿صٓ﴾، و﴿قٓ﴾، و﴿يسٓ﴾؛ لانفرادِ كُلِّ سُورةٍ منها بعدَدِ الحُروفِ الواقِعةِ في أوائِلِها، بحيثُ إذا دُعِيَت بها لا تلتَبِسُ بسُورةٍ أُخرى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٣).

(٢) أخرجه مسلم (٨٩١).

(٣) التَّنُّور: الَّذي يُخْبَزُ فيه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٩٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٤/ ٩٥).

(٤) قيل: المرادُ يَقرأُ أولَ السُّورةِ لا جميعَها. وقيل: كان يَقرأُ في كُلِّ جُمعةٍ بعضَها، فحَفِظَت الكلَّ. وقيل: لعلَّ المرادَ جُمُعاتٌ حضَرَت أمُّ هشامٍ فيها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١٠٤٤)، ((لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح)) للدهلوي (٣/ ٥٢٣).

(٥) أخرجه مسلم (٨٧٣).

وفي رِوايةٍ: ((مَا حَفِظْتُ ﴿قٓ﴾ إلَّا مِنْ فِي رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ...))[(١)].

٣- عن جابِرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَقرَأُ في الفَجرِ بـ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾، وكانتْ صلاتُه بَعْدُ تخفيفًا))[(٢)].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- يُستَحَبُّ قِراءتُها على المِنبَرِ يومَ الجُمُعةِ:

عن أمِّ هِشامٍ بنتِ حارِثةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: ((ما أَخذْتُ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلَّا عن لِسانِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ يَقرَؤُها كُلَّ يومِ جُمُعةٍ على المِنبَرِ إذا خَطَبَ النَّاسَ))[(٣)].

٢- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقرَأُ بها في الرَّكعةِ الأُولى مِن صَلاةِ العِيدِ:

عن أبي واقِدٍ اللَّيثيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كان يَقرَأُ في الفِطرِ والأضْحَى بـ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، و﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]))[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٣).

(٢) أخرجه مسلم (٤٥٨).

(٣) تقَدَّم تخريجُه قريبًا.

قال النَّووي: (قال العُلَماءُ: سَبَبُ اختيارِ ﴿قٓ﴾ أنَّها مُشتَمِلةٌ على البَعثِ والمَوتِ، والمواعِظِ الشَّديدةِ، والزَّواجِرِ الأكيدةِ...، وفيه استِحبابُ قِراءةِ ﴿قٓ﴾ أو بَعضِها في كُلِّ خُطبةٍ). ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٦١).

(٤) تقَدَّم تخريجُه قريبًا.

وقال ابنُ كثير: (والقَصدُ أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ بهذه السُّورةِ في المجامِعِ الكِبارِ، كالعيدِ والجُمَعِ؛ لاشتِمالِها على ابتِداءِ الخَلقِ، والبَعثِ والنُّشورِ، والمَعادِ والقِيامِ، =

٣- أنَّ سُورةَ (ق) هي أوَّلُ المُفَصَّلِ[(١)]، على ما رَجَّحه بَعضُ أهلِ العِلمِ[(٢)].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ ﴿قٓ﴾ مَكِّيَّةٌ[(٣)]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[(٤)].

= والحِسابِ، والجنَّةِ والنَّارِ، والثَّوابِ والعِقابِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٣).

(١) قال السُّيوطي: (والمُفَصَّلُ ... سُمِّيَ بذلك لكَثرةِ الفُصولِ التي بيْنَ السُّوَرِ بالبَسملةِ. وقيلَ: لقِلَّةِ المنسوخِ منه؛ ولهذا يُسَمَّى بالمُحْكَمِ أيضًا، كما روَى البُخاريُّ [٥٠٣٥] عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ قال: «إنَّ الذي تَدْعونَه المُفَصَّلَ هو المُحكَمُ»، وآخِرُه سورةُ النَّاسِ بلا نِزاعٍ. واختُلِفَ في أوَّلِه على اثنَي عَشَرَ قَولًا). ((الإتقان في علوم القرآن)) (١/ ٢٢١).

(٢) وممَّن اختار أنَّ المُفَصَّلَ يَبدأُ مِن سُورةِ ﴿قٓ﴾ إلى آخِرِ القُرآنِ: أبو الوَليدِ ابنُ رُشدٍ الجَدُّ، وابنُ كثيرٍ، والبقاعيُّ، وابن حَجرٍ، ومَرعي الكرميُّ، والشَّوكاني. يُنظر: ((البيان والتحصيل)) لابن رشد الجد (١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ١٩٥)، ((قلائد المرجان)) لمرعي (ص: ١٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٣).

وقال الزَّرْكشيُّ: (والصَّحيحُ عندَ أهلِ الأثَرِ أنَّ أوَّلَه ﴿قٓ﴾). ((البرهان في علوم القرآن)) (١/ ٢٤٦). ويُنظر: ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٢/ ٥٥).

وقال ابنُ حجر: (واختُلِفَ في أوَّلِ المُفَصَّلِ مع الاتِّفاقِ على أنَّه آخِرُ جُزءٍ مِنَ القُرآنِ). ((فتح الباري)) (٩/ ٨٤).

وقال السُّيوطيُّ: (فائِدةٌ: للمُفَصَّلِ طِوالٌ وأوساطٌ وقِصارٌ؛ قال ابنُ مَعْنٍ: فطِوالُه إلى ﴿عَمَّ﴾، وأوساطُه منها إلى «الضُّحَى»، ومنها إلى آخِرِ القُرآنِ قِصارُه. هذا أقرَبُ ما قيلَ فيه). ((الإتقان في علوم القرآن)) (١/ ٢٢٢).

(٣) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، فمَدَنيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٩).

(٤) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٧).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

تقريرُ أُصولِ الإيمانِ: البَعثُ والنُّشورُ، والنبُوَّةُ[١].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ الموضوعاتِ التي اشتَمَلت عليها هذه السُّورةُ:

١- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريم، والتَّنويهُ بشَأنِه.

٢- ذِكرُ دَعاوَى المُشرِكينَ وإنكارِهم للنبُوَّةِ والبَعثِ، والرَّدُّ عليهم.

٣- الحَثُّ على النَّظَرِ في خَلقِ السَّمَواتِ وما فيها، وخَلقِ الأرضِ وما عليها، ونَشأةِ النَّباتِ والثِّمارِ، وأنَّ ذلك مَثَلٌ للإحياءِ بعدَ الموتِ.

٤- التَّذكيرُ بسُوءِ عاقِبةِ المكَذِّبينَ السَّابِقينَ، وما استحَقُّوا مِن وَعيدٍ وعَذابٍ.

٥- التَّذكيرُ بعِلمِ اللهِ تعالَى الشَّامِلِ لكُلِّ شَيءٍ.

٦- ذِكرُ سكراتِ الموتِ ومشاهدَ مِن يومِ القيامةِ وأهوالِها، وما يَجري فيها.

٧- وَعْدُ المُؤمِنينَ بالجَنَّةِ في الآخِرةِ، مع ذِكرِ أهَمِّ صِفاتِهم.

٨- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا أصابه مِن قَومِه، وإرشادُه إلى ما يُعينُه على مُداوَمةِ الصَّبرِ؛ مِنَ التَّسبيحِ آناءَ اللَّيلِ، وأطرافَ النَّهارِ، وأدبارَ السُّجُودِ.

٩- أمرُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالتذكيرِ بالقرآنِ مَن يخافُ وعيدَ الله ويخشَى عقابَه.

١٠- أمْرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتَّذكيرِ بالقُرآنِ مَن يَخافُ وَعيدَ اللهِ تعالى، ويَخشَى عِقابَه.

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٥).

الآيات (١-٥)

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ
عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا
كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴿٤﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾: أي: الكَريمِ، الشَّريفِ، والمَجْدُ: بُلوغُ النِّهايةِ في الكرَمِ، ووُصِف القرآنُ بذلك لكثرةِ ما يَتضمَّنُ مِن المكارِمِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، والمجدُ أيضًا: الشَّرفُ الواسِعُ، وأصلُ (مجد): يدُلُّ على بُلوغِ النِّهايةِ، ولا يكونُ إلَّا في محمودٍ[1].

﴿مُّنذِرٞ﴾: أي: مُحَذِّرٌ ومُخَوِّفٌ، وأصْلُ الإنذارِ: إخبارٌ فيه تخويفٌ[2].

﴿رَجۡعُۢ﴾: أي: إعادةٌ، يُريدون البَعثَ بعدَ الموتِ، وأصْلُ (رجع): يدُلُّ على ردٍّ وتَكرارٍ[3].

﴿مَّرِيجٍ﴾: أي: مُختَلِطٍ، وأصْلُ (مرج): يدُلُّ على الخَلطِ[4].

المعنى الإجماليُّ:

يَبتدئُ اللهُ تعالَى هذه السُّورةَ الكريمةَ بأحَدِ الحُروفِ المُقَطَّعةِ، التي تأتي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٧)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٧٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧١)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٧).

لبَيانِ إعجازِ هذا القُرآنِ. ثمَّ يُقسِمُ تعالَى بالقُرآنِ الكريمِ الواسِعِ المعاني، ذي الصِّفاتِ العَظيمةِ.

ثمَّ يقولُ سُبحانَه: بلْ تَعَجَّب المشركون واستَنكَروا مَجيءَ رَسولٍ مِنَ البَشَرِ يُحَذِّرُهم مِن عَذابِ اللهِ تعالَى، فقال كُفَّارُ قُرَيش: إنَّه لشَيءٌ عَجيبٌ أنْ يأتيَنا رَسولٌ مِنَ البَشَرِ، أئِذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا نُبعَثُ أحياءً بعدَ ذلك؟! إنَّ ذلك الرُّجوعَ إلى الحياةِ مرَّةً أخرَى بَعيدٌ وقوعُه!

ثمَّ يرُدُّ اللهُ تعالَى عليهم، فيقولُ: قدْ عَلِمْنا ما تَأكُلُ الأرضُ مِن أجسادِهم بعدَ مَوتِهم، وعِندنا كِتابٌ حافِظٌ لكلِّ شَيءٍ، مَحفوظٌ مِن الشَّياطينِ ومِن التَّغيُّرِ.

ثمَّ يَكشِفُ اللهُ تعالَى عن حَقيقةِ أمْرِهم، فيقولُ: بلْ كَذَّبوا بالقُرآنِ حينَ جاءَهم؛ فهُم في أمْرٍ مُختلِطٍ مُلتبِسٍ عليهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾.

﴿قٓ﴾.

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بهذا الحرفِ مِن الحُروفِ المقطَّعةِ التي تُستفتَحُ بها كثيرٌ مِن سُوَرِ القرآنِ لبيانِ إعجازِه؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها[1].

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾.

أي: أُقْسِم بالقُرآنِ الكريمِ، الواسِعِ المعاني، الشَّريفِ، ذي الصِّفاتِ العظيمةِ الكامِلةِ[2].

(١) يُنظر ما تَقدَّم في تفسيرِ سُورةِ البَقَرةِ (١/ ٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾.

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾.

أي: بَلْ[1] تَعَجَّبوا واستَنكَروا مَجيءَ رَسولٍ مِنَ البَشَرِ يُحَذِّرُهم مِن عَذابِ اللهِ

= (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣).

قال السَّمين الحلَبيُّ: (قولُه: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾: قَسَمٌ. وفي جَوابِه أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّه قولُه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ﴾. الثاني: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ﴾. الثالثُ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾. الرابعُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾. الخامسُ: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾. وهو قولٌ كوفيٌّ؛ قالوا: لأنَّه بمعنى «قدْ عَجِبوا». السادس: أنَّه مَحذوفٌ، فقدَّره الزجَّاج والأخفشُ والمبرِّدُ «لَتُبْعَثُنَّ»). ((الدر المصون)) (١٠/ ١٧).

ويُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٢٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٤١).

وقال ابنُ كَثير: (الجَوابُ هو مَضمونُ الكلامِ بعْدَ القَسَمِ، وهو إثْباتُ النُّبوَّة، وإثباتُ المَعادِ، وتَقْريرُه وتَحقيقُه وإنْ لَمْ يَكُنِ القَسَمُ مُتلقًّى لفظًا، وهذا كثيرٌ في أقْسامِ القُرآنِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٢، ٤٢٧).

وقيل: الجوابُ هو الَّذي وقَعَ عنه الإضرابُ بـ﴿بَلْ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق: ٢]، يعني كأنَّه قال: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ ما رَدُّوا أمْرَك بحُجةٍ، أو ما كذَّبوك ببُرهانٍ. وممَّن اختاره: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٥).

وقال ابنُ القَيِّم: (هاهنا قد اتَّحد المُقسَمُ به والمُقسَمُ عليه، وهو القُرآنُ؛ فأقسَمَ بالقُرآنِ على ثُبوتِه وصِدقِه، وأنَّه حَقٌّ مِن عِندِه؛ ولذلك حُذِفَ الجُوابُ ولم يُصَرَّحْ به؛ لِما في القَسَمِ مِن الدَّلالةِ عليه، أو لأنَّ المقصودَ نَفسُ المُقسَمِ به). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٤٢٥).

وقال ابنُ عُثَيمين: (وأظهَرُ ما يكونُ أنْ نقولَ: إنَّ مِثلَ هذا التركيبِ لا يَحتاجُ إلى جَوابِ القَسَمِ؛ لأنَّه معروفٌ مِن عَظَمةِ المُقسَمِ عليه، فكأنَّه أقسَمَ بالقُرآنِ على صِحَّةِ القُرآنِ؛ فالقُرآنُ المَجيدُ لِكَونِه مَجيدًا كان دَليلًا على الحَقِّ، وأنَّه مُنَزَّلٌ من عندِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وحينَئذٍ لا يَحتاجُ القَسَمُ إلى جوابٍ؛ لأنَّ الجَوابَ في ضِمنِ القَسَمِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٢).

(١) قال الشَّوكاني: (﴿بَلْ﴾ لِلإضْرابِ عن الجوابِ على اختِلافِ الأقوالِ، و﴿أَن﴾ في مَوضِعِ =

تعالى[١].

= نَصْبٍ على تقديرِ: لِأَنْ جاءَهم. والمعنى: بلْ عَجِبَ الكفَّارُ لِأَنْ جاءهُم مُنذِرٌ منهم، وهو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، ولم يَكْتَفوا بمُجَرَّدِ الشَّكِّ والرَّدِّ، بلْ جَعَلوا ذلك مِن الأمورِ العجيبةِ. ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٤).

وقال القاسميُّ: (وقيل: هو إضرابٌ عمَّا يُفهَمُ مِن وَصفِ القُرآنِ بالمَجيد، كأنَّه قيل: ليس سَبَبُ امتِناعِهم من الإيمانِ بالقُرآنِ أنَّه لا مَجْدَ له، ولكِنْ لجَهْلِهم). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٦).

وقال ابنُ عادلٍ: (إذا ترَكَ المتكلِّمُ المُضْرَبَ عنه صريحًا وأتى بحرفِ الإضرابِ، اسْتُفِيدَ منه أمرانِ:

أحدُهما: الإشارةُ إلى أمْرٍ آخَرَ قبْلَه مُضرَبٌ عنه.

والثاني: عِظَمُ التَّفاوتِ بيْنهما، وهاهنا كذلك؛ لأنَّ الشَّكَّ بعْد قيامِ البُرهانِ بعيدٌ، لكنَّ القطعَ بخلافِه في غايةِ ما يكون مِن البُعدِ، فالعجَبُ منه أبعَدُ). ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٩)، ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٨-٢٧٩).

قال ابنُ عطيةَ: (واختَلَف النَّاسُ في الضَّميرِ في ﴿عَجِبُوٓاْ﴾ لِمَن هو؟ فقال جمهورُ المتأوِّلينَ: هو لجَميعِ النَّاسِ مُؤمِنِهم وكافِرِهم... لكِنِ المُؤمِنونَ نَظَروا واهتَدَوا، والكافِرونَ بَقُوا في عَمايتِهم وصَمُّوا وحاجُّوا بذلك العَجَبِ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾. وقال آخَرونَ: بل الضَّميرُ في ﴿عَجِبُوٓاْ﴾ للكافِرينَ، وكَرَّر الكلامَ تأكيدًا ومُبالَغةً). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٦).

قيلَ المرادُ بالآيةِ: تعجُّبُهم من مَجيءِ رَسولٍ بَشَريٍّ إليهم. وممَّن اختارَه: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، وابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٨-٢٧٩).

قال السَّعدي: (مِن جِنسِهم، يُمكِنُهم التلقِّي عنه، ومعرفةُ أحوالِه وصِدقِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣).

وقيل: المرادُ بـ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: مِن قَومِهم، قد عرَفوا نسَبَه وصِدقَه وأمانتَه. وممَّن اختارَه في الجُملةِ: السَّمرقنديُّ، والثَّعلبيُّ، والبَغويُّ، والزمخشريُّ، والنَّسَفيُّ، والخازنُ، وهو ظاهِرُ اختيارِ البقاعيِّ، وابن عُثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦١)، ((تفسير =

كما قال الله تعالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾

أي: فقال كُفَّارُ قُريشٍ: إنَّه لشَيءٌ مُستغرَبٌ ومُستبعَدٌ أنْ يأتيَنا رَسولٌ مِنَ البَشَرِ يُنذِرُ بعَذابٍ بعدَ الموتِ[1]!

﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أظهَرَ الكافِرونَ العَجَبَ مِن رِسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أظهَروا استِبعادَ ما أخبَرَهم به[2].

وأيضًا لَمَّا كان المتعَجَّبُ منه مُجمَلًا، أوضَحَه بقَولِه[3]:

= الخازن)) (٤/ ١٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٣-٤٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٥).

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾.

أي: قال المُشرِكونَ: أئِذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا نُبعَثُ أحياءً بعْدَ ذلك، ونَرى ما وُعِدْنا مِن العَذابِ[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ * قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨١ - ٨٣].

﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾.

أي: قال المُشرِكونَ: رَدُّنا أحياءً بعدَ مَوتِنا وصَيْرورتِنا تُرابًا وعِظامًا، بَعيدٌ وقوعُه، ومحالٌ حُدوثُه[2]!

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ④﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبْلَها:

لَمَّا كان السِّياقُ لإحاطةِ العِلمِ بما نَعلَمُ وما لا نَعلَمُ، توقَّعَ السَّامعُ الجوابَ عن هذا الجَهلِ؛ فقال مُزيلًا لسَببِه[3]:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٤).

قال ابنُ عُثَيمين: (يَحسُنُ عندَ التِّلاوةِ أن تَقِفَ على قَولِه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ جملةٌ استِئنافيَّةٌ لا عَلاقةَ لها مِن حيثُ الإعرابُ بما قَبْلَها). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٤). ويُنظر: ((القطع والائتناف)) للنحَّاس (ص: ٦٧٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٥).

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾.

أي: قدْ عَلِمْنا ما تَأكُلُ الأرضُ مِن أجسادِهم بعدَ مَوتِهم، ولا يَخْفى علينا شَيءٌ مِن أجزاءِ أجسامِهم المتفَرِّقةِ؛ فلا يظُنَّ الكافِرونَ أنَّنا غيرُ قادِرينَ على إحيائِهم إذا ماتوا وصاروا تُرابًا(١).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ليس مِنَ الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبلَى، إلَّا عَظمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ(٢)، ومنه يُركَّبُ الخَلْقُ يومَ القِيامةِ))(٣).

وعن أَوسِ بنِ أَوسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ مِن أفضَلِ أيَّامِكم يومَ الجُمُعةِ؛ فيه خُلِقَ آدَمُ، وفيه النَّفخةُ، وفيه الصَّعقةُ، فأكثِروا علَيَّ مِن الصَّلاةِ فيه؛ فإنَّ صَلاتَكم مَعروضةٌ عليَّ. فقال رجلٌ: يا رَسولَ اللهِ، كيف تُعرَضُ صَلاتُنا عليك وقد أَرَمْتَ؟! -يعني: بَلِيتَ- فقال: إنَّ اللهَ حَرَّم على الأرضِ أنْ تَأكُلَ أجسادَ الأنبياءِ))(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٠-٢٨١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٤).

(٢) عَجْبُ الذَّنَبِ: هو العَظْمُ اللَّطيفُ الَّذي في أسفلِ فَقارِ الظَّهرِ، وأعْلَى ما بينَ الألْيَتَينِ، وهو رأسُ العُصعُصِ. يُنظر: ((التعليق على الموطأ)) للوقشي (١/ ٢٦٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩٢)، ((طرح التثريب)) للعراقي (٣/ ٣٠٧).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٩٣٥)، ومسلمٌ (٢٩٥٥).

(٤) أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، والنَّسائيُّ (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٦٣٦) واللفظ له، وأحمد (١٦١٦٢). صَحَّحه على شرْط الشَّيخينِ: الحاكمُ في ((المستدرك)) (٥/ ٧٧٦)، ومحمد بن عبد الهادي في ((الصارم المُنْكي)) (٣٣٦)، وابن باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (٢/ ٢٠٦)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٦٣٦)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((المجموع)) (٤/ ٥٤٨)، وذكَرَ ثُبوتَه ابنُ تيميَّة في ((حقوق آل البيت)) (٦٠)، وصحَّحه لغيره شُعيبٌ الأرناؤوط في =

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾.

أي: وعِندنا كِتابٌ يَحوي كلَّ شَيءٍ، وحافِظٌ لكلِّ شَيءٍ، وهو مَحفوظٌ مِن الشَّياطينِ ومِن التغيُّرِ(١).

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥﴾.

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾.

= تخريج ((سنن أبي داود)) (١٠٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٥).

قال الرازيُّ: (الحَفيظُ: يحتَمِلُ أنْ يكونَ بمعنى المحفوظِ، أي: مَحفوظٌ مِن التغييرِ والتبديلِ، ويحتَمِلُ أنْ يكونَ بمعنى الحافِظِ، أي: حافِظٌ أجزاءَهم وأعمالَهم، بحيث لا يَنسى شيئًا منها). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢٥).

وقيل: هو محفوظٌ من الشَّياطينِ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: مُقاتِلُ بنُ سُليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: مَحفوظٌ مِن الشَّياطينِ، ومِن أنْ يُدرَسَ ويُبعثَرَ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ: الثَّعلبيُّ، والبَغويُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٠).

وممَّن اختار أنَّ ﴿حَفِيظُۢ﴾ بمعنى حافظٍ: القُرطبيُّ، والشَّوكاني، وابن عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠١).

قال البقاعيُّ: (أي: بالِغٌ في الحِفظِ لا يَشِذُّ عنه شَيءٌ مِن الأشياءِ دَقَّ أو جَلَّ، فكيف يَستبعِدونَ على عظَمَتِنا أنْ نَقدِرَ على تَمييزِ تُرابِهم مِن تُرابِ الأرضِ، ولم يَختلِطْ في عِلْمنا شيءٌ مِن جُزءٍ منه بشَيءٍ مِن جُزءٍ آخَرَ، فَضلًا عن أنْ يختَلِطَ شَيءٌ منه بشَيءٍ آخَرَ مِن تُرابِ الأرضِ أو غيرِها). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٠٦).

وقال العُلَيمي: (﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾ مَحفوظٌ مِن الشياطينِ، جامعٌ لم يَفُتْه شيءٌ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٨٠).

أي: بلْ[١] سارَعوا إلى التَّكذيبِ بالقُرآنِ حينَ جاءَهم[٢].

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

أي: فهُم في أمْرٍ مُختلِطٍ مُضطَرِبٍ مُلتبِسٍ عليهم[٣].

---

(١) قال الشَّوكاني: (أضْرَب سُبحانَه عن كَلامِهم الأوَّلِ، وانْتَقَل إلى ما هو أشنَعُ منه فقالَ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾؛ فإنَّه تصريحٌ منهم بالتكذيبِ بعدَ ما تقدَّم عنهم مِن الاستبعادِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٥). يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٤).

وقال ابنُ عُثَيمين: (﴿بَلْ﴾ هنا للإضرابِ الانتقاليِّ، ولَيستْ للإضرابِ الإبطاليِّ؛ لأنَّ الأوَّلَ ثابتٌ، والثَّانيَ زائدٌ عليه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٥).

وقال ابنُ عطيةَ: (وقبْلَ قَولِه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟﴾ مُضمَرٌ، عنه وقَع الإضرابُ، تقديرُه: ما أجادوا النَّظَرَ، أو نحوُ هذا، والَّذي يَقَعُ عنه الإضرابُ بـ﴿بَلْ﴾ الأغلَبُ فيه أنَّه مَنفيٌّ تَقضي «بَلْ» بفَسادِه، وقدْ يكونُ أمرًا موجَبًا تَقضي «بَلْ» بتَركِ القَولِ فيه لا بفَسادِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٧).

وقيل: المضروبُ عنه تقديرُه: لم يَكذِبِ المُنذِرُ، بلْ هم الَّذين كَذَّبوا؛ فإنَّه تعالَى لَمَّا قال عنهم: إنَّهم قالوا: هذا شيءٌ عَجيبٌ، كان في معنى قولِهم: إنَّ المُنذِرَ كاذِبٌ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٥).

قال الماوردي: («الحقُّ» يعني القرآنَ في قَولِ الجميعِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٥، ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٥).

قال ابنُ القيِّم: (لَمَّا تَرَكوا الحَقَّ وعَدَلوا عنه مَرَج عليهم أمرُهم والتَبَس، فلا يَدرونَ ما يقولونَ وما يَفعلونَ، بلْ لا يقولونَ شيئًا إلَّا كان باطِلًا، ولا يَفعلونَ شَيئًا إلَّا كان ضائِعًا غيرَ نافعٍ لهم، وهذا شأنُ كُلِّ مَن خرَج عن الطَّريقِ الموصِلِ إلى المقصودِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٢٧-١٢٨).

وقال السِّعديُّ: (فتارةً يقولونَ عنك: إنَّك ساحِرٌ، وتارةً مجنونٌ، وتارةً شاعِرٌ، وكذلك جعَلوا القُرآنَ عِضِينَ؛ كُلٌّ قال فيه ما اقتضاهُ رأيُه الفاسِدُ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَال اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ فهو وَسيعُ المعاني عَظيمُها، كَثيرُ الوُجوهِ، كَثيرُ البَرَكاتِ، جَزيلُ المبَرَّاتِ، والمجدُ: سَعةُ الأوصافِ وعَظَمتُها، وأحَقُّ كَلامٍ يُوصَفُ بهذا: هذا القُرآنُ الذي قدِ احتوى على عُلومِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، الذي حَوى مِنَ الفَصاحةِ أكمَلَها، ومِنَ الألفاظِ أجزَلَها، ومِنَ المعاني أعَمَّها وأحسَنَها، وهذا مُوجِبٌ لكَمالِ اتِّباعِه، وسُرعةِ الانقيادِ له، وشُكرِ اللهِ على المِنَّةِ به(١). وقيل: المجْدُ صِفةُ العَظَمةِ والسُّلطانِ، فالقُرآنُ مَجيدٌ ذو غَلَبةٍ وذو سُلطانٍ، يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، مَن تمسَّك به فله العِزَّةُ وله الغَلَبةُ، والمجدُ هو العِزَّةُ والسُّلطانُ والقُوَّةُ، فالقرآنُ مَجيدٌ، ومَن تمسَّك بالمَجيدِ كان مَجيدًا عَظيمًا(٢).

٢- مَن رَدَّ الحَقَّ مَرَجَ عليه أمرُه، واختَلَطَ عليه، والْتَبَسَ عليه وَجهُ الصَّوابِ؛ فلم يَدرِ أين يذهَبُ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾(٣)، فكلُّ إنسانٍ يَرُدُّ الحقَّ أوَّلَ مرَّةٍ فلْيَعلَمْ أنَّه سيُبتلَى بالشَّكِّ والرَّيبِ في قَبولِ الحقِّ في المُستَقبَلِ؛ فهؤلاء لَمَّا كَذَّبوا صاروا في أمْرٍ مَريجٍ، الْتبَسَ عليهم الأمرُ وتَرَدَّدُوا فيه. وبَعضُ النَّاسِ حينَ يُقالُ له: أَمَرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهذا، يَقولُ: الأمرُ للوُجوبِ أمْ للاستِحبابِ؟! ويَقصِدُ: إذا كان للاستِحبابِ فأنا في حِلٍّ منه، وإذا كان للوُجوبِ فعَلْتُه! وهذا خَطأٌ، ولكِنْ قُلْ: سَمِعْنا وأطَعْنا، وافعَلْ ما أُمِرْتَ به سواءً على الوُجوبِ أو على الاستِحبابِ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٨٠٣).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٥).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالَى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ عَجَّب منهم هذا العَجَبَ بقَولِه: ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ لأنَّ العادةَ عِندَهم وعِندَ جميعِ النَّاسِ أنَّه إذا كان النَّذيرُ منهم لم يُداخِلْهم في إنذارِه شَكٌّ بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ، وهؤلاء خالَفوا عادةَ النَّاسِ في تَعجُّبِهم مِن كَونِ النَّذيرِ -وهو أحَدُهم- خُصَّ بالرِّسالةِ دُونَهم، ولم يُدرِكوا وَجهَ الخُصوصيَّةِ لكونِه مِثْلَهم، فكذلك أنكَروا رِسالتَه وفَضْلَ كِتابِه بألسِنَتِهم نَفاسةً وحَسَدًا؛ لأنَّهم كانوا مُعترِفينَ بخَصائِصِه التي رفَعه اللهُ تعالَى عليهم بها قبْلَ الرِّسالةِ، فحَطَّهم عَجَبُهم ذلك إلى الحَضيضِ من دَرَكاتِ السَّفَهِ وخِفَّةِ الأحلامِ؛ لأنَّهم عَجِبوا أنْ كان الرَّسولُ بَشَرًا، وأوجَبوا أنْ يكونَ الإلهُ حَجَرًا! وعَجِبوا مِن أنْ يُعادوا مِن تُرابٍ وتَثبُتَ له الحياةُ، ولم يَعجَبوا أنْ يُبتَدَؤوا مِن تُرابٍ، ولم يكُنْ له أصلٌ في الحياةِ[(١)]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ يدُلُّ على البَعثِ، وقُدرتِه تعالَى عليه؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى عالِمٌ بأجزاءِ كُلِّ واحدٍ مِن الموتَى، لا يَشتَبِهُ عليه جُزءُ واحدٍ بجُزءِ الآخَرِ، وقادِرٌ على الجَمعِ والتَّأليفِ؛ فليس الرَّجعُ منه ببَعيدٍ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه يُعيدُ هذا الجَسَدَ بعَينِه، الَّذي أطاع وعَصى، فيُنَعِّمُه ويُعَذِّبُه، كما يُنَعِّمُ الرُّوحَ التي آمَنَتْ بعَينِها، ويُعَذِّبُ التي كَفَرَتْ بعَينِها، لا أنَّه سُبحانَه يَخلُقُ رُوحًا أُخرى غيرَ هذه فيُنَعِّمُها ويُعَذِّبُها، كما قاله مَن لم يَعرِفِ المعادَ الذي أَخبرَتْ به الرُّسُلُ؛ حيثُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢٥).

زَعَمَ أنَّ اللهَ سُبحانَه يَخلُقُ بَدَنًا غيرَ هذا البَدَنِ مِن كلِّ وَجهٍ، عليه يَقَعُ النَّعيمُ والعَذابُ! فإنَّه سُبحانَه جَعَلَ هذا جَوابًا لسؤالٍ مُقَدَّرٍ؛ وهو أنَّه يُمَيِّزُ تلك الأجزاءَ التي اختَلَطَتْ بالأرضِ واستَحالَتْ إلى العناصرِ بحيثُ لا تَتميَّزُ؛ فأخبَرَ سُبحانَه أنَّه قدْ عَلِمَ ما تَنقُصُه الأرضُ مِن لُحومِهم وعِظامِهم وأشعارِهم، وأنَّه كما هو عالِمٌ بتلك الأجزاءِ فهو قادِرٌ على تَحصيلِها وجَمعِها بعدَ تَفَرُّقِها، وتأليفِها خَلْقًا جديدًا[(١)].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ أي: بناءً على هذا التَّكذيبِ صاروا في أمْرٍ مَريجٍ مُضطَرِبٍ، ليْس لهم قَرارٌ، وليْس لهم سُكونٌ؛ ولذلك تَجِدُ الإنسانَ كُلَّما كان أشَدَّ يَقينًا في دِينِ اللهِ كان أثبَتَ وأنظَمَ لعَمَلِه، وكُلَّما كان أشَدَّ تكذيبًا كان دائِمًا في قَلَقٍ؛ ولذلك قال: ﴿فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾[(٢)].

٥- قال اللهُ تعالَى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ يُستفادُ مِن هذه الآيةِ: أنَّ مِمَّا يَفتَحُ اللهُ به على العَبدِ في مَعرفةِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ أنْ يكونَ مُصَدِّقًا مُوقِنًا؛ فكُلَّما كان مُصَدِّقًا مُوقِنًا فَتَحَ اللهُ له ما لا يَفتحُه لِغَيرِه، أمَّا مَن كان مُكَذِّبًا فإنَّ أبوابَ الهدايةِ تُغلَقُ دُونَه؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، والعِياذُ باللهِ![(٣)]

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۞ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٥)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٦-١٥٧).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ قسَمٌ بالقُرآنِ، والقسَمُ به كِنايةٌ عن التَّنويهِ بشأْنِه؛ لأنَّ القسَمَ لا يكونُ إلَّا بعَظيمٍ عندَ المُقسِمِ؛ فكان التَّعظيمُ مِن لَوازمِ القَسَمِ، وأتْبَعَ هذا التَّنويهَ الكِنائيَّ بتَنويهٍ صَريحٍ بوصْفِ القرآنِ بـ﴿ ٱلۡمَجِيدِ ﴾؛ فالمَجيدُ المتَّصِفُ بقوَّةِ المجْدِ، والمجْدُ: الشَّرَفُ الكاملُ وكَرَمُ النَّوعِ، ودلَّت صِيغةُ المُبالَغةِ (مَجيد) على كَمالِ مَجْدِه[١].

- وجَوابُ القَسمِ مَحذوفٌ؛ لِتَذهَبَ نفْسُ السامعِ في تَقديرِه كلَّ طريقٍ مُمكنٍ في المَقامِ، ويدُلُّ عليه ابتداءُ السُّورةِ بحرْفِ (ق) المُشعِرِ بالنِّداءِ على عَجزِهم عن مُعارَضةِ القرآنِ بعدَ تَحدِّيهم بذلك، أو يَدلُّ عليه الإضرابُ في قَولِه: ﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ ﴾، والتَّقديرُ: والقُرآنِ المَجيدِ، إنَّك لَرسولُ اللهِ بالحقِّ، أو يُقدَّرُ الجوابُ: إنَّه لَتنزيلٌ مِن ربِّ العالَمين، أو نحوُ ذلك[٢]. وقيلَ غيرُ ذلك.

- وفي قَولِه: ﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ؛ أضرَبَ عن جَوابِ القسَمِ المحذوفِ لبيانِ حالتِهم الزَّائدةِ في الشَّناعةِ والقُبحِ، وهذا الإضرابُ يَقْتضي كَلامًا مُنتقَلًا منه، فتَعيَّنَ أنْ يُقدِّرَ السَّامعُ جوابًا تَتمُّ به الفائدةُ يدُلُّ عليه الكلامُ، وهذا مِن إيجازِ الحذْفِ[٣]، وحسَّنَه أنَّ الانتقالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨١).
وينظر ما تقدم (ص: ٣٦٧).

(٣) الإيجازُ: هو الاختِصارُ والجمْعُ للمعاني الكَثيرةِ بالألْفاظِ القليلةِ، وأداءُ المقصودِ مِن الكلامِ بأقلَّ مِن عباراتِ مُتعارَفِ الأوساطِ. ويكونُ الإيجازُ مَحمودًا إذا لم يُخِلَّ بالمقصودِ. وقيل: الإيجازُ حذْفُ الفُضولِ، وتقريبُ البعيدِ. وقيل عن البلاغة كُلِّها: هي إصابةُ المعنى، وحُسنُ الإيجازِ.
والإيجازُ نوعانِ: =

مُشعِرٌ بأهمَّيَّةِ المُنتقَلِ إليه، أي: عُدْ عمَّا تُريدُ تَقديرَه مِن جَوابٍ، وانتَقِلْ إلى بَيانِ سَبَبِ إنكارِهم الذي حَدَا بنا إلى القَسَمِ(١).

- وأيضًا قولُه: ﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في الإنكارِ إنكارًا لعجَبِهم البالِغِ حَدَّ الإحالةِ؛ فهو إنكارٌ لتَعجُّبِهم ممَّا ليس بعجَبٍ -وهو أنْ يُنذِرَهم بالمَخُوفِ رجُلٌ منهم قدْ عرَفوا وَساطتَه فيهم وعَدالتَه وأمانتَه، ومَن كان على صِفتِه لم يكُنْ إلَّا ناصحًا لقومِه، خائفًا أنْ يَنالَهم سُوءٌ، ويَحُلَّ بهم مَكروهٌ، وإذا عَلِمَ أنَّ مَخُوفًا أظلَّهم، لَزِمَه أنْ يُنذِرَهم ويُحذِّرَهم؛ فكيْف بما هو غايةُ المخاوفِ ونهايةُ المحاذيرِ؟!- وإنكارٌ لتعجُّبِهم ممَّا أنذَرَهم به مِن البَعثِ مع عِلمِهم بقُدْرةِ اللهِ تعالَى على خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنهما، وعلى اختراعِ كُلِّ شَيءٍ وإبداعِه، وإقرارِهم بالنَّشأةِ الأُولَى، ومعَ شَهادةِ العقلِ بأنَّه لا بُدَّ مِن الجزاءِ(٢).

= الأولُ: إيجازُ القِصَرِ (ويُسمَّى إيجازَ البَلاغةِ)، وهو ما ليس بحَذْفٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فإنَّه لا حذْفَ فيه معَ أنَّ معناه كثيرٌ يَزيدُ على لفْظِه؛ لأنَّ المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا علِم أنَّه متَى قَتَل قُتِل، كان ذلك داعيًا له قويًّا إلى ألَّا يُقدِمَ على القِتالِ؛ فارتفَع بالقتْلِ -الذي هو قِصاصٌ- كثيرٌ مِن قتْلِ الناسِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان ارتفاعُ القتلِ حياةً لهم.

الثاني: إيجازُ الحَذْف، والإيجازُ بالحذْفِ: هو حذفُ ما يُعلَمُ ويُفهَمُ مِن سِياقِ الكلامِ بشرطِ وُجودُ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه؛ فقدْ يكونُ الإيجازُ بالحذفِ وغيرِه. والفرقُ بينَ الحذفِ والإيجازِ أن يكون في الحذفِ مقدَّرٌ، بخِلافِ الإيجازِ؛ فإنَّه عبارةٌ عن اللفظِ القليلِ الجامعِ للمعاني الجمَّةِ بنفْسِه. يُنظر: ((البيان والتبيُّن)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشِيق (١/ ٢٤٢)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٨١ وما بعدها)، ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٧٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٩، ٣٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير =

- وضَميرُ ﴿عَجِبُوٓاْ﴾ عائدٌ إلى غَيرِ مذْكورٍ؛ فمَعادُه مَعلومٌ مِن السِّياقِ، وهو افتتاحُ السُّورةِ بحرْفِ التَّهجِّي الذي قُصِدَ منه تَعجيزُهم عن الإتيانِ بمِثلِ القرآنِ؛ لأنَّ عجْزَهم عن الإتيانِ بمِثْلِه في حالِ أنَّه مُركَّبٌ مِن حُروفِ لُغتِهم، يدُلُّهم على أنَّه ليْس بكلامِ بَشرٍ، بلْ هو كلامُ اللهِ أبلَغَه إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على لِسانِ المَلَكِ؛ فإنَّ المُتحَدَّينَ بالإعجازِ مَشهورون يَعلمُهم المسلِمونَ، وهم أيضًا يَعلَمونَ أنَّهم المَعْنيُّونَ بالتَّحدِّي بالإعجازِ(١). وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- و﴿أَن جَآءَهُم﴾ مَجرورٌ بـ (مِن) المَحذوفةِ، أي: عَجِبوا مِن مَجيءِ مُنذرٍ منهم، أو عَجِبوا مِن ادِّعاءِ أنْ جاءهُم مُنذِرٌ منهم(٢).

- وعُبِّرَ عن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بوَصْفِ ﴿مُّنذِرٌ﴾ -وهو المخبرُ بشَرٍّ سيَكونُ-؛ للإيماءِ إلى أنَّ عجَبَهم كان ناشئًا عن صِفتَينِ في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إحداهما: أنَّه مُخبِرٌ بعذابٍ يكونُ بعدَ الموتِ، أي: مُخبِرٌ بما لا يُصدِّقون بوُقوعِه، وإنَّما أنذَرَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعَذابِ الآخِرةِ بعدَ البعثِ، والثانيةُ: كونُه مِن نَوعِ البشَرِ(٣).

- واقتُصِرَ على النِّذارةِ؛ لأنَّه لَمَّا لم يَتعيَّنْ للبِشارةِ مَوضِعٌ كان في حَقِّهم مُنذِرًا لا غيرُ(٤)، أو لِتَخويفِ مَن أنكَرَ البَعثَ؛ اقتُصِرَ على النِّذارةِ(٥)، أو أنَّه

= أبي حيان)) (٩/ ٥٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٣).

عُبِّرَ بما دَلَّ على النِّذارةِ؛ لأنَّها المقصودُ الأعظَمُ مِن هذه السُّورةِ[١].

- قولُه: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ حِكايةٌ لتعجُّبِهم، وتفسيرٌ له، وبيانٌ لكَونِه مُقارنًا لغايةِ الإنكارِ، مع زِيادةِ تَفصيلٍ لمحَلِّ التَّعجُّبِ[٢].

- وفُرِّعَ على التَّكذيبِ الحاصِلِ في نُفوسِهم ذِكْرُ مَقالتِهم التي تُفصِحُ عنه وعن شُبهتِهم الباطلةِ بقولِه: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾، وخُصَّ هذا بالعِنايةِ بالذِّكْرِ؛ لأنَّه أدخَلُ عِندَهم في الاستبعادِ، وأحَقُّ بالإنكارِ؛ فهو الذي غَرَّهم، فأحالوا أنْ يُرسِلَ اللهُ إليهم أحدًا مِن نَوعِهم؛ ولذلك وُصِفَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ابتداءً بصِفةِ ﴿مُّنذِرٌ﴾ قبْلَ وَصفِه بأنَّه منهم؛ ليدُلَّ على أنَّ ما أنذَرَهم به هو الباعِثُ الأصليُّ لتَكذيبِهم إيَّاه، وأنَّ كونَه منْهم إنَّما قوَّى الاستِبعادَ والتَّعجُّبَ. ثم إنَّ ذلك يُتخَلَّصُ منه إلى إبطالِ حُجَّتِهم وإثباتِ البَعثِ، وهو المقصودُ بقولِه: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡ﴾ إلى قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾[٣] [ق: ٤- ١١].

- قولُه: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ ...﴾ وقولُه: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ إضْمارُهم أوَّلًا في قَولِه: ﴿عَجِبُوٓاْ﴾؛ للإشعارِ بتَعيُّنِهم بما أُسنِدَ إليهم، وإظهارُهم ثانيًا ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ...﴾ للتَّسجيلِ عليهم بالكُفرِ بمُوجِبه. أوْ عطْفٌ لتَعجُّبِهم مِن البَعثةِ، على أنَّ ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى مُبهمٍ يُفسِّرُه ما بعْدَه مِن الجُملةِ الإنكاريَّةِ ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾، ووضْعُ المُظهَرِ مَوضعَ المُضمرِ؛ إمَّا لسَبْقِ اتِّصافِهم بما يُوجِبُ كُفْرَهم، وإمَّا للإيذانِ بأنَّ تعجُّبَهم مِن البَعثِ -لدَلالتِه على

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٩).

استقصارِهم لقُدْرةِ اللهِ سُبحانَه عنْه، معَ مُعايَنتِهم لقُدْرتِه تعالَى على ما هُو أشقُّ منْه في قِياسِ العَقلِ مِن مَصنوعاتِه البَديعةِ- أشنَعُ مِن الأوَّلِ، وأعرَقُ في كَونِه كُفْرًا[١]، وقيل غيرُ ذلك[٢].

- وحصَلَ في ضِمْنِ هاتَينِ الفاصلتينِ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ * بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ خُصوصيَّاتٌ كثيرةٌ مِن البلاغةِ؛ منها إيجازُ الحذْفِ[٣]، ومنها: ما أفادَه الإضرابُ مِن الاهتِمامِ بأمرِ البَعثِ، ومنها: الإيجازُ البَديعُ الحاصِلُ مِن التَّعبيرِ بوصْفِ ﴿مُّنذِرٞ﴾، ومنها: إقحامُ وصْفِه بأنَّه ﴿مِّنۡهُمۡ﴾؛ لأنَّ لذلك مَدخلًا في تَعجبُّهِم، ومنها: الإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ على خِلافِ مُقْتضى الظاهرِ؛ فوُضِع ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ للشَّهادةِ على أنَّهم في قَولِهم هذا مُقدِمونَ على الكُفرِ العظيمِ، ومنها: الإجمالُ المُعْقَبُ بالتَّفصيلِ في قَولِه: ﴿هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ * أَءِذَا مِتۡنَا﴾[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾

- قولُه: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ والإبطالِ، والجُملةُ تَقريرٌ للتَّعجيبِ وتأْكيدٌ للإنكارِ، يُريدون تَعجيبَ السَّامعين مِن ذلك تَعجيبَ إحالةٍ؛ لئلَّا يُؤمِنوا به، وجعَلوا مَناطَ التَّعجيبِ الزَّمانَ الذي

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٤).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٩).

أفادَتْه (إذا) وما أُضِيفَ إليه، أي: زَمنَ مَوتِنا، وكَونِنا تُرابًا. والمُستفهَمُ عنه مَحذوفٌ دلَّ عليه ظَرْفُ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾، وحُذِفَ لأنَّه غَنيٌّ عنِ البَيانِ؛ لغايةِ شُهْرتِه معَ دَلالةِ ما بعْدَه عليه، والتَّقديرُ: أنرْجِعُ إلى الحياةِ في حِينِ انعِدامِ الحياةِ منَّا بالموتِ، وحِينِ تَفتُّتِ الجَسَدِ وصَيرورتِه تُرابًا[١]؟!

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾ مُؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ بطَريقِ الحَقيقةِ والذِّكْرِ؛ لأنَّ شأنَ التَّأكيدِ أنْ يكونَ أجْلَى دَلالةً[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لرَدِّ قَولِهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]؛ فإنَّ إحالتَهم البَعثَ ناشئةٌ عن عِدَّةِ شُبَهٍ؛ منها: أنَّ تفرُّقَ أجزاءِ الأجسادِ في مَناحي الأرضِ ومَهابِّ الرِّياحِ، لا يُبقي أمَلًا في إمكانِ جَمعِها؛ إذْ لا يُحيطُ بها مُحيطٌ، وأنَّها لو عُلِمَت مَواقِعُها لَتعذَّرَ الْتقاطُها وجَمعُها، ولوْ جُمِعَت كيف تَعودُ إلى صُوَرِها التي كانتْ مُشكَّلةً بها، وأنَّها لو عادتْ كيف تَعودُ إليها؟! فاقتُصِرَ في إقْلاعِ شُبَهِهم على إقلاعِ أصْلِها، وهو عَدَمُ العِلمِ بمَواقعِ تلك الأجزاءِ وذرَّاتِها. وفُصِلَت الجُملةُ بدونِ عطْفٍ؛ لأنَّها ابتداءُ كَلامٍ لردِّ كَلامِهم، وهذا هو الأليَقُ بنَظْمِ الكلامِ. وقيل: هي جَوابُ القسَمِ، وأيًّا ما كان فهو رَدٌّ لقولِهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾[٣].

- وأيضًا هذا الكَلامُ بيانٌ للإمكانِ؛ رَعيًا لِمَا تَضمَّنه كَلامُهم مِن الإحالةِ؛ لأنَّ ثُبوتَ الإمكانِ يُقلِعُ اعتِقادَ الاستِحالةِ مِن نُفوسِهم، وهو كافٍ لإبطالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٠، ٢٨١).

تَكذيبِهم ولاستِدعائِهم للنَّظَرِ في الدَّعوةِ، ثم يَبْقى النَّظَرُ في كيفيَّةِ الإعادةِ، وهي أمْرٌ لم نُكلَّفْ بالبحثِ عنه[١].

- وعُبِّرَ بلفظِ ﴿نَنقُصُ ٱلْأَرْضُ﴾ دونَ التَّعبيرِ بالإعدامِ؛ لأنَّ للأجسادِ درَجاتٍ مِن الاضمحلالِ تَدخُلُ تحْتَ حقيقةِ النَّقصِ؛ فقدْ يَفنى بعضُ أجزاءِ الجسَدِ ويَبْقى بعضُه، وقدْ يَأتي الفَناءُ على جميعِ أجزائِه، إلا أنَّه قدْ صحَّ أنَّ عَجْبَ الذَّنَبِ لا يَفنَى[٢]، فيكون فَناءُ الأجسادِ نَقصًا لا انعدامًا[٣].

- قولُه: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ عُطِفَ على قولِه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ عَطْفَ الأعمِّ على الأخصِّ، وهو بمَعنى تَذييلٍ لجُملةِ ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، أي: وعِندَنا عِلمٌ بكلِّ شَيءٍ عِلمًا ثابتًا؛ فتَنكيرُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ للتَّعظيمِ، وهو تَعظيمُ التَّعميمِ، أي: عِندنا كِتابُ كلِّ شَيءٍ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ إضرابٌ ثانٍ تابعٌ للإضرابِ الذي في قَولِه: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق: ٢] على طَريقةِ تَكريرِ الجُملةِ في مَقامِ التَّنديدِ والإبطالِ، أو بدَلٌ مِن جُملةِ ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾؛ لأنَّ ذلك العجَبَ مُشتمِلٌ على التَّكذيبِ، وكِلا الاعتبارَينِ يَقْتضيانِ فصْلَ هذه الجُملةِ بدونِ عاطفٍ، والمَقصِدُ مِن هذه الجُملةِ: أنَّهم أتَوا بأفظَعَ وأشنَعَ وأقبَحَ مِن إحالتِهم البَعثَ؛ وذلك هو التَّكذيبُ بالحقِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨١).

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي =

- و﴿لَمَّا﴾ حرْفُ تَوقيتٍ؛ فهي دالَّةٌ على ربْطِ حُصولِ جَوابِها بوقْتِ حُصولِ شَرْطِها، فهي مُؤذِنةٌ بمُبادَرةِ حُصولِ الجوابِ عندَ حُصولِ الشَّرطِ، والمعنى: أنَّهم بادَروا بالتَّكذيبِ دونَ تأمُّلٍ ولا نظَرٍ فيما حَواهُ مِن الحَقِّ، بلْ كذَّبوا به مِن أوَّلِ وَهْلةٍ، فكذَّبوا بتَوحيدِ اللهِ، وهو أوَّلُ حقٍّ جاء به القُرآنُ؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا﴾ إلى قولِه: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [ق: ٦- ١١]؛ فالتَّكذيبُ بما جاء به القُرآنُ يعُمُّ التَّكذيبَ بالبَعثِ وغيرِه[١].

- قولُه: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ فُرِّعَ على الخَبرِ المُنتقَلِ إليه بالإضرابِ وَصْفُ حالِهم النَّاشئةِ عن المُبادَرةِ بالتَّكذيبِ قبْلَ التَّأمُّلِ بأنَّها أمْرٌ مَريجٌ أحاط بهمْ، وتَجلْجَلوا فيه، كما دلَّ عليه حَرفُ الظَّرفيَّةِ (في). والمُريجُ: المُضطرِبُ المُختلِطُ، أي: لا قَرارَ في أنفُسِهم في هذا التَّكذيبِ. وهذا تَحميقٌ لهم بأنَّهم طاشَتْ عُقولُهم، فلم يُتْقنوا التَّكذيبَ، ولم يَرْسُوا على وَصْفِ الكلامِ الذي كذَّبوا به[٢].



= السعود)) (٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٨٤، ٢٨٥).

الآيات (٦-١١)

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ
مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ
مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ
بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فُرُوجٍ﴾: أي: صُدوعٍ وفُتوقٍ وشُقوقٍ، وأصلُ (فرج): يدُلُّ على تَفتُّحٍ في الشَّيءِ[1].

﴿رَوَٰسِىَ﴾: أي: جِبالًا ثوابِتَ، وأصلُه: يدُلُّ على ثَباتٍ[2].

﴿بَهِيجٍ﴾: أي: حَسَنٍ عَجيبٍ، وأصلُ (بهج): يدُلُّ على السُّرورِ والنُّضْرةِ[3].

﴿تَبْصِرَةً﴾: أي: تَبْصيرًا وتِبيانًا، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على عِلمٍ بالشَّيءِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٨).

﴿وَذِكۡرَىٰ﴾: أي: مَوعِظةً وتَذكِرةً، وأصلُ (ذكر): يدُلُّ على خِلافِ النِّسيانِ[١].

﴿مُّنِيبٍ﴾: أي: رَجَّاعٍ تائبٍ، ومُتذَلِّلٍ خاشِعٍ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادٍ ورُجوعٍ[٢].

﴿ٱلۡحَصِيدِ﴾: أي: الزَّرعِ المحصودِ مِن البُرِّ والشَّعيرِ وسائِرِ أنواعِ الحُبوبِ، وأصلُ (حصد): يدُلُّ على قَطعِ الشَّيءِ[٣].

﴿بَاسِقَٰتٖ﴾: أي: طَويلاتٍ، وأصلُ (بسق): يدُلُّ على ارتفاعِ الشَّيءِ وعُلُوِّه[٤].

﴿طَلۡعٞ﴾: الطَّلعُ: أوَّلُ ما يَخرُجُ مِن ثَمَرِ النَّخلِ، وأصلُ (طلع): يدُلُّ على ظُهورٍ وبُروزٍ[٥].

﴿نَّضِيدٞ﴾: أي: مُصَفَّفٌ بَعضُه فَوقَ بَعضٍ، وأصلُ (نضد): يدُلُّ على ضَمِّ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٠، ٤٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦).

قال ابنُ القيِّم: (وفي اللَّفظةِ معنى الإسراعِ والرُّجوعِ والتقَدُّم، والمُنيبُ إلى اللهِ: المُسرِعُ إلى مَرضاتِه، الرَّاجِعُ إليه كُلَّ وَقتٍ، المتقَدِّمُ إلى مَحابِّه). ((مدارج السالكين)) (١/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧).

شَيءٍ إلى شَيءٍ في اتِّساقٍ وجَمْعٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالَى مبيِّنًا الأدلَّةَ على قُدرتِه، وعلى أنَّ البعثَ حقٌّ: أفلمْ يَنظُرْ هؤلاء المكَذِّبونَ بالبعثِ إلى السَّماءِ فَوقَهم، فيَتأمَّلوا كيفيَّةَ بِنائِها وتَزيينِها بالنُّجومِ، وأنَّها مُحكَمةُ البِناءِ ليس بها صُدوعٌ ولا تَشقُّقاتٌ؟! والأرضَ بَسَطَ اللهُ تعالَى سَطْحَها، وجعَلَ فيها جِبالًا راسيةً تُثبِّتُها لكيْلا تَضطرِبَ، وأنبَتَ فيها مِن كُلِّ نوعٍ مِن أنواعِ الزُّروعِ التي تَسُرُّ النَّاظِرينَ؛ لحُسْنِها، قدْ جعَلَ اللهُ هذه الأشياءَ كُلَّها تَبصِرةً وتَذكيرًا لكُلِّ عَبدٍ رجَّاعٍ إلى اللهِ تعالَى.

ونزَّلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً كثيرَ الخَيرِ، فأنبَتَ بسَبَبِه بَساتينَ وأنواعَ الحُبوبِ التي تُحصَدُ -كالقَمحِ والذُّرَةِ وغَيرِهما-، والنَّخلَ طَويلاتٍ لها ثِمارٌ مَصفوفٌ بَعضُها فوقَ بَعضٍ؛ رِزقًا للنَّاسِ، وأحيَا اللهُ بماءِ المطَرِ بَلدةً مُجدِبةً لا زَرْعَ فيها، فكما أحيَا اللهُ الأرضَ بعْدَ مَوتِها كذلك يُخرِجُكم -أيُّها النَّاسُ- يومَ القِيامةِ أحياءً بعدَ مَوتِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالَى حالةَ المكَذِّبينَ وما ذَمَّهم به، دعاهم إلى النَّظَرِ في آياتِه الأُفُقيَّةِ؛ كي يَعتَبِروا ويَستَدِلُّوا بها على ما جُعِلَت أدِلَّةً عليه[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٨٠٤).

﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦﴾.

أي: أفلمْ يَنظُرْ هؤلاء المكَذِّبونَ بقُدرةِ اللهِ على إحياءِ الموتَى إلى السَّماءِ الَّتي رفَعَها اللهُ فَوقَهم، فيَتأمَّلوا كيفيَّةَ بُنيانِنا العَظيمِ لها وتَزيينِنا لها بالنُّجوم، وأنَّه ليس بها صُدوعٌ ولا تَشقُّقاتٌ، بل هي مَبنيَّةٌ بإحكامٍ بلا عُيوبٍ؟! فالَّذي قدَر على فِعلِ ذلك لا يُعجِزُه شَيءٌ سُبحانَه[1]!

كما قال تعالَى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: ٣].

وقال تعالَى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ [النبأ: ١٢].

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧﴾.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾.

أي: والأرضَ بَسَطْنا سَطْحَها[2].

كما قال تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الرعد: ٣].

﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾.

أي: وجعَلْنا فيها جِبالًا راسيةً تُثبِّتُها، فلا تَضطرِبُ الأرضُ ولا تَميدُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٧-٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالَى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [الرعد: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠].

﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

أي: وأنبَتْنا في الأرضِ مِن كُلِّ نوعٍ مِن أنواعِ الزُّروعِ والنَّباتِ والثِّمارِ التي تَسُرُّ النَّاظِرينَ؛ مِن حُسْنِها[1].

قال تعالَى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾.

= (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٨).

قيل: ﴿رَوَٰسِيَ﴾ بمعْنى أنَّها راسيةٌ في الأرضِ وثابتةٌ عليها. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابن جَرير، والسَّمرقندي، والماوَرْدي، والواحدي، والبَغوي، والبيضاوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٨٧).

وقيل: المعنى أنَّها تُرسي الأرضَ وتُثبِّتها. وهذا ظاهرُ اختيارِ ابنِ أبي زَمَنين، ومكِّي، وجَلال الدِّين المحلِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٦٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٣١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٨٩).

وقال ابنُ عُثَيمين جامعًا بين المعنيينِ: (﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالًا ثابتاتٍ لا تُزعزِعُها الرِّياحُ فهي قاسيةٌ، وكذلك أيضًا تُرسي الأرضَ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٨).

وقال أبو السُّعودِ: (﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ جبالًا ثَوابتَ، مِنْ رسَا الشَّيءُ: إذَا ثبتَ، والتعبيرُ عنْها بهذا الوصفِ للإيذانِ بأنَّ إلقاءَها لإرساءِ الأرضِ بهَا). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالَى هذه الصَّنائعَ الباهِرةَ؛ علَّلها بقولِه[(١)]:

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾.

أي: فعَلْنا ذلك مِن أجْلِ أنْ يُبصِرَ ويتذَكَّرَ كُلُّ عَبدٍ رجَّاعٍ إلى اللهِ تعالَى، مُقبِلٍ على طاعتِه، فيَستَدِلَّ بالنَّظَرِ إليها والتَّفكُّرِ فيها على كَمالِ قُدرتِه على البَعثِ وغَيرِه، وإحاطتِه بجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ[(٢)].

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ ﴾.

أي: ونزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً كثيرَ الخَيرِ والنَّفعِ، فأنبَتْنا بسَبَبِه بَساتينَ كَثيرةَ الأشجارِ، وأنبَتْنا به أنواعَ الحُبوبِ التي تُحصَدُ؛ كالبُرِّ والذُّرَةِ، والشَّعيرِ والأُرْزِّ[(٣)].

﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ ﴾.

﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ ﴾.

أي: وأنبَتْنا بماءِ المطَرِ النَّخلَ طَويلاتٍ عالياتٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١٠-٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٠-٢٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٤).

قال الشَّوكاني: (هُما عِلَّتانِ لِما تقدَّمَ مُنْتصِبانِ بالفِعلِ الأخيرِ منْها، أوْ بمُقدَّرٍ، أي: فعَلْنا ما فعَلْنا للتَّبصيرِ والتَّذكيرِ، قالهُ الزَّجَّاجُ. وقال أبو حاتِمٍ: انتَصَبا على المصْدريةِ، أيْ: جَعَلْنا ذلك تَبصِرةً وذِكْرى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٥)، ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١١-٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) =

﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾.

أي: للنَّخلِ الطِّوالِ طَلعٌ -وهو أوَّلُ ما يَظهَرُ مِن ثَمَرِه، وهو في غِلافِ العُنقودِ- مُتراكِبٌ مَصفوفٌ بَعضُه فوقَ بَعضٍ[1].

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَرَ اللهُ سُبحانَه بَعضَ ما له في الماءِ مِنَ العَظَمةِ؛ ذكَرَ له عِلَّةً هي غايةٌ في المِنَّةِ على الخَلقِ، فقال[2]:

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾.

أي: أنزَلْنا المطَرَ، وأنبَتْنا به الجنَّاتِ والحُبوبَ والنَّخيلَ؛ رِزقًا للنَّاسِ مُؤمِنِهم وكافِرِهم[3].

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

أي: وأحيَيْنا بماءِ المطَرِ بَلدةً مُجدِبةً لا زَرْعَ فيها ولا نَبْتَ[4].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

= (٥/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨١).

أي: كما أحْيَينا الأرضَ بعدَ مَوتِها كذلك نُخرِجُكم يومَ القِيامةِ أحياءً بعدَ مَوتِكم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقْلُ[(٢)]، ليس مِنَ الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبلى، إلَّا عَظمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ، ومنه يُركَّبُ الخَلقُ يومَ القِيامةِ))[(٣)].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((يَصْعَقُ النَّاسُ، ثمَّ يُنزِلُ اللهُ مَطرًا كأنَّه الطَّلُّ -أو الظِّلُّ- فتَنبُتُ منه أجسادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنفَخُ فيه أُخرى فإذا هم قِيامٌ يَنظرونَ))[(٤)].

الفَوائِدُ التَّربَوِيَّةُ:

١- قال اللهُ تعالَى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ المُنيبُ إلى رَبِّه يَتذكَّرُ بذلك، فإذا تذكَّر تبصَّرَ به، فالتَّذكُّرُ قبلَ التَّبصُّرِ وإنْ قُدِّمَ عليه في اللَّفظِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، والتَّذكُّرُ: تفَعُّلٌ مِنَ الذِّكرِ، وهو حُضورُ صُورةٍ مِنَ المذكورِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٤).

قال ابنُ جَرير: (كما أنبَتْنا بهذا الماءِ هذه الأرضَ المَيْتةَ فأحيَيناها به، فأخرَجْنا نَباتَها وزَرْعَها، كذلك نُخرِجُكم يومَ القِيامةِ أحياءً مِن قُبورِكم من بعْدِ بَلائِكم فيها، بما يَنزِلُ عليها من الماءِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٤).

(٢) البَقْل: هو كلُّ نباتٍ اخضرَّتْ به الأرضُ. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ٤٨).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٩٣٥) واللفظ له، ومسلمٌ (٢٩٥٥).

(٤) رواه مسلم (٢٩٤٠).

في القَلبِ، فإذا استَحضَره القَلبُ وشاهَدَه على وَجهِه أوجَبَ له البَصيرةَ، فأبصَرَ ما جُعِلَ دليلًا عليه، فكان في حَقِّه تَبصرةً وذِكرى، والهُدى مَدارُه على هذَينِ الأصلَينِ: التَّذَكُّرِ، والتبَصُّرِ[١].

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ الآياتُ المخلوقةُ والمَتْلوَّةُ فيها تَبصِرةٌ، وفيها تَذكِرةٌ: تَبصِرةٌ مِنَ العَمَى، وتَذكِرةٌ مِنَ الغَفلةِ؛ فيُبصِرُ مَن لم يكُنْ عَرَف حتَّى يَعرِفَ، ويَذكُرُ مَن عَرَف ونَسِيَ[٢]؛ فإنَّ المضادَّ للعِلمِ إمَّا عَمى القلبِ؛ وزوالُه بالتَّبصُّرِ، وإمَّا غفلتُه؛ وزَوالُه بالتَّذكُّرِ. والمقصودُ تَنبيهُ القَلبِ من رَقدتِه بالإشارةِ إلى شَيءٍ مِن بَعضِ آياتِ اللهِ[٣].

٣- الإنابةُ إنابتانِ: إنابةٌ لرُبوبيَّتِه، وهي إنابةُ المَخلوقاتِ كُلِّها، يَشتَرِكُ فيها المؤمِنُ والكافِرُ، والبَرُّ والفاجِرُ؛ قال اللهُ تعالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عامٌّ في حَقِّ كُلِّ داعٍ أصابه ضُرٌّ، كما هو الواقِعُ، وهذه الإنابةُ لا تَستلزِمُ الإسلامَ، بلْ تجامِعُ الشِّركَ والكُفرَ؛ كما قال تعالَى في حَقِّ هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ * لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ [الروم: ٣٣، ٣٤]؛ فهذا حالُهم بعدَ إنابتِهم.

والإنابةُ الثَّانيةُ: إنابةُ أَوليائِه، وهي إنابةٌ لإلهيَّتِه، إنابةُ عُبوديَّةٍ ومَحبَّةٍ. وهي تَتضَمَّنُ أربعةَ أُمورٍ: محبَّتَه، والخُضوعَ له، والإقبالَ عليه، والإعراضَ عمَّا سِواه؛ فلا يَستَحِقُّ اسمَ المُنيبِ إلَّا مَن اجتمَعَت فيه هذه الأربَعُ، وتَفسيرُ السَّلَفِ لهذه اللَّفظةِ يَدورُ على ذلك[٤]، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾.

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٣٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى قولِه: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ حُجَّةٌ بالاستِدلالِ بالشَّاهدِ على الغائِبِ مِن قُدرةِ الرَّبِّ، وبالخَلْقِ على الخالِقِ مِن صُنعِه[١].

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ ذكَر تعالَى في السَّماءِ ثَلاثةً: البِناءَ، والتَّزيينَ، ونَفْيَ الفُروجِ، وفي الأرضِ ثَلاثةً: المَدَّ، وإلقاءَ الرَّواسي، والإنباتَ. قابَلَ المَدَّ بالبناءِ؛ لأنَّ المَدَّ وَضعٌ، والبِناءَ رَفعٌ، وإلقاءَ الرَّواسي بالتَّزيينِ بالكواكِبِ؛ لارتكازِ كُلِّ واحدٍ منهما، والإنباتَ المترَتِّبَ على الشَّقِّ بانتِفاءِ الفُروجِ؛ فلا شَقَّ فيها[٢].

٣- العِلمُ يَحصُلُ بالعِلمِ بالدَّليلِ لِمَن لم يكُنْ عالِمًا به قَطُّ، ولِمَن يَذكُرُه بعْدَ النِّسيانِ إذا كان قدْ عَلِمَه ثمَّ نَسِيَه؛ ولهذا قال سُبحانَه: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾؛ فبَيَّن سُبحانَه أنَّ آياتِه تَبصِرةٌ وتَذكِرةٌ؛ فالتَّبصِرةُ بعْدَ العَمَى، وهو الجَهلُ، والتَّذكِرةُ بعدَ النِّسيانِ، وهو ضِدُّ العِلمِ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ احتَجَّ به بَعضُهم على استِدارةِ السَّماءِ، وإحاطتِها بالأرضِ مِن جميعِ جِهاتِها؛ لأنَّه سُبحانَه قال: لا فُروجَ فيها ولا فُطورَ، ولو كانتْ مَبسوطةً غيرَ

(١) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (٤/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٣٤١).

مُتَّصِلةِ الأطرافِ، لم تكُنْ كذلك[١]، فنَفيُ الفُروجِ فيها على هذا الوَجهِ المؤكَّدِ يدُلُّ دَلالةً ظاهِرةً على أنَّ السَّماءَ كُرةٌ مُجوَّفةُ الوَسَطِ، مُقبَّبةٌ كالبَيضةِ[٢].

٥- قَولُه تعالَى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ الفَرقُ بيْنَ التَّبصِرةِ والذِّكرى: أنَّ التَّبصِرةَ مُستَمِرَّةٌ، والذِّكرى عندَ النِّسيانِ؛ فهذه الآياتُ لأجْلِ التَّبصِرةِ والذِّكرى، والفَرقُ بيْنهما: أنَّ التَّبصِرةَ تُوجِبُ العِلمَ والمَعرِفةَ، والذِّكرى تُوجِبُ الإنابةَ والانقيادَ، وبهما تَتِمُّ الهِدايةُ[٣].

٦- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ مِن الحِكمِ في إنزالِ الماءِ مِنَ العُلوِّ لِيَشمَلَ قِمَمَ الجبالِ ومَراتِعَ الإبِلِ، والسَّهْلَ والأوديةَ؛ لأنَّه لو جاء يَمْشي سَيحًا (جاريًا) مِنَ الأرضِ ما وصَلَ إلى قِمَمِ الجِبالِ[٤].

٧- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ فيه سُؤالٌ: قَولُه ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ فيه إضافةُ الشَّيءِ إلى نَفْسِه -لأنَّ الحَبَّ هو الحَصيدُ- وهي مُمتَنِعةٌ؛ لأنَّ الإضافةَ تَقتَضي المغايرةَ بيْنَ المُضافِ والمضافِ إليه؟

الجوابُ: أنَّ هذه الإضافةَ ليْستْ مُمتَنِعةً مُطلَقًا، بل هي جائِزةٌ عند اختِلافِ اللَّفظَينِ، كما في قَولِه: ﴿حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، و﴿حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، و(لَدَارُ الْآخِرَةِ) [يوسف: ١٠٩]، وبتَقديرِ امتِناعِها مُطلَقًا؛ فالتَّقديرُ: حَبُّ الزَّرعِ أو النَّباتِ الحَصيدِ[٥].

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٤٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٨).
(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٠).
(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٥٣١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾ إثباتُ الأسبابِ(١)، وكذا في قَولِه سُبحانَه: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا﴾(٢).

٩- قولُه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ...﴾ الآياتِ، نبَّهَ فيما تعلَّقَ به الإنباتُ على ما يُقطَفُ كُلَّ سَنةٍ، ويَبقَى أصْلُه، وما يُزرَعُ كُلَّ سَنةٍ أو سَنتَينِ، ويُقطَفُ كُلَّ سَنةٍ، وعلى ما اختلَطَ مِن جِنسَينِ، فبَعضُ الثِّمارِ فاكِهةٌ لا قُوتٌ، وأكثَرُ الزَّرعِ قُوتٌ، والثَّمرُ فاكهةٌ وقوتٌ(٣).

١٠- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ * رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ لم يُقيِّدْ هنا العِبادَ بالإنابةِ، وقَيَّدَه في قَولِه تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [ق: ٨]؛ لأنَّ التَّذكِرةَ لا تكونُ إلَّا للمُنيبِ، والرِّزقَ يَعُمُّ كُلَّ أحدٍ، غَيرَ أنَّ المُنيبَ يأكُلُ ذاكِرًا أو شاكِرًا للإنعامِ، وغَيرَه يأكُلُ كما تأكُلُ الأنعامُ؛ فلم يُخَصَّصْ بقَيدٍ(٤).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ﴾ [ق: ٢] إلى قولِه: ﴿مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]؛ لأنَّ أهمَّ ما ذُكِرَ مِن تكذيبِهم أنَّهم كذَّبوا بالبعثِ، وخَلْقُ السَّمواتِ والنُّجومِ والأرضِ دالٌّ على أنَّ إعادةَ الإنسانِ بعدَ العدَمِ في حيِّزِ الإمكانِ؛ فتلك العوالِمُ وُجِدَت عن عدَمٍ(٥).

- قولُه: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ ...﴾ الاستِفهامُ يَجوزُ أنْ يكونَ إنكاريًّا،

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((بغية المرتاد)) لابن تيمية (ص: ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٨٢). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٥).

ويكونَ النَّظرُ نظَرَ الفِكرِ، ومَحلُّ الإنكارِ هو الحالَ التي دلَّ عليها ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾، أي: ألَمْ يتدبَّروا في شَواهدِ الخَليقةِ؛ فتكونَ الآيةُ في معنى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم: ٨]. ويَجوزُ أنْ يكونَ الاستِفهامُ تَقريريًّا، ويكونَ النَّظرُ المُشاهدةَ، ومَحلُّ التَّقريرِ هو فِعلَ ﴿يَنْظُرُوا﴾، أو يكونَ (كيف) مُرادًا به الحالُ المُشاهَدةُ، والتَّقريرُ على نفْيِ الشَّيءِ المُرادِ الإقرارُ بإثباتِه طَريقةٌ قُرآنيَّةٌ، والغرَضُ منه إفساحُ المَجالِ للمُقرَّرِ إنْ كان يَرومُ إنكارَ ما قُرِّرَ عليه؛ ثِقةً من المُقرِّرِ بأنَّ المُقرَّرَ لا يُقدِمُ على الجُحودِ بما قُرِّرَ عليه؛ لظُهورِه. وهذا الوجْهُ أشدُّ في النَّعْيِ عليهم؛ لاقتِضائِه أنَّ دَلالةَ المخلوقاتِ المذكورةِ على إمكانِ البَعثِ يَكفي فيها مُجرَّدُ النَّظَرِ بالعينِ[١].

- وأيضًا لَمَّا أخبَرَهم أنَّهم قالوا عن غيرِ تأمُّلٍ، أنْكَرَ عليهم ذلك مُوبِّخًا لهم دالًّا على صِحَّةِ ما أنْكَروه وفَسادِ إنكارِهم بقولِه -مُسبِّبًا عن عَجَلتِهم إلى الباطِلِ-: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾[٢]؛ فالاستفهامُ هنا للتَّوبيخ؛ يُوبِّخُهم عزَّ وجلَّ لِماذا لم يَنظُروا إلى هذا؟! لِماذا لم يَنظُروا إلى السَّماءِ وما فيها من عَجائِبَ[٣].

- والفاءُ عاطفةٌ على مَحذوفٍ يُطيحُ بكُلِّ ما قالوه افتِئاتًا على الحقِّ، وإنكارًا له، أي: أغَفَلُوا وعَمُوا فلم يَنظُروا[٤]؟!

- قولُه: ﴿إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ أفْرَدَ السَّماءَ ولم يَجمَعْ؛ لأنَّ بِناءَها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٦).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٢).

على ما ذُكِرَ -وإنْ كانتْ واحدةً- يدُلُّ على كَمالِ القُدرةِ؛ فإنَّ البِناءَ المجوَّفَ لا يُمكِنُ إكْمالُ بِنائِه مِن غيرِ أنْ يكونَ له فُروجٌ، وإنِ اختلَّ ذلك كان مَوضعُ الوصلِ ظاهِرًا للرَّائِينَ ما فيه مِن فُتورٍ وشُقوقٍ وقُصورٍ وما يُشبِهُ ذاك[(١)].

- وقولُه: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ حالٌ مِن السَّماءِ، والتَّقييدُ بالحالِ تنْديدٌ عليهم؛ لإهمالِهم التَّأمُّلَ مع المُكنةِ منه؛ إذ السَّماءُ قَريبةٌ فوقَهم، لا يُكلِّفُهم النَّظرُ فيها إلَّا رفعَ رُؤوسِهم[(٢)].

- واقتُصِرَ على آيةِ تَزيينِ السَّماءِ دونَ تَفْصيلِ ما في الكواكبِ المُزيَّنةِ بها مِن الآياتِ؛ لأنَّ التَّزيينَ يَشترِكُ في إدراكِه جَميعُ الذين يُشاهدونَه، وللجمْعِ بيْن الاستِدلالِ والامتِنانِ بنِعمةِ التَّمكينِ مِن مُشاهَدةِ المَرائي الحَسنةِ، ثمَّ يَتفاوتُ النَّاسُ في إدْراكِ ما في خَلْقِ الكواكبِ والشَّمسِ والقَمرِ ونِظامِها مِن دَلائلَ على مِقدارِ تَفاوتِ عُلومِهم وعُقولِهم. والآيةُ صالحةٌ لإفهامِ جَميعِ الطَّبَقاتِ[(٣)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ * تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ﴾ [ق: ٦] عطْفَ الخبَرِ على الاستِفهامِ الإنكاريِّ، وهو في مَعنى الإخبارِ، والتَّقديرُ: ومدَدْنا الأرضَ. ولَمَّا كانتْ أحوالُ الأرضِ نُصبَ أعيُنِ الناسِ، وهي أقرَبُ إليهم مِن أحوالِ السَّماءِ؛ لأنَّها تَلوحُ للأنظارِ دونَ تكلُّفٍ؛ لم يُؤتَ في لَفْتِ أنظارِهم إلى دَلالتِها باستِفهامٍ إنكاريٍّ؛ تَنْزيلًا لهم مَنزِلةَ مَن نظَرَ في أحوالِ الأرضِ، فلمْ يَكونوا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٨٦، ٢٨٧).

بحاجةٍ إلى إعادةِ الإخبارِ بأحوالِ الأرضِ تذكيرًا لهم(١).

- وفائِدةُ هذا الوصْفِ ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ زِيادةُ التَّنبيهِ إلى بَديعِ خلْقِ اللهِ؛ إذ جعَلَ الجِبالَ مُتداخلةً مع الأرضِ، ولم تكُنْ مَوضوعةً عليها وضْعًا كما تُوضَعُ الخَيمةُ؛ لأنَّها لو كانتْ كذلك لَتزلزَلَتْ وسقَطَتْ وأهلكَتْ ما حواليْها(٢).

- وحرْفُ (مِن) في قَولِه: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ مَزيدٌ للتَّوكيدِ؛ فالمقصودُ من التَّوكيدِ بحرْفِ (مِن) تَنزيلُهم مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ أنبَتَ ما على الأرضِ مِن أنواعٍ حين ادَّعَوا استحالةَ إخراجِ الناسِ مِن الأرضِ؛ ولذلك جِيءَ بالتَّوكيدِ في هذه الآيةِ؛ لأنَّ الكلامَ فيها على المشرِكين(٣).

- وكلمةُ ﴿كُلِّ﴾ مُستعمَلةٌ في معْنى الكَثرةِ، وفائدةُ التَّكثيرِ هنا التَّعريضُ بهم؛ لقلَّةِ تَدْبيرِهم؛ إذ عَمُوا عن دَلائلَ كثيرةٍ واضحةٍ بيْنَ أيديهم(٤).

- والوصْفُ ﴿بَهِيجٍ﴾ يُفيدُ ذِكْرُه تَقويةَ الاستدلالِ على دِقَّةِ صُنعِ اللهِ تعالى، وإدْماجَ الامتنانِ عليهم بذلك؛ لِيَشْكُروا النِّعمةَ ولا يَكفُروها بعِبادةِ غيرِه(٥). و(البَهيج) يَجوزُ أنْ يكونَ صِفةً مُشبَّهةً، يُقال: بهُجَ؛ إذا حسُنَ في أعينِ النَّاظرينَ؛ فالبهيجُ بمعنى الفاعِلِ، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠]. ويجوزُ أنْ يكونَ فَعيلًا بمَعنى مَفعولٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أي: مُنبهَجٌ به، على الحذْفِ والإيصالِ[١]، أي: يُسَرُّ به النَّاظرُ، يُقال: بهَجَه؛ إذا سرَّه، ومنه الابتهاجُ: المَسرَّةُ[٢].

- قولُه: ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ عِلَّتانِ للأفعالِ المذْكورةِ، وإنَّما كانتِ التَّبصرةُ والذِّكْرى علَّةً للأفعالِ المذكورةِ؛ لأنَّ التَّبصرةَ والذِّكرى مِن جُملةِ الحِكَمِ التي أوجَدَ اللهُ تلك المخلوقاتِ لأجْلِها، وليْس ذلك بمُقتضٍ انحصارَ حِكمةِ خَلْقِها في التَّبصرةِ والذِّكرى؛ لأنَّ أفعالَ اللهِ تعالَى لها حِكَمٌ كثيرةٌ عَلِمْنا بَعضَها، وخَفِيَ علينا بعضٌ[٣].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ ﴾؛ ليعُمَّ كلَّ ما يَصلُحُ أنْ يُتبصَّرَ في شأنِه بدَلائلِ خلْقِ الأرضِ وما عليها، وأهمُّ ذلك فيهمْ هو التَّوحيدُ والبَعثُ، كما هو السِّياقُ تصْريحًا وتلويحًا[٤].

- وفي قَولِه: ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ خُصَّ العبدُ المُنيبُ بالتَّبصرةِ والذِّكْرى، وإنْ كان فيما ذُكِرَ مِن أحوالِ الأرضِ إفادةُ التَّبصرةِ والذِّكْرى لكلِّ أحدٍ؛ لأنَّ العبدَ المُنيبَ هو الذي يَنتفِعُ بذلك، فكأنَّه هو المقصودُ مِن حِكمةِ تلك الأفعالِ، وهذا تَشريفٌ للمؤمنينَ، وتَعريضٌ بإهمالِ الكافرين التَّبصُّرَ

(١) الحذْفُ والإيصالُ: هو ما يُعرَفُ بنزعِ الخافضِ؛ فقدْ يُحذَفُ حرفُ الجَرِّ سَماعًا، فيَنتصِبُ المجرورُ بعدَ حذْفِهِ تشبيهًا له بالمفعول به، ويُسمَّى المنصوبَ على نزعِ الخافض، أي: الاسم الذي نُصبَ بسَببِ حذْفِ حرفِ الجرِّ، كقولِهِ تعالى: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي: مِن قومِه. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٢/ ١٩٠)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٠).

والتَّذكُّر(١).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ بعْدَ التَّنظُّرِ والتَّذكيرِ والتَّبصيرِ في صُنعِ السَّمواتِ وصُنعِ الأرضِ، نُقِلَ الكلامُ إلى التَّذكيرِ بإيجادِ آثارٍ مِن آثارِ تلك المَصنوعاتِ تَتجدَّدُ على مُرورِ الدَّهرِ حيَّةً، ثمَّ تَموتُ ثمَّ تَحيا دأَبًا، وقدْ غُيِّرَ أسلوبُ الكلامِ لهذا الانتقالِ مِن أُسلوبِ الاستِفهامِ في قَولِه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [ق: ٦]، إلى أُسلوبِ الإخبارِ بقولِه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾؛ إيذانًا بتَبْديلِ المرادِ؛ ليكونَ منه تخلُّصٌ إلى الدَّلالةِ على إمكانِ البعثِ في قَولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]؛ فجُملةُ ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [الحجر: ١٩]، وقدْ ذُكِرَت آثارٌ مِن آثارِ السَّماءِ وآثارِ الأرضِ على طَريقةِ النَّشْرِ المُرتَّبِ على وَفقِ اللَّفِّ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّب، وإمَّا غيرُ مُرتَّب؛ فاللَّفُّ والنشرُ المُرتَّب، هو أنْ يأتي النَّشرُ على وَفقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ، ويُضافُ إلى كلٍّ ما يَليقُ به على الترتيب، كقولِه تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيثُ جاء اللَّفُّ بعبارةِ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وجاء النَّشرُ وَفقَ توزيعٍ مُرتَّبٍ؛ فقولُه: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ يتعلَّقُ باللَّيل، وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهار. وغيرُ المرتَّب: هو أن يأتيَ النشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَل لَفٌّ مُفصَّل، وجاء بعدَها نَشْرٌ غيرُ مُرتَّب؛ فجُملةُ ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجُملة الأُولى ومتعلِّقةٌ بها. وجُملةُ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجُملةِ الثَّالثةِ ومُتعلِّقةٌ بها. وجُملةُ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثانيةِ ومتعلِّقةٌ بها. يُنظر: ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠- ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

- وهو أيضًا شُروعٌ في بَيانِ كيفيَّةِ إنباتِ ما ذُكِرَ منْ كُلِّ زَوجٍ بَهيجٍ، وهو عَطفٌ على (أَنْبَتْنَا)، وما بيْنهما -على أنَّ ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ عِلَّتان لِفِعلٍ مُقدَّرٍ بطَريقِ الاستِئنافِ، أيْ: فعَلْنا ما فعَلْنا تبصيرًا وتذْكيرًا- اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا قَبلَه ومُنبِّهٌ على ما بعْدَه(١).

- وفي هذا استِدلالٌ بتَفصيلِ الإنباتِ الَّذي سبَقَ إجمالُه في قَولِه: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧]؛ لِمَا فيه مِن سَوقِ العُقولِ إلى التَّأمُّلِ في دَقيقِ الصُّنعِ لذلك الإنباتِ، وأنَّ حُصولَه بهذا السَّببِ، وعلى ذلك التَّطوُّرِ؛ أعظَمُ دَلالةً على حِكمةِ اللهِ وسَعةِ عِلمِه ممَّا لو كان إنباتُ الأزواجِ بالطَّفرةِ؛ إذ تَكونُ حينَئذٍ أسبابُ تكوينِها خفيَّةً، فإذا كان خَلْقُ السَّمواتِ وما فيها، ومَدُّ الأرضِ، وإلقاءُ الجِبالِ فيها؛ دَلائلَ على عَظيمِ القُدرةِ الرَّبانيَّةِ لخَفاءِ كَيفيَّاتِ تَكوينِها؛ فإنَّ ظُهورَ كيفيَّاتِ التَّكوينِ في إنزالِ الماءِ، وحُصولِ الإنباتِ والإثمارِ دَلالةٌ على عَظيمِ عِلمِ اللهِ تعالَى(٢).

- قولُه: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ فيه تَخصيصُ إنباتِ الحَبِّ بالذِّكْرِ؛ لأنُه المقصودُ بالذَّاتِ(٣).

- والحَصيدُ: الزَّرعُ المحصودُ، وفائدةُ ذِكْرِ هذا الوَصْفِ في قولِه: ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ الإشارةُ إلى اختِلافِ أحوالِ استِحصالِ ما يَنفَعُ النَّاسَ مِن أنواعِ النَّباتِ؛ فإنَّ الجنَّاتِ تُستَثمَرُ، وأُصولَها باقيةٌ، والحُبوبَ تُستَثمَرُ بعْدَ حَصْدِ أُصولِها، على أنَّ في ذلك الحَصيدِ مَنافعَ للأنعامِ تَأكُلُه بعْدَ أخْذِ حَبِّه، كما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧).

قال تعالَى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[١] [النازعات: ٣٣].

- وفي قَولِه: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ خصَّ النَّخلَ بالذِّكْرِ مع تَناوُلِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ له؛ لأنَّه أهَمُّ الأشجارِ عِندَهم، وثَمَرَه أكثَرُ أقواتِهم، ولإتْباعِه بالأوصافِ له ولطَلعِه؛ ممَّا يُثيرُ تذكُّرَ بَديعِ قَوامِه، وأنيقِ جَمالِه[٢]. وقيلَ: إنَّ تَخصيصَ النَّخلِ بالذِّكرِ معَ اندراجِها في الجَنَّاتِ؛ لبيانِ فضْلِها على سائرِ الأشجارِ، وتَوسيطَ الحَبِّ بيْنهما؛ لتأْكيدِ استقلالِها وامتيازِها عنِ البقيَّةِ، مع ما فيها مِن مُراعاةِ الفواصلِ[٣].

- والباسِقاتُ: الطَّويلاتُ في ارتفاعٍ، والمقصودُ مِن ذلك: الإيماءُ إلى بَديعِ خِلقتِه، وجَمالِ طَلْعتِه؛ استِدلالًا وامتنانًا. والنَّضيدُ: المنْضودُ، أي: المُصفَّفُ بَعضُه فوقَ بعضٍ ما دامَ في الأغطيةِ، وزِيادةُ الحالِ؛ للازديادِ مِن الصِّفاتِ النَّاشئةِ عن بَديعِ الصَّنعةِ، ومِن المِنَّةِ بمَحاسنِ مَنظرِ ما أُوتُوه[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾

- قولُه: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ عِلَّةٌ لقولِه تعالَى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾. وفي تَعليلِه بذلك بعدَ تَعليلِ (أنْبَتْنَا) الأوَّلِ بالتَّبصرةِ والتَّذكيرِ؛ تَنبيهٌ على أنَّ الواجبَ على العبدِ أنْ يكونَ انتفاعُه بذلكَ مِن حيثُ التَّذكُّرُ والاستبصارُ أهَمَّ وأقدَمَ مِن تَمتُّعِه به مِن حيثُ الرِّزقُ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٣).

- قولُه: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ في التَّعبيرِ عن إخراجِ النَّباتِ مِن الأرضِ بالإحياءِ، وعن حَياةِ المَوْتى بالخُروجِ: تَفخيمٌ لشأْنِ الإنباتِ، وتَهوينٌ لأمرِ البعثِ، وتَحقيقٌ للمُماثَلةِ بيْنَ إخراجِ النَّباتِ وإحياءِ المَوْتى؛ لتَوضيحِ مِنهاجِ القياسِ، وتَقريبِه إلى أفهامِ الناسِ[١].

- وفي قَولِه: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ شبَّهَ الجَدْبَ بالمَوتِ في انعدامِ ظُهورِ الآثارِ؛ ولذلك سُمِّي ضِدُّه -وهو إنباتُ الأرضِ- حياةً[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ فلمْ يُثبتِ التَّاءَ في ﴿مَّيۡتٗا﴾، وقال في سُورةِ (يس): ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ [يس: ٣٣]، فأثبَتَ التَّاءَ هناك فقال: ﴿ٱلۡمَيۡتَةُ﴾؛ وذلك أنَّ الأرضَ أرادَ بها الوصْفَ، فقال: ﴿ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾؛ لأنَّ معْنى الفاعليَّةِ ظاهرٌ هناك. والبَلْدةُ الأصلُ فيها الحَياةُ؛ لأنَّ الأرضَ إذا صارتْ حيَّةً صارتْ آهِلةً، وأقام بها النَّاسُ وعَمَرُوها، فصارتْ بلْدةً، فأسقَطَ التَّاءَ؛ لأنَّ معْنى الفاعليَّةِ ثبَتَ فيها، والَّذي بمعْنى الفاعلِ لا يَثبُتُ فيه التَّاءُ، وتَحقيقُ هذا قولُه: ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ﴾ [سبأ: ١٥]، حيثُ أثبَتَ التاءَ حيث ظهَرَ بمعْنى الفاعلِ، ولم يَثبُتْ حيث لم يَظهَرْ[٣]، واللهُ أعلمُ.

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ بعْدَ ظُهورِ الدَّلائلِ بصُنعِ اللهِ على إمكانِ البَعثِ؛ لأنَّ خَلقَ تلك المخلوقاتِ مِن عَدمٍ يدُلُّ على أنَّ إعادةَ بعضِ الموجوداتِ الضَّعيفةِ أمكَنُ وأهوَنُ- جِيءَ بما يُفيدُ تَقريبَ البَعثِ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣١-١٣٢).

فهذه الجُملةُ فَذْلَكةٌ(١) للاستِدلالِ على إمكانِ البعثِ الذي تَضمَّنَتْه الجُمَلُ السَّابقةُ؛ فوجَبَ انفصالُ هذه الجُملةِ -أي: لا تُعطَفُ على ما قَبْلَها-، فتَكونُ استِئنافًا، أو اعتراضًا في آخِرِ الكلامُ(٢).

- وأيضًا قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ جُملةٌ قُدِّمَ فيها الخَبَرُ للقَصْدِ إلى القَصرِ(٣). أو تَقديمُ المجرورِ على المبتدأِ؛ للاهتِمامِ بالخبَرِ؛ لِمَا في الخبَرِ مِن دَفعِ الاستحالةِ، وإظهارِ التَّقريبِ، وفيه تَشويقٌ لِتَلقِّي المُسنَدِ إليه(٤).

- والإشارةُ بـ (ذلك) -في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾- إلى ما ذُكِرَ آنفًا من إحياءِ الأرضِ بعد مَوتِها؛ فهو إشارةٌ إلى الإحياءِ والبَعثِ، أي: كما أحْيَينا الأرضَ بعْدَ مَوتِها، كذلك نُحيي الناسَ بعدَ مَوتِهم وبلاهُم، مع إفادتِها تَعظيمَ شأنِ المُشارِ إليه؛ لِما فيها مِن مَعنى البُعدِ، أي: مِثلَ البَعثِ العظيمِ الإبداعِ(٥).



(١) الفَذْلَكةُ: مِن فذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلِمةٌ منحوتةٌ كـ(البَسملة) و(الحوْقلة)، من قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق من الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٤).

الآيات (١٢-١٥)

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلرَّسِّ﴾: الرَّسُّ: كُلُّ مَحفورٍ؛ مِثلُ البِئرِ، والقَبرِ، ونَحوِ ذلك. قيل: هي بِئرٌ كانوا عليها نُزولًا، وقيل: قريةٌ مِن قرى اليَمامةِ، وقيل غيرُ ذلك، وأصلُ (رسس): يدُلُّ على ثَباتٍ[1].

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾: أي: قَومُ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ، والأيْكَةُ: الشَّجَرُ المُلتَفُّ المُجتَمِعُ، وأصلُ (أيك): يدُلُّ على اجتِماعِ شَجَرٍ[2].

﴿أَفَعَيِينَا﴾: أي: أفعَجَزْنا، يُقالُ لكُلِّ مَن عَجَز عن شَيءٍ: عَيِيَ به: إذا لم يَهتَدِ لِوَجهِه، ولم يَقدِرْ على مَعرِفتِه وتَحصيلِه[3].

﴿لَبۡسٖ﴾: أي: شَكٍّ وحَيرةٍ، وأصلُ (لبس): يدُلُّ على مُخالَطةٍ ومُداخَلةٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨، ٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن أحوالِ المكذِّبينَ للرُّسلِ مِن الأُممِ السَّابقةِ تسليةً لرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: كذَّبتْ قبْلَ مُشرِكي قُرَيشٍ قومُ نوحٍ، وأصحابُ الرَّسِّ، وثمودُ قَومُ صالِحٍ، وعادٌ قَومُ هُودٍ، وفِرعَونُ الَّذي كذَّب موسى، وقَومُ لُوطٍ، وأصحابُ الشَّجَرِ المُلتَفِّ قَومُ شُعَيبٍ، وقومُ تُبَّعٍ. كُلُّ أولئك كذَّبوا الرُّسُلَ، فوَجَب عليهم عَذابُ الله.

ثمَّ يقرِّرُ الله تعالى أنَّ البعثَ حقٌّ، فيقولُ: أفعَجَزْنا عن ابتِداءِ الخَلقِ أوَّلَ مَرَّةٍ؟! بل أولئك الكُفَّارُ في حَيرةٍ وشَكٍّ مِن قُدرةِ اللهِ على البَعثِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى قَولَه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [ق: ٥]؛ ذكَرَ مَن كَذَّب الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ تَسليةً لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١]، فقال:

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢﴾.

أي: كذَّبتْ قبْلَ مُشرِكي قُرَيشٍ -الَّذين كذَّبوا مُحمَّدًا- قَومُ نوحٍ الَّذين كَذَّبوا نُوحًا، وأصحابُ الرَّسِّ[٢]، ....

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٢).

(٢) قال الماوَرْدي: (في الرَّسِّ وجهانِ:

أحدُهما: أنَّه كلُّ حفرةٍ في الأرضِ مِن بئرٍ وقبرٍ. =

وثمودُ الَّذين كذَّبوا رَسولَهم صالِحًا[(١)].

﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝١٣﴾.

أي: وكذَّبتْ قبْلَ مُشركي قُرَيشٍ عادٌ الَّذين كذَّبوا هُودًا، وفِرعَونُ الَّذي كذَّب موسَى، وقَومُ لُوطٍ الَّذين كذَّبوا لُوطًا[(٢)].

= الثَّاني: أنَّها البئرُ الَّتي لم تُطْوَ بحجرٍ ولا غيرِه.

وأمَّا أصحابُ الرَّسِّ ففيهم أربعةُ أقاويلَ:

أحدُها: أنَّها بئرٌ قُتِل فيها صاحِبُ ياسينَ ورَسُّوه، قاله الضَّحَّاكُ.

الثَّاني: أنَّهم أهلُ بئرٍ بأَذْرَبِيجانَ، قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّالثُ: أنَّهم قومٌ باليَمامةِ كان لهم آبارٌ، قاله قَتادةُ...

الرَّابعُ: أنَّهم أصحابُ الأُخدودِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٤٤). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢١).

قال ابن جرير: (واختلَف أهلُ التَّأويلِ في أصحابِ الرَّسِّ؛ فقال بعضُهم: أصحابُ الرَّسِّ مِن ثَمودَ... وقال آخَرونَ: هم قَومٌ رَسُّوا نبيَّهم في بئرٍ... وقال آخَرونَ: هي بئرٌ كانت تُسَمَّى الرَّسَّ... والصَّوابُ مِن القولِ في ذلك قولُ مَن قال: هم قَومٌ كانوا على بئرٍ). ثمَّ ذكَر احتِمالَينِ: إمَّا أن يَكونوا أصحابَ الأُخدودِ، وإمَّا أنَّهم قَومٌ رَسُّوا نبيَّهم في حُفرةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١-٤٥٣).

وقال ابن عاشور: (الرَّسُّ: يُطلَقُ اسمًا للبئرِ غيرِ المَطْويَّة، ويُطلَقُ مصدرًا لِلدَّفنِ والدَّسِّ. واختلَف المفسِّرون في المرادِ به هنا. وأصحابُ الرَّسِّ قومٌ عُرِفوا بالإضافةِ إلى الرَّسِّ، فيحتملُ أنَّ إضافتَهم إلى الرَّسِّ مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى مَوطِنِه؛ مِثلُ «أصحابِ الأَيْكَةِ»، و«أصحابِ الحِجْرِ»، و«أصحابِ القريةِ». ويجوزُ أن تكونَ إضافةً إلى حَدَثٍ حلَّ بهم، مِثلُ «أصحابِ الأخدودِ». وفي تعيينِ أصحابِ الرَّسِّ أقوالٌ ثمانيةٌ أو تسعةٌ، وبعضُها مُتداخِلٌ... والأظهَرُ أنَّ إضافةَ «أصحاب» إلى ﴿الرَّسِّ﴾ مِن إضافةِ اسمٍ إلى حدَثٍ حدَثَ فيه؛ فقد قيل: إنَّ أصحابَ الرَّسِّ عُوقِبوا بخَسْفٍ في الأرضِ، فوقَعوا في مِثلِ البئرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٣، ٨٦).

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾.

أي: وكذَّبَ قبْلَ مُشرِكي قُرَيشٍ أصحابُ الشَّجَرِ المُلتَفِّ المُجتَمِعِ، فكذَّبوا رَسولَهم شُعَيبًا، وكذَّب قومُ المَلِكِ تُبَّعٍ(١).

قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ أَهْلَكْنَٰهُمْۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧].

وعن عائشةَ رَضيَ الله عنها أنَّها قالت: (كان تُبَّعٌ رجُلًا صالحًا، ألَا ترَى أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ذمَّ قَومَه، ولم يَذُمَّه؟)(٢).

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

أي: كُلُّ أولئك الأُمَمِ الماضيةِ كذَّبوا الرُّسُلَ الَّذين أرسَلَهم اللهُ تعالى إليهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٧).

قال ابن عطية: (﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هم حِمْيَرُ، وتُبَّعٌ اسمُ المَلِكِ فيهم، يذهَبُ تُبَّعٌ ويَجيءُ تُبَّعٌ، كَكِسْرى في الفُرسِ، وقَيصَرَ في الرُّومِ، وكان أسعدُ أبو كَرِبٍ أحَدُ التَّبابِعةِ رَجُلًا صالِحًا، صَحِبَ حَبرَينِ فتعلَّم منهما دينَ موسى عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٨).

وقال السعدي: (تُبَّعٌ: كُلُّ مَلِكٍ ملَكَ اليَمَنَ في الزَّمانِ السَّابِقِ قبْلَ الإسلام، فقَومُ تُبَّعٍ كذَّبوا الرَّسولَ الَّذي أرسَلَه اللهُ إليهم، ولم يُخبِرْنا اللهُ مَن هو ذلك الرَّسولُ، وأيُّ تُبَّعٍ مِنَ التَّبابِعةِ؛ لأنَّه -واللهُ أعلَمُ- كان مشهورًا عندَ العرَبِ؛ لِكَونِهم مِنَ العَرَبِ العَرْباءِ الَّذين لا تخفَى ماجَرَياتُهم على العَرَبِ، خُصوصًا مِثلَ هذه الحادثةِ العظيمةِ). ((تفسير السعدي)) ص: ٨٠٤.

(٢) أخرجه عبد الرزَّاق في ((تفسيره)) (٢٨١٩)، ومن طريقه الحاكم في ((المستدرك)) (٢/ ٤٨٨) واللَّفظُ له.

قال الحاكم: (صحيحٌ على شرطِ الشَّيخينِ). ووافقه الذهبي، وقال الألباني: في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٥/ ٥٤٩): (وهو كما قالا)، وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((المسند)) (٣٧/ ٥٢٠): (رجالُه ثقاتٌ رجالُ الشَّيخينِ).

فوَجَب وثَبَت عليهم عَذابُ اللهِ، الَّذي توعَّدَهم به على كُفرِهم به، وتكذيبِهم رُسُلَه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٧ - ٣٩].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٢ - ١٤].

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾.

أي: أفعَجَزْنا عن ابتِداءِ الخَلقِ أوَّلَ مَرَّةٍ، فلم نكُنْ عالِمينَ بما نَصنَعُ فيه، ولا قادِرينَ عليه[٢]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٧).

قال ابن تيميَّة: (لم يُرِدِ الإعياءَ الَّذي هو التَّعَبُ، وإنَّما أراد العِيَّ، كما تقولُ العَرَبُ: عَيِيَ بأمْرِه: إذا لم يَهتَدِ لِوَجهِه). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٧/ ٣٨٣). ويُنظر: ((الفصيح)) لثعلب =

كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال اللهُ: كذَّبَني ابنُ آدَمَ، ولم يكُنْ له ذلك، يقولُ: لن يُعيدَني كما بدأني! وليس أوَّلُ الخَلقِ بأهْوَنَ عليَّ مِن إعادتِه!))(١).

﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

أي: ليس الأمرُ كذلك، فلم نَعْيَ بالخَلقِ الأوَّلِ، ولا هم يَشُكُّون في ذلك، وإنَّما هم في شَكٍّ وتردُّدٍ وحَيرةٍ مِن قُدرةِ اللهِ على البَعثِ؛ فالتَبَس عليهم إعادةُ اللهِ

= (ص: ٢٧٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٤٣)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨، ٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٤٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٢٨).

وقال ابن القيِّم: (قوله ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ يقالُ لكلِّ مَن عجز عن شَيءٍ: عَيِيَ به، وعَيِيَ فُلانٌ بهذا الأمرِ ... -ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]- قال ابنُ عبَّاسٍ: يريدُ: أفعَجَزْنا؟! وكذلك قال مُقاتِلٌ. قلتُ: هذا تفسيرٌ بلازِمِ اللَّفظةِ، وحقيقتُها أعَمُّ مِن ذلك؛ فإنَّ العرَبَ تقولُ: أعْياني أن أعرِفَ كذا، وعَيِيتُ به؛ إذا لم تَهتَدِ لوجْهِه، ولم تَقدِرْ على مَعرفتِه وتحصيلِه، فتقولُ: أعْياني دواؤُك؛ إذا لم تَهتَدِ ولم تَقِفْ عليه. ولازِمُ هذا المعنَى: العجزُ عنه). ((الفوائد)) (ص: ٨). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٢).

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤).

الأمواتَ خَلقًا جَديدًا، مع أنَّه لا محلَّ للَّبسِ فيه؛ فالإعادةُ أهوَنُ مِنَ الابتداءِ(١)!

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ * قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ [السجدة: ١٠، ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ * وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أخبرَ سُبحانَه أنَّ كُلَّ واحدٍ مِن هؤلاء المذكورينَ: فِرعَونَ وغيرِه، كَذَّب الرُّسُلَ كُلَّهم؛ إذ لم يُؤمِنوا ببَعضٍ ويَكفُروا ببَعضٍ، كاليَهودِ والنَّصارى، بل كَذَّبوا الجَميعَ، وهذا أعظَمُ أنواعِ الكُفرِ؛ فكُلُّ مَن كَذَّب رَسولًا فقد كَفَر، ومَن لم يُصَدِّقْه ولم يُكَذِّبْه فقد كَفَر؛ فكُلُّ مُكَذِّبٍ للرَّسولِ كافِرٌ به، وليس كُلُّ كافرٍ مُكَذِّبًا به؛ إذ قد يكونُ شاكًّا في رسالتِه، أو عالِمًا بصِدقِه لكِنَّه يَحمِلُه الحَسَدُ أو الكِبرُ على ألَّا يُصَدِّقَه، وقد يكونُ مُشتَغِلًا بهَواه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٨، ٨٩).
قال الزمخشري: (قد لَبَّس عليهم الشَّيطانُ وحَيَّرَهم... ولَبْسُ الشَّيطانِ عليهم: تَسويلُه إليهم أنَّ إحياءَ الموتى أمرٌ خارِجٌ عن العادةِ، فتَرَكوا لذلك القياسَ الصَّحيحَ: أنَّ مَن قَدَر على الإنشاءِ كان على الإعادةِ أقدَرَ!). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٢).

عن استِماعِ رِسالتِه والإصغاءِ إليه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾، ولم يقُلْ: (قومُ فِرعَونَ) لأنَّه ليس في قادةِ هذه الفِرَقِ كافِرٌ غيرُه، والنَّصُّ عليه يُفهِمُ عَظَمتَه، وأنَّه استخَفَّ قَومَه فأطاعوه[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: كُلٌّ مِن هذه الأُمَمِ وهؤلاء القُرونِ كَذَّب رَسولَه، ومَن كَذَّب رَسولًا فكأنَّما كَذَّب جميعَ الرُّسُلِ، كقَولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وإنَّما جاءهم رَسولٌ واحِدٌ، فهم في نفْسِ الأمرِ لو جاءهم جميعُ الرُّسُلِ كَذَّبوهم[٣].

٤- التَّحذيرُ لِمُكَذِّبي الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ولهذا قال في آخِرِ ما ذَكَرَ: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾، فحَقَّ عليهم وعيدُ اللهِ بالعَذابِ[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ يدُلُّ على أنَّ مَن كَذَّب الرُّسُلَ يَحِقُّ عليه العَذابُ، أي: يتحَتَّمُ ويَثبُتُ في حَقِّه ثُبوتًا لا يَصِحُّ معه تخَلُّفُه عنه، وهو دليلٌ واضِحٌ على أنَّ ما قاله بَعضُ أهلِ العِلمِ مِن أنَّ اللهَ يَصِحُّ أن يُخلِفَ وَعيدَه -لأنَّه قال: إنَّه لا يُخلِفُ وَعْدَه، ولم يَقُلْ: إنَّه لا يُخلِفُ وَعيدَه، وأنَّ إخلافَ الوَعيدِ حَسَنٌ لا قبيحٌ، وإنَّما القَبيحُ هو إخلافُ الوَعدِ- لا يَصِحُّ بحالٍ؛ لأنَّ وَعيدَه تعالى للكُفَّارِ حَقٌّ، ووجَب عليهم بتَكذيبِهم للرُّسُلِ، كما دَلَّ عليه قَولُه هنا: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾، وقد تقَرَّر في الأُصولِ أنَّ الفاءَ مِن حُروفِ العِلَّةِ، كقَولِه: (سها فسَجَد)، أي: لعِلَّةِ سَهوِه، و(سَرَق فقُطِعَت يَدُه)، أي: لعِلَّةِ

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٨٣، ٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٢).

سَرِقتِه، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]؛ فتَكذيبُهم الرُّسُلَ عِلَّةٌ صَحيحةٌ لِكَونِ الوَعيدِ بالعَذابِ حَقًّا ووَجَب عليهم، فدعوى جَوازِ تخلُّفِه باطِلةٌ بلا شَكٍّ، أمَّا الوعيدُ الَّذي لا يمتنِعُ إخلافُه فهو وعيدُ عصاةِ المسلمينَ بتعذيبِهم على كبائرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّ الله تعالى أوضَح ذلك في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذا في الحقيقةِ تجاوُزٌ مِن الله عن ذُنوبِ عبادِه المؤمنينَ العاصينَ، ولا إشكالَ في ذلك[(١)].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ مِن براهينِ البَعثِ؛ لأنَّ مَن لم يَعْيَ بخَلقِ النَّاسِ، ولم يَعجِزْ عن إيجادِهم الأوَّلِ: لا شَكَّ في قُدرتِه على إعادتِهم، وخَلْقِهم مرَّةً أُخرى؛ لأنَّ الإعادةَ لا يُمكِنُ أن تكونَ أصعَبَ مِن البَدءِ[(٢)].

٧- قَولُه تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فهذا الخَلقُ الجَديدُ قد سمَّاه الله سُبحانَه وتعالى إعادةً، والمَعادُ مِثلُ المَبدَأِ، وسَمَّاه نَشأةً أُخرى، وهي مِثلُ الأُولى، وسَمَّاه خَلقًا جَديدًا، وهو مِثلُ الخَلقِ الأوَّلِ، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وسَمَّاه أمثالًا، وهم هم؛ فتَطابَقَت ألفاظُ القُرآنِ، وصَدَّق بَعضُها بَعضًا، وبَيَّن بَعضُها بَعضًا؛ ولهذا تزولُ إشكالاتٌ أورَدَها مَن لم يَفهَمِ المَعادَ الَّذي أخبَرَت به الرُّسُلُ عن اللهِ تعالى؛ ولا يُفهَمُ مِن هذا القَولِ ما قاله بَعضُ المتأخِّرينَ: إنَّهم غيرُهم من كُلِّ وَجهٍ؛ فهذا خَطأٌ قَطعًا، مَعاذَ اللهِ مِن اعتِقادِه! بل هم أمثالُهم وهم أعيانُهم[(٣)].

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٨).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ * وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ لِبَيانِ حَقيقةٍ راهنةٍ عن البعثِ، واتِّفاقِ جميعِ الرُّسُلِ عليه، وتعذيبِ مُنكريه، وهو ناشئٌ عن قولِه: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ [ق: ٥]، فعُقِّبَ بأنَّهم لَيسوا بِبِدْعٍ في الضَّلالِ؛ فقد كذَّبَت قبْلَهم أُمَمٌ[1].

- وذَكَر مِن الرُّسلِ أشهَرَهم في العالَم وأشْهَرَهم بيْنَ العرَبِ؛ فقومُ نُوحٍ أوَّلُ قَومٍ كذَّبوا رَسولَهم، وفِرعونُ كذَّبَ موسى، وقومُ لُوطٍ كذَّبوه، وهؤلاء مَعروفونَ عندَ أهلِ الكِتابِ، وأمَّا أصحابُ الرَّسِّ وعادٌ وثَمودُ وأصحابُ الأَيْكةِ وقَومُ تُبَّعٍ، فهُمْ من العرَبِ، وذُكِروا هنا عقِبَ قومِ نوحٍ؛ للجامعِ الخَياليِّ بيْن القومَينِ، وهو جامعُ التَّضادِّ؛ لأنَّ عَذابَهم كان ضِدَّ عذابِ قَومِ نوحٍ؛ إذ كان عَذابُهم بالخَسفِ، وعذابُ قومِ نوحٍ بالغَرَقِ، ثمَّ ذكَرَ ثمودَ؛ لشَبَهِ عَذابِهم بعذابِ أصحابِ الرَّسِّ؛ إذْ كانَ عَذابُهم برَجفةِ الأرضِ وصَواعقِ السَّماءِ، ولأنَّ أصحابَ الرَّسِّ مِن بَقايا ثَمودَ -على أحدِ الأقوالِ-، ثمَّ ذُكِرَت عادٌ؛ لأنَّ عذابَها كان بحادثٍ في الجوِّ، وهو الرِّيحُ، ثم ذُكِرَ فِرعونُ وقومُه؛ لأنَّهم كذَّبوا أشهَرَ الرُّسُلِ قبْلَ الإسلامِ، وأصحابُ الأيْكةِ هم قومُ شُعَيبٍ، وهم مِن خُلَطاءِ بني إسرائيلَ[2].

- قَولُه: ﴿وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ﴾ عبَّرَ بالأُخوَّةِ؛ مع أنه لم يكُنْ مِن نسَبِهم، وإنَّما كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٥).

نزيلًا فيهم؛ لاستِوطانِه بلادَهم، واختيارِه لِمُجاوَرتِهم، ومُصاهَرتِهم، وإقامتِه بيْنَهم في مدينتِهم مُدَّةً مَديدةً، وسِنينَ عديدةً، فالمرادُ بـ (إِخْوَانُ) هنا أنَّهم مُلازِمونَ، وهذا مِن إطلاقِ الأُخُوَّةِ على مُلازَمةِ الشَّيءِ ومُمارَستِه[(١)].

- والمقصودُ بذِكرِ هذِه الأُمَمِ الَّتي أصابَها عذابٌ شَديدٌ في الدُّنيا عِقابًا على تَكذيبِهم الرُّسلَ: تسليةُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتَّعريضُ بالتَّهديدِ لقَومِه المكذِّبينَ أنْ يحُلَّ بهم ما حلَّ بأولئك[(٢)].

- وجُملةُ ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ مُؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى آخرِها؛ فلذلك فُصِلَتْ ولم تُعطَفْ، وليُبْنَى عليه قولُه: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾؛ فيَكونَ تَهديدًا بأنْ يحِقَّ عليهم الوعيدُ كما حَقَّ على أولئك مُرتَّبًا بالفاءِ على تَكذيبِهم الرُّسلَ؛ فيكونَ في ذلك تَشْريفٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللرُّسلِ السَّابقينَ[(٣)].

- قولُه: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ تنْوينُ ﴿كُلٌّ﴾ تَنوينُ عِوَضٍ عن المُضافِ إليه، أي: كلُّ أولئك[(٤)]. وإفرادُ الضَّميرِ في قَولِه: ﴿كَذَّبَ﴾ باعتبارِ لَفظِ الكُلِّ، أوْ كُلُّ واحدٍ منهم كذَّبَ جمْعَ الرُّسلِ؛ لاتِّفاقِهم على الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ والإنذارِ بالبعثِ والحَشْرِ؛ فتَكذيبُ واحدٍ منهم تكذيبٌ للكلِّ، وهذا على تقْديرِ رِسالةِ تُبَّعٍ ظاهرٌ، وأمَّا على تَقديرِ عدَمِها -وهُو الأظهرُ- فمعنى تَكذيبِ قَومِه الرُّسلَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٠) و(١٨/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٨) و(٢٦/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٩٧).

تكذيبُهم بمنْ قَبْلَهم مِن الرُّسلِ المُجمِعينَ على التَّوحيدِ والبعثِ، وإلى ذلك كان يَدْعُوهم تُبَّعٌ[١].

- قولُه: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ الوعيدُ: الإنذارُ بالعُقوبةِ، واقتَضى الإخبارُ عنه بـ (حَقَّ) أنَّ اللهَ توعَّدَهم به، فلمْ يَعبؤوا وكذَّبوا وُقوعَه؛ فحَقَّ وصدَقَ. وحُذِفت ياءُ المتكلِّمِ الَّتي أُضيفَ إليها ﴿وَعِيدِ﴾؛ للرَّعْيِ على الفاصلةِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ استِئنافٌ مقرِّرٌ لصحَّةِ البَعثِ الَّذي حُكِيَت أحوالُ المنكِرينَ له مِن الأممِ المُهلَكةِ. والفاءُ في ﴿أَفَعَيِينَا﴾ عاطفةٌ على مَحذوفٍ، تقديرُه: أقصَدْنا الخلْقَ فعَجَزْنا عنه حتَّى يتوهَّمَ أحَدٌ عَجْزَنا عن إعادتِه[٣]؟!

- وأيضًا تُشيرُ فاءُ التَّفريعِ إلى أنَّ هذا الكلامَ مُفرَّعٌ على ما قبْلَه، وهو جُملةُ ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [ق: ٦]، وقولُه: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ [ق: ٨] المُعرِّضُ بأنَّهم لم يَتبصَّروا به ولم يَتذكَّروا. وقولُه: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ [ق: ٩]، وقولُه: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]. ويجوزُ أنْ يُجعَلَ تَفريعًا على قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[٤].

- والهَمزةُ في ﴿أَفَعَيِينَا﴾ استِفهامُ إنكارٍ وتَغليطٍ؛ لأنَّهم لا يَسَعُهم إلَّا الاعتِرافُ بأنَّ اللهَ لم يَعْيَ بالخَلقِ الأوَّلِ؛ إذ لا يُنكِرُ عاقلٌ كَمالَ قُدرةِ الخالِقِ، وعدمَ عَجزِه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير أبي =

- وفي قَولِه: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ عُرِّفَ الخلْقُ الأوَّلُ، ونُكِّرَ اللَّبْسُ والخلْقُ الجديدُ؛ وذلك لأنَّه عُرِّفَ الخلْقُ الأوَّلُ لتَفخيمِه وتَعظيمِه؛ لأنَّ الغرَضَ جَعْلُه دَليلًا على إمكانِ الخلْقِ الثَّاني بطَريقِ الأَولى، أي: إذا لم يَعْيَ تعالى بالخلْقِ الأوَّلِ -على عَظَمتِه- فالخلْقُ الآخِرُ أَولى ألَّا يَعيا به. وأمَّا تَنكيرُ اللَّبْسِ فللتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، كأنَّه قال: في لَبْسٍ أيِّ لَبْسٍ، وتَنكيرُ الخلْقِ الجديدِ للتَّقليلِ منه، والتَّهوينِ لأمْرِه بالنِّسبةِ إلى الخلْقِ الأوَّلِ، ويحتمِلُ أنْ يكونَ للتَّفخيمِ، كأنَّه أمْرٌ أعظَمُ مِن أنْ يَرضى الإنسانُ بكَونِه مُلتبسًا عليه، مع أنَّه أوَّلُ ما تُبصَرُ فيه صِحَّتُه[1]، أو نكَّره لتعظيمِ شأنِه، والإشعارِ بأنَّه على وجهٍ غيرِ مُتعارَفٍ ولا مُعتادٍ[2]. أو تَنكيرُ ﴿لَبۡسٖ﴾ للنَّوعيةِ، وتَنكيرُ ﴿خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ كذلك، أي: ما هو إلَّا خلْقٌ مِن جُملةِ ما يقَعُ مِن خلْقِ اللهِ الأشياءَ ممَّا وُجِّهَ إحالتُه، ولتَنكيرِه أُجْرِيَت عليه الصِّفةُ بـ﴿جَدِيدٖ﴾[3]. وقيل: نَكَّر الخَلقَ الجَديدَ؛ لأنَّه كان غيرَ مَعروفٍ عندَ الكُفَّارِ المُخاطَبينَ، وعَرَّف الخَلْقَ الأوَّلَ؛ لأنَّه مَعروفٌ مَعهودٌ[4].

- قولُه: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ حرْفُ (بل) أفادَ الإضرابَ الإبطاليَّ عن المُستفهَمِ عنه، أي: بلْ ما عَيِينا بالخلْقِ الأوَّلِ، أي: وهم يَعلَمون ذلك، ويَعلَمون أنَّ الخلْقَ الأوَّلَ للأشياءِ أَعظَمُ مِن إعادةِ خلْقِ الأمواتِ، ولكنَّهم

= حيان)) (٩/ ٥٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠١).

تَمكَّنَ منهم اللَّبسُ الشَّديدُ، فأغْشَى إدراكَهم عن دَلائلِ الإمكانِ فأحالُوه؛ فالإضرابُ على أصلِه مِن الإبطالِ[١].

- وأيضًا (بل) عطفٌ على مُقدَّرٍ مُستأنَفٍ مَسوقٍ لبيانِ شُبهتِهم وفضْحِ سَفْسطتِهم، والتَّقديرُ: هم غيرُ مُنكِرين لقدرتِنا، بلْ هم في خَلطٍ وشُبهةٍ[٢].

- وجيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ مِن قولِه: ﴿هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ هذا الحُكمِ لهم، وأنَّه مُتمكِّنٌ مِن نُفوسِهم، لا يُفارِقُهم البتَّةَ، ولِيَتأتَّى اجتِلابُ حرْفِ الظَّرفيَّةِ في الخبَرِ؛ فيَدُلَّ على انغِماسِهم في هذا اللَّبْسِ، وإحاطتِه بهم إحاطةَ الظَّرفِ بالمَظروفِ[٣].

- قولُه: ﴿جَدِيدٍ﴾ في هذا الوصفِ تَحميقٌ لهم مِن إحالتِهم البَعثَ، أي: اجْعَلوه خلْقًا جديدًا كالخَلقِ الأوَّلِ، وأيُّ فارقٍ بيْنَهما[٤]؟!



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٧، ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٦-٢٢)

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿تُوَسۡوِسُ﴾: أي: تُلْقي وتُحَدِّثُ، والوَسْوَسةُ: الخَطرةُ الرَّديئةُ وحديثُ النَّفْسِ، والصَّوتُ الخفيُّ، وبه سُمِّيَ صَوتُ الحلْيِ وَسْواسًا، وأصلُ (وسوس): يدُلُّ على صَوتٍ غَيرِ رَفيعٍ[١].

﴿حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾: الحَبلُ هو الوَريدُ؛ فهو مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى نَفْسِه لاختِلافِ اللَّفظَينِ، وهو عِرقٌ في باطِنِ العُنُقِ مُعَلَّقٌ بالقَلبِ[٢].

﴿قَعِيدٞ﴾: أي: قاعِدٌ رَاصِدٌ مُلازِمٌ لا يَبرَحُ[٣].

﴿رَقِيبٌ﴾: أي: مُراقِبٌ لأعمالِه، حافِظٌ لها، شاهِدٌ عليها، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انتِصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٩)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، =

﴿عَتِيدٌ﴾: أي: حاضِرٌ لا يَغيبُ، مُعَدٌّ للحِفظِ والشَّهادةِ، وأصلُ (عتد): يدُلُّ على حُضورٍ وقُربٍ[1].

﴿سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾: أي: غَمْرَتُه وشِدَّتُه الَّتي تَغشَى الإنسانَ، وتَغلِبُ على عَقلِه، وأصلُ (سكر): يدُلُّ على حَيرةٍ[2].

﴿تَحِيدُ﴾: أي: تَفِرُّ منه، وتَميلُ عنه، وأصلُ (حيد): يدُلُّ على مَيلٍ وعُدولٍ عن طَريقِ الاستِواءِ[3].

﴿ٱلصُّورِ﴾: أي: القَرنِ يَنفُخُ فيه إسرافيلُ[4].

﴿حَدِيدٌ﴾: أي: نافِذٌ حادٌّ قويٌّ، وحِدَّةُ البَصَرِ: قُوَّةُ نَفاذِه في المَرئيِّ، وأصلُ (حدد): يدُلُّ على مَنعٍ، وسُمِّيَ الحديدُ حَديدًا؛ لامتناعِه وصلابَتِه وشِدَّتِه[5].

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣) و(٢/ ٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٩).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا شمولَ عِلمِه لكلِّ شَيءٍ: ولقد خَلَقْنا كلَّ إنسانٍ ونحنُ نعلَمُ ما تُحدِّثُه به نفْسُه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، ونحن أقرَبُ إليه مِن حَبلِ الوَريدِ الَّذي في عُنُقِه، إذ يَتلَقَّى المَلَكانِ ما يَصدُرُ منه فيُحصيانِه عليه: أحَدُهما عن يمينِه، والآخَرُ عن شِمالِه.

ما يَتلفَّظُ إنسانٌ بقَولٍ إلَّا وعِندَه مَلَكٌ حافِظٌ لكَلامِه، حاضِرٌ لا يُفارِقُه.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه حالةَ الإنسانِ عندَ الاحتضارِ، فيقولُ: وجاءت شِدَّةُ الموتِ بالحَقِّ الَّذي يكونُ بعدَ الموتِ مِن ثَوابٍ أو عِقابٍ، ذلك الموتُ هو ما كُنتَ تَهرُبُ منه أيُّها الإنسانُ!

ثمَّ يَذكُرُ سبحانَه يومَ القيامةِ وحالَ النَّاسِ فيه، فيقولُ: ونَفَخ المَلَكُ في القَرنِ لِبَعثِ النَّاسِ، وذلك يَومُ القيامةِ الَّذي توعَّد اللهُ الكافِرينَ والظَّالِمينَ فيه بالعَذابِ، وجاءتْ كلُّ نَفسٍ معها سائِقٌ مِنَ الملائِكةِ يَسوقُها إلى اللهِ تعالى، وشَهيدٌ مِنَ الملائكةِ يَشهَدُ عليها بما عَمِلَته.

لقد كنتَ -أيُّها الإنسانُ- في غَفلةٍ مِن هذا اليَومِ، فأزَلْنا عنك الغِطاءَ، ورَفَعْنا عنك الحِجابَ يومَ القيامةِ؛ فظَهَرت لك حقائِقُ الآخِرةِ، فبَصَرُك يومَ القيامةِ حادٌّ قَويٌّ نافِذٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى خَلْقَ الخافِقَينِ -السَّماءِ والأرضِ-؛ أتْبَعَه خَلْقَ ما هو

جامعٌ لجميعِ ما هو فيهما(١).

وأيضًا بعد أن استدَلَّ على إمكانِ البعثِ بقولِه: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥]- أردف ذلك دليلًا آخَرَ على إمكانِه، وهو عِلمُه بما في صدورِهم، وعدَمُ خَفاءِ شَيءٍ مِن أمرِهم عليه(٢).

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾.

أي: ولقد خَلَقْنا كلَّ إنسانٍ ونحنُ نعلَمُ ما تُحدِّثُه به نفْسُه سِرًّا، فلا يخفَى علينا ما يَختَلِجُ في قَلْبِه(٣).

قال تعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾.

أي: ونحن أقرَبُ إليه مِن حَبلِ وَريدِه الَّذي في عُنُقِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٩).

قال البقاعي: (فنحن نعلمُ أنَّ قُلوبَهم عالِمةٌ بقُدرتِنا على أكمَلِ ما نريدُ، وبصِحَّةِ القرآنِ وإعجازِه، وصِدقِ الرَّسولِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وامتيازِه، وإنَّما حمَلَهم الحَسَدُ والنَّفاسةُ [أي: الحسدُ والكِبرُ والرِّئاسةُ على الإنكارِ باللِّسانِ حتَّى صار ذلك لهم خُلُقًا، وتمادَوا فيه حتَّى غطَّى على عُقولِهم، فصاروا في لَبْسٍ مُحيطٍ بهم مِن جميعِ الجوانِبِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤١٩، ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢١، ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥٠٥)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للموصلي (ص: ٤٨٠، ٤٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) =

كما قال تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْ﴾ [المجادلة: ٧].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا غَزا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خَيبَرَ أشرَفَ النَّاسُ على وادٍ، فرَفَعوا أصواتَهم بالتَّكبيرِ: اللهُ أكبَرُ، اللهُ أكبَرُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ارْبَعوا[1] على أنفُسِكم؛ إنَّكم لا تَدْعُونَ أصَمَّ، ولا غائِبًا، إنَّكم تَدْعُونَ سَميعًا قَريبًا، وهو معكم))[2].

= (ص: ٨٩، ٩٠).

قيل: المرادُ: قُربُ ملائكتِه منه. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ تيميَّة، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٩).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾ يعني: ملَكَ الموتِ وحْدَه، إذا أتاه لِيَقبِضَ رُوحَه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٥).

وقيل: المرادُ: نحن أقرَبُ إليه بالعِلمِ والقُدرةِ والإحاطةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ في الجملةِ: الأخفَشُ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، وابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٠).

قال ابن كثير: (مَن تأوَّله على العِلمِ فإنَّما فَرَّ لِئَلَّا يَلزَمَ حُلولٌ أو اتِّحادٌ، وهما مَنفيَّانِ بالإجماعِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨).

(١) ارْبَعُوا على أنفُسِكم: أي: ارْفُقوا بها، وأمسِكوا عن الجَهرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٥٩٧).

(٢) رواه البخاري (٤٢٠٥) واللفظ له، ومسلم (٢٧٠٤).

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا تَمَّ الإخبارُ مِنَ اللهِ تعالى بالخَلقِ والعِلمِ بخَطَراتِ الأنفُسِ، والقُربِ؛ أخبَرَ بذِكرِ الأحوالِ الَّتي تُصَدِّقُ هذا الخبَرَ، وتُعَيِّنُ وُرودَه عندَ السَّامعِ؛ فمِنها: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ ﴾، ومنها مجيءُ سَكرةِ الموتِ، ومنها: النَّفخُ في الصُّورِ، ومنها: مجيءُ كُلِّ نفْسٍ معها سائِقٌ وشَهيدٌ[١].

وأيضًا فإنَّه ذكَر سبحانَه أنَّه مع عِلمِه به وكَّل به مَلَكَينِ يَكتُبانِ ويَحفَظانِ عليه عمَلَه؛ إلزامًا للحُجَّةِ، فقال[٢]:

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

أي: نحن أقرَبُ إليه مِن حَبلِ الوَريدِ في الوَقتِ الَّذي يَتلَقَّى فيه المَلَكانِ جميعَ ما يَصدُرُ منه مِن أقوالٍ وأعمالٍ، فيُحصيانِها عليه: أحَدُهما ثابِتٌ عن يمينِه، والآخَرُ ثابتٌ عن شِمالِه، لا يُفارِقانِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩-١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٠، ٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٦، ٤٢٧).

قال ابنُ رجب: (أجمَع السَّلَفُ الصَّالِحُ على أنَّ الَّذي عن يمينِه يَكتُبُ الحَسَناتِ، والَّذي عن شِمالِه يَكتُبُ السَّيِّئاتِ). ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٣٣٦).

وقال الشنقيطي: (المرادُ أنَّ الَّذي خلَق الإنسانَ ويَعلَمُ ما تُوسوِسُ به نفْسُه وهو أقرَبُ إليه مِن حَبلِ الوَريدِ في وَقتِ كِتابةِ الحَفَظةِ أعمالَه: لا حاجةَ له لِكَتْبِ الأعمالِ؛ لأنَّه عالِمٌ بها، لا يَخفى عليه منها شَيءٌ، وإنَّما أمَرَ بكِتابةِ الحَفَظةِ للأعمالِ؛ لحِكَمٍ أُخرى، كإقامةِ الحُجَّةِ على العَبدِ =

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

أي: ما يَتكلَّمُ الإنسانُ بقَولٍ إلَّا وعِندَه مَلَكٌ حافِظٌ يُراقِبُ كَلامَه لِيَكتُبَه، حاضِرٌ لا يُفارِقُه[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

وعن عَلْقَمةَ بنِ وقَّاصٍ اللَّيثيِّ، عن بلالِ بنِ الحارِثِ المُزَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ الرَّجُلَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن رِضوانِ اللهِ عزَّ وجَلَّ ما يظُنُّ أنْ تَبلُغَ ما بَلَغَت، يَكتُبُ اللهُ عزَّ وجَلَّ له بها رِضوانَه إلى يومِ القيامةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن سَخَطِ اللهِ عزَّ وجَلَّ ما يظُنُّ أن تَبلُغَ ما بلَغَت، يَكتُبُ اللهُ عزَّ وجَلَّ بها عليه سَخَطَه إلى يومِ القيامةِ!))، فكان عَلْقَمةُ يقولُ: (كم مِن كَلامٍ قد مَنَعَنيه حديثُ بلالِ بنِ الحارِثِ!)[2].

= يومَ القيامةِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٢٦، ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٢، ٩٣).

قال الماوردي: (﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنَّه المُتتبِّعُ للأمورِ. الثَّاني: أنَّه الحافظُ، قاله السُّدِّيُّ. الثَّالثُ: أنَّه الشَّاهدُ، قاله الضَّحَّاكُ.

وفي ﴿ عَتِيدٌ ﴾ وجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّه الحاضرُ الَّذي لا يَغيبُ. الثَّاني: أنَّه الحافظُ المُعَدُّ؛ إمَّا لِلحِفظِ، وإمَّا للشَّهادةِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٤٧). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١).

وقال الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾: (أي: إلَّا والحالُ أنَّ عندَه رقيبًا، أي: مَلَكًا مُراقِبًا لأعمالِه، حافِظًا، لها شاهدًا عليها، لا يَفوتُه منها شَيءٌ. ﴿ عَتِيدٌ ﴾: أي: حاضرٌ، ليس بغائبٍ، يَكتُبُ عليه ما يقولُ مِن خَيرٍ وشرٍّ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٢٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣١٩)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) كما في ((تحفة الأشراف)) للمِزِّي (٢/ ١٠٤)، وابن ماجه (٣٩٦٩)، وأحمد (١٥٨٥٢) واللَّفظُ له. =

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ إنكارَهم البَعثَ، واحتَجَّ عليهم بوصْفِ قُدرتِه وعِلمِه؛ أعلَمَهم أنَّ ما أنكَروه وجَحَدوه هم لاقوهُ عن قريبٍ عندَ مَوتِهم وعندَ قِيامِ السَّاعةِ[١].

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: وجاءتْ شِدَّةُ الموتِ وغَمْرتُه الَّتي تَغشَى الإنسانَ، بما يكونُ بعدَ الموتِ مِن ثَوابٍ وعِقابٍ، وسَعادةٍ وشَقاوةٍ، فيَظهَرُ عندَ الموتِ صِدقُ ما أخبَرَتْ به الرُّسُلُ مِن ذلك[٢].

= قال الترمذي، وابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (٢١٠): (حسَنٌ صحيحٌ). وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٢٨٠)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ١٠٦)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٩٦٩)، وصحَّحه لغيرِه شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٥/ ١٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٥).

قال ابنُ الجوزي: (﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: أنَّ معناه: جاءت بحقيقةِ الموتِ. والثَّاني: بالحَقِّ مِن أمرِ الآخِرةِ، فأبانت للإنسانِ ما لم يكُنْ بَيِّنًا له مِن أمرِ الآخِرةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٠).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (ليس مُرادُه أنَّها جاءت بالحَقِّ الَّذي هو الموتُ؛ فإنَّ هذا مَشهورٌ لم يُنازَعْ فيه، ولم يَقُلْ أحدٌ: إنَّ الموتَ باطِلٌ حتَّى يُقالَ: جاءت بالحَقِّ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٦٥). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٤٧، ٣٤٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٥، ٣٨٦).

عن عائِشةَ رَضيَ اللهُ عنها، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ حضَرَتْه الوَفاةُ جَعَل يُدخِلُ يَديه في الماءِ، فيَمسَحُ بهما وَجْهَه، يقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، إنَّ لِلْمَوتِ سَكَراتٍ))[١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أحَدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقعَدُه بالغَداةِ والعَشِيِّ؛ إنْ كان مِن أهلِ الجنَّةِ فمِن أهلِ الجَنَّةِ، وإنْ كان مِن أهلِ النَّارِ فمِن أهلِ النَّارِ، يُقال: هذا مَقعَدُك حتَّى يَبعَثَك اللهُ إليه يومَ القيامةِ))[٢].

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

أي: ذلك الموتُ الَّذي جاءَتْك سَكْرتُه بالحَقِّ هو ما كُنتَ تَميلُ عنه وتَهرُبُ منه -أيُّها الإنسانُ- وقد أدركَك الآنَ[٣]!

---

(١) رواه البخاري (٤٤٤٩).

(٢) رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٦).

قال ابنُ كثيرٍ: (في قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّ «ما» هاهنا مَوصولةٌ، أي: الَّذي كنتَ منه تحيدُ -بمعنى: تبتَعِدُ وتَنأى وتَفِرُّ- قد حَلَّ بك، ونزل بساحَتِك.

والقولُ الثَّاني: أنَّ «ما» نافيةٌ، بمعنى: ذلك ما كُنتَ تَقدِرُ على الفِرارِ منه، ولا الحَيدِ عنه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٥، ٩٦).

وممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والبِقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٩). =

كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ونَفَخ المَلَكُ في القَرنِ لِبَعثِ النَّاسِ يومَ القيامةِ الَّذي توعَّد اللهُ الكافِرينَ والظَّالِمينَ فيه بالعَذابِ[1].

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: ما الصُّورُ؟ قال: قَرْنٌ يُنفَخُ فيه))[2].

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

= وقال ابنُ كثير: (﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: هذا هو الَّذي كنتَ تَفِرُّ منه قد جاءك، فلا مَحيدَ ولا مَناصَ، ولا فَكاكَ ولا خَلاصَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٣، ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٦).

قال ابن عثيمين: (المرادُ بقَولِه: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ النَّفخةُ الثَّانيةُ، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾، وهذا يَعني أنَّه بهذه النَّفخةِ صار يومُ القيامةِ الَّذي هو يومُ الوَعيدِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٦).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٤٧٤٢)، والترمذيُّ (٢٤٣٠)، والنَّسائيُّ (١١٤٥٦) واللَّفظُ لهما، وأحمدُ (٦٥٠٧) باختلافٍ يسيرٍ.

حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٥٠)، ووافقه الذهبي في ((التلخيص)) (٢/ ٥٥٠)، وذكر ثبوتَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٥/ ٣٠٨)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ٩)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٣٠).

أي: وجاءت كلُّ نفْسٍ يومَ القيامةِ ومعها سائِقٌ مِنَ الملائِكةِ يَسوقُها إلى اللهِ تعالى، وشَهيدٌ مِنَ الملائكةِ يَشهَدُ عليها بما عَمِلَتْه في الدُّنيا(١).

كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا * لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا * وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾.

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾.

أي: لقد كنتَ -أيُّها الإنسانُ- في الدُّنيا في غَفلةٍ مِن هذا اليَومِ، فلمْ تستَعِدَّ له(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٩، ٤٣٣)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ نُفوسُ جميعِ البَشَرِ: ابنُ جرير، والبِقاعي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٧).

ونسَبَ مكِّيٌّ هذا القولَ إلى أكثَرِ العُلماءِ، ونسَبه الماوَرْديُّ للجُمهورِ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٤٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٤٩).

وقيل: المرادُ بـ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾: نفوسُ المُشرِكينَ، لا المؤمِنينَ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٧، ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٨).

وقد ذهب ابنُ جرير، وابنُ عطيَّة، والرَّازيُّ، وابنُ كثير -ونسَبه الشَّوكانيُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ-: إلى أنَّ هذا الخِطابَ لكُلِّ إنسانٍ؛ مُؤمِنٍ وكافِرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٠). =

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾.

أي: فأزَلْنا عنك الغِطاءَ، ورَفَعْنا عنك الحِجابَ يومَ القيامةِ؛ فظهَرت لك حقائِقُ الآخِرةِ[1].

﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

أي: فبَصَرُك يومَ القيامةِ في غايةِ الحِدَّةِ والقُوَّةِ والنُّفوذِ، فترى به ما كُنتَ غافِلًا عنه في الدُّنيا[2].

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحُسَينُ بنُ عَبدِ الله بنِ عُبَيدِ الله بنِ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٥).

قال الرازي: (الخِطابُ عامٌّ؛ أمَّا الكافِرُ فمَعلومُ الدُّخولِ في هذا الحُكم، وأمَّا المؤمِنُ فإنَّه يَزدادُ عِلمًا، ويظهَرُ له ما كان مَخفيًّا عنه، ويرى عِلمَه يَقينًا، فيكونُ بالنِّسبةِ إلى تلك الأحوالِ وشِدَّةِ الأهوالِ كالغافِلِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٥).

وذهب مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور إلى أنَّ هذا الخِطابَ خاصٌّ بالكافِرِ، وهو ظاهِرُ اختيارِ الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، وسُفْيانُ، والضَّحَّاكُ بنُ مُزاحِمٍ، وصالحُ ابنُ كَيْسانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٧٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقوله: ﴿فَبَصَرُكَ﴾: بصَرُ العَينِ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والماوَرْديُّ، والبغوي، وابنُ جُزَي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير الماوردي)) =

كما قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ في هذا زَجرٌ عن المعاصي الَّتي يَستَخفي الإنسانُ بها[1].

٢- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ وُجوبُ مُراقبةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ وألَّا نُحدِّثَ أنفُسَنا بما يُغضِبُه وبما يَكرَهُه؛ فعلينا أنْ يكونَ حديثُ نُفوسِنا كلُّه بما يُرضيه؛ لأنَّه يَعلمُ ذلك، أفَلا يَليقُ بنا أنْ نَستحيَ مِن ربِّنا

= (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٨٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ به: العِلمُ والبصيرةُ: الفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والواحدي، وابنُ عطية، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٧٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٢).

قال الشنقيطي: (معنَى قولِه: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦]، أي: تكامَلَ عِلْمُهم فيها؛ لِمُبالَغتِهم في سَمْعِ الحقِّ وإبصارِه في ذلك الوقتِ... وكقولِه تعالَى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أيْ: عِلمُكَ اليومَ بما كنتَ تُنْكِرُه في الدُّنيا مِمَّا جاءَتْكَ به الرُّسُلُ حديدٌ، أي: قَوِيٌّ كامِلٌ، و... أنَّ المرادَ بحدَّةِ البصرِ في ذلك اليَومِ: كمالُ العِلمِ، وقوَّةُ المعرفةِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ١٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨).

عزَّ وجلَّ أنْ تُوسوِسَ نُفوسُنا بما لا يَرضاه؟! لكِنَّ الوَساوِسَ الَّتي تَطرَأُ على القَلبِ، ولا يَميلُ الإنسانُ إليها بل يُحارِبُها، ويُحاوِلُ البُعدَ عنها بقَدْرِ إمكانِه: لا تَضُرُّه شَيئًا، بل هي دَليلٌ على إيمانِه؛ لأنَّ الشَّيطانَ إنَّما يأتي إلى القَلبِ، فيُلقي عليه الوَساوِسَ إذا كان قَلبًا سَليمًا(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ فيه هَيبةٌ وفَزَعٌ وخَوفٌ لِقَومٍ، ورَوحٌ وسُكونٌ وأُنسُ قَلبٍ لِقَومٍ(٢).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هذا ممَّا يدعو الإنسانَ إلى مُراقَبةِ خالِقِه المُطَّلِعِ على ضَميرِه وباطِنِه، القَريبِ منه في جميعِ أحوالِه؛ فيَستَحي منه أن يَراه حيثُ نهاه، أو يَفقِدَه حيثُ أَمَره، وكذلك ينبغي له أن يَجعَلَ الملائِكةَ الكِرامَ الكاتِبينَ منه على بالٍ، فيُجِلَّهم ويُوَقِّرَهم، ويَحذَرَ أن يَفعَلَ أو يقولَ ما يُكتَبُ عنه مِمَّا لا يُرضي رَبَّ العالَمينَ؛ ولهذا قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي: يتَلَقَّيانِ عن العَبدِ أعمالَه كُلَّها(٣).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ المُكَلَّفَ غَيرُ مَتروكٍ سُدًى(٤).

٦- قَولُه تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ في اللِّسانِ آفَتانِ عَظيمتانِ إنْ خَلَص العبدُ مِن إحداهما لم يَخلُصْ مِنَ الأُخرى: آفةُ الكلامِ، وآفةُ السُّكوتِ، وقد يكونُ كُلٌّ منهما أعظَمَ إثمًا مِنَ الأخرى في وَقتِها؛ فالسَّاكِتُ عن الحَقِّ شَيطانٌ أخرَسُ، عاصٍ للهِ، مُراءٍ مُداهِنٌ، إذا لم يَخَفْ على نَفْسِه، والمتكَلِّمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٩، ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٤).

بالباطِلِ شَيطانٌ ناطِقٌ، عاصٍ للهِ، وأكثَرُ الخَلقِ مُنحَرِفٌ في كَلامِه وسُكوتِه، فهُم بيْنَ هذَينِ النَّوعَينِ، وأهلُ الوَسَطِ -وهم أهلُ الصِّراطِ المُستقيمِ- كَفُّوا ألسِنتَهم عن الباطِلِ، وأطلَقوها فيما يَعودُ عليهم نَفْعُه في الآخِرةِ(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ التَّحذيرُ مِن التَّهاوُنِ بالأعمالِ الصَّالحةِ، والتَّكاسُلِ عن التَّوبةِ؛ وأنَّ الإنسانَ يجبُ أن يُبادِرَ؛ لأنَّه لا يدري متى يأتيه الموتُ(٢).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ يدُلُّ على اعتناءِ اللهِ بالعِبادِ، وحِفظِه لأعمالِهم، ومُجازاتِه لهم بالعَدلِ، فهذا الأمرُ مِمَّا يَجِبُ أن يَجعَلَه العبدُ منه على بالٍ، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ غافِلونَ(٣)!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ فائدةُ الإخبارِ بأنَّ اللهَ يَعلَمُ ما تُوسوِسُ به نفْسُ كُلِّ إنسانٍ: التَّنبيهُ على سَعةِ عِلمِ اللهِ تعالى بأحوالِهم كُلِّها، فإذا كان يَعلَمُ حَديثَ النَّفْسِ فلا عَجَبَ أن يَعلَمَ ما تَنقُصُ الأرضُ منهم(٤).

٢- مَن أنكَرَ عِلمَ اللهِ تعالى فهو كافِرٌ، سَواءٌ أنكَرَه فيما يَتعلَّقُ بفِعْلِه، أو فيما يتعلَّقُ بخَلْقِه؛ فلو قال: إنَّ اللهَ تعالى لا يَعلَمُ ما يَفعَلُه العبدُ فهو كافِرٌ، كما لو قال: إنَّ اللهَ لا يَعلَمُ ما يَفعَلُه بنَفْسِه؛ ولهذا كفَّر أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ غُلاةَ القَدَريَّةِ الَّذين قالوا: إنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لا يَعلَمُ أفعالَ العِبادِ؛ فالَّذي يُنكِرُ عِلمَ اللهِ

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٩).

بأفعالِ العِبادِ لا شَكَّ أنَّه كافِرٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يَقولُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، ويَقولُ سُبحانَه وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[1] [الزخرف: ٨٠].

٣- النَّفْسُ لها وَسوَسةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾؛ فهذا تُوسوِسُ به نَفْسُه لِنَفْسِه، فالَّذي يُوسوِسُ في صُدورِ النَّاسِ نُفوسُهم، وشَياطينُ الجِنِّ وشَياطينُ الإنسِ[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ لم يَقُلْ: على اليَمينِ وعلى الشِّمالِ؛ لأنَّهما ليسا على كَتِفَيه، بل هما في مَكانٍ قَريبٍ أقرَبَ من حَبلِ الوَريدِ[3].

٥- قولُه تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: يتَلَقَّى المُتلَقِّيانِ جميعَ ما يَصْدُرُ عن الإنسانِ، فيَكْتُبانِه عليه[4]، ويُؤخَذُ منه أنَّ لكُلِّ إنسانٍ ملَكَينِ يُحصِيانِ أعمالَه، وأنَّ أحدَهما يكونُ من جِهةِ يَمينِه، والآخَرَ من جِهةِ شِمالِه[5].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أنَّ الملَكينِ يَكتُبانِ جميعَ أقوالِ العَبدِ؛ فإنَّه قال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ نَكِرةٌ في سياقِ النَّفيِ مُؤكَّدةٌ بحَرفِ «مِن»؛ فهذا يَعُمُّ كُلَّ قَولِه[6]، قال بَعضُهم: يُكتَبُ عليه كُلُّ شَيءٍ حتَّى الأنينُ في المَرَضِ، وهذا هو ظاهِرُ قَولِه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩١).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٩).

وهذا هو ظاهِرُ الآيةِ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿مِن قَوْلٍ﴾ نَصٌّ صَريحٌ في العُمومِ[(١)]، فظاهِرُ الآيةِ الكريمةِ أنَّ القَولَ مهما كان يُكتَبُ، سواءٌ كان خيرًا أم شَرًّا أم لَغوًا يُكتَبُ، لكِنْ يُحاسَبُ على ما كان خَيرًا أو شرًّا، ولا يَلزَمُ مِن الكتابةِ أنْ يُحاسَبَ الإنسانُ عليها[(٢)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿رَقِيبٌ﴾ حُجَّةٌ في تَسميةِ المخلوقينَ ووصفِهم باسمِ الخالِقِ ووصفِه[(٣)]، وذلك فيما كان له معنًى كُلِّيٌّ تتفاوتُ فيه أفرادٌ مِنَ الأسماءِ والصِّفاتِ -كالمَلِكِ، والعَزيزِ، والجَبَّارِ- فيَجوزُ تَسميةُ غَيرِ اللهِ بها؛ فقد سَمَّى اللهُ نَفْسَه بهذه الأسماءِ، وسَمَّى بَعضَ عِبادِه بها، أمَّا ما كان مِن أسمائِه لا يقبلُ الشَّركةَ -كالخالِقِ والبارئِ- فلا تجوزُ التَّسميةُ به[(٤)].

٨- الرَّقيبُ هو العَتيدُ وليس غيرَه؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، ولم يَقُلْ سُبحانَه: رَقيبٌ وعَتيدٌ[(٥)]!

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٢).

قال ابن كثير: (اختلف العُلَماءُ: هل يَكتُبُ المَلَكُ كُلَّ شَيءٍ مِن الكلام، وهو قَولُ الحَسَنِ وقَتادةَ، أو إنَّما يكتُبُ ما فيه ثوابٌ وعِقابٌ، كما هو قَولُ ابنِ عبَّاسٍ: على قَولَين، وظاهِرُ الآيةِ الأوَّلُ؛ لِعُمومِ قَولِه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨). ويُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٤٤)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٩٠).

(٤) جاء في فتوى اللَّجنةِ الدَّائِمةِ: (ما كان مِن أسماءِ اللهِ تعالى عَلَمَ شَخصٍ -كلَفظِ «اللهِ»- امتَنَع تَسميةُ غَيرِ اللهِ تعالى به؛ لأنَّ مُسَمَّاه مُعَيَّنٌ لا يَقبَلُ الشَّركةَ، وكذا ما كان مِن أسمائِه في معناه في عدَمِ قَبولِ الشَّركةِ كالخالِقِ والبارئِ... أمَّا مَا كان له معنًى كُلِّيٌّ تَتفاوَتُ فيه أفرادٌ مِنَ الأسماءِ والصِّفاتِ -كالمَلِكِ، والعَزيزِ، والجَبَّارِ، والمتكَبِّرِ- فيَجوزُ تَسميةُ غَيرِه بها؛ فقد سَمَّى اللهُ نَفْسَه بهذه الأسماءِ، وسَمَّى بَعضَ عِبادِه بها). ((فتاوى اللجنة الدائمة - ٢)) (٢/ ٣٦٨).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٢٦). =

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ أنَّ الموتَ له سَكَراتٌ، وله شِدَّةٌ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ سُؤالٌ: أنَّ يومَ القيامةِ يومُ الوَعيدِ للكُفَّارِ، ويَومُ الوَعدِ للمُؤمِنينَ؛ فلماذا ذَكَرَ اللهُ تعالى هنا الوَعيدَ دونَ الوَعدِ؟

الجوابُ: لأنَّ السُّورةَ كلَّها مَبدوءةٌ بتَكذيبِ المكذِّبينَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فناسَبَ أنْ يُغَلَّبَ فيها جانبُ الوَعيدِ؛ قال تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ * بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ إلخ؛ فكان مِن الحِكمةِ أنْ يُذْكَرَ الوَعيدُ دونَ الوَعدِ، ومع ذلك فقد ذَكَرَ اللهُ تعالى أصحابَ الجنَّةِ فيما بعدُ؛ لأنَّ القرآنَ مَثانٍ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ أنَّ النَّفْسَ إذا تَمَّ تَجَرُّدُها بالموتِ مِن تَعَلُّقِها بالبَدَنِ، رأتْ ما لم تكُنْ تَراه[٣]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ هذا تَفصيلٌ لبعضِ الخَلْقِ الأوَّلِ بذِكرِ خَلْقِ الإنسانِ، وهو أهمُّ في هذا المَقامِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه المُرادُ من الخلْقِ الأوَّلِ، وليُبنى عليه ﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ الَّذي هو تَتميمٌ لإحاطةِ صِفةِ العِلمِ في قَولِه: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡ﴾ [ق: ٤]، وليُنتَقَلَ منه إلى الإنذارِ بإحصاءِ أعمالِ النَّاسِ عليها، وهو ما استُرْسِلَ في وَصْفِه مِن قولِه: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧] إلخ[٤].

= وهما وصفانِ للمَلَكينِ اللذينِ يسجِّلانِ أعمالَ العِبادِ، وليسا اسمينِ لهما. ينظر: ((عالم الملائكة الأبرار)) للأشقر (ص: ١٨).

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٦/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٩).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ تأكيدُ هذا الخبَرِ باللَّامِ و(قدْ) مُراعًى فيه المُتعاطِفاتُ، وهي (نَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ)؛ لأنَّهم وإنْ كانوا يعلَمون أنَّ اللهَ خلَقَ النَّاسَ؛ فإنَّهم لا يَعلَمون أنَّ اللهَ عالمٌ بأحوالِهم(١).

- والإنسانُ يَعُمُّ جميعَ النَّاسِ، ولكنَّ المَقصودَ منهم أوَّلًا المشرِكون؛ لأنَّهم المَسوقُ إليهم هذا الخبَرُ، وهو تَعريضٌ بالإنذارِ، كما يدُلُّ عليه قولُه بعْدَه: ﴿ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]، وقولُه: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ [ق: ٢٢]، وقولُه: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾(٢) [ق: ٢٠]. وذلك على قولٍ.

- قولُه: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ الباءُ في قَولِه: ﴿بِهِ﴾ صِلةٌ؛ لتأكيدِ اللُّصوقِ(٣).

- والإخبارُ عن فِعلِ الخَلْقِ بصِيغةِ المُضيِّ ﴿خَلَقْنَا﴾ ظاهرٌ، وأمَّا الإخبارُ عن عِلمِ ما تُوسوِسُ به النَّفْسُ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ فلِلدَّلالةِ على أنَّ تَعلُّقَ عِلمِه تعالى بالوَسوسةِ مُتجدِّدٌ، غيرُ مُنقَضٍ ولا مَحدودٍ؛ لإثباتِ عُمومِ عِلمِ اللهِ تعالى، والكِنايةِ عن التَّحذيرِ مِن إضمارِ ما لا يُرضي اللهَ(٤).

- قولُه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ في مَوضعِ الحالِ من ضَميرِ ﴿وَنَعْلَمُ﴾، والمَقصودُ منها تأكيدُ عامِلِها، وتحقيقُ استِمرارِ العِلمِ بباطنِ الإنسانِ، والقُربُ هنا قيل: هو كِنايةٌ على إحاطةِ العِلمِ بالحالِ؛ لأنَّ القُربَ يَستلزِمُ الاطِّلاعَ، ومِن لَطائفِ هذا التَّمثيلِ أنَّ حبْلَ الوريدِ مع قُربِه لا يَشعُرُ الإنسانُ بقُربِه؛ لِخَفائِه، وكذلك قُرْبُ اللهِ مِن الإنسانِ بعِلمِه -أو قُربُ ملائكتِه- قُربٌ لا يَشعُرُ به

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإنسانُ؛ فلذلك اختيرَ تَمثيلُ هذا القُربِ بقُربِ حبْلِ الوريدِ، وبذلك فاقَ هذا التَّشبيهُ لحالةِ القُربِ كُلَّ تَشبيهٍ مِن نَوعِه ورَدَ في كلامِ البُلغاءِ(١).

- وإضافةُ الحَبْلِ إلى الوريدِ: إمَّا للبَيانِ، كقولِهم: بعيرُ سانيةٍ(٢)، وشَجَرُ الأراكِ. وإمَّا أنْ يُرادَ حبلُ العاتِقِ، فيُضافَ إلى الوَريدِ كما يُضافُ إلى العاتِقِ؛ لاجتِماعِهما في عضْوٍ واحدٍ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ هذا الكلامُ تَخلُّصٌ للمَوعظةِ والتَّهديدِ بالجزاءِ يومَ البعثِ والجزاءِ مِن إحصاءِ الأعمالِ خَيرِها وشَرِّها المعلومةِ مِن آياتٍ كثيرةٍ في القرآنِ. وهذا التَّخلُّصُ بكلمةِ (إذ) الدَّالَّةِ على الزَّمانِ مِن ألطَفِ التَّخلُّصِ(٤).

- قولُه: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ مُقدَّرٌ بـ(اذكُرْ)، أو مُتعلِّقٌ بـ﴿أَقْرَبُ﴾ [ق: ١٦]، أي: هو أعلَمُ بحالِه مِن كلِّ قريبٍ حينَ يَتلقَّى -وذلك على قولٍ- أي: يَتلقَّنُ الحَفيظانِ ما يَتلفَّظُ به، وفيه إيذانٌ بأنَّه سُبحانَه غنيٌّ عن استِحفاظِ الملَكَينِ؛ فإنَّه أعلَمُ مِن الملَكَينِ، ومُطَّلِعٌ على ما يَخفَى عليهما، لكنَّه لِحِكمةٍ اقتَضَتْه، وهي ما فيه مِن تَشديدٍ يُثبِّطُ العَبدَ عن المعصيةِ، وتأكيدٍ في اعتِبارِ الأعمالِ وضَبطِها للجزاءِ، وإلزامٍ للحُجَّةِ يومَ يَقومُ الأَشهادُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٠، ٣٠١).

(٢) السَّانِيَةُ: النَّاضِحةُ، وهي النَّاقةُ الَّتي يُستَقى عليها. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٤، ٣٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨، ١٢٩).

- ومفعولُ التَّلقِّي في الفعلِ الَّذي هو ﴿يَتَلَقَّى﴾، والوصْفُ الَّذي هو ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ مَحْذوفٌ، تَقديرُه: إذْ يتَلَقَّى المُتلقِّيانِ جميعَ ما يَصْدُرُ عن الإنسانِ فيَكْتُبانِه عليه(١). وقيل: حُذِف مَفعولُ ﴿يَتَلَقَّى﴾؛ لدَلالةِ قَولِه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، والتَّقديرُ: إذ تُحصى أقوالُهم وأعمالُهم(٢).

- وتعريفُ ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ تعريفُ العهدِ إذا كانتِ الآيةُ نزَلَت بعدَ آياتٍ ذُكِرَ فيها الحفَظةُ، أو تَعريفُ الجِنسِ، والتَّثنيةُ فيها للإشارةِ إلى أنَّ هذا الجِنسَ مُقسَّمٌ اثنَينِ اثنينِ(٣).

- والتَّعريفُ في اليمينِ والشِّمالِ تَعريفُ العهدِ، أو اللَّامُ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: عن يمينِ الإنسانِ وعن شِمالِه(٤).

- ويَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿قَعِيدٌ﴾ بدَلًا من ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ بدَلَ بعضٍ، ويكونَ ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ مُتعلِّقًا بـ ﴿قَعِيدٌ﴾، وقُدِّمَ على مُتعلَّقِه؛ للاهتِمامِ بما دلَّ عليه مِن الإحاطةِ، وللرِّعايةِ على الفاصِلةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ خبَرًا مُقدَّمًا، و﴿قَعِيدٌ﴾ مُبتدأً، وتكونَ الجُملةُ بيانًا لِجُملةِ ﴿يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾(٥).

- وقالَ ﴿قَعِيدٌ﴾ ولم يقُلْ: قَعيدانِ -إذ إنَّه وصْفٌ للملَكَينِ المذكورَين-؛ لأنَّ معناه عن اليَمينِ قَعيدٌ، وعن الشِّمالِ قَعيدٌ، لكنَّه حُذِفَ أحدُهما لدَلالةِ المَذكورِ عليه، أو أنَّ (فَعيلًا) يَستوي فيه الواحدُ والاثنانِ والجمعُ، وقيل: معناه: مُقاعِدٌ، كما تقولُ: جليسٌ وخليطٌ، أي: مُجالِسٌ ومُخالِطٌ، فيَكونُ عُدِلَ مِن فاعلٍ إلى

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فَعيلٍ للمُبالَغةِ، كـ (عليمٍ)[(١)]، أو أنه قال ذلك رعايةً للفواصِلِ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾؛ فلذلك فُصِلَت[(٣)].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ صِلةٌ في مَفعولِ الفعلِ المنْفيِّ؛ للتَّنْصيصِ على الاستِغراقِ[(٤)].

- قولُه: ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ استِثناءٌ مِن أحوالٍ عامَّةٍ، أي: ما يقولُ قولًا في حالةٍ إلَّا في حالةِ وُجودِ رَقيبٍ عتيدٍ لَدَيه، وإنَّما خُصَّ القولُ بالذِّكرِ؛ لأنَّ مِن الأقوالِ السَّيِّئةِ ما لَه أثرٌ شديدٌ في الإضلالِ، كالدُّعاءِ إلى عِبادةِ الأصنامِ، ونهْيِ النَّاسِ عن اتِّباعِ الحقِّ، وتَرويجِ الباطلِ بإلقاءِ الشُّبَهِ، وتَغريرِ الأغرارِ، ونحوِ ذلك، على أنَّه مِن المعلومِ بدَلالةِ الاقتِضاءِ[(٥)] أنَّ المُؤاخَذةَ على الأعمالِ أَوْلى مِن المُؤاخَذةِ على الأقوالِ، وتلك الدَّلالةُ كافيةٌ في تَذْكيرِ المؤمنينَ، وقيل غيرُ ذلك[(٦)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ ما يُلاقونه مِن الموتِ والبَعثِ، وما يَترتَّبُ عليهما مِن الأهوالِ[(٧)]. أو

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٤، ٣٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣١، ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٠٣).

(٥) دلالةُ الاقتضاءِ: هي دلالةُ اللَّفظِ على مقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تقديرِه؛ لتوقُّفِ الصِّدقِ أو الصِّحَّةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((حاشية الطيبي =

هو عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]؛ لاشتِراكِهما في التَّنبيهِ على الجَزاءِ على الأعمالِ؛ فهذا تَنقُّلٌ في مَراحلِ الأُمورِ العارضةِ للإنسانِ الَّتي تُسلِّمُه مِن حالٍ إلى آخَرَ، حتَّى يقَعَ في الجزاءِ على أعمالِه الَّتي قدْ أحْصاها الحَفيظانِ(١).

- وعُبِّرَ بصِيغةِ الماضي (جاءتْ)؛ إيذانًا بتَحقيقِ ذلك، وغايةِ اقترابه، وأنَّه لقُربِه صار بمَنزِلةِ ما حصَلَ؛ قَصدًا لإدخالِ الرَّوعِ في نُفوسِ المشركين(٢).

- وفي التَّعبيرِ عن الحُصولِ والاعتراءِ بالمَجيءِ تَهْويلٌ لحالةِ احتِضارِ الإنسانِ، وشُعورِه بأنَّه مُفارِقُ الحياةَ الَّتي ألِفَها، وتعلَّقَ بها قلبُه(٣).

- وقولُه: ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ إشارةٌ إلى الموتِ بتَنْزيلِ قُربِ حُصولِه مَنزِلةَ الحاصِلِ المُشاهَدِ، والخِطابُ فيها للإنسانِ المَذكورِ في قَولِه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ على طَريقِ الالْتفاتِ، أو إشارةٌ إلى الحقِّ، والخِطابُ للفاجِرِ(٤).

- وتَقديمُ ﴿مِنْهُ﴾ على ﴿تَحِيدُ﴾؛ للاهتِمامِ بما منه الحِيادُ، وللرِّعايةِ على الفاصِلةِ(٥).

- و﴿تَحِيدُ﴾ تفِرُّ وتَهرُبُ، وهو مُعبَّرٌ به عن الكراهيةِ، أو تجنُّبِ أسبابِ الموتِ،

= على الكشاف)) (١٤/ ٥٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٧).

والخِطابُ المقصودُ الأوَّلُ منه هم المُشرِكون؛ لأنَّهم أشدُّ كراهيةً للمَوتِ؛ لأنَّ حَياتَهم مادِّيَّةٌ مَحضةٌ، فهم يُريدونَ طُولَ الحياةِ؛ إذ لا أمَلَ لهم في حياةٍ أُخرى، ولا أملَ لهم في تَحصيلِ نَعيمِها، فأمَّا المؤمنون فإنَّ كراهتَهم للمَوتِ المُرتكِزةَ في الجِبلَّةِ بمِقدارِ الإلْفِ لا تبلُغُ بهم إلى حدِّ الجزَعِ منه[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾

- صِيغةُ المُضيِّ ﴿وَنُفِخَ﴾ مُستعمَلةٌ في مَعنى المضارِعِ، أي: يُنفَخُ في الصُّورِ؛ وإنَّما صِيغَ له المُضيُّ لتَحقُّقِ وُقوعِه[٢].

- والإخبارُ عن النَّفخِ بأنَّه ﴿يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ بتَقديرِ مُضافٍ، أي: ذلك حُلولُ يومِ الوعيدِ. وإضافةُ ﴿يَوۡمُ﴾ إلى ﴿ٱلۡوَعِيدِ﴾ مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى ما يقَعُ فيه، أي: يومَ حُصولِ الوعيدِ الَّذي كانوا تُوُعِّدوا به، والاقتِصارُ على ذِكرِ الوعيدِ؛ لأنَّ المقصودَ الأوَّلَ مِن هذه الآيةِ هم المشرِكون. وفي الكلامِ اكتفاءٌ[٣]، تَقديرُه: ويومُ الوعْدِ[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ مَقولُ قَولٍ محذوفٍ دلَّ عليه تَعيُّنُه مِن الخِطابِ، أي: يُقالُ هذا الكلامُ لكلِّ نفْسٍ مِن نُفوسِ المشركين، فهو خِطابُ التَّهكُّمِ التَّوبيخيِّ للنَّفْسِ الكافرةِ؛ لأنَّ المؤمنَ لم يكُنْ في غَفلةٍ عن الحَشرِ والجَزاءِ. أو الخِطابُ لكُلِّ إنسانٍ، والخِطابُ للكُلِّ بذلك؛ لِمَا أنَّه ما مِن أحدٍ إلَّا وله غَفْلةٌ ما مِن الآخرةِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٠٧).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٨)، ((إعراب =

- وعَلاماتُ الخِطابِ في كَلماتِ ﴿كُنتَ﴾ ﴿عَنكَ﴾ ﴿غِطَآءَكَ﴾ ﴿فَبَصَرُكَ﴾ مَفتوحةٌ؛ لتَأويلِ النَّفْسِ بالشَّخصِ أو بالإنسانِ، ثمَّ غُلِّبَ فيه التَّذكيرُ على التَّأنيثِ[(١)].

- قولُه: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ...﴾ الغَفْلةُ: الذُّهولُ عمَّا شَأنُه أنْ يُعلَمَ، وأُطلِقَت هنا على الإنكارِ والجَحدِ على سَبيلِ التهكُّمِ -على قولٍ في التَّفسيرِ- ورَشَّحَ ذلك قولُه: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾، بمعنى: بيَّنَّا لك الدَّليلَ بالحِسِّ، فهو أيضًا تهكُّمٌ[(٢)].

- وأُوثِرَ قولُه: ﴿فِي غَفۡلَةٖ﴾ على أنْ يُقالَ: (غَافِلًا)؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ الغَفْلةِ منه[(٣)].

- وقال: ﴿فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ ولم يَقُلْ: «عنه» كما قال: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ [هود: ١١٠]، ولم يَقُلْ: «في شَكٍّ فيه»، وجاء هذا في المصدَرِ وإنْ لم يَجِئْ في الفِعلِ؛ فلا يُقالُ: «غَفَلْتُ منه»، ولا «شَكَكْتُ منه»، كأنَّ غَفلتَه وشَكَّه ابتداءٌ منه، فهو مَبدَأُ غفلتِه وشَكِّه، وهذا أبلَغُ مِن أنْ يُقالَ: «في غفلةٍ عنه» و «شَكٍّ فيه»؛ فإنَّه جعَلَ ما يَنبغي أنْ يكونَ مَبدأَ التَّذكِرةِ واليَقينِ ومَنشأَهما مَبدأً للغَفلةِ والشَّكِّ[(٤)]!

- وكَشفُ الغِطاءِ كِنايةٌ عن الغَفْلةِ، كأنَّها غطَّتْ جميعَه أو عينَيه فهو لا يُبصِرُ، فإذا كانتِ القِيامةُ زالَتْ عنه الغَفْلةُ فتكشَّفَتْ له الحقائقُ، وانجلَى عنه الرَّينُ

= القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠).

الَّذي كان مَسدولًا أمامَه، فأبصَرَ ما لم يكُنْ يُبصِرُه في حياتِه(١).

- وأُسنِدَ الكَشفُ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه الَّذي أظهَرَ لها أسبابَ حُصولِ اليَقينِ بشَواهِدِ عَينِ اليقينِ(٢).

- وأُضيفَ (غِطاء) إلى ضَميرِ الإنسانِ المُخاطَبِ؛ للدَّلالةِ على اختِصاصِه به، وأنَّه ممَّا يُعرَفُ به(٣).

- قولُه: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ حِدَّةُ البصَرِ: قُوَّةُ نفاذِه في المَرْئيِّ، وحِدَّةُ كلِّ شيءٍ قُوَّةُ مَفعولِه، ومنه حِدَّةُ الذِّهنِ، والكلامُ يَتضمَّنُ تَشْبيهَ حُصولِ اليقينِ برُؤيةِ المَرئيِّ ببَصَرٍ قويٍّ. وتَقييدُه بقولِه: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ تَعريضٌ بالتَّوبيخِ، أي: ليس حالُك اليَومَ كحالِكَ قبْلَ اليومِ؛ إذْ كنتَ في الدُّنيا مُنكِرًا للبَعثِ(٤). وذلك على القولِ بأنَّ المرادَ به الكافرُ.



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٠-٣٢)

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ
أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا
يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَرِينُهُۥ﴾: أي: المَلَكُ المُصاحِبُ له، وقيل: الشَّيطانُ المقرونُ به، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿مُّرِيبٍ﴾: أي: واقِعٍ في الرِّيبةِ والشَّكِّ، ومُوقِعٍ غَيرَه كذلك في الشَّكِّ، والرِّيبةُ: التُّهمةُ، وهي ظَنُّ السوءِ، فهي قِسمٌ مِن الشكِّ، والرِّيبةُ: قَلَقُ النَّفْسِ، وانتفاءُ الطُّمأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[٢].

﴿أَطْغَيْتُهُۥ﴾: أي: أَضلَلتُه، وأغوَيتُه، وأوقَعتُه في الطُّغيانِ، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصيانِ[٣].

﴿تَخْتَصِمُواْ﴾: أي: تَتنازَعوا، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على مُنازَعةٍ[٤].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٧)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٥/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٤)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، =

المعنى الإجماليُّ:

يحكي اللهُ سبحانَه بعضَ مَشاهِدِ يومِ القيامةِ، وما يقولُه قَرينُ الإنسانِ، فيقولُ تعالى: وقال المَلَكُ المَقْرونُ بالإنسانِ في الدُّنيا لِكِتابةِ أعمالِه: هذا هو الَّذي وُكِّلتُ به، وهذا عَمَلُه الَّذي أحصَيْتُه عليه حاضِرٌ، فيقولُ اللهُ تعالى: اطْرَحا في نارِ جَهنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ شديدِ العِنادِ، مَنَّاعٍ للخَيرِ، مُعتَدٍ على حُدودِ اللهِ، ظالِمٍ للنَّاسِ، شاكٍّ في وحدانيَّةِ اللهِ وقُدرتِه، ومُشكِّكٌ لِغَيرِه، ذلك الَّذي أشرَكَ باللهِ، فعَبَدَ معه مَعبودًا آخَرَ، فألْقِياه في عَذابِ النَّارِ الشَّديدِ.

قال الشَّيطانُ مُتبَرِّئًا مِن ذلك الكافِرِ: رَبَّنا ما أضلَلْتُه ولا أغوَيتُه؛ فلا سُلطانَ لي عليه، ولكِنَّه كان ضالًّا بَعيدًا عن الحَقِّ.

وقال اللهُ تعالى لأولئك المُشرِكينَ وقُرَنائِهم مِنَ الشَّياطينِ: لا تَختَصِموا عندي، وقد سبَق أن أقمْتُ عليكم الحُجَّةَ في الدُّنيا، فلا يُغَيَّرُ قَولي الَّذي قُلْتُه مِن قَبْلُ بأنِّي سأَمْلأُ جهنَّمَ مِن الجِنَّةِ والنَّاسِ أجمَعينَ، وما أنا بِذي ظُلمٍ لِعِبادي.

يومَ نَقولُ لِجَهنَّمَ: هل امتَلَأْتِ، وتقولُ جَهنَّمُ طالِبةً المَزيدَ: هل مِن زيادةٍ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝٢٣﴾.

أي: وقال المَلَكُ المَقْرونُ بالإنسانِ في الدُّنيا لِكِتابةِ أعمالِه: هذا هو الَّذي وُكِّلتُ به قد أحضَرْتُه، وهذا عَمَلُه الَّذي أحصَيْتُه عليه مُعَدٌّ مُحضَرٌ، بلا زِيادةٍ ولا نُقْصانٍ[1].

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، =

= ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٨، ٩٩).
قال ابنُ كثير: (قال مجاهِدٌ: هذا كلامُ المَلَكِ السَّائِقِ، يقولُ: هذا ابنُ آدَمَ الَّذي وكَّلْتَني به، قد أحضَرْتُه. وقد اختار ابنُ جريرٍ أنْ يَعُمَّ السَّائِقَ والشَّهيدَ، وله اتِّجاهٌ وقُوَّةٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٦، ٤٣٧).
وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: الملَكُ الموَكَّلُ به: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابنُ كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٨).
قال النسفي: (﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الجمهورُ على أنَّه الملَكُ الكاتبُ الشَّهيدُ عليه). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦٥).
وقال ابنُ القيِّم: (يَقولُ لَمَّا يُحضِرُه: هذا الَّذي كُنتَ وَكَّلْتَني به في الدُّنيا قد أحضَرْتُه وأتَيْتُك به. هذا قَولُ مُجاهِدٍ. وقال ابنُ قُتَيْبةَ: المعنى: هذا ما كَتبتُه عليه وأحصَيتُه مِن قَولِه وعَمَلِه حاضِرٌ عِندي). ((الفوائد)) (ص: ١٠).
ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أي: هذا الذي وكَّلتني به قد أتيتُكَ به: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٦).
وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: ابنُ قُتَيبةَ، والسمعانيُّ، والقرطبيُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره العُلَيمي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٨٧).
وممَّن جمَع بيْن القَولَينِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ الجوزي، وابنُ القيم، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦١)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).
قال ابن القيم: (والتَّحقيقُ: أنَّ الآيَةَ تَتضَمَّنُ الأمْرَينِ، أي: هذا الشَّخصُ الَّذي وُكِّلْتُ به، وهذا عَمَلُه الَّذي أحصَيتُه عليه). ((الفوائد)) (ص: ١٠).
وقال السعدي: (فيُحضِرُه يومَ القيامةِ ويُحضِرُ أعمالَه، ويقولُ: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾، أي: قد =

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: فيقول اللهُ تعالى: اطْرَحا(١) في نارِ جَهنَّمَ كُلَّ كثيرِ الكُفرِ باللهِ وبدِينِه، وآياتِه

= أحضَرْتُ ما جُعِلتُ عليه؛ مِن حِفظِه، وحِفظِ عمَلِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

وقال ابن عطيَّة: (قال جماعةٌ مِن المفسِّرينَ: قَرِينُه مِن زَبانيةِ جهنَّم، أي قال: هذا العذابُ الَّذي لَدَيَّ لهذا الإنسانِ الكافرِ حاضرٌ عَتيدٌ، ففي هذا تحريضٌ على الكافرِ، واستِعجالٌ به). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٣).

وقيل: القَرينُ هنا: هو الشَّيطانُ الَّذي سُلِّطَ على إغواءِ الإنسانِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ، وابنُ جُزَي، والبِقاعي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٥، ٤٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢١).

والمعنى على هذا القولِ: هذا الإنسانُ حاضرٌ لدَيَّ، أعتَدْتُه ويَسَّرْتُه لِجَهنَّمَ، وهَيَّأْتُه لها بإغوائي وإضلالي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٠).

(١) قال ابنُ القَيِّم: (هذا إمَّا أن يكونَ خِطابًا للسَّائِقِ والشَّهيدِ، أو خِطابًا للمَلَكِ المُوَكَّلِ بعذابِه وإن كان واحِدًا، وهو مَذهَبٌ معروفٌ مِن مَذاهِبِ العَرَبِ في خِطابِها، أو تكونَ الألِفُ مُنقَلِبةً عن نونِ التَّأكيدِ الخَفيفةِ، ثمَّ أُجْرِيَ الوَصلُ مجرى الوَقفِ). ((الفوائد)) (ص: ١٠، ١١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٩).

وأيضًا -على أنَّ الخِطابَ للملَكَينِ-: فقولُه: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ مفردٌ مضافٌ -والمعروفُ أنَّ المفردَ المضافَ يكونُ للعُمومِ-؛ فيَشملُ كلَّ ما ثَبَتَ مِن قرينٍ، وعلى هذا فيكونُ ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: الملَكانِ الموكَّلانِ به، وممَّا يدُلُّ على أنَّ المفردَ يكونُ لأكثَرَ مِن واحدٍ -وذلك إذا أُضيفَ- قولُ الله عزَّ وجل: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، فنِعمةُ اللهِ مُفرَدٌ مُضافٌ؛ فتَكونُ شاملةً لكلِّ نعمةٍ. وكذلك إذا كان المفردُ اسمَ جِنسٍ.

أو: أنَّ قولَه: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ هو واحدٌ مِن الملَكَينِ، ولا شكَّ أنَّه يجوزُ أنْ يَتكلَّمَ واحدٌ مِن الاثنَينِ باسمِ الاثنَينِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٩).

وأيضًا: قيل -على أنَّ الخِطابَ لواحدٍ-: إنَّ تَثنيةَ الفاعِلِ أُقيمَت مَقامَ تَكرُّرِ الفِعلِ للتَّأكيدِ، واتِّحادِهما حُكمًا، فكأنَّه قال: أَلْقِ أَلْقِ، كقَولِ امرئِ القَيسِ: (قِفَا نَبْكِ). وأيضًا فإنَّ العرَبَ =

ونِعَمِه؛ شديدِ العِنادِ للحَقِّ[1].

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾.

أي: كَثيرِ المَنعِ لكلِّ خَيرٍ[2].

= أكثَرُ ما يُرافِقُ الرَّجُلَ منهم اثنانِ؛ فكَثُرَ على ألسِنتِهم خِطابُهما، فقالوا: خَليلَيَّ، وصاحِبَيَّ، وقِفَا، ونحوَها. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠، ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٠).

قال ابنُ عطيَّة: (قَولُه تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ لَفظٌ عامٌّ للمالِ، والكلامِ الحَسَنِ، والمُعاوَنةِ على الأشياءِ. وقال قَتادةُ، ومجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ: معناه: الزَّكاةُ المفروضةُ. وهذا التَّخصيصُ ضَعيفٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤).

ممَّن قصَر الخَيرَ هنا على الزَّكاةِ: ابنُ أبي زَمَنِين، والقُشَيريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٥٢).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: الزَّكاةُ، وكلُّ حقٍّ وجَبَ لله، أو لآدَميٍّ في مالِه: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغوي، والبيضاوي، والخازن، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١).

وممَّن اختار العمومَ في كلِّ خَيرٍ دونَ أن يَقصُرَه على المالِ: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦). =

﴿مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾.

أي: مُعْتَدٍ على حُدودِ اللهِ، ظالِمٍ للنَّاسِ، شاكٍّ في وحدانيَّةِ اللهِ وقُدرتِه، ووَعْدِه ووَعيدِه، ومُشكِّكٌ لِغَيرِه[1].

= وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالخَيرِ: الإيمانُ والإسلامُ، وأنَّهم كانوا يَمنَعون أبناءَهم وذَويهم مِن الإسلامِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: شاكٌّ في الله ووحدانيَّتِه وقدرتِه ودينِه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، والخازن، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

وممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿مُّرِيبٍ﴾ المرادُ به أنَّه مُشَكِّكٌ: الثعلبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢).

قال ابن عاشور: (والمريبُ الَّذي أراب غيرَه، أي: جعَلَه مُرتابًا، أي: شاكًّا، أي: بما يُلقُونَه إلى النَّاسِ مِن صُنوفِ المُغالَطةِ؛ لِيُشَكِّكوهم في صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وصحَّةِ الإيمانِ والتَّوحيدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢).

وممَّن جمَع بيْنَ القولَين: البقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٠).

قال ابن عثيمين: (﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: واقِعٍ في الرِّيبةِ والشَّكِّ والقَلَقِ، وكذلك أيضًا يُشَكِّكُ غَيرَه فيُدخِلُ في قَلْبِه الرِّيبةَ. فكَلِمةُ ﴿مُّرِيبٍ﴾ تَقتَضي وَصْفَ الإنسانِ بها، وحَمْلَ هذا الوَصفِ إلى غَيرِه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٠). =

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ٢٦﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

أي: الَّذي أشرَكَ باللهِ، فعَبَد معه مَعبودًا آخَرَ مِن خَلْقِه(١).

كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((تَعِسَ(٢) عبدُ الدِّينارِ والدِّرهَمِ، والقَطيفةِ والخَميصةِ(٣)؛ إن أُعطِيَ رَضِيَ، وإنْ لم يُعطَ لم يَرْضَ))(٤).

﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾.

= وقال ابن كثير: (﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: شاكٍّ في أمرِه، مُريبٍ لِمَن نظَر في أمرِه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢).

وقال ابن القيِّم: (ومع هذا فهو آتٍ لكُلِّ رِيبةٍ؛ يقال: فُلانٌ مُريبٌ: إذا كان صاحِبَ رِيبةٍ). ((الفوائد)) (ص: ١١).

وقال ابن عطيَّة: (و: ﴿مُّرِيبٍ﴾ معناه: مُتلَبِّسٌ بما يرتابُ به، أرابَ الرَّجُلُ: إذا أتى بريبةٍ ودخَل فيها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٩)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

قال ابنُ عثيمين: (﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إن كانت وصْفًا خاصًّا بالكفَّارِ العنيدِ فإنَّها تختصُّ بمَن يَعبُدُ الصَّنَمَ والوَثَنَ، وإن كانت للعُموم فهي تَشملُ كُلَّ مَن اشتغل بغيرِ اللهِ عن طاعتِه؛ حتى التَّاجرُ الذي ليس له هَمٌّ إلَّا تجارتُه وتنميتُها فإنَّه عابدٌ لها). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠١، ١٠٢) بتصرف.

(٢) تَعِسَ: أي: خاب وخَسِرَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٢٢٨).

(٣) الخَميصةِ: هي ثَوبُ خَزٍّ أو صُوفٍ مُعلَّمٌ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٢٢٨).

(٤) رواه البخاري (٦٤٣٥).

أي: يَقولُ اللهُ يومَ القيامةِ: فألْقِيَا ذلك المتَّصِفَ بتلك الصِّفاتِ في عَذابِ النَّارِ الشَّديدِ[1].

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: قال الشَّيطانُ مُتَبَرِّئًا مِن ذلك الكافِرِ الَّذي اقترَن به في الدُّنيا: رَبَّنا ما أوقَعْتُه فيما كان فيه مِن طُغيانٍ، ولا أضلَلْتُه ولا أغوَيتُه؛ فإنَّه لا سُلطانَ لي عليه، ولا حُجَّةَ ولا بُرهانَ، ولكِنْ كان بَعيدًا عن الحَقِّ باختيارِه، مُبادِرًا إلى الضَّلالِ بطَبْعِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١١، ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٠، ٤٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٨، ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

قال ابنُ عطيَّة: (هو شَيطانُه في الدُّنيا ومُغْويه بلا خِلافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٣).

وقال السمعاني: (قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ القرينُ هاهنا هو الشَّيطانُ باتِّفاقِ المفسِّرينَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٣). ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ والشَّوكانيُّ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧).

وقال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ اختلَفوا في المرادِ بالقرينِ هاهنا؛ فقال ابنُ عبَّاسٍ في روايةِ عَطاءٍ: يعني: قرينَه مِن الشَّياطين. وقال مقاتلٌ: ﴿قَرِينُهُۥ﴾ هو شَيطانُه. واختاره ابنُ قُتَيْبةَ... وقال الكَلْبيُّ: يقولُ الملَكُ: ربَّنا ما أطغَيْتُه. وعلى هذا القولِ المرادُ بالقرينِ الملَكُ. وهو قولُ سعيدِ بنِ جُبَير، قال: يقولُ الكافرُ: ربِّ إنَّ الملَكَ زاد علَيَّ في الكتابةِ. واختار الفَرَّاءُ هذا القولَ، فقال: إنَّ الكافرَ يقولُ: يا ربِّ إنَّه كان يُعجِلُني عن التَّوبةِ، فيقولُ الملَكُ: ربَّنا ما أطغَيْتُه، أي: ما أعجلتُه عن التَّوبةِ، وما زِدتُ عليه. والمعنى: لم أكُنْ سببَ طُغيانِه بالإعجالِ والزِّيادةِ عليه، ولكنْ كان في ضلالٍ بعيدٍ لا يَرجِعُ إلى الحقِّ ولا إلى التَّوبةِ). ((البسيط)) (٢٠/ ٤٠٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٧٩).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لأولئك المُشرِكينَ وقُرنائِهم مِنَ الشَّياطينِ[(١)]: لا تَختَصِموا عندي وقد سبَق أن أقمْتُ عليكم الحُجَّةَ في الدُّنيا بإنزالِ الكُتُبِ، وإرسالِ الرُّسُلِ، وبلَغَكم وعيدي لِمَن كفَرَ بي، وعصاني، وكذَّب رُسُلي؛ فلا نجاةَ لكم مِن جَهنَّمَ، ولا فائدةَ في اختِصامِكم[(٢)]!

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١].

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

---

(١) ممَّن اختار أنَّ هذا الخِطابَ للكافرينَ وقرنائِهم مِن الشَّياطينِ: القرطبيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣).

قال ابن عطية: (وجمَعَ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟﴾ يريدُ بذلك مُخاطَبةَ جَميعِ القُرَناءِ؛ إذ هو أمرٌ شائِعٌ لا يَقِفُ على اثنَينِ فقط، وهذا كما يقولُ الحاكِمُ لِخَصْمَينِ: لا تَغلَطوا علَيَّ، يريدُ الخَصْمَينِ ومَن هو في حُكْمِهما). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤).

وقال القرطبي: (وقيل: هذا خِطابٌ لكُلِّ مَنِ اختَصَم. وقيل: هو للاثنَينِ وجاء بلَفظِ الجَمعِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧).

وقال الماوَرْدي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّ اختِصامَهم هو اعتِذارُ كلِّ واحدٍ منهم فيما قدَّم مِن مَعاصيه، قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: أنَّه تَخاصُمُ كلِّ واحدٍ مع قَرينِه الَّذي أغْواه في الكفرِ، قاله أبو العاليةِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾.

أي: لا أحدَ يَستطيعُ أن يُغيِّرَ قَولي الَّذي قُلْتُه مِن قَبْلُ بأنِّي سأَمْلأُ جهنَّمَ مِن الجِنَّةِ والنَّاسِ؛ فالكُفَّارُ في النَّارِ، وأهلُ الإيمانِ في الجِنانِ، وما قَضيتُ به لا بُدَّ مِن وُقوعِه لا مَحالةَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١١، ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٣).

قال ابنُ القيِّم: (أخبرَ سُبحانَه أنَّه لا يُبَدَّلُ القولُ لَدَيه، فقيلَ: المرادُ بذلك قَولُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، ووَعْدُه لأهلِ الإيمانِ بالجنَّةِ، وأنَّ هذا لا يُبَدَّلُ ولا يُخلَفُ. قال ابنُ عبَّاسٍ: يُريدُ: ما لَه عِندي خُلفٌ لأهلِ طاعتي ولا أهلِ مَعصيتي. قال مجاهِدٌ: قد قَضَيتُ ما أنا قاضٍ. وهذا أصَحُّ القولَينِ في الآيةِ، وفيها قولٌ آخَرُ: أنَّ المعنى: ما يُغَيَّرُ القَولُ عندي بالكَذِبِ والتَّلبيسِ، كما يُغَيَّرُ عندَ المُلوكِ والحُكَّام، فيَكونُ المرادُ بالقَولِ قَولَ المُختَصِمينَ، وهو اختيارُ الفَرَّاءِ وابنِ قُتيبةَ. قال الفرَّاءُ: المعنى: ما يُكذَبُ عِندي لِعِلْمي بالغَيبِ. وقال ابنُ قُتَيبةَ: أي: ما يُحَرَّفُ القَولُ عندي ولا يُزادُ فيه ولا يُنقَصُ منه. قال: لأنَّه قال: القَولُ عِندي، ولم يَقُلْ: قَولي. وهذا كما يُقالُ: لا يُكذَبُ عِندي، فعلى القَولِ الأوَّلِ يكونُ قَولُه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ مِن تَمامِ قَولِه: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ في المعنى، أي: ما قُلتُه ووَعدتُ به لا بُدَّ مِن فِعْلِه، ومع هذا فهو عَدلٌ لا ظُلمَ فيه ولا جَورَ، وعلى الثَّاني: يكونُ قد وَصَف نفْسَه بأمْرَينِ؛ أحَدُهما: أنَّ كَمالَ عِلْمِه واطِّلاعِه يَمنَعُ مِن تَبديلِ القَولِ بيْنَ يَدَيه، وتَرويجِ الباطِلِ عليه، وكَمالَ عَدْلِه وغِناه يَمنَعُ مِن ظُلمِه لعَبيدِه). ((الفوائد)) (ص: ١١). يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٧٩)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩).

أي: وما أنا بذِي ظُلمٍ لعِبادي؛ فلا أعاقِبُ أحدًا بغيرِ ذَنْبِه، أو أَزيدُ في سَيِّئاتِه، أو أَنقُصُ مِن حَسَناتِه(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾.

أي: يومَ نَقولُ لِجَهنَّمَ: هل امتَلَأتِ كما وَعدْتُ بذلك(٢)؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٠٣، ١٠٤).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: أراها اللهُ تصديقَ قَولِه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود: ١١٩]، فلمَّا امتلأَتْ قال لها: هل امتلأت؟). ((الوسيط)) (٤/ ١٦٨).

وقال الألوسي: (﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي: اذكُرْ، أو أنذِرْ يومَ... إلخ. فـ﴿يَوْمَ﴾: مَفعولٌ به لِمُقدَّرٍ. وقيل: هو ظَرفٌ لـِ «ظَلَّامٍ»). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٣٧).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجملةِ: العُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٣، ١٠٤).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٣). =

﴿وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾.

أي: وتقولُ جهنَّمُ طالِبةً المزيدَ مِن أهلِ الضَّلالِ: هل مِن زيادةٍ مِنَ الجِنِّ والإنسِ تُزادُ إلَيَّ(١)؟!

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يُقالُ لِجَهنَّمَ: هل امتَلأتِ؟ وتقولُ: هل مِن مَزيدٍ؟ فيَضَعُ الرَّبُّ تبارك وتعالى قَدَمَه

= وقيل: المعنى: ما يُبَدَّلُ القَولُ لدَيَّ في ذلك اليَومِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٦، ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٤، ١٠٥).

قال ابن عطية: (الَّذي يترجَّحُ في قَولِ جَهنَّمَ: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ أنَّها حقيقةٌ، وأنَّها قالت ذلك وهي غيرُ مَلْأَى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٥). ويُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٠).

وممَّن قال بأنَّ الاستِفهامَ هنا مرادٌ به طلبُ الزِّيادةِ: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّة، وابنُ جُزَي، وابن القيِّم، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٣)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٤).

قال ابن كثير: (هذا هو الظَّاهِرُ مِن سياقِ الآيةِ، وعليه تدُلُّ الأحاديثُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣).

وذهب مقاتِلٌ، والواحديُّ، والقرطبيُّ: إلى أنَّ المعنى: ما بَقِيَ فيَّ موضِعٌ يحتَمِلُ الزِّيادةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨).

قال ابنُ القيِّم: (وأخْطَأَ مَن قالَ: إنَّ ذلك للنَّفْيِ، أي: ليسَ مِن مزيدٍ. والحديثُ الصَّحيحُ يرُدُّ هذا التَّأْويلَ). ((الفوائد)) (ص: ١٢).

عليها، فتَقولُ: قَطْ قَطْ[١]))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال اللهُ للجَنَّةِ: إنَّما أنتِ رَحمَتي أرحَمُ بكِ مَن أشاءُ مِن عبادي، وقال للنَّارِ: إنَّما أنتِ عذابي أعَذِّبُ بكِ مَن أشاءُ مِن عبادي، ولكُلِّ واحدةٍ مِنكما مِلْؤُها؛ فأمَّا النَّارُ فلا تمتَلِئُ حتَّى يَضَعَ اللهُ تبارك وتعالى رِجْلَه، تقولُ: قَطْ قَطْ قَطْ، فهُنالك تمتَلِئُ، ويُزوَى[٣] بَعضُها إلى بَعضٍ، ولا يَظلِمُ اللهُ مِن خَلْقِه أحَدًا))[٤].

وعن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تزالُ جَهنَّمُ تقولُ: هل مِن مَزيدٍ؟ حتى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فيها قَدَمَه، فتقولُ: قَطْ قَطْ وعِزَّتِك، ويُزوَى بَعضُها إلى بَعضٍ))[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ وعيدٌ شديدٌ على مانعِ الزَّكاةِ[٦]. وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ فيه سُؤالٌ: هذا يُوجِبُ أن يكونَ الإلقاءُ خاصًّا بمَنِ اجتَمَع فيه هذه الصِّفاتُ بأَسْرِها، والكُفرُ كافٍ في إيراثِ الإلقاءِ في جَهنَّمَ والأمرِ به؟

الجوابُ: قَولُه تعالى: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ليس المرادُ منه الوَصْفَ المُمَيِّزَ،

---

(١) قَطْ قَطْ: أي: كَفَى كَفَى. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٢٩).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٨٤٩).

(٣) ويُزوَى: أي: يُضَمُّ ويُجمَعُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٢٩).

(٤) رواه البخاريُّ (٤٨٥٠)، ومسلمٌ (٢٨٤٦) واللَّفظُ له.

(٥) رواه البخاري (٦٦٦١) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٨٤٨).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٩٢).

كما يُقالُ: (أعْطِ العالِمَ الزَّاهِدَ)، بل المرادُ الوَصفُ المُبَيِّنُ لكَونِ المَوصوفِ مَوصوفًا به؛ إمَّا على سَبيلِ المَدحِ، أو على سَبيلِ الذَّمِّ، كما يُقالُ: (هذا حاتِمٌ السَّخيُّ)، فقَولُه: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ معناه: أنَّ الكَفَّارَ عَنيدٌ ومَنَّاعٌ؛ لأنَّ آياتِ الوَحدانيَّةِ ظاهِرةٌ، ونِعَمَ اللهِ -تعالى- على عَبدِه وافِرةٌ، وهو مع ذلك عَنيدٌ، ومَنَّاعٌ للخَيرِ؛ لأنَّه يَمدَحُ دِينَه، ويَذُمُّ دينَ الحَقِّ -وذلك على قولٍ-، فهو يَمنَعُ، ومُريبٌ؛ لأنَّه شاكٌّ في الحَشرِ؛ فكُلُّ كافرٍ فهو مَوصوفٌ بهذه الصِّفاتِ(١).

٣- إنْ قيلَ: القائِلُ هنا واحِدٌ، وقال: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾، ولم يَقُلْ: رَبِّ، وفي كَثيرٍ من المواضِعِ القائِلُ واحِدٌ، وقال: رَبِّ، كقَولِه: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾[البقرة: ٢٦٠]، وقَولِه: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ [نوح: ٢٨]، ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾، [يوسف: ٣٣]، ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا﴾ [التحريم: ١١]، ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾.

فالجَوابُ: أنَّ في جَميعِ تلك المواضِعِ القائِلَ طالِبٌ، وأمَّا هنا فالموضِعُ مَوضِعُ هَيبةٍ وعَظَمةٍ وعَرضِ حالٍ دونَ الطَّلَبِ؛ لذا قال: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾(٢).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال: ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ مع أنَّه قال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢]؟

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

منها: أنَّ الشَّيطانَ يقولُ: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بمعنى: لَأُزَيِّنَنَّ لهم الأمرَ، وما ألجَأهم؛ فيَصِحُّ القَولانِ مِنَ الشَّيطانِ.

ومنها: أن تكونَ الإشارةُ إلى حالَينِ: ففي الحالةِ الأُولى: إنَّما فَعلْتُ بهم ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٣٨).

الإغواءَ؛ إظهارًا للانتِقامِ مِن بني آدَمَ، ثمَّ إذا رأى العذابَ، وأنَّه معه مُشتَرِكٌ، وله على الإغواءِ عَذابٌ -كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]- فيقولُ: رَبَّنا ما أطغَيتُه، فيَرجِعُ عن مقالتِه عندَ ظُهورِ العذابِ[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ ما الوَجهُ في اتِّصافِ الضَّلالِ بالبَعيدِ؟

الجوابُ: الضَّالُّ يكونُ أكثَرَ ضَلالًا عن الطَّريقِ، فإذا تمادى في الضَّلالِ وبَقِيَ فيه مُدَّةً يَبعُدُ عن المَقصَدِ كَثيرًا، وإذا عَلِمَ الضَّلالَ قَصَّرَ في الطَّريقِ من قَريبٍ، فلا يَبعُدُ عن المَقصَدِ كثيرًا، فقَولُه: ﴿ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ وَصفٌ للمَصدَرِ بما يُوصَفُ به الفاعِلُ، كما يُقالُ: كلامٌ صادِقٌ، وعِيشةٌ راضيةٌ. أي: ضَلالٌ ذو بُعدٍ، والضَّلالُ إذا بَعُدَ مَداه وامتَدَّ الضَّالُّ فيه يَصيرُ بَيِّنًا، ويَظهَرُ الضَّلالُ؛ لأنَّ مَن حاد عن الطَّريقِ وأبعدَ عنه تتغيَّرُ عليه السِّماتُ والجِهاتُ، ولا يرَى عَينَ المَقصَدِ، ويَتبَيَّنُ له أنَّه ضَلَّ عن الطَّريقِ، وربَّما يَقَعُ في أوديةٍ ومَفاوِزَ، ويَظهَرُ له أماراتُ الضَّلالِ، بخِلافِ مَن حاد قليلًا؛ فالضَّلالُ وصَفَه اللهُ تعالى بالوَصفَينِ في كثيرٍ مِن المواضِعِ، فقال تارةً: ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وأُخرَى قال: ﴿فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ فيه رَدٌّ على المُرجِئةِ؛ حيثُ قالوا: ما ورَدَ في القُرآنِ مِن الوَعيدِ فهو تخويفٌ لا يُحَقِّقُ اللهُ شَيئًا منه! وقالوا: الكريمُ إذا وَعَد أنجزَ ووفَى، وإذا أوعَدَ أخلَفَ وعَفا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٤٠).

قال ابنُ عثيمين: ((﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ يعني: لا أحَدَ يَستطيعُ أن يُبَدِّلَ قَولي؛ =

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على الظُّلمِ، ولكِنْ لا يَفعَلُه؛ فَضلًا منه وَجُودًا، وكَرَمًا وإحسانًا إلى عبادِه[1]. ولأنَّه لا يحتاجُه سُبحانَه، وإنَّما يَظلِمُ الَّذي يَرى في الظُّلمِ تحقيقَ حاجةٍ أو مصلحةٍ له، واللهُ تعالى غنيٌّ عن هذا كلِّه.

وفيه إبطالُ مَذهَبِ مَن زَعَم: «أنَّ الظُّلمَ الَّذي نَزَّه نفْسَه عنه هو الممتَنِعُ المُستحيلُ، لا أنَّ هناك أمرًا مُمكِنًا مَقدورًا لو فَعَله لَكان ظُلمًا»! قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي: لا أُؤاخِذُ عبدًا بغيرِ ذنْبٍ، ولا أمنَعُه مِن أجرِ ما عَمِلَه مِن صالحٍ؛ ولهذا قال قَبْلَه: ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ المتضمِّنِ لإقامةِ الحُجَّةِ، وبُلوغِ الأمرِ والنَّهيِ، وإذا آخَذْتُكم بعدَ التَّقَدُّمِ فلَسْتُ بظالمٍ، بخِلافِ مَن يُؤاخِذُ العبدَ قبْلَ التَّقَدُّمِ إليه بأمْرِه ونَهْيِه؛ فذلك الظُّلمُ الَّذي تَنَزَّهَ اللهُ سُبحانَه وتعالى عنه[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ دليلٌ على أنَّ القُرآنَ غيرُ مخلوقٍ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ وتعالى كلُّ كلامِه غيرُ مخلوقٍ؛ ما قد تكَلَّمَ به، وما يَتكلَّمُ به يومَ القيامةِ. فكيف يجوزُ أنْ يكونَ ﴿هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ مَخلوقًا الآنَ -لو جاز أنْ يكونَ أيضًا مخلوقًا كلامُه، ومعاذَ اللهِ- وهو لم يَقُلْه بعدُ[3]؟!

٩- قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ فإذا كان اللهُ الَّذي خلَقَ العبادَ قد جعَلَ مُؤاخَذةَ مَن لم يَسبقْ

= لأنَّ الحُكمَ للهِ عزَّ وجَلَّ وَحْدَه، فإذا كان اللهُ تعالى قد وَعَد فهو صادِقُ الوَعدِ سُبحانَه وتعالى، وأمَّا الإيعادُ فقد يَغفِرُ ما شاء مِنَ الذُّنوبِ إلَّا الشِّركَ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٣).

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٩٥).

له تَشريعٌ ظُلمًا، فما بالُك بمؤاخَذةِ النَّاسِ بَعضِهم بعضًا بالتَّبِعاتِ دونَ تقدُّمِ إليهم بالنَّهيِ مِن قَبلُ؟! ولذلك يُقالُ: لا عُقوبةَ إلَّا على عمَلٍ فيه قانونٌ سابقٌ قبْلَ فِعلِه(١).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ هذا ليس بالْتِفاتٍ؛ إذ ليس هو تَغييرَ ضَميرٍ، ولكنَّه تَغْييرُ أُسلوبِ الكلامِ، وأُعِيدَ عليه ضَميرُ الغائبِ المفرَدِ باعتبارِ معنى نفْسِ أيِّ شخْصٍ، أو غُلِّبَ التَّذكيرُ على التَّأنيثِ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ انتِقالٌ مِن خِطابِ النَّفْسِ إلى خِطابِ المَلَكينِ المُوكَّلينِ: السَّائقِ والشَّهيدِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-. والكلامُ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ، والجُملةُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، انتِقالٌ مِن خِطابِ فَريقٍ إلى خِطابِ فَريقٍ آخَرَ(٣).

- وصِيغةُ المُثنَّى في قَولِه: ﴿أَلْقِيَا﴾ قيل: يجوزُ أنْ تكونَ مُستعمَلةً في خِطابِ الواحِدِ، وهو الملَكُ المُوكَّلُ بجهنَّمَ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وخُوطِبَ بصِيغةِ المُثنَّى جرْيًا على طَريقةٍ مُستعمَلةٍ في الخِطابِ جرَت على ألْسنتِهم؛ لأنَّهم يَكثُرُ فيهم أنْ يُرافِقَ السَّائرَ رَفيقانِ، وهي طَريقةٌ مَشْهورةٌ، أو أنَّ تَثنيةَ الفاعلِ نُزِّلَت مَنزِلةَ تَثنيةِ الفِعلِ؛ لاتِّحادِهما، كأنَّه قِيل: ألْقِ ألْقِ؛ للتَّأكيدِ، وقيل غيرُ ذلك(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢).

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ اسمُ المَوصولِ بدَلًا مِن ﴿كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ فإنَّ المَعرِفةَ تُبدَلُ مِن النَّكِرةِ، على أنَّ الموصولَ هنا تَعريفُه لَفظيٌّ مُجرَّدٌ؛ لأنَّ مَعنى الصِّلةِ غيرُ مَخصوصٍ بمُعيَّنٍ، وأنَّ قولَه: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ تَفريعٌ على ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤]، ومَصبُّ التَّفريعِ المتعلِّقُ، وهو ﴿فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾، أي: في أشدِّ عَذابِ جهنَّمَ، تَفريعًا على الأمْرِ بإلْقائِه في جهنَّمَ تَفريعَ بَيانٍ، وإعادةُ فِعلِ (ألْقِيا) للتَّأكيدِ، مع تَفريعِ مُتعلَّقِ الفِعلِ المُؤكِّدِ، وهذا مِن بَديعِ النَّظْمِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ اسمُ الموصولِ مُبتدَأً على استِئنافِ الكلامِ، ويُضمَّنُ المَوصولُ مَعنى الشَّرْطِ، فيَكونَ وُجودُ الفاءِ في خبَرِه مِن أجْلِ ما فيه مِن مَعنى الشَّرْطِ، وهذا كثيرٌ، والمقصودُ منه هنا تأْكيدُ العُمومِ الَّذي في قَولِه: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ مَفعولًا لمُضمَرٍ يُفسِّرُه ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ أُخلِيَت جُملةُ ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ عن الواوِ، وأُدخِلَت على الأولى ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ [ق: ٢٣]؛ لأنَّها استُؤنِفَتْ كما تُستأنَفُ الجُمَلُ الواقعةُ في حِكايةِ التَّقاوُلِ؛ فإنَّه لَمَّا قال قَرينُه: ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾، وتَبِعَه قَولُه: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾، وتلاهُ ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ﴾؛ عُلِمَ أنَّ ثَمَّ مُقاوَلةً مِن الكافرِ، لكنَّها طُرِحَتْ وحُذِفَتْ لِمَا يدُلُّ عليها، كأنَّه قالَ: رَبِّ هو أطْغاني، فقال قرينُه: رَبَّنا ما أَطغَيتُه، وأمَّا الجُملةُ الأُولَى فواجبٌ عَطفُها؛ للدَّلالةِ على الجمْعِ بيْنَ معناها ومعْنى ما قَبْلَها في الحُصولِ، أي: مَجيء كلِّ نَفْسٍ مَعَ الملَكَينِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢، ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٩٩-١٢٠١)، ((أسرار التكرار في =

- والاستِدراكُ بقولِه: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ ناشئٌ عن شِدَّةِ المُقارَنةِ بيْنَ القَرينِ وبيْنَ قَرينِه، لا سِيَّما إذا كان المُرادُ بالقَرينِ شَيطانَه المُقيَّضَ له؛ فإنَّه قُرِنَ به مِن وقْتِ إدراكِه، فالاستِدراكُ لدَفعِ توَهُّمِ أنَّ المُقارَنةَ بيْنَهما تَقتضي أنْ يكونَ ما به مِن الطُّغيانِ بتَلقينِ القَرينِ، فهو يَنفي ذلك عن نَفْسِه؛ ولذلك أُتبِعَ الاستِدراكُ بجُملةِ ﴿كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾، فأخبَرَ القَرينُ بأنَّ صاحِبَه ضالٌّ مِن قَبْلُ، فلم يَكُنِ اقتِرانُه معه في التَّقييضِ أو في الصُّحبةِ بزائدٍ إيَّاه إضلالًا[1].

- وفِعلُ ﴿كَانَ﴾ لإفادةِ أنَّ الضَّلالَ ثابتٌ له بالأصالةِ، مُلازِمٌ لتَكوينِه[2].

- والبعيدُ: مُعبَّرٌ به عن البالِغِ في قوَّةِ النَّوعِ حدًّا لا يَبلُغُ إليه إدراكُ العاقلِ بسُهولةٍ، كما لا يَبلُغُ سَيرُ السَّائرِ إلى المكانِ البعيدِ إلَّا بمَشقَّةٍ. أو بَعيدُ الزَّمانِ، أي: قديمٌ أصيلٌ؛ فيَكونُ تأكيدًا لمَفادِ فِعلِ (كان)[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ هذا حِكايةُ كلامٍ يَصدُرُ يومَئذٍ مِن جانبِ اللهِ تعالى للفريقَينِ الَّذين اتَّبَعوا والَّذين اتُّبِعوا؛ فالضَّميرُ عائدٌ على غيرِ مَذكورٍ في الكلامِ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ [ق: ٢٢]. وعدَمُ عَطفِ فِعلِ ﴿قَالَ﴾ على ما قَبْلَه؛ لِوُقوعِه في مَعرِضِ المُقاوَلةِ[4].

= القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٧)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وهو استِئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ ممَّا قَبْلَه، كأنَّه قيلَ: فماذَا قال اللهُ تعالَى؟ فقيلَ: قال: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾، أيْ: في مَوقفِ الحسابِ والجزاءِ[١].

- والتَّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿قَالَ﴾؛ لِتَحقُّقِ وُقوعِه[٢].

- والنَّهيُ عن المُخاصَمةِ بيْنَهم يَقتَضي أنَّ النُّفوسَ الكافرةَ ادَّعَتْ أنَّ قُرناءَها أطغَوْها، وأنَّ القُرَناءَ تنصَّلوا مِن ذلك، وأنَّ النُّفوسَ أعادَت رمْيَ قُرنائِها بذلك، فصار خِصامًا؛ فلذلك قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾، وطُوِيَ ذِكرُه لدَلالةِ ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟﴾ عليه؛ إيثارًا لحقِّ الإيجازِ في الكَلامِ. والنَّهيُ عن الاختِصامِ بعدَ وُقوعِه بتأويلِ النَّهيِ عن الدَّوامِ عليه، أي: كُفُّوا عن الخِصامِ[٣].

- وهو كِنايةٌ عن أنَّ حُكمَ اللهِ عليهم قد تَقرَّرَ، فلا يُفيدُهم التَّخاصُمُ لإلْقاءِ التَّبعةِ على أحدِ الفريقَينِ[٤].

- قولُه: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ حالٌ مُعلِّلةٌ للنَّهيِ عن الاختِصامِ[٥].

- وهو كذلك كِنايةٌ عن عدَمِ الانتِفاعِ بالخِصامِ؛ لِكَونِ العِقابِ عَدلًا من اللهِ، وقدْ قدَّمتُ إليكم الوعيدَ قبْلَ اليومِ[٦].

- والباءُ في ﴿بِٱلْوَعِيدِ﴾ صِلةٌ للتَّأكيدِ، والمعنى: وقد قدَّمتُ إليكم الوعيدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٥).

قبْلَ اليومِ. أو مُعدِّيةٌ، على أنَّ (قدَّمَ) مُطاوِعُ (تقدَّمَ)[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

- قولُه: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ بيانٌ للمعنَى الأوَّلِ المُكنَى عنه بقولِه: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾، أي: لَستُ مُبطِلًا ذلك الوعيدَ، وهو القولُ؛ إذ الوعيدُ مِن نوعِ القولِ، والتَّعريفُ للعهدِ، أي: فما أوعدتُكم واقعٌ لا مَحالةَ؛ لأنَّ اللهَ تعهَّدَ ألَّا يَغفِرَ لِمَن يُشرِكُ به ويموتُ على ذلك[٢].

- والمُبالَغةُ الَّتي في وصْفِ ﴿بِظَلَّـٰمٍ﴾ راجِعةٌ إلى تأْكيدِ النَّفيِ، والمرادُ: لا أَظلِمُ شَيئًا مِن الظُّلمِ، وليس المعنى: ما أنا بشديدِ الظُّلمِ. وقيلَ: هي لِرعايةِ جمْعِه العبيدَ مِن قولِهم: فلانٌ ظالمٌ لعبدِه، وظلَّامٌ لعَبيدِه، على أنَّها مُبالَغةٌ كَمًّا لا كَيفًا، فنفى ظُلْمَه للعبيدِ، والعبيدُ في غايةِ الكثرةِ، والظُّلمُ المنفيُّ عنهم تَستلزِمُ كَثرتُهم كَثرتَه؛ فناسَبَ ذلك الإتيانُ بصيغةِ المُبالَغةِ للدَّلالةِ على كثرةِ المَنفيِّ التَّابعةِ لكثرةِ العَبيدِ المنفيِّ عنهم الظُّلمُ؛ إذ لو وقع على كُلِّ عبدٍ ظُلمٌ -ولو قليلًا- كان مجموعُ ذلك الظُّلمِ في غايةِ الكثرةِ، وبذلك تعلَمُ اتِّجاهَ التَّعبيرِ بصيغةِ المُبالَغةِ، وأنَّ المرادَ بذلك نَفيُ أصلِ الظُّلمِ عن كُلِّ عبدٍ مِن أولئك العبيدِ الَّذين هم في غايةِ الكثرةِ[٣]. وقيل: كلمةُ (ظَلَّام) ليستْ صيغةَ مُبالَغةٍ، بل هي مِن بابِ النِّسبةِ، أي: لَستُ بذي ظُلمٍ، فقد يُستعمَلُ (فعَّال) بمعنى: صاحِبِ كذا، فمعنى قَولِه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٦، ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٦، ٣١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٢).

بذي ظُلمٍ[١].

وقيل: نفْيُ صِيغةِ المُبالَغةِ إذا دلَّتْ أدِلَّةٌ مُنفصِلةٌ على أنَّ المُرادَ به نفْيُ أصْلِ الفِعلِ؛ فلا إشكالَ؛ لِقيامِ الدَّليلِ على المرادِ، والآياتُ الدَّالَّةُ على نفْيِ الظُّلمِ مِن أصلِه عن اللهِ تعالى كثيرةٌ معروفةٌ؛ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ...﴾ [النساء: ٤٠]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، وغيرِ ذلك مِن الآياتِ. أو يكون المسَوِّغُ لِصيغةِ المُبالَغةِ أنَّ عذابَه تعالَى بالِغٌ مِن العِظَمِ والشِّدَّةِ أنَّه لولا استِحقاقُ المعذَّبينَ لذلك العذابِ بكُفرِهم ومَعاصيهم لَكان مُعذِّبُهم به ظَلَّامًا بليغَ الظُّلمِ مُتفاقِمَه، سُبحانَه وتعالى عن ذلِك عُلوًّا كَبيرًا[٢]. وقيل: صِيغةُ المُبالَغةِ (ظلَّام) تَقْتضي بظاهِرِها نَفْيَ الظُّلمِ الشَّديدِ، والمقصودُ: أنَّ الظُّلمَ مِن حَيثُ هو ظُلْمٌ أمْرٌ شَديدٌ؛ فصِيغَتْ له زِنَةُ المُبالَغةِ[٣]. وقيل غيرُ ذلك[٤].

- والتَّعبيرُ بـ (العَبيد) دونَ التَّعبيرِ بالناسِ ونَحوِه؛ لزيادةِ تَقريرِ معنى الظُّلمِ في نُفوسِ الأمَّةِ، أي: لا أَظلِمُ ولو كان المَظلومُ عَبدي[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾

- لفظُ ﴿يَوۡمَ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٨]، والتَّقديرُ:

---

(١) يُنظر: ((شرح الكافية الشافية)) لابن مالك (٤/ ١٩٦٢). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣١-٣٣)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٥/ ١١٧، ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٤٧٠، ٤٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٧).

قال لهم ذلك القولَ يومَ يقولُ قولًا آخَرَ لجهنَّمَ: هلِ امتلَأْتِ؟ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ- ومناسَبةُ تَعليقِه به أنَّ هذا القولَ لجهنَّمَ مَقصودٌ به تَرويعُ المدفوعينَ إلى جهنَّمَ ألَّا يَطمَعوا في أنَّ كَثرتَهم يَضيقُ بها سَعةُ جهنَّمَ، فيَطمَعَ بَعضُهم أنْ يكونَ ممَّن لا يُوجَدُ له مكانٌ فيها، فحكاهُ اللهُ في القرآنِ؛ عِبرةً لِمَن يَسمَعُه مِن المشركين، وتعليمًا لأهلِ القُرآنِ المؤمنينَ؛ ولذلك استوَتْ قِراءةُ ﴿يَقُولُ﴾ بالياءِ[1] جَرْيًا على مُقتضَى ظاهرِ ما سبَقَه مِن قولِه: ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾، وقِراءةُ ﴿نَقُولُ﴾ بالنُّونِ على الالْتفاتِ، بلْ هو الْتفاتٌ تابعٌ لتبْديلِ طَريقِ الإخبارِ مِن الحَديثِ عن غائبٍ إلى خِطابِ حاضرٍ[2].

- والاستِفهامُ في ﴿هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ تَقريرٌ وتوقيفٌ مُستعمَلٌ في تنْبيهِ أهلِ العذابِ إلى هذا السُّؤالِ على وجْهِ التَّعريضِ[3].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ مُستعمَلٌ للتَّشويقِ والتَّمنِّي، وفيه دَلالةٌ على أنَّ الموجوداتِ مُشوَّقةٌ إلى الإيفاءِ بما خُلِقَتْ له. وفيه دَلالةٌ على إظهارِ الامتِثالِ لِمَا خلقَها اللهُ مِن أجلِه، ولأنَّها لا تَتلكَّأُ، ولا تتعلَّلُ في أدائِه على أكمَلِ حالٍ في بابِه[4].



(١) قرأها بالياءِ نافِعٌ وأَبو بَكْرٍ، وقرأها الباقون بالنُّونِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٨).

الآيات (٣١-٣٥)

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾: أي: قُرِّبَت وأُدنِيَت، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تقَدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿ أَوَّابٍ ﴾: أي: كثيرِ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالَى بالتَّوبةِ، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[٢].

﴿ حَفِيظٍ ﴾: أي: كثيرِ المحافَظةِ على كلِّ ما يُقرِّبُه إلى الله تعالى، أو: حفيظٍ لِذُنوبِه الَّتي سلفَتْ منه حتَّى يَتوبَ منها ويَستغفِرَ، وأصلُ (حفظ): يدُلُّ على مُراعاةِ الشَّيءِ[٣].

﴿ مُّنِيبٍ ﴾: أي: رجَّاعٍ تائبٍ، والنَّوْبُ: رُجوعُ الشَّيءِ مرَّةً بعدَ أُخرَى، وأصلُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٩، ٣١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٧، ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٠٥٦، ٧٠٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٧).

(نوب): يدُلُّ على اعتيادٍ ورُجوعٍ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾

قَولُه: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: في نَصبِ ﴿غَيْرَ﴾ أوجُهٌ:

أحَدُها: أنَّها مَنصوبةٌ على الحالِ مِنَ ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾، ولم يَقُلْ: غيرَ بَعيدةٍ؛ لتأويلِ الجنَّةِ بالبُستانِ. وقيل: لأنَّ البَعيدَ على زِنةِ المَصدَرِ الَّذي مِن شَأنِه أن يَستويَ فيه المؤنَّثُ والمذَكَّرُ، كالزَّئيرِ والصَّليلِ؛ فعُومِلَ مُعامَلتَه، وأُجريَ مُجراه.

الثَّاني: أنَّها مَنصوبةٌ على الظَّرفِ المكانيِّ، أي: مكانًا غيرَ بَعيدٍ.

الثَّالِثُ: أنَّها نائِبةٌ عن المصدَرِ؛ لِوُقوعِها نعتًا لِمَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: إزلافًا غَيرَ بَعيدٍ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾

قَولُه: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾: هذه الجُملةُ يجوزُ فيها وَجهانِ؛ أحَدُهما: أن تكونَ مُعترِضةً بيْنَ البَدلِ والمُبدَلِ منه، وذلك أنَّ ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بدَلٌ مِن ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ بإعادةِ اللَّامِ. والثَّاني: أن تكونَ مَنصوبةً بقَولٍ مُضمَرٍ، وذلك القَولُ المُضمَرُ مَنصوبٌ على الحالِ، أي: مَقولًا لهم: هذا ما تُوعدونَ.

قَولُه: ﴿مَّنْ خَشِيَ﴾: ﴿مَّنْ﴾ اسمٌ مَوصولٌ مَبنيٌّ في محَلِّ جَرٍّ بَدَلٌ من (كُلِّ)،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٣٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٦/ ٣١٥).

ويجوزُ أن يكونَ بدلًا من مَوصوفِ ﴿أَوَّابٍ﴾ المحذوفِ، أي: لكُلِّ شَخصٍ أوَّابٍ، فيكونَ ﴿مَّنْ﴾ بدَلًا مِنْ (شَخصٍ) المَحذوفِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿مَّنْ﴾ مَرفوعَ المحَلِّ، خبَرًا لمبتدَأٍ مَحذوفٍ، أو مَنصوبَ المحَلِّ بفِعلٍ محذوفٍ، وكِلاهما على قَطعِ البَدَلِ لِلمَدحِ، ويجوزُ أن يكونَ مُبتدأً خبَرُه قَولٌ محذوفٌ ناصِبٌ لِقَولِه: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي: مَنْ خَشِيَ الرَّحمنَ يُقالُ لهم: ادْخُلوها. وجُمِعَ ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ مُراعاةً لِمَعنى ﴿مَّنْ﴾(١).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن المتَّقينَ وحُسنِ عاقبتِهم، فيقولُ: وقُرِّبت الجنَّةُ يومَ القيامةِ للمُتَّقينَ إلى مَوضِعٍ غيرِ بَعيدٍ عنهم، هذا الجَزاءُ وَعدٌ لكُلِّ رجَّاعٍ إلى اللهِ تعالى، كثيرِ المحافَظةِ على حُقوقِ اللهِ؛ الَّذي خاف اللهَ في سِرِّه وخَلْوَتِه، وجاء يومَ القيامة بقَلبٍ عاكِفٍ على حبِّ ربِّه وطاعتِه، غيرِ مُلتَفِتٍ إلى ما سِواه.

فيُقالُ لهم يومَ القيامةِ: ادخُلوا الجنَّةَ بأمانٍ مِن كلِّ سوءٍ ومكروهٍ، ذلك يومُ الخُلودِ في الجنَّةِ أبدًا، لهم في الجنَّةِ ما تَشتَهيه أنفُسُهم، وعِندَ الله لهم ثَوابٌ زائدٌ على ما يُريدونَ ممَّا لم يَخطُرْ لهم على بالٍ، وأعظَمُه النَّظرُ إلى وجهِ الله تعالى!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شُروعٌ في بَيانِ حالِ المؤمنينَ بعدَ النَّفخِ في الصُّورِ، ومَجيءِ النُّفوسِ إلى

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٧٩)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٥٣)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٣٩).

مَوقفِ الحسابِ[(١)].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى النَّارَ، وقَدَّمها؛ لأنَّ المقامَ للإنذارِ- أتبَعَها دارَ الأبرارِ[(٢)].

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾.

أي: وقُرِّبتِ الجنَّةُ يومَ القيامةِ للَّذين اتَّقَوُا اللهَ تعالى بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه، إلى مَوضِعٍ غيرِ بَعيدٍ عنهم، فيَرَوْنَها قبْلَ دُخولِها[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: قُرِّبَتْ بحيثُ يُشاهِدونها ويَنظُرون ما فيها مِن النَّعيمِ المُقيمِ قبْلَ أن يَدخُلوها: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والرسعني، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والعليمي، وأبو السعود، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٥).

قال الرَّسْعَني: (قُرِّبَتْ لهم حتَّى يَرَوْها قبْلَ أن يَدخُلوها؛ إكرامًا لهم، وتعجيلًا لأسبابِ السُّرورِ والنَّعيمِ لهم). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣٩٣).

وقال القرطبي: (قيل: هذا قبْلَ الدُّخولِ، في الدُّنيا، أي: قُرِّبتْ مِن قُلوبِهم حينَ قيل لهم: اجتَنِبوا المعاصيَ. وقيل: بعدَ الدُّخولِ، قُرِّبتْ لهم مَواضِعُهم فيها فلا تَبعُدُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩).

وقال ابن عاشور: (أي: جُعِلَت الجَنَّةُ قَريبًا مِن المتَّقينَ، أي: أُدْنُوا منها. والجنَّةُ موجودةٌ مِن قَبلِ وُرودِ المُتَّقينَ إليها، فإزلافُها قد يكونُ بحشرِهم للحسابِ بمَقْرُبَةٍ منها؛ كرامةً لهم عن =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠، ٩١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ١٣].

وعن أبي هُرَيرةَ وحُذَيفةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالا: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يَجمَعُ اللهُ تبارك وتعالى النَّاسَ، فيَقومُ المُؤمِنونَ حتَّى تُزلَفَ لهم الجنَّةُ، فيَأتُونَ آدَمَ، فيقولونَ: يا أبانا، استَفتِحْ لنا الجنَّةَ ...)) وذكَرَ الحديثَ بطُولِه[1].

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: هذا الجَزاءُ الَّذي وُعِدْتُم به هو لكُلِّ كثيرِ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى، فيَرجِعُ مِن مَعصيتِه إلى طاعتِه، ومِنَ الغَفلةِ عنه إلى ذِكرِه، ويَتوبُ إليه مِن ذُنوبِه؛ كثيرِ المحافَظةِ على حُقوقِ اللهِ تعالى، وعَدَمِ التَّعَدِّي على حُدودِه[2].

= كُلفةِ المسيرِ إليها، وقد يكونُ عبارةً عن تيسيرِ وُصولِهم إليها بوسائلَ غَيرِ معروفةٍ في عادةِ أهلِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٨).

قال ابنُ عطية: (﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تأكيدٌ وبَيانٌ أنَّ هذا التَّقريبَ هو في المسافةِ؛ لأنَّ قُرِّبَت كان يحتَمِلُ أنَّ معناه: بالوَعدِ والإخبارِ، فرفَعَ الاحتِمالَ بقَولِه: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٦). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٠).

وذهب ابنُ كثيرٍ إلى أنَّ معنى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: يومُ القيامةِ ليس ببعيدٍ؛ لأنَّه واقِعٌ لا مَحالةَ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦).

وقد ذكر الرازي عِدَّةَ احتِمالاتٍ؛ منها: أنَّ المعنى: قُرِّبت الجنَّةُ وهي غيرُ بعيدٍ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٤٥).

(١) رواه مسلم (١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٩، ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٩). =

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: كنتُ خَلْفَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا، فقال: ((يا غُلامُ، إنِّي أُعَلِّمُك كَلِماتٍ، احفَظِ اللهَ يَحفَظْك، احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَك))(١).

﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾.

أي: مَن خاف اللهَ وتَرَك مَعصِيتَه في سِرِّه وخَلْوَته(٢).

= قال مكي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿حَفِيظٍ﴾: أي: حفِظ ذنوبَه حتَّى تاب منها. وقيل: معناه حفيظٌ على فرائضِ الله، أي: محافظٌ عليها. وقال قتادةُ: ﴿حَفِيظٍ﴾: ما استودَعه الله عزَّ وجلَّ مِن حقِّه ونعمتِه). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١١/ ٧٠٥٦، ٧٠٥٧).

وقال ابن جرير: (وأولَى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أنْ يُقالَ: إنَّ الله تعالى ذكرُه وصَف هذا التَّائبَ الأوَّابَ بأنَّه حفيظٌ، ولم يُحصَرْ به على نوعٍ مِن أنواعِ الطَّاعاتِ دونَ نوعٍ، فالواجبُ أنْ يعمَّ كما عمَّ جلَّ ثناؤُه، فيُقالُ: هو حفيظٌ لكلِّ ما قرَّبه إلى ربِّه مِن الفرائضِ والطاعاتِ، والذُّنوبِ التي سلَفتْ منه للتَّوبةِ منها والاستغفارِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٢).

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥٤١٧).

صحَّحه الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (٢٥١٦)، وابنُ باز في ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١/ ١٦٠)، وحسَّنه ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابنُ حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (١/ ٣٢٧)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: مَن خافَ اللهَ في سِرِّه في حالِ مَغيبِه عن أعيُنِ النَّاسِ: ابنُ جُزَي، وابن كثير، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦، ٨٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٢٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٦). =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾.

أي: وجاء يومَ القيامة بقَلبٍ عاكفٍ على محبَّةِ ربِّه، وطاعتِه، والخُضوعِ والإخلاصِ له، غيرِ مُلتفِتٍ إلى ما سِواه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧].

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤﴾.

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖ﴾.

= وقيل: المرادُ: مَن خافَ اللهَ في الدُّنيا مِن قَبلِ أن يَراه أو يَلْقاه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، وابن عطية، والبِقاعي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٦).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السَّلفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٧).

قال ابنُ القيم: (قَولُه: ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: راجِع عن معاصي اللهِ، مُقبِلٍ على طاعةِ اللهِ. وحقيقةُ الإنابةِ: عُكوفُ القَلبِ على طاعةِ اللهِ ومَحبَّتِه، والإقبالُ عليه). ((الفوائد)) (ص: ١٣).

قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾: أنَّه حَضَر يومَ الحَشرِ مُصاحِبًا قَلْبَه المُنيبَ إلى الله، أي: مات مَوصوفًا بالإنابةِ، ولم يُبطِلْ عمَلَه الصَّالِحَ في آخِرِ عُمُرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٠).

أي: يُقالُ يومَ القيامةِ لِمَن كانت تلك صِفاتُه: ادخُلوا هذه الجنَّةَ بأمانٍ مِن كُلِّ سُوءٍ ومَكروهٍ، وآفةٍ وشَرٍّ[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٥، ٤٦].

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾.

أي: ذلك هو اليَومُ الَّذي يَمكُثونَ فيه في الجنَّةِ أبدًا إلى غيرِ نِهايةٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾.

أي: لهم في الجنَّةِ كُلُّ ما تَشتَهيه أنفُسُهم، فمهما طَلَبوا مِن شَيءٍ أُحضِرَ لهم[3].

كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۞ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠، ٧١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٠، ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾.

أي: وعِندَنا لهم ثوابٌ زائدٌ على ما يَشاؤونَ مِمَّا لم يَخطُرْ على قُلوبِهم، وأعظَمُ ذلك وأفضَلُه: النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ الكريم(١).

كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وعن صُهَيبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا دَخَل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ يَقولُ اللهُ تبارك وتعالى: تُريدون شَيئًا أَزيدُكم؟ فيقولونَ: ألم تُبيِّضْ وُجوهَنا؟! ألم تُدخِلْنا الجنَّةَ، وتُنَجِّنا مِنَ النَّارِ؟! قال: فيَكشِفُ الحِجابَ! فما أُعطُوا شَيئًا أحبَّ إليهم مِنَ النَّظَرِ إلى رَبِّهم عزَّ وجَلَّ، ثمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾))(٢).

وعن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا جُلوسًا عند رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذْ نظَرَ إلى القمَرِ لَيلةَ البَدرِ، فقال: أمَا إنَّكم ستَرَونَ رَبَّكم كما تَرَونَ هذا القمَرَ، لا تُضامُّونَ(٣) ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

قال السعدي: (لهم فوقَ ذلك ﴿مَزِيدٞ﴾ أي: ثَوابٌ يَمُدُّهم به الرَّحمنُ الرَّحيمُ، مِمَّا لا عَينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَر على قَلبِ بَشَرٍ، وأعظَمُ ذلك وأجَلُّه وأفضَلُه: النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ -تعالى- الكريمِ، والتَّمَتُّعُ بسَماعِ كَلامِه، والتَّنَعُّمُ بقُربِه، نسألُ اللهَ تعالى أن يَجعَلَنا منهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧). ويُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ١١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٧، ١٠٨).

(٢) رواه مسلم (١٨١).

(٣) لا تُضامُّونَ في رُؤيتِه: يُروى بتَشديدِ الميمِ وتخفيفِها؛ فالتَّشديدُ معناه: لا يَنضَمُّ بَعضُكم إلى بَعضٍ وتَزدَحِمونَ وَقتَ النَّظَرِ إليه تعالى؛ مِنَ المُضامَّةِ، وهي المُزاحَمةُ. ومعنى التَّخفيفِ: =

في رُؤيتِه!))[(١)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ لَمَّا كانت النَّفْسُ لها قُوَّتانِ: قُوَّةُ الطَّلَبِ، وقُوَّةُ الإمساكِ، كان الأوَّابُ مُستَعمِلًا لقُوَّةِ الطَّلَبِ في رُجوعِه إلى اللهِ، ومَرضاتِه وطاعتِه، والحَفيظُ مُستَعمِلًا لقُوَّةِ الحِفظِ في الإمساكِ عن مَعاصيه ونواهيه؛ فالحَفيظُ: المُمسِكُ نَفْسَه عَمَّا حُرِّمَ عليه، والأوَّابُ: المُقبِلُ على اللهِ تعالى بِطاعتِه[(٢)].

٢- خَشيةُ اللهِ في الغَيبِ والشَّهادةِ معناها: أنَّ العَبدَ يَخشى اللهَ سِرًّا وإعلانًا، وظاهِرًا وباطِنًا؛ فإنَّ أكثَرَ النَّاسِ يَرى أنَّه يَخشى اللهَ في العلانيَةِ وفي الشَّهادةِ، ولكِنَّ الشَّأنَ في خَشيتِه اللهَ في الغَيبِ إذا غاب عن أعيُنِ النَّاسِ، وقد مَدَح اللهُ مَن يَخافُه بالغَيبِ؛ قال تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾، وقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[(٣)] [الملك: ١٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ الإنابةُ جُعِلَتْ مع الخَشيةِ؛ وذلك لأنَّ الَّذي يَخشى اللهَ لا بُدَّ أنْ يَرجوَه ويَطمَعَ في رَحمتِه؛ فيُنيبَ إليه ويُحِبَّه، ويُحِبَّ عبادتَه وطاعتَه؛ فإنَّ ذلك هو الَّذي يُنجيه ممَّا يخشاه، ويَحصُلُ

= لا يَنالُكم ضَيمٌ -ظُلمٌ- في رُؤيتِه؛ فيَراه بَعضُكم دونَ بَعضٍ! يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٠١)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٠١).

(١) رواه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٢).

به ما يُحِبُّه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ فيه سُؤالٌ: ما وَجهُ التَّقريبِ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: هو أنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على نَقلِ الجنَّةِ، فيُقَرِّبُها للمُؤمِنِ، لذا قال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ولم يقلْ: (قُرِّبَ المُتَّقونَ مِن الجنَّةِ)؛ بيانًا للإكرامِ؛ حيث جعَلَهم مِمَّن تُنقَلُ إليهم الجِنانُ بما فيها مِنَ الحِسانِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ الجنَّةَ لا تَزالُ ولا تُنقَلُ، ولا المؤمِنُ يُؤمَرُ في ذلك اليَومِ بالانتِقالِ إليها مع بُعْدِها، لكِنَّ اللهَ تعالى يَطوي المسافةَ الَّتي بيْنَ المُؤمِنِ والجنَّةِ، فهو التَّقريبُ إكرامًا للمُؤمِنِ، كأنَّه تعالى أراد بيانَ شَرَفِ المُؤمِنِ المُتَّقي؛ أنَّه مِمَّن يُمشَى إليه، ويُدنَى منه!

الوَجهُ الثَّالِثُ: قُرِّبَت مِنَ الحُصولِ في الدُّخولِ، لا بمعنى القُربِ المكانيِّ؛ فالجنَّةُ كانت بَعيدةَ الحُصولِ؛ لأنَّه لا قُدرةَ للمُكَلَّفِ على تحصيلِها لولا فَضلُ اللهِ تعالى، وعلى هذا فقَولُه: ﴿غَيْرَ﴾ نَصبٌ على الحالِ، تقديرُه: قُرِّبَت من الحُصولِ، ولم تَكُن بَعيدةً في المسافةِ حتَّى يُقالَ: كيف قُرِّبَت[2]؟

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ فيه سُؤالٌ: إنْ حُمِلَ القُربُ على القُربِ المكانيِّ، فما الفائِدةُ في الاختِصاصِ بالمُتَّقينَ، مع أنَّ المؤمِنَ والكافِرَ في عَرْصةٍ واحِدةٍ؟

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٤٤، ١٤٨).

ويُنظر ما تقدَّم في حاشيةِ التَّفسيرِ (ص: ٤٧٢).

الجوابُ: قد يكونُ شَخصانِ في مَكانٍ واحِدٍ، وهناك مكانٌ آخَرُ هو إلى أحَدِهما في غايةِ القُربِ، وعن الآخَرِ في غايةِ البُعدِ؛ مِثالُه: مَقطوعُ الرِّجلَينِ والسَّليمُ الشَّديدُ العَدْوِ، إذا اجتَمَعا في مَوضِعٍ وبحَضْرتِهما شَيءٌ لا تَصِلُ إليه اليَدُ بالمَدِّ، فذلك بَعيدٌ عن المقطوعِ، وهو في غايةِ القُربِ مِنَ العادي[1]. ويمكنُ أنْ يُقالَ: فائدةُ الاختِصاصِ بالمتَّقينَ لِكَونِهم أهلَها، معَ عِلمِ الكفَّارِ بأنَّ مصيرَهم إلى النَّارِ.

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ نَبَّه على كثرةِ خَشيتِه بقَولِه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾؛ لأنَّه إذا خاف مع استِحضارِ الرَّحمةِ العامَّةِ للمُطيعِ والعاصي، كان خَوفُه مع استِحضارِ غَيرِها أَولى[2]. أو: لأنَّ الخَشيةَ مِنَ الرَّحمنِ تَكونُ مَقرونةً بالأُنسِ؛ ولذلك لم يقُلْ: مَن خَشِيَ الجبَّارَ، ولا مَن خَشِيَ القَهَّار[3].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ فيه سؤالٌ: المؤمِنُ قد عَلِمَ أنَّه إذا دخَلَ الجنَّةَ خُلِّدَ فيها، فما الفائِدةُ في التَّذكيرِ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ قَولَه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ قَولٌ قاله اللهُ تعالى في الدُّنيا إعلامًا وإخبارًا، وليس ذلك قَولًا يَقولُه عند قَولِه: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾، فكأنَّه تعالى أخبَرَنا في يَومِنا أنَّ ذلك اليَومَ يَومُ الخُلودِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ اطمِئنانَ القَلبِ بالقَولِ أكثَرُ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٤٨).

٥- قال الله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ الأمرُ هنا أمرُ إكرام؛ أمَّا قَولُه تعالى للمُجرِمينَ: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: ٧٦] فهذا أمرُ إهانةٍ(١).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾، أي: زيادةً على ما يَشاؤُونَ مِمَّا لم يَخطُرْ ببالِهم، وفيه دَلالةٌ على أنَّ المفاجأةَ بالإنعامِ ضَربٌ مِن التَّلَطُّفِ والإكرامِ، وأيضًا فإنَّ الإنعامَ يَجيئُهم في صُوَرٍ مُعجِبةٍ(٢).

٧- قال الله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾، ففي الجنَّةِ أكثرُ مِمَّا يَتمنَّاه الإنسانُ، وأكثرُ مِمَّا يَتصوَّرُه، وهو النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ النَّظَرَ إلى وَجهِ اللهِ أعظَمُ ما يكونُ مِن النَّعيمِ؛ ولهذا سمَّاه اللهُ زيادةً في قَولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٦]؛ فقد فَسَّرَ أعلَمُ الخَلقِ باللهِ -وهو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- الزِّيادةَ بأنَّها النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ(٣) سُبحانَه وتعالى(٤).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ عطفٌ على ﴿وَنُفِخَ﴾ [ق: ٢٠]، أي: قُرِّبَتْ للمتَّقينَ عن الكُفْرِ والمعاصي، بحيثُ يُشاهِدونَها مِن المَوقفِ، ويَقِفُون على ما فيها مِن فُنونِ المحاسِنِ، فيَبتهِجُونَ بأنَّهم مَحشورونَ إليها، فائزُون بها(٥).

أو عطْفٌ على ﴿نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ [ق: ٣٠]؛ فالتَّقديرُ: يومَ أُزْلِفَت الجنَّةُ للمتَّقينَ، وهو رُجوعٌ إلى مُقابِلِ حالةِ الضَّالِّينَ يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ، فهذه الجُملةُ مُتَّصِلةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢١).

(٣) يُنظر ما أخرجه مسلمٌ (١٨١) مِن حديثِ صُهَيبٍ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٢).

في المعنى بجُملةِ ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ [ق: ٢١]، ولو اعتُبِرَت مَعطوفةً عليها لَصحَّ ذلك، إلَّا أنَّ عَطفَها على جُملةِ ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ فيه غُنْيةٌ عن ذلك، ولا سِيَّما مع طُولِ الكلامِ[(١)].

- وخَصَّ المتَّقينَ بذلك؛ لأنَّهم أحَقُّ بها[(٢)].

- وأيضًا قالَ: ﴿غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ بعدَ قولِه: ﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾ الَّتي بمَعنى قُرِّبَت؛ تأكيدًا للإزلافِ، أي: مكانًا غيرَ بعيدٍ، بحيثُ يُشاهِدونَها، أو حالَ كَونِها غيرَ بعيدٍ، أيْ: شيئًا غيرَ بعيدٍ[(٣)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ * مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾

- جُملةُ ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ مُعترِضةٌ؛ فيَجوزُ جعْلُها وحْدَها مُعترِضةً وما بعْدَها مُتَّصلًا بما قبْلَها، فتَكونُ مُعترِضةً بيْنَ البدَلِ والمُبدَلِ منه، وهُما ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ و﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾، وتُجعَلُ ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بدَلًا من ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾، وتَكريرُ الحرْفِ الَّذي جُرَّ به المُبدَلُ منه لقصْدِ التَّأكيدِ[(٤)].

- واسمُ الإشارةِ المُذكَّرُ (هذا) مُراعًى فيه مَجموعُ ما هو مُشاهَدٌ عِندَهم مِن الخَيراتِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٩).
ويُنظر ما تقدم في مشكل الإعراب (ص: ٤٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٩).

- قولُه: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ اقترنَتِ الخَشيةُ باسمِ الرَّحمنِ الدَّالِّ على سَعةِ الرَّحمةِ، وفي ذلك مُبالَغةٌ في الثَّناءِ على الخاشي؛ لأنَّه إذا خَشِيَه وهو عالِمٌ بسَعةِ رَحمتِه، فناهيكَ بخَشيتِه الَّتي ما بَعْدَها خَشيةٌ، كما أثْنى عليه بالخَشيةِ مع أنَّ المَخشيَّ منه غائبٌ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا المُتَّقِيَ يَخشى اللهَ وهو يَعلَمُ أنَّه رَحمنٌ، ولقَصدِ التَّعريضِ بالمُشرِكين الَّذين أنكَروا اسمَه الرَّحمنَ، والمعنى على الَّذين خَشُوا: خَشِيَ صاحبَ هذا الاسمِ، فأنتم لا حَظَّ لكم في الجنَّةِ؛ لأنَّكم تُنكِرون أنَّ اللهَ رَحمنٌ، بَلْهَ أنْ تَخشَوه[1].

- والباءُ في ﴿بِالْغَيْبِ﴾ بمَعنى (في) الظَّرفيَّةِ؛ لتنزيلِ الحالِ مَنزِلةَ المَكانِ، أي: الحالةِ الغائبةِ، وهي حالةُ عَدَمِ اطِّلاعِ أحَدٍ عليه؛ فإنَّ الخَشيةَ في تلك الحالةِ تدُلُّ على صِدقِ الطَّاعةِ للهِ؛ بحيثُ لا يَرْجو ثَناءَ أحَدٍ، ولا عِقابَ أحدٍ، فيَتعلَّقُ المَجرورُ بالباءِ بفِعلِ ﴿خَشِيَ﴾. ولك أنْ تُبقِيَ الباءَ على بعضِ مَعانيها الغالبةِ، وهي المُلابَسةُ ونحْوُها، ويكونَ الغَيبُ مَصدرًا، والمجرورُ حالًا مِن ضَميرِ ﴿خَشِيَ﴾[2].

- قولُه: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ فيه وصْفُ القلبِ بالإنابةِ -وهي الرُّجوعُ إلى اللهِ تعالى-؛ لأنَّ الاعتِبارَ بما ثبَتَ منها في القلْبِ[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ بتأويلِ: يُقالُ لهم: ادخُلوها؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٩٧، ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٣).

فهي مِن تَمام مَقولِ القَولِ المَحذوفِ، وهذا الإذْنُ مِن كَمالِ إكرامِ الضَّيفِ أنَّه إنْ دُعِيَ إلى الوليمةِ أو جيءَ به؛ فإنَّه إذا بلَغَ المنزِلَ قيلَ له: ادخُلْ بسَلامٍ(١).

- ومَحِلُّ هذه الجُملةِ مِن الَّتي قبْلَها الاستِئنافُ البَيانيُّ؛ لأنَّ ما قَبْلَها يُثيرُ ترقُّبَ المخاطَبينَ للإذْنِ بإنجازِ ما وُعِدوا به(٢).

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ ممَّا يُقالُ للمُتَّقينَ، على حَدِّ قولِه: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، والإشارةُ إلى اليَومِ الَّذي هم فيه، وكأنَّ اسمَ الإشارةِ للبعيدِ للتَّعظيمِ. ويجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى اليَومِ المذكورِ في قَولِه: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ [ق: ٣٠]؛ فإنَّه بعْدَ أنْ ذكَرَ ما يُلاقيه أهلُ جَهنَّمَ وأهلُ الجَنَّةِ، أعْقَبَه بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ ترهيبًا وترغيبًا، وعلى الوجْهِ الثَّاني تكونُ هذه الجُملةُ مُعترِضةً اعتِراضًا مُوجَّهًا إلى المُتَّقينَ يومَ القيامةِ، أو إلى السَّامِعينَ في الدُّنيا(٣).

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مِن بقيَّةِ ما يُقالُ للمتَّقينَ، فيَكونَ ضَميرُ الغَيْبةِ الْتِفاتًا، وأصْلُه: لكمْ ما تَشاؤونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ ممَّا خُوطِبَ به الفَريقانِ في الدُّنيا، وعلى الاحتِمالَينِ فهو مُستأنَفٌ استِئنافًا بَيانيًّا(٤).

وقيل: قال: ﴿لَهُم﴾، ولم يقُلْ: (لكم)؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ مُقَدَّرٌ فيه: (يُقالُ لهم)، أي: يُقالُ لهم: ادخُلوها؛ فلا يَكونُ على هذا التِفاتًا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٤٩).

- وجاء تَرْتيبُ الآياتِ في مُنتهَى الدِّقَّةِ؛ فبدَأَتْ بذِكرِ إكرامِهم بقولِه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ثمَّ بذِكرِ أنَّ الجَنَّةَ جزاؤُهم الَّذي وُعِدوا به، فهي حَقٌّ لهم، ثمَّ أومأَتْ إلى أنَّ ذلك مِن أجْلِ أعْمالِهم بقوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ...﴾، ثمَّ ذُكِرَت المُبالَغةُ في إكرامِهم بعدَ ذلك كلِّه بقولِه: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾، ثمَّ طَمأَنَهم بأنَّ ذلك نعيمٌ خالدٌ، وزِيدَ في إكرامِهم بأنَّ لهم ما يَشاؤُونَ ما لم يَرَوه حينَ الدُّخولِ، وبأنَّ اللهَ وعَدَهم بالمَزيدِ مِن لَدُنْه(١).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢١، ٣٢٢).

الآيات (٢٦-٤٠)

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ٣٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ٣٨ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ٣٩ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿قَرۡنٍ﴾: القَرْنُ: القَومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المُقتَرِنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْر مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مدَّةُ القرنِ مِئةُ سَنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثونَ، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِن الاقتِرانِ، وهو اجتِماعُ شيئَين، أو أشياءَ في معنًى من المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[1].

﴿بَطۡشٗا﴾: أي: قُوَّةً، والبَطْشُ: الأخذُ بعُنفٍ، وأصلُ (بطش): يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ بقَهرٍ وقُوَّةٍ وغَلَبةٍ[2].

﴿فَنَقَّبُواْ﴾: أي: طافوا وساروا وتوَغَّلوا، وأصلُه مِنَ النَّقْبِ: وهو الطَّريقُ، كأنَّهم سَلَكوا كُلَّ طَرِيقٍ، أو مِن التَّنقُّبِ عن الأمرِ، بمعنى البحثِ عنه، وأصلُ (نقب): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٧، ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٤)، ((التبيان)) =

﴿مَّحِيصٍ﴾: أي: مَعدِلٍ ومَهْرَبٍ ومَفَرٍّ، وأصلُ (حيص): يدُلُّ على المَيلِ[1].

﴿شَهِيدٌ﴾: أي: مُتفَهِّمٌ لِما يُخبَرُ به، شاهِدٌ له بقلبِه، غيرُ غافِلٍ عنه ولا ساهٍ، حَاضرٌ بفطنتِه، غيرُ غائبٍ، وأصلُ (شهد): يدُلُّ على حُضورٍ وعِلمٍ وإعلامٍ[2].

﴿لُّغُوبٍ﴾: أي: ضَعفٍ وإعياءٍ، وأصلُ (لغب): يدُلُّ على ضَعفٍ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى عاقِبةَ المكذِّبينَ في الأممِ السَّابِقةِ، فيقولُ: وكثيرًا أهلَكْنا مِن الأُمَمِ الماضيةِ مِن قَبلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ، وقد كانوا أشدَّ منهم قُوَّةً، فساروا في الأرضِ، وطافوا، وتوَغَّلوا فيها، فما صرَفَهم ذلك عن العذابِ! فأنتم أيضًا -يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- لن تُغنيَ عنكم قُوَّتُكم شَيئًا مِن عذاب الله، إنَّ في ذلك لَتذكيرًا ومَوعِظةً لِمَن كان له عَقلٌ يَعقِلُ به، أو استَمَع لكلامِ اللهِ تعالى غَيرَ غافِلٍ ولا سَاهٍ.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى بعضَ مَظاهِرِ قُدرتِه، فيقولُ: ولقد خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ في سِتَّةِ أيَّامٍ، وما أصابَنا مِن تَعَبٍ أو إعياءٍ؛ فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يَقولُ الكُفَّارُ لك مِن أذًى وسُوءٍ، وسبِّحْ بحمدِ ربِّك قبْلَ طُلوعِ

= لابن الهائم (ص: ٣٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧، ٨٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

الشَّمسِ وقبْلَ غُروبِها، ومِنَ اللَّيلِ فسبِّحْ ربَّك، وعَقِبَ الصَّلَواتِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ٣٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أنذَرَ اللهُ تعالى الكافِرينَ بما بيْنَ أيديهم مِنَ اليَومِ العَظيمِ والعَذابِ الأليمِ؛ أنذَرَهم بما يُعَجِّلُ لهم مِنَ العذابِ المُهلِكِ والإهلاكِ المُدرِكِ، وبيَّنَ لهم حالَ مَن تقَدَّمَهم[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أوَّلَ السُّورةِ تَكذيبَ الأُمَمِ السَّابِقةِ؛ ذكَرَ هنا إهلاكَ قُرونٍ ماضيةٍ[٢].

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾.

أي: وكثيرًا مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ أهلَكْنا مِن قَبلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ؛ بسَبَبِ كُفرِهم وتَكذيبِهم بالحَقِّ، والحالُ أنَّهم كانوا أقوى وأشدَّ منهم سَطوةً[٣]!

قال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩].

﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٤، ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٨).

أي: فساروا في الأرضِ، وطافوا وتوَغَّلوا فيها، وتَقلَّبوا في أسفارِهم، وسلَكوا كلَّ طريقٍ[(١)]، فهل صرَفَهم ذلك عن العذابِ، وأنجاهم مِنَ الهَلاكِ؟ فأنتم أيضًا

---

(١) ممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، وابنُ جُزَي، والخازن، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٤٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩).

وممَّن قيَّد هذا السَّيرَ والتَّطْوافَ والبحثَ في الجملةِ بأنَّه كان طلبًا للمَهربِ، وطمَعًا في النَّجاةِ، وبحثًا عن المفَرِّ والمَلجأ: ابنُ عطيَّة، والقرطبيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٨).

وفسَّر مقاتلٌ (نَقَّبوا) بـ (هرَبوا). يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٥).

قال ابن كثير: (﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: أثَّروا فيها. وقال مجاهدٌ: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾: ضرَبوا في الأرضِ. وقال قَتادةُ: فساروا في البلادِ، أي: ساروا فيها يَبتَغون الأرزاقَ والمَتاجرَ والمَكاسِبَ أكثَرَ ممَّا طُفْتُم أنتم فيها، ويُقالُ لِمَن طَوَّف في البلادِ: نَقَّبَ فيها). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٨).

وقيل: المعنى: أنَّهم تَصَرَّفُوا فِي الأرضِ بالحفرِ والغَرْسِ والبناءِ، فبَنَوا الحُصونَ المنيعةَ، والمنازلَ الرَّفيعةَ، وغرَسوا الأشجارَ، وأجْرَوُا الأنهارَ، وزرَعوا، وعَمَروا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣).

قال ابن عاشور: (فيكونُ في معنى قولِه: ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا﴾ في سورةِ الرُّومِ [٩]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣).

وقال البِقاعي: (﴿فَنَقَّبُوا﴾ أي: أوقَعوا النَّقْبَ ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ بأنْ فَتَحوا فيها الأبوابَ الحِسِّيَّةَ والمعنويَّةَ، وخَرَّقوا في أرجائِها ما لم يَقدِرْ غَيرُهم عليه، وبالَغوا في السَّيرِ في النِّقابِ: وهي طُرُقُ الجِبالِ والطُّرُقُ الضَّيِّقةُ فَضلًا عن الواسِعةِ وما في السُّهولِ، بعُقولِهم الواسِعةِ، وآرائِهم النَّافذةِ، وطبائِعِهم القَويَّةِ، وبَحَثوا مع ذلك عن الأخبارِ، وأخبَروا غَيرَهم بما لم يَصِلْ إليهم، وكان كُلٌّ منهم نَقَّابًا في ذلك، أي: علَّامةً فيه؛ فصارت له به مناقِبُ أو مَفاخِرُ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٣٥).

-يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- لا مَفَرَّ لكم ولا مَحِيدَ إذا حَلَّ بكم الهَلاكُ، ولن تُغنيَ عنكم قُوَّتُكم وشِدَّتُكم شَيئًا[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾.

أي: إنَّ في ذلكَ[٢] لَتذكيرًا ومَوعِظةً وعِبرةً لِمَن كان له عَقلٌ يَعقِلُ به ويَتدبَّرُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٠، ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢، ٢٣)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣).

(٢) قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن تكونَ الإشارةُ بذلك إلى إهلاكِ القُرونِ الأشَدِّ بَطشًا، ويجوزُ أن تكونَ إلى جميعِ ما تقدَّم مِن استِدلالٍ وتَهديدٍ وتحذيرٍ مِن يومِ الجَزاءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، وابن عطية، وابن الجوزي، والخازن، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني في الجملةِ: الثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، والبيضاوي، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٩).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي: فيما ذَكَرْناه في هذه السُّورةِ تَذكِرةٌ ومَوعِظةٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: ما سَبَق من الآياتِ العَظيمةِ، ومنها ما قصَّ اللهُ تعالى =

فَيتذكَّرُ ويَخافُ عذابَ اللهِ تعالى(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ * لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

أي: أو استمَع لكلامِ اللهِ تعالى وأنصتَ إلى آياتِه إنصاتًا تامًّا، فلا يَغيبُ عنه شَيءٌ، وهو حاضِرُ القَلبِ غيرُ غافِلٍ ولا ساهٍ(٢).

= في هذه الآياتِ الكريمةِ مِن إهلاكِ الأُمَمِ السَّابِقةِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٩).

قال ابن جرير: (والقلبُ في هذا الموضعِ: العَقلُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٢).

وقال ابنُ القيِّم: (لم يُرِدْ بالقَلبِ هنا مُضغةَ اللَّحمِ المُشترَكةَ بيْنَ الحَيَواناتِ، بل المرادُ ما فيه مِنَ العَقلِ). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٩).

قال ابن القيِّم: (لم يُختَلَفْ في أنَّ المرادَ بالقَلبِ: القَلبُ الواعي، وأنَّ المرادَ بإلقاءِ السَّمعِ: إصغاؤُه وإقبالُه على المذكِّرِ، وتفريغُ سَمعِه له). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٧٠).

قال الألوسي: (لَذِكْرى لإحدى طائفتَينِ مَن له قلبٌ يَفْقَهُ عن الله عزَّ وجلَّ، ومَن له سمْعٌ مُصْغٍ مع ذِهنٍ حاضرٍ، أي: لِمَن له استعدادُ القَبولِ عن الفقيهِ إن لم يكُنْ فقيهًا في نفْسِه، و﴿أَوْ﴾ لِمَنعِ الخُلوِّ مِن حيثُ إنَّه يجوزُ أن يكونَ الشَّخصُ فقيهًا ومُستعِدًّا لِلْقَبولِ مِن الفقيهِ. وذكر بعضُهم أنَّها لِتَقسيمِ المُتذَكِّرِ إلى تالٍ وسامعٍ، أو إلى فقيهٍ ومُتعَلِّمٍ، أو إلى عالِمٍ كامِلِ الاستِعدادِ لا يَحتاجُ لِغَيرِ التَّأمُّلِ فيما عندَه، وقاصِرٍ مُحتاجٍ لِلتَّعلُّمِ، فيَتذكَّرُ إذا أقبَلَ بكُلِّيَّتِه وأزالَ الموانعَ بأسْرِها، فتأمَّل). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٤١). ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠). =

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ٣٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا دَلَّ اللهُ تعالى على تمامِ عِلمِه وشُمولِ قُدرتِه بخَلقِ الإنسانِ؛ ذكَّرَ بخَلقِ ما هو أكبَرُ منه[1].

وأيضًا فمُناسَبةُ اتِّصالِ هذه الآيةِ بما قبْلَها أنَّه لَمَّا نزَلَ قولُه تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ﴾ [ق: ٦] إلى قولِه: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق: ١٠]، وكان ذلك قريبًا ممَّا وُصِفَ في التَّوراةِ مِن ترْتيبِ المخلوقاتِ إجمالًا، ثمَّ

= وقال ابن عاشور: (مَوقعُ ﴿أَوْ﴾ للتَّقسيم؛ لأنَّ المُتذكِّرَ إمَّا أنْ يَتذكَّرَ بما دلَّت عليه الدَّلائلُ العقليَّةُ مِن فَهمِ أدلَّةِ القرآنِ، ومِنَ الاعتبارِ بأدلَّةِ الآثارِ على أصحابِها، كآثارِ الأُمَمِ، مِثلُ ديارِ ثمودَ...، وإمَّا أنْ يَتذكَّرَ بما يَبلُغُه مِن الأخبارِ عن الأمَمِ، كأحاديثِ القرونِ الخاليةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٤).

وقال أبو السعود: (كلمةُ ﴿أَوْ﴾ لمنعِ الخلوِّ دونَ الجمعِ؛ فإنَّ إلقاءَ السَّمعِ لا يُجدي بدونِ سلامةِ القلبِ كما يلوحُ به قولُه تعالَى ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي: حاضرٌ بفِطنتِه؛ لأنَّ مَن لا يَحضُرُ ذِهنُه فكأنَّه غائبٌ). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٤).

وظاهرُ كلامِ أكثَرِ أهلِ العِلمِ أنَّ هذه الأوصافَ جميعًا لِمَوصوفٍ واحدٍ له قلبٌ حيٌّ، معَ إصغاءِ السَّمعِ، وحُضورِ القلبِ معَ ما يسمَعُ. يُنظر: ((الخلاصة في تدبر القرآن)) لخالد السبت (ص: ٤٠).

وممَّن اختار أنَّ هذَينِ الوصفَينِ لِصِنفَينِ مِن النَّاسِ: النَّيْسابوريُّ، والبِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٩).

ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١١) و(١٦/ ١٨٠)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٦٩، ١٧١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢١٨)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٧).

نزَلَ قولُه بعدَ ذلك: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥]، كان بعضُ اليهودِ بمكَّةَ يقولونَ: إنَّ اللهَ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيامٍ، واستراحَ في اليومِ السَّابعِ، والاستِراحةُ تُؤذِنُ بالنَّصَبِ والإعياءِ، فلمَّا فَرَغَت الآيةُ مِن تكذيبِ المشركينَ في أقوالِهم؛ عطَفَت إلى تَكذيبِ الَّذين كانوا يُحدِّثونَهم بحديثِ الاستِراحةِ، فهذا تأويلُ موقعِ هذه الآيةِ في هذا المحلِّ[(١)].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: ولقد أوجَدْنا السَّمواتِ السَّبْعَ والأرضَ وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ في سِتَّةِ أيَّامٍ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [السجدة: ٤].

﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

أي: وما أصابَنا مِن جرَّاءِ ذلك أيُّ تَعَبٍ أو إعياءٍ؛ لكَمالِ القُدرةِ، وتَمامِ القُوَّةِ[(٣)].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٩، ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما في ستَّةِ أيَّام، ولم يَمَسَّه مِن تَعبٍ ولا إعياءٍ؛ تكذيبًا لأعدائِه مِنَ اليَهودِ؛ حيثُ قالوا: إنَّه استراح في اليَوم السَّابِعِ! أمَرَ نَبيَّه بالتَّأسِّي به سُبحانَه في الصَّبرِ على ما يقولُ أعداؤُه فيه، كما أنَّه سُبحانَه صَبَرَ على قَولِ اليَهودِ: إنَّه استراح! ولا أحَدَ أصبَرُ على أذًى يَسمَعُه منه تعالى[1].

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يَقولُه الكُفَّارُ مِن الأذَى والسُّوءِ[2].

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣).
ويُنظر ما أخرجه البُخاريُّ (٦٠٩٩)، ومسلمٌ (٢٨٠٤) من حديثِ أبي موسى الأشعَريِّ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٦).
قيل: المعنى: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يقولُ هؤلاء اليهودُ، وما يَفتَرونَ على اللهِ، ويَكذِبونَ عليه [وذلك أنَّهم قالوا: إنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيامٍ، ثمَّ استراح يومَ السَّابعِ]؛ فإنَّ اللهَ لهم بالمِرْصادِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والبغوي، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٥).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الأمرُ بالصَّبرِ على يَقولُه المشرِكون مِن قُرَيشٍ: ابنُ أبي زَمَنين، والقرطبيُّ، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشور، وهو ظاهرُ اختيارِ الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣١).
قيل: المرادُ على هذا القول: أي: على ما يَقولونَ له: إنَّه ساحرٌ، وإنَّه شاعرٌ، وإنَّه كاهنٌ، وإنَّه =

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَه اللهُ تعالى بالصَّبرِ؛ أمَرَه بما يَستَعينُ به على الصَّبرِ، وهو التَّسبيحُ بحَمدِ رَبِّه قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غُروبِها، وباللَّيلِ وأدبارَ السُّجُودِ[1].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾.

أي: ونَزِّهْ ربَّك -يا محمَّدُ- قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غُروبِها تَنزيهًا مُقترِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ؛ محبَّةً له وتعظيمًا، وصَلِّ له[2].

= مجنونٌ، وإنَّه كاذبٌ. وقيل: مِن إنكارِ البعثِ والتَّوحيدِ والنُّبوَّة. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١).

وممَّن اختار ما هو أعَمُّ مِن المشركين ومِن اليهودِ: ابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، والثعالبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٢٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١١).

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٦، ٣٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١١).

ذكَرَ ابنُ عطيَّةَ أن (سَبِّحْ) معناه: (صَلِّ) بإجماعٍ مِن المتأوِّلينَ، ونسَبَ ابنُ عاشور هذا القولَ للجمهور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٧).

وقال ابنُ عثيمين: (سَبِّحْ تَسبيحًا مقرونًا بالحَمدِ في هذَينِ الوَقتينِ: قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ، وقبْلَ الغُروبِ. قال أغلَبُ المفسِّرينَ: المرادُ بذلك: صَلاةُ الفَجرِ، وصلاةُ العَصرِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ هنا: صَلاةُ الصُّبحِ قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ، وصلاةُ العَصرِ قبْلَ غُروبِها: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والثعلبي، والبغوي، والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٤٩)، ((تفسير الثعلبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وعن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ البَجَليِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا عندَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فنَظَرَ إلى القَمَرِ لَيلةَ -يعني البَدر-، فقال: إنَّكم ستَرَونَ ربَّكم كما تَرَونَ هذا القَمَرَ لا تُضامونَ في رؤيتِه، فإنِ استطعتُم ألَّا تُغلَبوا على صلاةٍ قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غروبِها فافعَلوا. ثمَّ قرأ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ

= (٩/ ١٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقوله: ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾: صلاةُ الفَجرِ، وبقوله: (قَبْلَ الْغُرُوبِ): صلاةُ الظُّهرِ والعَصرِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، وجلال الدين المحلي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٦).

قال البِقاعي: (﴿وَسَبِّحۡ﴾ أي: أوقِعِ التَّنزيهَ عن كلِّ شائبةِ نَقصٍ مُتلَبِّسًا ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾... ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ بصَلاةِ الصُّبحِ، وما يَليقُ به مِن التَّسبيحِ غيرها ﴿وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ بصَلاةِ العصرِ والظُّهرِ كذلك؛ فالعصرُ أصلٌ لذلك الوقتِ، والظُّهرُ تبَعٌ لها). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٣٨).

وقال السعدي: (واشتغِلْ عنهم بطاعةِ ربِّك وتسبيحِه، أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه، وفي أوقاتِ اللَّيلِ، وأدبارَ الصَّلَواتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

وقال الشنقيطي: (الصَّلاةُ داخِلةٌ في التَّسبيحِ المذكورِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٣٢).

ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾))[١].

وفي روايةٍ: عن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضيَ الله عنه، قال: ((كُنَّا عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذْ نَظَرَ إلى القَمَرِ لَيلةَ البَدرِ، فقال: أمَا إنَّكم سترَونَ رَبَّكم كما تَرَونَ هذا، لا تُضامُّونَ -أو لا تُضاهونَ[٢]- في رؤيتِه، فإنِ استطَعْتُم ألَّا تُغلَبوا على صلاةٍ قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غُروبِها، فافعَلوا. ثمَّ قال: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ [طه: ١٣٠]))[٣].

وعن أبي مُوسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن صَلَّى البَرْدَيْنِ[٤] دخَلَ الجنَّةَ))[٥].

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾.

أي: ومِنْ بَعضِ أوقاتِ اللَّيلِ فسبِّحِ اللهَ تعالى مُنزِّهًا له عن كُلِّ ما لا يَليقُ به، وصَلِّ له[٦].

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٥٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٦٣٣).

(٢) لا تُضاهُونَ: مِنَ المُضاهاةِ، أي: لا يَشتَبِهُ عليكم ولا تَرتابونَ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١/ ٥٠٦).

(٣) رواه البخاريُّ (٥٧٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٦٣٣).

(٤) البَرْدَين: أي: الفَجْرَ والعَصرَ؛ لِبَردِ الهواءِ فيهما بالنِّسبةِ إلى وَسَطِ النَّهارِ، ولِكَونِهما في طَرَفَي النَّهارِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١/ ٥٠٦)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٥٤٠).

(٥) رواه البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٢).
=

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

= قال ابنُ العربي: (قَولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ فيه أربعةُ أقوالٍ:

الأوَّلُ: هو تَسبيحُ اللهِ في اللَّيلِ.

الثَّاني: أنَّها صلاةُ اللَّيلِ.

الثَّالِثُ: أنَّها ركْعَتَا الفَجرِ.

الرَّابعُ: أنَّها صلاةُ العِشاءِ الأخيرةِ... قَولُ مَن قال: إنَّه التَّسبيحُ، يُعَضِّدُه الحديثُ الصَّحيحُ: ((مَن تَعارَّ مِنَ اللَّيلِ فقال: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شريكَ له، له المُلكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبَرُ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ؛ كَفَّر عنه، وغَفَر له)).

وأمَّا من قال: إنَّها صلاةُ اللَّيلِ فإنَّ الصَّلاةَ تُسَمَّى تَسبيحًا؛ لِما فيها مِن تسبيحِ الله، ومنه سُبحةُ الضُّحى.

وأمَّا مَن قال: إنَّها صلاةُ الفَجرِ والعِشاءِ؛ فلأنَّهما مِن صَلاةِ اللَّيلِ، والعِشاءُ أوضَحُه). ((أحكام القرآن)) (٤/ ١٦١، ١٦٢).

وقيل: المرادُ بالتَّسبيحِ باللَّيلِ هنا: صَلاتَا المَغرِبِ والعِشاءِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبيُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابنُ عطية، والقرطبي، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٦).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ أي: سَبِّحِ اللهَ مِنَ اللَّيلِ. و «مِنْ» هنا للتَّبعيضِ، يعني: سَبِّحْه أيَّ جُزءٍ مِنَ اللَّيلِ، ويَدخُلُ في ذلك صلاةُ المغرِبِ وصلاةُ العِشاءِ، ويدخُلُ في ذلك أيضًا التَّهَجُّدُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٢). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٩).

((مَن تَعارَّ[١] مِنَ اللَّيلِ فقال: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شريكَ له، له المُلكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، الحَمدُ للهِ، وسُبحانَ اللهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبَرُ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، ثمَّ قال: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي، أو دعا؛ استُجِيبَ له، فإنْ توَضَّأ وصَلَّى قُبِلَت صَلاتُه))[٢].

﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾.

أي: وسبِّحْ ربَّك -يا مُحمَّدُ- عَقِبَ الصَّلَواتِ[٣].

---

(١) تَعارَّ: أي: انتَبَه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٢/ ٣٢٩).

(٢) رواه البخاري (١١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٢).

قال ابنُ العربي: (فيه قَولانِ؛ أحَدُهما: أنَّه النَّوافِلُ. الثَّاني: أنَّه ذِكرُ اللهِ بعدَ الصَّلاةِ، وهو الأقوى في النَّظَرِ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ١٦٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: التَّسبيحُ بعدَ الصَّلَواتِ: البيضاويُّ، والنسفي، وأبو السعود، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ قال ابنُ أبي نَجيحٍ، عن مُجاهِدٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ: هو التَّسبيحُ بعدَ الصَّلاةِ. ويؤيِّدُ هذا ما ثبت في الصَّحيحَينِ [البخاري (٦٣٢٩) ومسلم (٥٩٥)] عن أبي هُرَيرةَ أنَّه قال: «جاء فُقراءُ المهاجِرينَ فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، ذهَب أهلُ الدُّثُورِ بالدَّرَجاتِ العُلى والنَّعيمِ المُقيم. فقال: وما ذاك؟! قالوا: يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، ويَصومون كما نَصومُ، ويَتصَدَّقون ولا نتَصَدَّقُ، ويُعتِقونَ ولا نُعتِقُ! قال: أفَلَا أُعَلِّمُكم شيئًا إذا فعَلْتُموه سبَقْتُم مَن بَعْدَكم، ولا يكونُ أحدٌ أفضَلَ منكم إلَّا مَن فَعَل مِثلَ ما فعَلْتُم؟ تُسَبِّحون وتَحمَدونَ وتُكَبِّرونَ دُبُرَ كُلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثينَ. قال: فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، سَمِعَ إخوانُنا أهلُ الأموالِ بما فعَلْنا، ففَعَلوا مِثلَه! قال: ذلك فَضلُ اللهِ يُؤتيه مَن يَشاءُ!». والقَولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ هما الرَّكعتانِ بعدَ المَغرِبِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ -أي أنَّه التَّسبيحُ بعدَ الصَّلاةِ-: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٧). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن سَبَّح اللهَ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وثلاثينَ، وحَمِدَ اللهَ ثلاثًا وثلاثينَ، وكَبَّرَ اللهَ ثلاثًا وثلاثينَ، فتلك تِسعةٌ وتِسعونَ، وقال تمامَ المِئةِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ

= قال ابنُ تيميَّة: (﴿وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩] قال ابنُ عبَّاسٍ: هو التَّسبيحُ أدبارَ الصَّلاةِ. قلتُ: لَعلَّ هذا تفسيرٌ لِقَولِه: ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾؛ فإنَّه أنسَبُ، وقد رُوِيَ عن طائفةٍ مِنَ السَّلَفِ أنَّ «أدبارَ السُّجودِ»: الرَّكعتانِ بعدَ المَغرِبِ، و«إدبارَ النُّجومِ»: ركْعَتَا الفَجرِ). ((جامع المسائل - المجموعة الثالثة)) (ص: ٢٩٤).

وقيل: المرادُ: صَلِّ النَّوافِلَ المَسنونةَ عَقِبَ الفرائضِ. وممَّن اختاره: جلالُ الدِّين المحلي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٩١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: الرَّكعتانِ بعدَ المغربِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ، والواحديُّ ونسَبَه لأكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: عمرُ بنُ الخطَّابِ، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ، وأبو هُرَيرةَ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ بنُ عليٍّ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، والحسَنُ البصريُّ، وعِكْرِمةُ، وأبو أُمامةَ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، وقَتادةُ، والشَّعْبيُّ، والأوزاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٧). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٠).

وقال ابنُ عثيمين: (وهل المرادُ بالتَّسبيحِ أدبارَ الصَّلواتِ: النَّوافِلُ الَّتي تُصَلَّى بعد الصَّلواتِ، كراتِبةِ الظُّهرِ بَعْدَها، وراتبةِ المَغرِبِ بَعْدَها، وراتبةِ العِشاءِ بَعْدَها، أو المرادُ التَّسبيحُ الخاصُّ، وهو سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، واللهُ أكبَرُ؟ فيه قَولانِ للمُفَسِّرينَ، ولو قيل بهذا وهذا لَكان له وَجهٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٢).

وممَّن ذهب إلى العُمومِ: البقاعي قال: (لَمَّا ذكَرَ الفرائِضَ الَّتي لا مَندوحةَ عنها على وَجهٍ يَشملُ النَّوافِلَ مِن الصَّلاةِ وغَيرِها، أتْبَعَها النَّوافِلَ المقَيَّدةَ بها فقال: ﴿وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: الَّذي هو أكمَلُ بابِه، وهو صلاةُ الفَرضِ بما يُصَلَّى بَعْدَها مِنَ الرَّواتِبِ، والتَّسبيحُ بالقَولِ أيضًا). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٣٩).

له، له المُلْكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ- غُفِرَت خَطاياه وإن كانت مِثْلَ زَبَدِ البَحرِ))[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾، أي: قَلبٌ عَظيمٌ حَيٌّ، ذَكِيٌّ زَكِيٌّ، فهذا إذا ورد عليه شَيءٌ مِن آياتِ اللهِ تذَكَّرَ بها وانتَفَع، فارتَفَع[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ جَعَلَ اللهُ سُبحانَه كَلامَه ذِكرَى لا يَنتفِعُ بها إلَّا مَن جَمَع هذه الأُمورَ الثَّلاثةَ:

أحدُها: أنْ يكونَ له قَلبٌ حيٌّ واعٍ، فإذا فُقِدَ هذا القَلبُ لم يَنتَفِعْ بالذِّكرى.

الثَّاني: أنْ يُصغِيَ بسَمعِه كلِّه نحوَ المخاطَبِ، فإنْ لم يَفعَلْ لم يَنتفِعْ بكَلامِه.

الثَّالثُ: أنْ يُحضِرَ قَلبَه وذِهنَه عندَ المكَلِّمِ له، وهو الشَّهيدُ، أي: الحاضِرُ غيرُ الغائِبِ، فإنْ غاب قَلبُه وسافرَ في موضعٍ آخَرَ لم يَنتفِعْ بالخِطابِ، وهذا كما أنَّ المُبصِرَ لا يُدرِكُ حقيقةَ المَرئيِّ إلَّا إذا كانت له قوَّةٌ مُبصِرةٌ، وحَدَّقَ بها نحوَ المرئيِّ، ولم يكُنْ قَلبُه مَشغولًا بغيرِ ذلك؛ فإنْ فقَدَ القوَّةَ المُبصِرةَ، أو لم يُحَدِّقْ نحوَ المرئيِّ، أو حَدَّقَ نحوَه ولكِنَّ قَلبَه كُلَّه في موضعٍ آخَرَ- لم يُدرِكْه؛ فكثيرًا ما يَمُرُّ بك إنسانٌ أو غيرُه، وقَلبُك مَشغولٌ بغيرِه؛ فلا تَشعُرُ بمُرورِه؛ فهذا الشَّأنُ يَستدعي صِحَّةَ القَلبِ وحُضورَه، وكَمالَ الإصغاءِ[3]. وذلك على أنَّ هذه الأوصافَ لِمَوصوفٍ واحدٍ.

---

(١) رواه مسلم (٥٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢١٨).

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ مِنَ النَّاسِ مَن يُحرَمُ العِلمَ لِسُوءِ إنصاتِه، فيَكونُ الكلامُ والمُماراةُ آثَرَ عندَه وأحَبَّ إليه مِن الإنصاتِ، وهذه آفةٌ كامِنةٌ في أكثَرِ النُّفوسِ الطَّالبةِ للعِلم، وهي تمنَعُهم عِلمًا كَثيرًا، ولو كان حَسَنَ الفَهمِ. ذكَرَ ابنُ عبدِ البَرِّ عن بَعضِ السَّلَفِ أنَّه قال: (مَن كان حَسَنَ الفَهمِ رَديءَ الاستِماعِ، لم يَقُمْ خَيرُه بشَرِّه)[١].

٤- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ تأمَّلْ ما تحتَ هذه الألفاظِ مِن كُنوزِ العِلمِ، وكيف تَفتَحُ مُراعاتُها للعَبدِ أبوابَ العِلمِ والهُدى، وكيف يَنغلِقُ بابُ العِلمِ عنه مِن إهمالِها وعدَمِ مُراعاتِها؛ فإنَّه سُبحانَه ذَكَر أنَّ آياتِه المَتلوَّةَ المسموعةَ والمرئيَّةَ المشهودةَ إنَّما تكونُ تَذكِرةً لِمَن كان له قَلبٌ؛ فإنَّ مَن عَدِمَ القَلبَ الواعيَ عن اللهِ لم ينتَفِعْ بكُلِّ آيةٍ تمُرُّ عليه، ولو مرَّت به كلُّ آيةٍ، ومُرورُ الآياتِ عليه كطُلوعِ الشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ ومُرورِها على مَن لا بصَرَ له! فإذا كان له قَلبٌ كان بمنزلةِ البَصيرِ إذا مرَّت به المرئيَّاتُ فإنَّه يراها، ولكِنَّ صاحِبَ القَلبِ لا ينتفِعُ بقَلبِه إلَّا بأمْرَينِ: أن يُحضِرَه ويُشهِدَه لِما يُلقى إليه، فإذا كان غائبًا عنه مُسافِرًا في الأمانيِّ والشَّهَواتِ والخَيالاتِ لا ينتَفِعُ به. فإذا أحضَرَه وأشهَدَه لم ينتفِعْ إلَّا بأن يُلقِيَ سَمعَه ويُصغيَ بكُلِّيَّتِه إلى ما يُوعَظُ به ويُرشَدُ إليه.

وهاهنا ثلاثةُ أمورٍ:

أحدُها: سلامةُ القَلبِ وصِحَّتُه وقَبولُه.

الثَّاني: إحضارُه وجَمْعُه ومَنعُه مِن الشُّرودِ والتَّفَرُّقِ.

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٦٩). ويُنظر أيضًا: ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البَرِّ (١/ ٤٤٨).

الثَّالِثُ: إلقاءُ السَّمعِ وإصغاؤُه، والإقبالُ على الذِّكرِ.

فذكرَ اللهُ تعالى الأمورَ الثَّلاثةَ في هذه الآيةِ[١].

٥- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، في قَولِه: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مُجرَّدَ الإصغاءِ لا يُفيدُ ما لم يكُنِ المُصغِي حاضِرًا بفِطنتِه وذِهْنِه، وفي الآيةِ ترتيبٌ حَسَنٌ؛ لأنَّه إن كان ذا قَلبٍ ذَكيٍّ يَستخرِجُ المعانيَ بتدَبُّرِه وفِكرِه فذاك، وإلَّا فلا بُدَّ أن يكونَ مُستَمِعًا مُصْغيًا إلى كلامِ المُنذِرِ؛ لِيَحصُلَ له التَّذكيرُ[٢]. وذلك على القولِ بأنَّ الصِّفاتِ المذكورةَ لِصِنفينِ مِن النَّاسِ.

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ فيه أنَّ مَن ألقَى سَمْعَه إلى آياتِ اللهِ، واستمَعَها استِماعًا يَسترشِدُ به، وقَلبُه شَهيدٌ حاضِرٌ؛ فهذا له ذِكرى ومَوعِظةٌ، وشِفاءٌ وهُدًى[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ لو شاء اللهُ لَكان ذلك في أقَلَّ مِن لَمحِ البَصَرِ، ولكِنَّه سَنَّ لنا التَّأنِّيَ بذلك[٤]، فهو سبحانه يُعَلِّمُ عِبادَه التَّأنِّيَ في الأمورِ؛ وألَّا يأخُذوا الأمورَ بسرعةٍ؛ لأنَّ المهمَّ هو الإتقانُ، وليس الإعجالَ والإسراعَ، وأيضًا فإنَّه سبحانَه يَخْلُقُ الأشياءَ بأسبابٍ ومقدِّماتٍ تَتكاملُ شيئًا فشيئًا حتَّى تتِمَّ، كما لو شاء لَخَلَقَ الجَنينَ في بطنِ أُمِّه في لحظةٍ، لكنَّه يخْلُقُه أطوارًا حتَّى يَتكاملَ،

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٧).

كذلك السَّمواتُ: لو شاء لَخَلَق السَّمواتِ والأرضَ وما بيْنَهما في لحظةٍ؛ ولكنَّه عزَّ وجلَّ يَخْلُقُ الأشياءَ تتكاملُ شيئًا فشيئًا(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ فَضيلةُ التَّسبيحِ والذِّكرِ في هذَينِ الوَقتَينِ(٢). فيُشرَعُ الذِّكرُ بعدَ صَلاةِ الفَجرِ إلى أن تَطلُعَ الشَّمسُ، وبعدَ العصرِ حتَّى تَغرُبَ الشَّمسُ، وهذانِ الوقتانِ -أي: وقتُ الفَجرِ ووقتُ العصرِ- هما أفضَلُ أوقاتِ النَّهارِ للذِّكْرِ؛ ولهذا أمَرَ اللهُ تعالى بذِكْرِه فيهما في مَواضِعَ مِن القرآنِ، كقَولِه: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وقولِه: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥]، وقولِه: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقولِه: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]، وقولِه: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]، وقولِه: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقولِه: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقولِه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾(٣) [طه: ١٣٠].

٩- قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾، قولُه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ مِنَ الذَّمِّ لك، والتَّكذيبِ بما جِئتَ به، واشتَغِلْ عنهم بطاعةِ رَبِّك وتَسبيحِه؛ فإنَّ ذِكرَ اللهِ تعالى مُسَلٍّ للنَّفسِ، مُؤْنِسٌ لها، مُهَوِّنٌ للصَّبرِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أمْرُه له بالتَّسبيح بعدَ أمْرِه له بالصَّبرِ على أذى الكُفَّارِ: فيه دليلٌ على أنَّ التَّسبيحَ يُعينُه اللهُ به على الصَّبرِ المأمورِ به، والصَّلاةُ داخِلةٌ في التَّسبيحِ المذكورِ[١]؛ فإنَّ الصَّلاةَ أعظَمُ ترياقٍ للنَّصرِ، وإزالةِ الهَمِّ؛ ولهذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا حَزَبه[٢] أمرٌ صلَّى[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمَرَه اللهُ تعالى أن يَصبِرَ على ما يَقولونَ، والصَّبرُ على ما يَقولونَ يتضَمَّنُ شَيئَينِ:

الأوَّلُ: عَدَمُ التَّضَجُّرِ مِمَّا يقولُ هؤلاء، وأن يتحَمَّلَ ما يقولُه أعداؤُه فيه وفيما جاء به.

والثَّاني: أن يَمضِيَ في الدَّعوةِ إلى اللهِ، وألَّا يَتقاعَسَ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ جَمَع سُبحانَه بيْنَ السَّمعِ والعَقلِ، وأقام بهما حُجَّتَه على عِبادِه؛ فلا يَنفَكُّ أحَدُهما عن صاحِبِه أصلًا؛ فالكِتابُ المُنزَّلُ والعَقلُ المُدرِكُ حُجَّةُ اللهِ على خَلْقِه، وكِتابُه هو الحُجَّةُ العُظمى؛ فهو الَّذي عَرَّفَنا ما لم يكُنْ لِعُقولِنا سَبيلٌ إلى

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٢).

(٢) حَزَبه أمرٌ: أي: نَزَل به مُهِمٌّ، أو أصابه غَمٌّ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٠).

والحديث أخرجه أبو داودَ (١٣١٩)، وأحمدُ (٢٣٢٩٩) من حديثِ حُذَيْفةَ رضيَ اللهُ عنه. حسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٣/ ٢٠٥)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ١١٠)، وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١١).

استقلالِها بإدراكِه أبدًا، فليس لأحدٍ عنه مَذهَبٌ، ولا إلى غَيرِه مَفزَعٌ في مَجهولٍ يَعلَمُه، ومُشكِلٍ يَستَبينُه، ومُلتَبِسٍ يُوضِّحُه؛ فمَن ذهَب عنه فإليه يَرجِعُ، ومَن دَفَع حُكمَه فبه يُحاجُّ خَصيمَه؛ إذ كان بالحقيقةِ هو المُرشِدَ إلى الطُّرُقِ العَقليَّةِ والمعارِفِ اليَقينيَّةِ الَّتي بالعبادِ إليها أعظَمُ حاجةٍ، فمَن رَدَّ مِن مُدَّعي البَحثِ والنَّظَرِ حُكومتَه، ودفَعَ قَضيَّتَه؛ فقد كابَرَ وعانَدَ، ولم يكُنْ لأحدٍ سَبيلٌ إلى إفهامِه ولا مُحاجَّتِه، ولا تقريرِ الصَّوابِ عِندَه، وليس لأحَدٍ أن يقولَ: إنِّي غيرُ راضٍ بحُكمِه بل بحُكمِ العَقلِ؛ فإنَّه متى رَدَّ حُكمَه فقد رَدَّ حُكمَ العَقلِ الصَّريحِ، وعانَدَ الكِتابَ والعَقلَ[(١)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ مَن يُؤتَى الحِكمةَ ويَنتَفِعُ بالعِلمِ على مَنزِلتَينِ: إمَّا رجُلٌ رأى الحَقَّ بنَفْسِه، فقَبِلَه واتَّبَعه ولم يحتَجْ إلى مَن يدعوه إليه؛ فذلك صاحِبُ القَلبِ، أو رجُلٌ لم يَعقِلْه بنَفْسِه، بل هو محتاجٌ إلى مَن يُعَلِّمُه ويُبَيِّنُ له ويَعِظُه ويُؤَدِّبُه؛ فهذا أصغَى فألقَى السَّمعَ وهو شَهيدٌ، أي: حاضِرُ القَلبِ ليس بغائِبِه[(٢)]. وذلك على القولِ بأنَّ الصِّفاتِ المذكورةَ لِصِنفَينِ مِن النَّاسِ.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أنَّ العَقلَ في القَلبِ، وعُبِّرَ عنه بالقَلبِ؛ لأنَّه مَحَلُّ استِقرارِه[(٣)].

٤- يَمتَنِعُ تعارُضُ الأدِلَّةِ القَطعيَّةِ؛ فلا يَجوزُ أن يَتعارَضَ دليلانِ قَطعيَّانِ، سَواءٌ كانَا عقليَّينِ، أو سَمعيَّينِ، أو كان أحدُهما عَقليًّا والآخَرُ سَمعيًّا، فإنَّها

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٥٨، ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٢٩).

مُتوافِقةٌ مُتناصِرةٌ مُتعاضِدةٌ؛ فالعَقلُ يدُلُّ على صِحَّةِ السَّمْعِ، والسَّمْعُ يُبيِّنُ صِحَّةَ العَقلِ، وأنَّ مَن سَلَك أحَدَهما أفضى به إلى الآخَرِ، وأنَّ الَّذين يَستَحِقُّونَ العَذابَ هم الَّذين لا يَسمَعونَ ولا يَعقِلونَ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ - ١٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ فقد بيَّن القُرآنُ أنَّ مَن كان يَعقِلُ أو كان يَسمَعُ فإنَّه يكونُ ناجيًا وسَعيدًا، ويكونُ مُؤمِنًا بما جاءت به الرُّسُلُ(١).

٥- قال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أنَّ الَّذي بيْنَ السَّماءِ والأرضِ مخلوقاتٌ عظيمةٌ، يدُلُّ على عِظَمِها أنَّ اللهَ جعَلَها عديلةً لِخَلْقِ السَّمواتِ وخَلْقِ الأرضِ؛ فهي مخلوقاتٌ عظيمةٌ(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ نَفيُ مَسِّ اللُّغوبِ الَّذي هو التَّعَبُ والإعياءُ؛ فدلَّ على كَمالِ القُدرةِ، ونِهايةِ القُوَّةِ، بخِلافِ المَخلوقِ الَّذي يَلحَقُه مِن التَّعَبِ والكَلالِ ما يَلحَقُه(٣).

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٠).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣٦).

﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ فيه تقريرُ المَعادِ؛ لأنَّ مَن قَدَر على خَلق السَّمَوات والأرضِ ولم يَعْيَ بخَلْقِهنَّ: قادِرٌ على أن يُحييَ الموتَى بطَريقِ الأَوْلَى والأَحْرَى[(١)].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ استُدِلَّ به على وُجوبِ التَّسبيحِ في الصَّلاةِ؛ فإنَّه أمرٌ بالصَّلاةِ كلِّها، كما ثَبَتَ في الصَّحيحَينِ عن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ البَجَليِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا عندَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فنَظَرَ إلى القَمَرِ لَيلةَ -يعني البَدر-، فقال: إنَّكم ستَرَونَ ربَّكم كما تَرَونَ هذا القَمَرَ لا تُضامونَ في رؤيتِه، فإنِ استطعتُم ألَّا تُغلَبوا على صلاةٍ قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غروبِها فافعَلوا. ثمَّ قرأ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾))[(٢)]، وإذا كان اللهُ عزَّ وجلَّ قد سمَّى الصَّلاةَ تسبيحًا فقد دَلَّ ذلك على وُجوبِ التَّسبيحِ، كما أنَّه لَمَّا سمَّاها قيامًا في قَولِه تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل: ٢] دلَّ على وُجوبِ القيامِ، وكذلك لَمَّا سَمَّاها قُرآنًا في قَولِه تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [الإسراء: ٧٨] دلَّ على وُجوبِ القرآنِ فيها، ولَمَّا سَمَّاها رُكوعًا وسُجودًا في مواضِعَ دلَّ على وُجوبِ الرُّكوعِ والسُّجودِ فيها؛ وذلك أنَّ تَسميتَها بهذه الأفعالِ دَليلٌ على أنَّ هذه الأفعالَ لازِمةٌ لها، فإذا وُجِدَت هذه الأفعالُ فتكونُ مِن الأبعاضِ اللَّازمةِ، كما أنَّهم يُسمُّونَ الإنسانَ بأبعاضِه اللَّازمةِ له، فيُسمُّونَه رَقَبةً، ورَأسًا، ووَجهًا، ونحوَ ذلك، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ [النساء: ٩٢]، ولو جاز وُجودُ الصَّلاةِ بدونِ التَّسبيحِ لَكان الأمرُ بالتَّسبيحِ لا يَصلُحُ أنْ يكونَ أمرًا بالصَّلاةِ؛ فإنَّ اللَّفظَ حينَئذٍ لا يكونُ دالًّا على معناه، ولا على ما يَستلزِمُ معناه[(٣)]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٥٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٦٣٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٥٠). =

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾ انتِقالٌ مِن الاستِدلالِ إلى التَّهديدِ. وهو معطوفٌ على ما قَبْلَه، وهذا العطفُ انتقالٌ إلى الموعظةِ بما حَلَّ بالأممِ المُكذِّبةِ بعْدَ الاستِدلالِ على إمكانِ البَعثِ بقولِه: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡ﴾ [ق: ٤]، وما فُرِّعَ عليه مِن قولِه: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥]. وفي هذا العَطفِ الوعيدُ الَّذي أُجمِلَ في قَولِه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ إلى قولِه: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢، ١٤]؛ فالوعيدُ الَّذي حَقَّ عليهم هو الاستِئصالُ في الدُّنيا، وهو مَضمونُ قَولِه: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾(١). أوِ الواوُ استِئنافيةٌ، والكلامُ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لذِكرِ إهلاكِ قرونٍ ماضيةٍ(٢).

- والخبَرُ الَّذي أفادَهُ قولُه: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ تَعريضٌ بالتَّهديدِ، وتَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٣).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هاهنا: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم﴾، وقال في سُورةِ (ص): ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم﴾ [ص: ٣]؛ فحذَفَ الجارَّ هنا؛ وذلك يدُلُّ على أنَّ كُلَّ مَن كان قبْلَ قُريشٍ كانوا أقْوى منهم، وإثباتُه في (ص)

= ووُجوبُ التَّسبيحِ في الرُّكوعِ والسُّجودِ هو مذهبُ الحنابلةِ، بيْنَما مذهبُ الجمهورِ مِن الحنفيَّةِ والمالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ أنَّه مستحَبٌّ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزيلعي (١/ ١٠٧)، ((التاج والإكليل)) للموَّاق (١/ ٥٣٨)، ((نهاية المحتاج)) للرملي (١/ ٤٩٩)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٢).

يدُلُّ على أنَّ المذكورينَ بالإهلاكِ هناك -مع الاتِّصافِ بالنِّداءِ المذكورِ في قولِه: ﴿فَنَادَواْ﴾ [ص: ٣]- بَعضُ المُهْلَكينَ، لا كلُّهم(١).

- وضَميرَا ﴿قَبْلَهُم﴾ و﴿مِنْهُم﴾ عائدانِ إلى مَعلومٍ مِن المَقامِ، غيرِ مَذكورٍ في الكلامِ(٢).

- وفي قَولِه: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ دخَلَت الفاءُ للتَّسبيبِ عن قولِه: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾، أي: شِدَّةُ بَطشِهم أبطَرَتْهم وأقدرَتْهم على التَّنقيبِ وقُوَّتْهم عليه. والجُملةُ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ إلى آخِرِه، وجُملةِ ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾. وقيلَ: هيَ عاطفةٌ في المَعنى، كأنَّه قيلَ: اشتدَّ بطشُهم فنقَّبُوا. ويجوزُ أنْ يُرادَ: فنقَّبَ أهلُ مكَّةَ في أسفارِهم ومَسايرِهم في بلادِ القرونِ؛ فالفاءُ على هذا للتَّعقيبِ، وفيه الْتِفاتٌ(٣)؟!

- وجُملةُ ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، أي: إهلاكًا لا مَنْجى منه. ويجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُستأنَفةً؛ فالاستِفهامُ إنكاريٌّ بمَعنى النَّفيِ؛ ولذلك دخَلَت (مِن) على الاسمِ الَّذي بعْدَ الاستِفهامِ، كما يُقالُ: ما مِن مَحيصٍ. ويجوزُ أنْ تكونَ على إضمارِ قَولٍ هو حالٌ مِن واوِ (نقَّبوا)؛ أي: فنقَّبوا في البِلادِ قائلينَ: هلْ مِن مَحيصٍ؟ أو على إجراءِ التَّنقيبِ -لِما فيه من مَعنى التَّتبُّعِ والتَّفتيشِ- مُجْرى القولِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٠، ٣٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ قيل: المُرادُ: قلْبٌ مَوصوفٌ بالوعْيِ، أي: لِمَن كان له قلْبٌ واعٍ، يُقالُ: لِفُلانٍ مالٌ، أي: كثيرٌ؛ فالتَّنكيرُ يدُلُّ على معنًى في التَّعظيمِ والكَمالِ، والمعنى: لِمَن كان له قلبٌ ذَكيٌّ واعٍ يَستخرِجُ بذَكائِه، أو لِمَن ألْقَى السَّمْعَ إلى المُنذِرِ فيتذكَّرُ.

وقيل: هو لبَيانِ وُضوحِ الأمْرِ بعْدَ الذِّكرِ، وأنْ لا خَفاءَ فيه لِمَن كان له قلْبٌ ما ولو كان غيرَ كاملٍ، كما يُقالُ: أعْطِه شيئًا ولو كان دِرهمًا، ونقولُ: الجنَّةُ لِمَن عمِلَ خَيرًا ولو حَسنةً، فكأنَّه تعالى قال: إنَّ في ذلك لَذِكرى لِمَن يصِحُّ أنْ يُقالَ: له قلْبٌ، وحينَئذٍ فمَن لا يَتذكَّرُ لا قلْبَ له أصلًا، كما في قَولِه تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨]؛ حيثُ لم تكُنْ آذانُهم وألْسِنَتُهم وأعيُنُهم مُفيدةً لِمَا يُطلَبُ منها، كذلك مَن لا يَتذكَّرُ كأنَّه لا قلْبَ له[١].

- قولُه: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ شَبَّهَ توجيهَ السَّمعِ لتلك الأخبارِ دونَ اشتِغالٍ بغيرِها بإلقاءِ الشَّيءِ لِمَن أخَذَه[٢].

- وإلقاءُ السَّمعِ: مُعبَّرٌ به عن شِدَّةِ الإصغاءِ للقُرآنِ ومواعظِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كأنَّ أسماعَهم طُرِحَتْ في ذلك، فلا يَشغَلُها شَيءٌ آخَرُ تَسمَعُه[٣]. وقيل: إنَّما قال: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾، ولم يقلْ: استمَعَ؛ لأنَّ إلقاءَ السَّمْعِ، أي: يُرسِلُ سَمْعَه، ولا يُمسِكُه وإنْ لم يقصِدِ السَّماعَ، أي: تَحصُلُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الذِّكرى لِمَن له سَمْعٌ، وهو تَعريضٌ بتَمثيلِ المشركينَ بمَن ليس له قلبٌ، وبمَن لا يُلقي سَمْعَه[١].

- وقد جِيءَ بهذه الجُملةِ الحاليَّةِ؛ للإشارةِ إلى اقتِرانِ مَضمونِها بمَضمونِ عاملِها، بحيثُ يكونُ صاحبُ الحالِ مُلقيًا سمْعَه وهو شَهيدٌ، وهذه حالةُ المؤمنِ؛ ففي الكلامِ تنْويهٌ بشأنِ المؤمنينَ، وتعريضٌ بالمشركين بأنَّهم بُعَداءُ عن الانتِفاعِ بالذِّكرياتِ والعِبَرِ[٢].

- وقد تَضمَّنتْ هذه الآيةُ تقسيمًا وترديدًا بيْنَ قِسمينِ؛ أحدُهما: مَن كان له قلبٌ. والثَّاني: مَن ألْقَى السَّمعَ وحضَرَ بقَلبِه ولم يَغِبْ، فهو حاضرُ القلبِ شاهِدُه لا غائبُه، وهذا -واللهُ أعلمُ- سِرُّ الإتيانِ بـ(أو) دونَ الواوِ؛ لأنَّ المنتفِعَ بالآياتِ مِن النَّاسِ نَوعانِ؛ أحدُهما: ذو القلبِ الواعِي الزَّكيِّ الَّذي يَكتفي بهدايتِه بأدْنَى تنبيهٍ، ولا يَحتاجُ إلى أنْ يَستَجلِبَ قَلبَه ويُحضِرَه ويَجمَعَه من مَواضِعِ شَتاتِه، بل قَلبُه واعٍ، ذَكيٌّ، قابِلٌ للهُدَى، غَيرُ مُعرِضٍ عنه؛ فهذا لا يَحتاجُ إلَّا إلى وُصولِ الهُدى إليه فقط؛ لكَمالِ استِعدادِه، وصِحَّةِ فِطرَتِه، فإذا جاءَه الهُدى سارَعَ قَلبُه إلى قَبولِه، كأنَّه كان مَكتوبًا فيه، فهو قد أدرَكَه مُجمَلًا، ثمَّ جاء الهُدَى بتَفصيلِ ما شَهِدَ قَلبُه بصِحَّتِه مُجمَلًا، وهذه حالُ أكمَلِ الخَلقِ استِجابةً لِدَعوةِ الرُّسُلِ، كما هي حالُ الصِّدِّيقِ الأكبَرِ رَضيَ اللهُ عنه. والنَّوعُ الثَّاني: مَن ليس له هذا الاستِعدادُ والقَبولُ، فإذا وَرَدَ عليه الهُدَى أصْغَى إليه بسَمعِه، وأحضَرَ قَلبَه، وجَمَعَ فِكرَتَه عليه، وعَلِمَ صِحَّتَه وحُسنَه بنَظَرِه واستِدلالِه، وهذه طَريقةُ أكثَرِ المُستَجيبينَ، ولهم نُوِّعَ ضَرْبُ الأمثالِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وإقامةُ الحُجَجِ، وذِكْرُ المُعارَضاتِ والأجوِبةِ عنها، والأوَّلونَ هِمُ الَّذين يُدْعَوْنَ بالحِكمةِ، وهؤلاء يُدعَوْنَ بالمَوعظةِ الحَسَنةِ؛ فهؤلاء نَوْعا المُستَجيبينَ. وأمَّا المُعارِضونَ المُدَّعونَ لِلحَقِّ فنوعانِ؛ نَوعٌ يُدْعَوْنَ بالمُجادَلةِ بالَّتي هي أحسَنُ، فإنِ استَجابوا، وإلَّا فبالمُجالَدةِ[1]. وذلك على القَولِ بأنَّ الصِّفاتِ المذكورةَ لِصِنفَينِ مِن النَّاسِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تكملةٌ لِمَا وُصِفَ مِن خلْقِ السَّمواتِ في قَولِه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ إلى قولِه: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٦، ٧]؛ لِيُتوصَّلَ به إلى قولِه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ إبطالًا لِمَقالةِ اليهودِ، والجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُملةِ الَّتي قبْلَها عطْفَ القصَّةِ على القصَّةِ، وقَعتْ مُعترِضةً بيْنَ الكلامِ السَّابقِ وبيْنَ ما فُرِّعَ عنه مِن قَولِه: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[2] [ق: ٣٩].

- والواوُ في قَولِه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ واوُ الحالِ؛ لأنَّ لِمَعنى الحالِ هنا مَوقعًا عظيمًا مِن تَقْييدِ ذلك الخَلْقِ العظيمِ في تلك المُدَّةِ القصيرةِ بأنَّه لا يَنصَبُ خالقُه؛ لأنَّ الغرَضَ مِن مُعظَمِ هذه السُّورةِ بيانُ إمكانِ البَعثِ؛ إذ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧١).

ثم قال ابن القيِّم: (ومَن تأمَّلَ دعوةَ القرآنِ وجَدَها شاملةً لهؤلاء الأقسام، مُتناولةً لها كلِّها؛ كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ فهؤلاء المَدْعُوُّونَ بالكلامِ، وأمَّا أهلُ الجِلادِ فهم الَّذين أمَرَ اللهُ بقتالِهم حتَّى لا تَكونَ فِتنةٌ ويَكونَ الدِّينُ كلُّه لله).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٦).

أحالَه المشركون بما يَرجِعُ إلى ضِيقِ القُدرةِ الإلهيَّةِ عن إيقاعِه؛ فكانتْ هذه الآياتُ كُلُّها مُشتمِلةً على إبرازِ معنى سَعةِ القُدْرةِ الإلهيَّة(١).

- وحقيقةُ المَسِّ: اللَّمسُ، أي: وضْعُ اليَدِ على شَيءٍ وَضعًا غيرَ شديدٍ، بخِلافِ الدَّفعِ واللَّطمِ، فعبَّرَ عن نَفْيِ أقلِّ الإصابةِ بنَفيِ المَسِّ؛ لنَفيِ أضعَفِ أحوالِ الإصابةِ؛ فنفْيُ قوَّةِ الإصابةِ وتمَكُّنِها أحْرَى(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾

- قولُه: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ تَفْريعٌ على ما تقدَّمَ كُلِّه مِن قولِه: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ﴾ [ق: ٢] الآياتِ، ومُناسَبةُ وُقوعِه هذا المَوقعَ ما تضَمَّنه قولُه: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ [ق: ٣٦] الآيةَ، مِن التَّعريضِ بتَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: فاصبرْ على ما يقولُ المُشرِكون من التَّكذيبِ بما أخبَرْتَهم مِن البَعثِ وبالرِّسالةِ، وقد جمَعَ ذلك كُلَّه المَوصولُ، وهو ﴿مَا يَقُولُونَ﴾، أي: الَّذي يَقولون(٣).

- وقال في الأُولى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿فَسَبِّحۡهُ﴾؛ فقيل: الأمرُ في المَوضِعَينِ واحِدٌ، على تقديرِ: سَبِّحِ اللهَ مُقترِنًا بحَمدِ ربِّك؛ وذلك لأنَّ (سَبِّحِ اللهَ) كقَولِ القائلِ: (فسَبِّحْه)، غيرَ أنَّ المفعولَ لم يُذكَرْ أوَّلًا؛ لدَلالةِ قَولِه تعالى: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ عليه، وثانيًا؛ لِدَلالةِ ما سَبَق عليه لم يَذكُرْ (بحَمدِ ربِّك).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٢٥، ٣٢٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٢٦).

وقيل: على القَولِ بأنَّ (سَبِّحْ) بمعنى: صَلِّ، يكونُ الأوَّلُ أمرًا بالصَّلاةِ، والثَّاني أمرًا بالتَّنزيهِ، أي: وصَلِّ بحَمدِ رَبِّك في الوَقتِ، وباللَّيلِ نَزِّهْه عمَّا لا يَليقُ، وحينَئذٍ يكونُ هذا إشارةً إلى العَمَلِ والذِّكرِ والفِكرِ؛ فقَولُه (سَبِّحْ) إشارةٌ إلى خَيرِ الأعمالِ، وهو الصَّلاةُ، وقَولُه: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إشارةٌ إلى الذِّكرِ، وقَولُه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ إشارةٌ إلى الفِكرِ حينَ هُدوءِ الأصواتِ، وصَفاءِ الباطِنِ، أي: نَزِّهْه عن كُلِّ سُوءٍ بفِكْرِك[1].

- قولُه: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ عطْفٌ على ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ فهو مِن تَمامِ التَّفريعِ. ولعلَّ وجْهَ هذا العَطفِ أنَّ المشركين كانوا يَسْتهزِئونَ بالنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ إذا قاموا إلى الصَّلاةِ[2].

- قولُه: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾، أي: صَلِّ، فنُزِّلَ فِعلُ التَّسبيحِ مَنزِلةَ اللَّازِمِ، وهو الصَّلاةُ[3]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَسَبِّحۡهُ﴾ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ على أنْ يكونَ الوقتُ في قَولِه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ تأكيدًا للأمرِ؛ لإفادةِ الوُجوبِ، فيُجعَلَ التَّفريعُ اعتِراضًا بيْنَ الظُّروفِ المتعاطِفةِ[4].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هنا: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾، وقال في سُورةِ (طه): ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، فوقَعَ في سُورةِ (طه): ﴿وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا﴾، وفي

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٢٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٢٨).

هذه: ﴿وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾؛ وذلك لأنَّ فَواصِلَ أكثرِ الآياتِ في سُورةِ (طه) أواخِرُها ألِفٌ؛ فعُدِلَ إلى ﴿غُرُوبِهَا﴾، وهو الأصلُ؛ لأنَّ الطُّلوعَ مُضافٌ إلى الشَّمسِ، وحقُّ الغُروبِ أنْ يكونَ مُضافًا إلى ضَميرِها، وضَميرُها بعْدَها ألِفٌ. وأمَّا سُورةُ (ق) فإنَّ فَواصِلَها مُردَفةٌ بواوٍ أو ياءٍ؛ كالسُّجودِ، والخُلودِ، والقَعيدِ، والعَتيدِ، والمَريجِ. والغُروبُ متى ذُكِرَ عُلِمَ أنه أُرِيدَ به غُروبُها، فكان ذلك أشبَهَ بالفواصلِ الَّتي تَقدَّمَتْها في المكانَينِ؛ فلذلك اختَلَفا(١). واللهُ أعلَمُ.



(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٠٢، ١٢٠٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٩)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٨).

الآيات (٤١-٤٥)

﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٤١ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ٤٢ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ٤٣ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ٤٤ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سِرَاعٗا﴾: جَمعُ سَريعٍ، أي: مُسرِعينَ في الخُروجِ إلى محَلِّ الحِسابِ، وأصلُ (سرع): يدُلُّ على خِلافِ البُطءِ[1].

﴿بِجَبَّارٖ﴾: أي: بمُسَلَّطٍ تُجبِرُهم على الإسلامِ؛ مِن: جَبَرَه على الأمرِ، بمعنى: أكرَهَه، وأصلُ (جبر): يدُلُّ على العَظَمةِ والعُلُوِّ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مبيِّنًا بعضَ أهوالِ يومِ القيامةِ: واستَمِعْ -يا محمَّدُ- حينَ يُنادي المَلَكُ النَّاسَ مِن مَوضِعٍ قَريبٍ؛ يومَ يَسمَعُ الخَلقُ صَيحةَ البَعثِ بالحَقِّ، ذلك اليَومُ هو يَومُ خُروجِ النَّاسِ أحياءً مِن قُبورِهم للحَشرِ والحِسابِ.

ثمَّ يبيِّنُ كمالَ قدرتِه تعالى، فيقولُ: إنَّا نحن نُحيي الموتى، ونُميتُ الأحياءَ بقُدرتِنا، وإلينا مَرجِعُ الخَلائِقِ يومَ القيامةِ؛ يومَ تتصَدَّعُ الأرضُ عن الأمواتِ،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٣).

فيَخرُجونَ مِن قُبورِهم أحياءً مُسرِعينَ إلى أرضِ المَحشَرِ، ذلك الحشَرُ سَهلٌ وهَيِّنٌ علينا.

ثمَّ يقولُ تعالى مُسلِّيًا نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: نحن أعلَمُ بما يَقولُ الكُفَّارُ، وما أنت بمُسَلَّطٍ عليهم -يا محمَّدُ- فتُجبِرَهم على اتِّباعِ الحَقِّ، وإنَّما عليك البَلاغُ، فذكِّرْ بالقُرآنِ مَن يخافُ عذابي الَّذي توعَّدْتُ به مَن عَصاني.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾.

أي: واستَمِعْ -يا محمَّدُ- حينَ يُنادي المَلَكُ الموكَّلُ بالصُّوْرِ النَّاسَ مِن مَوضِعٍ قَريبٍ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٠).
ممَّن ذهب إلى أنَّه أمرٌ بالاستِماعِ، وأنَّ المعنى: واستَمِعْ لِما أُخبِرُك به مِن حالِ يومِ القيامةِ وأهوالِها: الزمخشريُّ، وابن الجوزي، والنسفي، والخازن، وأبو حيان، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٤).
ونسَبَ ابنُ عاشور حمْلَ الاستماعِ على حقيقتِه إلى الجمهورِ. ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٩).
وممَّن ذهب إلى أنَّ معنى قَولِه: ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ أي: انتَظِرْ: ابنُ عطيَّة، والرَّازيُّ، وابن جُزَي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٢).
واستبعَدَه السَّمينُ الحلبيُّ، وابنُ عادل. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥١).
قال الماتُريدي: (﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، وانتَظِرْ ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾، ولا تُكافِئْهم، ولا تنتَقِمْ منهم، ولكِنِ اصبِرْ وانتَظِرْ ذلك اليَومَ). ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٣٦٩). =

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ﴾.

أي: وذلك يومَ يَسمَعُ الخَلقُ صَيحةَ البَعثِ بالحَقِّ(١).

= وقد ذكر كثيرٌ مِن المفسِّرينَ أنَّ المناديَ: إسرافيلُ، وأنَّ المكانَ القَريبَ: صَخرةُ بَيتِ المقدِسِ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٠).

قال السمعاني: (القَولُ المعروفُ أنَّه إسرافيلُ عليه السَّلامُ يُنادي النَّاسَ على صَخرةِ بيت المَقدِسِ، فيقولُ: أيَّتُها العِظامُ الباليةُ، والجُلودُ المُتمَزِّقةُ، والأجسادُ المتفَرِّقةُ، والأوصالُ المتقَطِّعةُ، ارجِعي إلى رَبِّك. وقيل بلَفظٍ آخَرَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٨).

وقال ابنُ عطية: (هذا الخبَرُ إن كان بوَحيٍ وإلَّا فلا سَبيلَ للوُقوفِ على صِحَّتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٠).

وقال ابن عاشور: (وعندي أنَّ هذه الآياتِ مِن قولِه: ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ ﴾ إلى قولِه: ﴿ الْمَصِيرُ ﴾ هي معَ ما تُفيدُه مِن تسليةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم تُبَشِّرُ بطريقةِ التَّوجيهِ البَديعيِّ إلى تهديدِ المشركينَ بعذابٍ يَحلُّ بهم في الدُّنيا عَقِب نِداءٍ يُفزِعُهم فيَلْقَوْنَ إثْرَه حَتْفَهم، وهو عذابُ يَومِ بدرٍ، فخُوطِبَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بترَقُّبِ يَومٍ يُناديهم فيه مُنادٍ إلى الخُروجِ، وهو نِداءُ الصَّريخِ الَّذي صرَخ بأبي جهلٍ ومَن معَه بمكَّةَ بأنَّ عِيرَ قُرَيشٍ وفيها أبو سُفْيانَ قد لَقِيَها المسلمونَ بِبَدْرٍ... فالمكانُ القريبُ هو بطنُ الوادي؛ فإنَّه قَريبٌ مِن مَكَّةَ. والخروجُ: خروجُهم لبَدْرٍ، وتكونُ جملةُ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ﴾ وعيدًا بأنَّ اللهَ يُميتُ سادَتَهم، وأنَّه يُبْقي مَن قَدَّر إسلامَه فيما بعدُ؛ فهو يُحْييه إلى يومِ أجَلِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

وقَولُه تعالى: ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ قيل: معناه: أنَّها كائِنةٌ وواقِعةٌ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٩).

وقيل: معنى ﴿ بِالْحَقِّ ﴾: بالأمرِ بالإجابةِ لله إلى مَوقِفِ الحِسابِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦). ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٦٥).

وقيل: معنى ﴿ بِالْحَقِّ ﴾: أي: بالبَعثِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، وابن الجوزي، والبيضاوي، =

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾.

أي: ذلك اليَومُ هو اليَومُ الَّذي يَخرُجُ فيه النَّاسُ أحياءً مِن قُبورِهم للحَشرِ والحِسابِ(١).

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾.

أي: إنَّا نحن نُحيي الموتَى، ونُميتُ الأحياءَ بقُدرتِنا(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢].

﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي: وإلينا مَرجِعُ جَميعِ الخَلقِ يومَ القيامةِ، فنُحاسِبُهم ونُجازيهم بحَسَبِ أعمالِهم(٣).

= والنسفي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٩٤).

وقال ابن عاشور: (﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بمعنَى: بالصِّدْقِ، وهو هنا الحشرُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣١).

وقال البقاعي: (﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: الأمرِ الثَّابتِ الَّذي كانوا يُسَمُّونَه سِحرًا، ويَعُدُّونَه خَيالًا، فيَعلَمونَ حينَئذٍ أنَّ الواقعَ قد يُطابِقُه، فكان حقًّا؛ فإنَّه قد طابَقه الواقِعُ، فكان الإخبارُ به صِدقًا). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٤١). ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٣٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١١)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨].

﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ٤٤﴾.

﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗا﴾.

أي: يومَ تتصَدَّعُ الأرضُ عن الأمواتِ، فيَخرُجونَ مِن قُبورِهم أحياءً، وهم مُسرِعونَ إلى أرضِ المَحشَرِ[1].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ [الانفطار: ٤].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((النَّاسُ يَصعَقونَ[2] ....

= عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٣).

قال ابنُ جرير: (يقولُ جَلَّ ثناؤه: وإلينا مَصيرُهم يومَ تشَقَّقُ الأرضُ؛ فاليَومُ مِن صِلةِ «مَصيرُ»). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٠).

وقال ابنُ كثير: (وذلك أنَّ اللهَ تعالى يُنَزِّلُ مطَرًا مِنَ السَّماءِ تَنبُتُ به أجسادُ الخلائِقِ في قُبورِها كما يَنبُتُ الحَبُّ في الثَّرى بالماءِ، فإذا تكامَلَت الأجسادُ أمَرَ اللهُ إسرافيلَ فيَنفُخُ في الصُّورِ... فإذا نَفَخ إسرافيلُ فيه خرَجَت الأرواحُ تتوهَّجُ بيْنَ السَّماءِ والأرضِ... فترجِعُ كُلُّ رُوحٍ إلى جَسَدِها... وتنشَقُّ الأرضُ عنهم، فيَقومونَ إلى مَوقِفِ الحِسابِ سِراعًا مُبادِرينَ إلى أمرِ اللهِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١١).

(٢) يَصْعَقونَ: مِنْ صَعِقَ الرَّجُلُ: إذا أصابَه فَزَعٌ فأُغمِيَ عليه، ورُبَّما مات منه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٤/ ٢٣٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٤٤).

يومَ القيامةِ، فأكونُ أوَّلَ مَن تَنشَقُّ عنه الأرضُ))[١].

﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

أي: جمْعُ النَّاسِ في أرضِ المَحشَرِ يومَ القيامةِ شَأنٌ سَهلٌ وهَيِّنٌ علينا، لا تَعَبَ فيه ولا مَشقَّةَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها تَسليةٌ لقَلبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُؤمِنينَ، وتَحريضٌ لهم على ما أُمِرَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الصَّبرِ والتَّسبيحِ، أي: اشتَغِلْ بما قُلْناه، ولا تَشغَلْك الشَّكوى إلينا؛ فإنَّا نَعلَمُ أقوالَهم، ونرَى أعمالَهم[٣].

وأيضًا فهذه الآيةُ تَقريرٌ للحَشرِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّ الحَشرَ عليه يَسيرٌ؛ لكَمالِ قُدرتِه، ونُفوذِ إرادتِه، ولكِنَّ تَمامَ ذلك بالعِلمِ الشَّامِلِ، حتَّى يُمَيِّزَ بينَ جُزءِ بَدَنَينِ: جُزءِ بَدَنِ زَيدٍ، وجُزءِ بَدَنِ عَمرٍو؛ فقال: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾؛ لكَمالِ قُدرتِنا، ولا يَخفى علينا الأجزاءُ؛ لِمَكانِ عِلْمِنا[٤].

---

(١) رواه البخاري (٢٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وأيضًا لَمَّا أقام اللهُ سُبحانَه الأدِلَّةَ على تمامِ قُدرتِه وشُمولِ عِلْمِه، وخَتَم بسُهولتِه عليه واختِصاصِه به؛ وَصَل -تَسليةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بتَهديدِهم على تَكذيبِهم بالعِلمِ الَّذي هو أعظَمُ التَّهديدِ[1].

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾.

أي: نحن أعلَمُ بما يَقولُه الكُفَّارُ مِنَ الكَذِبِ والافتراءِ على اللهِ، والتَّكذيبِ بآياتِه ورُسُلِه، والإنكارِ لقُدرتِه على بَعثِ عِبادِه[2].

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ ﴾.

أي: وما أنت بمُسَلَّطٍ عليهم -يا محمَّدُ- فتُجبِرَهم على اتِّباعِ الحَقِّ، وتَقهَرَهم على الانقيادِ إليه، وإنَّما عليك البَلاغُ[3].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

قال ابن عاشور: (فيه تهديدٌ لهم، وتَسليةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَطْمينٌ له بأنَّه غيرُ مَسؤولٍ عن عدَمِ اهتِدائِهم؛ لأنَّه إنَّما بُعِثَ داعيًا وهاديًا، وليس مَبعوثًا لإرغامِهم على الإيمانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٣).

وقال السمعاني: (قال بعضُهم: إنَّ الآيةَ منسوخةٌ، وهي قبْلَ نُزولِ آيةِ السَّيْفِ، نَسَخَتْها آيةُ السَّيفِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٨). ويُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٦).

﴿تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ * لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

أي: فذكِّرْ -يا محمَّدُ- بهذا القُرآنِ مَن يخافُ عذابي الَّذي توعَّدْتُ به مَن عَصاني[1].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مَدارُ السَّعادةِ وقُطبُ رَحاها على التَّصديقِ بالوَعيدِ، فإذا تعطَّلَ مِن قَلبه التَّصديقُ بالوَعيدِ خَرِبَ خَرابًا لا يُرجَى معه فَلاحٌ البتَّةَ، واللهُ تعالى أخبَرَ أنَّه إنَّما تَنفَعُ الآياتُ والنُّذُرُ لِمَن صَدَّق بالوَعيدِ، وخاف عذابَ الآخِرةِ، فهؤلاء هم المقصودونَ بالإنذارِ، والمُنتَفِعونَ بالآياتِ دونَ مَن عَداهم؛ قال اللهُ تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٣).

قال السعدي: (التَّذكيرُ هو: تذكيرُ ما تقرَّرَ في العُقولِ والفِطَرِ من محبَّةِ الخَيرِ، وإيثارِه وفِعْلِه، ومن بُغضِ الشَّرِّ ومُجانَبتِه، وإنَّما يتذكَّرُ بالتَّذكيرِ مَن يَخافُ وعيدَ اللهِ، وأمَّا مَن لم يخَفِ الوَعيدَ، ولم يُؤمِنْ به، فهذا فائِدةُ تذكيرِه: إقامةُ الحُجَّةِ عليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وقال: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾، وأخبرَ تعالى أنَّ أهلَ النَّجاةِ في الدُّنيا والآخرةِ هم المصَدِّقونَ بالوَعيدِ، الخائفونَ منه؛ فقال تعالى: ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[1] [إبراهيم: ١٤].

٢- تذكُّرُ الوَعدِ والوَعيدِ يُوجِبُ خَشيتَه والحَذَرَ منه، ولا تَنفَعُ الموعِظةُ إلَّا لِمَنْ آمَنَ به وخافَه ورَجاه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وأصرَحُ مِن ذلك قَولُه تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾؛ فالإيمانُ بالوَعدِ والوَعيدِ وذِكرُه: شَرطٌ في الانتِفاعِ بالعِظاتِ والآياتِ والعِبَرِ، يَستحيلُ حُصولُه بدُونِه[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ تدُلُّ على خُصوصِ التَّذكيرِ بالقُرآنِ بمَن يَخافُ وَعيدَ اللهِ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على عُمومِه، كقَولِه تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ [الغاشية: ٢١]، وقَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾ [طه: ١١٣].

الجوابُ: أنَّ التَّذكيرَ بالقُرآنِ عامٌّ، إلَّا أنَّه لَمَّا كان المُنتَفِعُ به هو مَن يَخافُ وَعيدَ اللهِ صار كأنَّه مُختَصٌّ به، كما أشار إليه قَولُه تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٦٤، ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٤٦).

تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[١] [الذاريات: ٥٥].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ * يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾

- قولُه: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [ق: ٣٩]؛ فالأمرُ بالاستِماعِ مُفرَّعٌ بالفاءِ الَّتي فُرِّعَ بها الأمْرُ بالصَّبرِ على ما يقولونَ، فهو لاحِقٌ بتَسليةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فلا يكونُ المَسموعُ إلَّا مِن نَوعِ ما فيه عِنايةٌ به وعقوبةٌ لِمُكذِّبيه[٢].

- وابتداءُ الكلامِ بقولِه: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ﴾ يُفيدُ توثيقًا إلى ما يَرِدُ بَعْدَه[٣].

- يَجوزُ حمْلُ الاستِماعِ على الإنصاتِ والإصغاءِ، وإذ كان المذكورُ عقِبَ فِعلِ السَّمْعِ لا يَصلُحُ لِأنْ يكونَ مَسموعًا -لأنَّ اليَومَ ليس ممَّا يُسمَعُ- تَعيَّنَ تَقديرُ مَفعولٍ لـ (اسْتَمِعْ) يدُلُّ عليه الكلامُ الَّذي بعْدَه، فيُقدَّرُ: استمِعْ نِداءَ المُنادي، أو استمِعْ خبَرَهم، أو استمِعِ الصَّيحةَ يومَ يُنادي المُنادي. ويجوزُ جعْلُ فِعلِ (اسْتَمِعْ) مُنزَّلًا مَنزِلةَ اللَّازِمِ، أي: كُنْ سامِعًا، فيَكونُ مَعنى الأمْرِ بالاستِماعِ تَخييلًا لصَيحةِ ذلك اليومِ في صُورةِ الحاصِلِ، بحيث يُؤمَرُ المخاطَبُ بالإصغاءِ إليها في الحالِ. أو يُحمَلُ (اسْتَمِعْ) على أنَّه بمَعنى: انتظِرْ؛ لأنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يُؤمَرْ بأنْ يَستمِعَ في يوم النِّداءِ؛ لأنَّ كلَّ مَن فيه يَستمِعُ، وإنَّما الآيةُ في معنى الوعيدِ للكفَّارِ، فقِيل لمحمَّدٍ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: تَحسَّسْ هذا اليومَ وارْتقِبْه؛ فإنَّ فيه تَبيُّنَ صِحَّةِ ما قُلْتُه.
أو المعنى: واستمِعْ لِمَا أُخبِرُك به مِن حالِ يومِ القيامةِ، وفي ذلك تَهويلٌ وتعظيمٌ لشأنِ المُخبَرِ به؛ لِمَا في الإبهامِ والتَّفسيرِ مِن التَّهْويلِ والتَّعظيمِ[(١)].

- وتعريفُ ﴿ٱلْمُنَادِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، أي: يومَ يُنادي المَلَكُ الَّذي يَنفُخُ النَّفْخةَ الثَّانيةَ، فتَتكوَّنُ الأجسادُ، وتحُلُّ فيها أرواحُ النَّاسِ للحَشرِ[(٢)].

- وتنْوينُ ﴿مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ للنَّوعيَّةِ؛ إذ لا يَتعلَّقُ الغرَضُ بتَعيينِه. ووصْفُه بـ﴿قَرِيبٍ﴾؛ للإشارةِ إلى سُرعةِ حُضورِ المُنادَينَ، وهو الَّذي فسَّرَتْه جُملةُ ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأنَّ المعروفَ أنَّ النِّداءَ مِن مكانٍ قريبٍ لا يَخفَى على السَّامِعينَ، بخِلافِ النِّداءِ مِن مكانٍ بعيدٍ[(٣)].

- و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بمعنى: بالصِّدقِ، وهو هنا الحَشرُ -على قولٍ-؛ وُصِفَ بالحقِّ إبطالًا لزعْمِ المشركينَ أنَّه اختِلاقٌ[(٤)].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ جيءَ به لتَهويلِ المشارِ إليه، وهو ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ فأُريدَ كَمالُ العِنايةِ بتَمْييزِه؛ لاختِصاصِه بهذا الخبَرِ العظيمِ، وكان مُقتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (هو يومُ الخُروجِ)[(٥)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ تَذييلٌ، أي: هذا الإحياءُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٩، ٣٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٣٠، ٣٣١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٣١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بعدَ أنْ أَمَتْناهم هو مِن شُؤونِنا؛ بأنَّا نُحييهم، ونُحيي غيرَهم، ونُميتُهم، ونُميتُ غيرَهم، والمقصودُ هو قولُه: ﴿وَنُمِيتُ﴾، وأمَّا قولُه: ﴿نُحْيِۦ﴾؛ فإنَّه لاستيفاءِ معنى تَصرُّفِ اللهِ تعالى في الخَلْقِ[١].

- وتَقديمُ ﴿وَإِلَيْنَا﴾ في ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾؛ للاهتِمامِ[٢].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ إمَّا تَعريفُ الجِنسِ، أي: كلُّ شَيءٍ صائرٌ إلى ما قدَّرْناه له، وأكبرُ ذلك هو ناموسُ الفَناءِ المكتوبِ على جَميعِ الأحياءِ، وإمَّا تَعريفُ العَهدِ، أي: المصيرُ المُتحدَّثُ عنه، وهو الموتُ؛ لأنَّ المصيرَ بعْدَ الموتِ إلى حُكمِ اللهِ تعالَى[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢]، أو بدَلُ اشتِمالٍ منها، مع ما في المُعادِ منها مِن تأْكيدٍ لِمُرادِفِه. أو استِئنافٌ يُفيدُ الاستِدلالَ على إمكانِ الحَشرِ، ووَصْفَ حالٍ مِن أحوالِه، وهو تَشقُّقُ الأرضِ عنهم، أي: عن أجسادٍ مَثيلةٍ لأجسادِهم، وعن الأجسادِ الَّتي لم يَلحَقْها الفَناءُ[٤].

- وتقدُّمُ الجارِّ المجرورِ ﴿عَلَيْنَا﴾ على الخَبرِ ﴿يَسِيرٌ﴾ يُفيدُ الاختِصاصَ، أي: هو يَسيرٌ في جانبِ قُدرتِنا، لا كما زَعَمَه نُفاةُ الحشرِ[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٢).

وَعِيدِ ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٩]؛ فهو إيغالٌ في تَسليةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَعريضٌ بوَعيدِهم وتَهديدِهم[١].

- وفي قَولِه: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ فُرِّع أمْرُه بالتَّذكيرِ على ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾؛ لأنَّه ناشئٌ عن نفْيِ كَونِه جبَّارًا عليهم، وهذا كقولِه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ولكنْ خَصَّ التَّذكيرَ هنا بالمؤمنينَ الَّذين يَخافونَ وعيدَ اللهِ تعالَى؛ لأنَّه أرادَ التَّذكيرَ الَّذي يَنفَعُ المُذَكَّرَ، ولأنَّ مَن لا يَخافُ الوعيدَ -لِكَونِه غيرَ مُصدِّقٍ بوُقوعِه- لا يَذَّكَّرُ؛ إذ لا تَنفَعُ فيه الذِّكرى، كما قال سُبحانَه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢] [الذاريات: ٥٥].

- وما أنسَبَ هذا الاختِتامَ بالافتِتاحِ، حيثُ جاءَ أوَّلُ هذه السُّورةِ وآخِرُها مُتناسِبَينِ ومُتقارِبَينِ في المعنَى، حيثُ قال في الأوَّلِ: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، وقال في آخِرِها: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾؛ فافتَتحَ بما اختَتمَ به[٣].

تمَّ بحَمدِ اللهِ المجلدُ الرَّابِعُ والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ الخامِسُ والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الذَّارياتِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٩) و(٢٨/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٤٤).







الفهرس







الفهرس

سُورةُ الحُجُراتِ

سُورةُ ق

تم الصف والإخراج في مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠